(سلسلة تقريب التراث الإسلامي إلى القارئ المعاصِر ١٣)

كتاب

التَّعازِي والْمَرَاثِي

لأبي العبَّاس محمَّد بنِ يزيدَ المبرِّد

(٢١٠ – ٢٨٦هـ)

خَدَمَه وعلَّق عليه

محمَّد علي أبو زَهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المبرِّد عالم فاضل موثوق في الرواية وفي غزارة الأدب
وكثرة الحفظ وحُسْن الإشارة وفصاحة اللِّسان وبراعة البيان

المحتويات

تمهيد ١٠
التعريف بالمبرِّد ١١
تلاميذه ١٢
شهرته ١٢
أقوال العلماء فيه ١٢
مؤلفاته ١٣
هذا الكتاب ١٤
بين المبرِّد والمدائني ١٧
تفرُّد المبرِّد ١٧
توضيح ١٩
عملي في هذا الكتاب ٢٠
بداية الكتاب ٢٢
المقدمة ٢٢
مرثية أراكة بن عبدالله ٢٦
باب من التعازي ٢٧
باب من الشعر ٣٩
مرثية متمم بن نويرة ٤٢
مرثية دريد بن الصمة ٤٩
مرثية أوس بن حجر ٥٨
باب من التعازي والمواعظ ٧٧
رجْع الشِّعر ١١٧

مرثية سليمان بن قتة ١١٨
مراثي الفرزدق ١٢٠
مرثية أبي نواس ١٢٢
مرثية حارثة بن بدر الغدانيّ ١٢٤
مرثية خُلَيْد عَيْنَين ١٢٥
مرثية جرير ١٢٧
مرثية بُكَيْر بْن مَعْدَانَ ١٢٨
مرثية معن بن أوس ١٣٢
مراثي الخنساء ١٣٧
رجْع الشِّعر ١٤٢
رجع إلى الشعر ١٥١
وصية أبي بكرٍ الصدِّيق رحمه الله ١٧٥
وصية عمر بن الخطاب رحمه الله ١٧٦
وصية عليٍّ بن أبي طالب رحمه الله ١٧٧
وصية معاوية بن أبي سفيان رحمه الله ١٧٨
وصية أبي عبيدة بن الجراح ١٨١
وصية معاذ بن جبل رحمه الله ١٨٢
وصية عبد الملك بن مروان رحمه الله ١٨٣
وصية أبي قيس بن صرمة الأنصاري رحمه الله ١٨٦
وصية أبي جهم بن حذيفة العدوي رحمه الله ١٨٦
وصية سعيد بن العاص رحمه الله ١٨٧
وصية عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ١٩٠

وصية هشام بن عبد الملك ١٩١
وصية الربيع بن خثيم ١٩٣
وصية جُندب بن عبد الله البَجَلي ١٩٣
وصية عمرَ بنِ هُبَيرة ١٩٤
وصية إبراهيمَ بنِ يزيدَ النَّخْعيِّ ١٩٥
وصية فتىً من الأعراب ١٩٥
وصية رجل من أبناء فارس ١٩٦
وصية المهلَّب بن أبي صُفْرة الأزدي ١٩٦
تعزية عطاء بن أبي صيفي ٢٠٥
تعزية شيبب بن شيبة ٢٠٦
صبر أبي بكر ٢١٢
صبر معاذ بن جبل ٢١٦
باب مَراثٍ من أشعار المحْدَثين ٢١٧
مرثية مُسْلِم بن الوليد ٢١٨
مرثية إبراهيم بن المهدي ٢١٩
مراثي أبي العتاهية ٢٢٢
مرثية رجلٍ من قيس ٢٢٣
مرثية عبد الله بن عمر العبلي ٢٢٥
مرثية أحد الأعرابِ الفصحاءِ ٢٢٩
مرثية امرأة من كِندة ٢٣٠
مراثي أبي عبد الرحمن العُتْبي ٢٣٢
مراثي محمد بن عبد الملك الزيات ٢٣٤

مراثي عبد الصمد بن المعذّل ٢٣٨
تعزية الحسن بن وهب ٢٤٨
مراثٍ أخرى لأبي عبد الرحمن العتبي ٢٥١
مرثية دعبل بن علي الخزاعي ٢٥٤
مرثية أشجع بن عمرو السُّلَمي ٢٥٥
باب مواعظ وتعازٍ وأشعار ٢٥٧
مرثية إسماعيل بن يسار ٢٥٧
صبر عبدالله بن الزبير ٢٦٠
تعزية إبراهيم بن أبي يحيى ٢٦٤
صبر الحَجَّاج ٢٦٨
صبر عَلِي بْن الْحُسَيْنِ ٢٧٥
صبر عليّ بن أبي طالبٍ ٢٧٥
أخبار الطاعون ٢٨٠
مرثية ابن شبل بن معبد البجلي ٢٨٥
وصية أخرى لأبي بكر ٢٩١
ثبات عمر بن الخطاب ٢٩٢
صبر الزبير ٢٩٤
صبر طلحة ٢٩٥
صبر عليّ ٢٩٥
صبر معاوية ٢٩٦
قالوا عند موتهم ٢٩٨
مرثية توسعة بن أبي عتبان ٣١٦

باب الجُفاة ٣١٨
أبو طالب ٣١٨
أبو جهل ٣١٩
عبدَ الله بنَ خازم ٣١٩
طريف بن نافع الباهلي ٣٢٠
بجرة بن فراس القشيري ٣٢١
همام بن قبيصة الفزاري ٣٢٢
زياد بن عمرو العقيلي ٣٢٣
مسلم بن عقبة المري ٣٢٥
لبيد ٣٢٩
الفرزدق ٣٢٩
الأحوص ٣٣٠
امرأة من بني نمير ٣٣٣
الحطيئة ٣٣٤
باب من تكلم في مرضه بشيء حُكي عنه ٣٤٥
مرثية عبدُ العزيز بن عبد الرحيم المطلبي ٣٥٠
مرثية أحمد بن محمد الخثعمي ٣٥٥
مرثية الربيع بن زياد العبسي ٣٥٧
حروب العرب ٣٦٠
مرثية أبي ناظرة السدوسي ٣٦١
مرثية عمرو بن الأسلع ٣٦٦
مراثي مهلهل ٣٦٦

مقتل كليب ٣٦٧
مرثية جليلة بنت مرة ٣٦٨
خبر بُجير: ٣٧٧
رجْعٌ إلى شعر مهلهل: ٣٧٨
مرثية عبد الله بن خليفة الطائي ٣٨٢
مرثية حسان بن ثابت ٣٨٣
مرثية محمد بن مُناذِر الصبيري ٣٨٥
مرثية منصور النمري ٣٩٠
مرثية رجل من غطفان في رسول الله ٣٩٢
الاستشفاع برسول الله في حياته ٣٩٤

تمهيد

"التَّعازي" أو ما يُقال لأهل الميِّت بغَرَض تسْليَتِهم ومُواساتِهم وإعانتِهم على الصبر، شِعْراً ونَثْراً[1] أحدُ فنون الأدب العربي قديماً. وأوَّلُ مَنْ ألَّف في هذا الفنِّ من كُتبِ التعازي المستقلَّة المدائنيُّ[2] المتوفَّى سنة ٢٢٥هـ، وقد أُعجِب المبرِّد به إعجاباً كبيراً ونَقَل عنه نقولاً كثيرةً.

ثم ألَّف المبرِّد كتابَه (الذي بين أيدينا) تخليداً لذكرى صديقِه القاضي إسماعيل بن إسحق الأزدي، قاضي القضاة ببغداد، سنة ٢٨٢هـ وهي سنة وفاةِ القاضي، واستغرق المبرِّد في إملائه سنةً وبضعةَ أشْهُر، إذ يقول في آخرِه: (وقد أتى للقاضي رحمه اللهُ أكثرَ مِنْ حَوْل)، فكان الفراغُ منه إذن سنةَ ٢٨٤هـ أي قبل وفاة المبرِّد بعامين.

---

[1] وغايتها تهدئة الخواطر، وتذكير أهل المصاب بالثواب على حسن اصطبارهم. يقول النويري: "إنَما جُعِلت تسلية لمن عضته النوائب بأنيابها، وفرقت الحوادث بين نفسه وأحبابها، وتأسية لمن سبق إلى هذا المصرع".

[2] أبو الحسن المدَائني (١٣٥ – ٢٢٥ هـ) علي بن محمد بن عبد الله، أبو الحسن المدائني، راوية مؤرخ، كثير التصانيف، من أهل البصرة. سكن المدائن، ثم انتقل إلى بغداد فلم يزل بها إلى أن توفي. أورد ابن النديم أسماء نيف ومئتي كتاب من مصنفاته في المغازي، والسيرة النبويّة، وأخبار النساء، وتاريخ الخلفاء، وتاريخ الوقائع والفتوح، والجاهليين، والشعراء، والبلدان. وبقي من كتبه: «المردفات من قريش» و«التعازي» وهو شيخ المبرد، وقد أكثر النقل عنه في كتابه (التعازي والمراثي).

إضافة إلى أن هناك في التعازي والمراثي فصولاً متفرقة في بعض كتب الأدب مثل: البيان والتبيين للجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والفاضل، والكامل للمبرِّد، والزهرة لابن داود الظاهري الأصبهاني، والرسائل للصاحب ابن عبَّاد، وغُرر البلاغة للصابئ هلال بن المحسن، والعِقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، والتذكرة لابن حمدون، ونهاية الأرَب للنُّوَيري. وغيرها من فصول التعازي والمراثي المنثورة في دواوين الأدب والشعر مثل: شروح الحماسة، والمفضَّليَّات، والأصمعيَّات.

التعريف بالمبرِّد

أبو العبَّاس محمَّدُ بنُ يزيدَ بنِ عبدِ الأكبرِ، المعروفُ بالمبرِّد[1]، ولد عام ٢١٠ هـ، وتوفي عام ٢٨٦ هـ، أحد العلماء الجهابذة في علوم البلاغة والنحو والنقد.

تلقَّى العلم في البصرة على يد عدد كبير من أعلام عصره في اللغة والأدب والنحو، منهم أبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان المازني الذي وصفه المبرِّد بأنه كان «أعلم الناس بالنحو بعد سيبويه»، كما تردد على الجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر، وسمع منه وروى عنه حتى عُدَّ من شيوخه، وأخذ عن

[1] قال ياقوت الحموي في معجم الأدباء: وإنما لقّب بالمبرد لأنه لما صنف المازنيّ «كتاب الألف واللام» سأله عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب، فقال له المازني: قم فأنت المبرّد – بكسر الراء – أي المثبِت للحق، فحرّفه الكوفيون وفتحوا الراء.

أبي حاتم السجستاني، وكان من كبار علماء عصره في اللغة والشعر والنحو، كما تلقى عن التَّوَّزي – أبي محمد عبد الله بن محمد – وكان من أعلم الناس بالشعر.

تلاميذه

تلقى عنه عدد كبير من الأدباء والأعلام، منهم: الزَّجَّاج والصولي ونفطويه النحوي وابن السرّاج والأخفش الأصغر وابن درستويه وأبو جعفر النحاس، وغيرهم. وكان الزجاج أكثر تلاميذ المبرِّد ملازمة له وأغزرهم رواية عنه، وهو أول تلميذ للمبرد في بغداد.

شهرته

بعد وفاة المازني صار المبرِّد زعيم النحويين بلا منازع، وإمام عصره في الأدب واللغة من بعد شيخه، واختصه كثير من أعيان البلاد لتأديب أبنائهم. وبالرغم من أنه عاصر تسعة من الخلفاء العباسيين إلا أنه لم يتصل إلا بواحد منهم فقط هو المتوكِّل.

أقوال العلماء فيه

وثقه العلماء وأصحاب الجرح والتعديل؛ فقال عنه الخطيب البغدادي: «كان عالماً فاضلاً موثوقاً في الرواية». وقال ابن كثير: «كان ثقة ثبتاً فيما ينقله».

وقال القفطي: «كان أبو العباس محمد بن يزيد من العلم وغزارة الأدب، وكثرة الحفظ، وحسن الإشارة، وفصاحة اللسان، وبراعة البيان، وملوكية المجالسة، وكرم العشرة، وبلاغة المكاتبة، وحلاوة المخاطبة، وجودة الخط، وصحة العزيمة، وقرب الإفهام، ووضوح الشرح، وعذوبة المنطق؛ على ما ليس عليه أحد ممن تقدمه أو تأخر عنه». وقال ياقوت الحموي: «كان إمام العربية، وشيخ أهل النحو ببغداد، وإليه انتهى علماؤها بعد الجرمي والمازني». وقال الزبيدي: «كان بارعًا في الأدب وكثرة الحفظ والفصاحة وجودة الخط».

ومدحه عدد من الشعراء، منهم البحتري الذي دعا إلى الاقتباس من أنوار علمه، كما مدحه ابن الرومي بقصيدة طويلة.

مؤلفاته

بالرغم من مكانة المبرِّد الأدبية والعلمية، وغزارة علمه واتساع معارفه، فإنه لم يصلنا من آثاره ومؤلفاته إلا عدد قليل، منها:

- **الكامل** في اللغة والأدب: وهو من الكتب الرائدة في فن الأدب، وقد طُبع مرات عديدة، وشرحه «سيد بن علي المرصفي» في ثمانية أجزاء كبيرة بعنوان «رغبة الآمل في شرح الكامل» - **الفاضل**: وهو كتاب مختصر يقوم على أسلوب الاختيارات، ويعتمد على الطرائف وحسن الاختيار. نشر بتحقيق

عبد العزيز الميمني – **المقتضب**: ويقع في ثلاثة أجزاء ضخمة، ويتناول كل موضوعات النحو والصرف بأسلوب واضح مدعَّم بالشواهد والأمثلة.

– **شرح لامية العرب – وما اتفق لفظه واختلف معناه** من القرآن المجيد – **والمذكر والمؤنث**.

هذا الكتاب

وموضوع كتاب المبرِّد هذا (التعازي والمراثي والوصايا) ظاهر في عنوانه، وهو أدب العزاء والرِّثاء[1]، ساق فيه المبرِّد مجموعة من عيون المراثي[2] والمواعظ، وخطباً وأقوالاً مأثورة لبعض من حضرهم الموت، ووصايا[3] متناقلة عن كثيرين مثل أبي بكر وعمر وعلي ومعاوية وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، واعتنى فيه بأخبارِ بعض من أصاب الموتُ أعزَّاءهم فتجلَّدوا أو جزعوا، والذين أوتوا الحكمةَ وحسْنَ الخطاب فعرفوا كيف يخففون من وطأة الحزن عن الذين

---

[1] قال المبرد في مطلع هذا الكتاب: وتعزيتُك الرجل تسليتُك إياه. والعزاء هو السلوّ وحسنُ الصبر على المصائب. وخير من المصيبة العوض منها والرضى بقضاء الله والتسليم لأمره تنجُّزاً لما وعد من حسن الثواب، وجعل للصابرين من الصلاة عليهم والرحمة.

[2] المراثي: جمع مَرثاة، وهي ما يُرْثَى به الميت من شِعر وغيره، ويغلب عليها الشعر. قال المبرد: والمراثي وأسبابُها باقية مع الناس أبداً، إذ كانت الفجائع لا تنقضي إلا بانقضاء المصائب، ولا يفنى ذلك إلا بفناء الأرض ومن عليها، ولا إله إلا الله الحي الذي لا يموت.

[3] من المؤلفات المستقلة في الوصايا كتاب المعمرون والوصايا لأبي حاتم السجستاني.

فجعهم الموت بمن يحبون. وكان من أبرز صفحات هذا الكتاب ما نقله المبرِّد من أقوال الذين كابدوا لحظة الاحتضار؛ مغادرين الدنيا ومقبلين على الآخرة؛ فجاءت أقوالهم في غاية التأثير والتأثر. كما نقل أقوالَ بعض الجُفاة القُساة الذين حضرتهم الوفاة أمثال أبي جهل، والحجَّاج، وغيرهما، وماذا قالوا عند احتضارهم، وعنون لذلك بـ: باب الجفاة عند الموت.

ولما أحس المبرِّد بأنه أطال في المراثي والتعازي وما بهما من المواعظ، وخشي على القارئ السآمة، ختم بباب قال فيه: ولكنا نشيِّع ما قد مضى من الأخبار بأخبار طريفة من هذا الباب، وأشعار ظريفة مختصرة، ينقطع الكلام عليها إن شاء الله وبه القوة.

هذا وكان من حسنات المبرد في هذا الكتاب أنه لخشية السآمة والملل على القارئ كان يبادل بين التعازي والمراثي والوصايا، يخرج من أحدها إلى الآخر ثم يعود إلى الأول وهكذا. وهذا منهج سار عليه في الكتاب كله ونبه عليه.

وقد أحسن المبرِّد ختامَ هذا الكتاب، ووفقه الله لذلك إذ قال: كنا أردْنا أن نمليَ أشعاراً من أشعار المحدَثين في ضروب من المراثي، فأشفقنا من أن يُستخَفَّ بهذا الكتاب، والمراثي لا تنقضي ما كان الناس؛ فأحببْنا أن نختمَه ونأخذَ في غيره، وأن يكون ما نختمُه به شريفاً بهياً، فاخترْنا له قصيدة

أنشدَناها الرياشيُّ لرجل من غطفان من بني عبد الله، كانت له صحبة، قُتل يوم جلولاء يقال له سالم، يرثي رسولَ صلى الله عليه وسلم[1].

ومما يجب ذكره أن المبرِّد ذكر في هذا الكتاب كثيراً مما كان قد ذكره في كتابه الشهير المعروف باسم "الكامل" وقد أشار هو نفسه إلى ذلك فقال: وقد كنا ذكرنا أشعاراً من أشعار المتقدمين، فقلنا نمليها على وجهها. ثم رجعت إلى أنها مجموعة في الكتاب الكامل على شرح جميع إعرابها ومعانيها، فإن رجعت معادةً، وهو يؤخذ من ثَمَّ.

وأخيراً لا يخفى ما يلزم لمن يكتب في أدب التعازي والمراثي من الحنكة والرقة، والقدرة على التأثر والتأثير، مواكبةً لقصائد الرثاء الخالدات الكبرى في الشعر العربي التي تمتح من هذا الْمَعين السيَّال. وقد أتيح للمبرد كثيرٌ من ذلك مما يراه القارئ في هذا الكتاب.

---

[1] وهي قصيدة:

أفاطم بكِّي ولا تسأمي لصبحك ما طلع الكوكبُ
فقد هُدّت الأرض لَمّا ثوى وأيّ البريّة لا ينكبُ

بين المبرِّد والمدائني

وكما أشرت – سابقاً – فإن المدائني هو أول من ألف كتاباً مستقلاً في التعازي النثرية، ونقل منها في كتابه[1] عيونها التي وردت على لسان الحكماء من عرب وعَجَم، وحُكَّام وأمراء ومشاهير، وعلى رأسهم الصحابة والتابعون والعلماء.

ولأهمية هذا الكتاب وسبْقِه، وكثرة ما ورد فيه من مراثي، كان مرجعاً للكتَّاب بعده يكثرون النقل منه والإحالة عليه، ومنهم المبرِّد الذي قيل إنه تتلمذ على مؤلفات المدائني ، وأكثر النقل منها، وبخاصة كتاب التعازي؛ وكان يشير إلى أستاذه بإكبار وتقدير، فيذكره باسمه كاملاً، وتارة يذكره بكنيته (قال أبو الحسن) وتارة يقول (قال المدائني) اكتفاءً بشهرته سواء بالكنية أو اللقب.

تفرُّد المبرِّد

ولئن كان المدائني أفاض في "التعازي" وساق أشهر ما قالته العرب فيها؛ فإن المبرِّد أبدع في "المراثي" وعيون الشعر من القصائد التي خلدتها كتب الأدب، فأورد من عيون مراثي الجاهليين والمحْدَثين على السواء. ولم يكتف المبرِّد بالنقل فقط بل كانت له تعليقات وتفسيرات وشروح تكشف عن رسوخ قدمه في اللغة والنقد. وكان كلما أورد باباً في التعازي أتبعه بذكر (باب من الشعر من

---

[1] كتاب التعازي: حققه إبراهيم صالح ونشرته دار البشائر الطبعة: الأولى ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م.

مَراثي الجاهليةِ المشهورة المستحْسَنة المستجادَة المقدَّمة) و(أشعارُ الجاهليةِ مَشْهورةٌ معروفةٌ، وإنما نُمْلِي منها العيون) و(هذه القصيدةُ أَمْلَيْناها بأسْرِها لأنها جَمَعتْ تقدُّم كلِّ بيت منها وكثرةَ المعاني والاختصار) و(هذه قصيدة اخترْنا منها أبياتاً نادِرةً كما شرطْنا في أوَّلِ الكتاب)، (ثمَّ نعودُ إنْ شاء اللهُ إلى الشِّعْر ونَصِلُه بمثلِ هذا).

كما كانت له في مواضع مختلفة من هذا الكتاب تعليقات تنم عن قَدْره وقُدْرته على فهم الشعر وإحسان الاختيار منه، فيقول عن الخنساء: (فمِمَّا قدَّمناه من شعرِها واستحسناه من تخلُّصها قولها...).

وقال عندما أورد مراثي المحْدَثين: (وقصدنا في وقتنا هذا لذكر مراث من أشعار المحدثين لننزل بها من خشونة أشعار القدماء إلى لطف المولَّدين لمشاكلة الدهر وملاحة القول لنمضي من ذلك شيئاً ثم نعود إلى أمرنا الأول إن شاء الله تعالى من أشعار قديمة ومواعظ حكيمة).

ولم يقتصر عمل المبرِّد على اختياراته الفريدة لعيون المراثي في تراثنا الشعري الكبير بل كانت له شروح وتفسيرات لغوية ونقدية تدل على علو كعبه ومكانته الكبيرة في هذا المضمار.

وتبقى فضيلة للمبرد على غيره في هذا الكتاب، بسبب كثرة حفظه ومروياته، بحيث أصبح مرجعاً لكثير ممن جمعوا أشعار الشعراء بعد عصر المبرِّد في دواوين

مستقلة، يعودون إليه ويروون عنه ولا يجدون مصدراً يصدرون منه يعودون إليه في عملهم سواه، فتجد كثيراً منهم ينص على أنه جمع هذا الشعر من رواية المبرِّد له. وقد تأكدت من هذا من خلال تتبعي وتوثيقي لهذه الأشعار ونسبتها إلى أصحابها فوجدت أن كثيراً منها كان من رواية المبرِّد، وجاء مَنْ بعده فنقلوها عنه. ومن ذلك مراثي الخنساء في أخيها صخر، ومراثي المهلهل في أخيه كليب.

توضيح

وجدتُ في مواطن كثيرة من هذا الكتاب تصريحات للمبرد يقول فيها: قال المدائني، أخبر المدائني، حدَّث المدائني... إلخ. وعند عودتي إلى "تعازي" المدائني لم أجد فيه هذه الأخبار، وتفسير ذلك أن هذه الأقوال كانت في كتب المدائني المفقودة وهي كثيرة[1]، أو مما سمعه المبرِّد من تلاميذ المدائني ومن مروياتهم عنه، كما قال في واحد من هذه المواطن: (وحدَّثنيه أبو عثمان المازني وحدَّث به أبو الحسن عن عبد الله بن مسلم). وهذه مناسبة لأن أوضح مسألة تتلمُذ المبرِّد على أبي الحسن المدائني، فقد بدا لي أن هذه التلمذة

[1] أورد ابن النديم أسماء نيف ومئتي كتاب من مصنفات المدائني في المغازي، والسيرة النبويّة، وأخبار النساء، وتاريخ الخلفاء، وتاريخ الوقائع والفتوح، والجاهليين، والشعراء، والبلدان، كلها مفقودة، وبقي من كتبه: «المردفات من قريش» و«التعازي» وهما مطبوعان.

كانت على كتب المدائني أكثرَ مما كانت على المدائني نفسِه، ذلك أن الفترة التي عاصر فيها التلميذ أستاذه كانت قصيرة جداً؛ فولادة المبرِّد كانت في ٢١٠هـ بينما كانت وفاة المدائني في ٢٢٥هـ، وهذا يعني أن المبرِّد كان صغيراً حين مات المدائني، ولو كان تتلمذ عليه مشافهةً لكان ذلك لفترة قصيرة، بدليل أن الذين صرحوا بأسماء شيوخ المبرِّد لم يذكروا فيهم المدائني.

عملي في هذا الكتاب

- اعتمدتُ نسخة "المكتبة الشاملة" في توثيق نص الكتاب، وهي نسخة موافقة للمطبوع، عن طبعة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، بتحقيق إبراهيم محمد حسن الجمل، ومراجعة محمود سالم.
- صحَّحتُ أخطاء المطبوعة، وذلك بالرجوع إلى الكتب التي نقلتْ عن المبرِّد، أو التي وردت فيها العبارات نفسها. وأشرت إلى الخطأ وتصويبه في هوامش هذا الكتاب.
- صنعتُ عناوين فرعية زيادة على عناوين المبرِّد.
- خرَّجتُ الأحاديث النبوية الشريفة من كتب الأحاديث، وإذا جاء الحديث مختصراً أوردتُ روايتَه كاملةً مع الشرح المبسط له.
- عزوتُ الأبيات الشعرية الواردة في الكتاب إلى أصحابها قدر الإمكان وشرحت ما يحتاج منها إلى شرح.

- عرَّفتُ بالأعلام الذين وردت أسماؤهم في الكتاب.
- أوضحتُ معاني الكلمات والألفاظ والعبارات التي تحتاج إلى بيان وشرح وتفسير، من خلال كتب اللغة والمعاجم.
- ضبطتُ الضروريَّ من ألفاظ الكتاب، تيسيراً على القارئ المعاصر ومساعدةً له في إقامة اللغة التراثية المروية في الكتاب.

وهو المنهج الذي التزمته وأخذت به نفسي فيما وفقني الله في إخراجه من كتب التراث، في المشروع الذي تبنَّيته وسميته (سلسلة تقريب التراث الإسلامي إلى القارئ المعاصر) وهذا هو الكتاب الثالث عشر بفضل الله في هذه السلسلة[1]. رضي الله عن أبي العباس المبرِّد، ونفعنا بعلمه، ورزقنا العمل به، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أبو زهرة

الكويت – مارس ٢٠٢٣م

---

[1] وقد سبقه لي اثنا عشر عملاً في الجمع والدراسة والاختصار هي: (محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني – الداء والدواء لابن القيم – أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي – النساء لابن قتيبة – بهجة المجالس لابن عبد البر – تهذيب تاريخ ابن خياط – مختصر زاد المعاد لابن القيم – قصة الإيمان منذ آدم حتى محمد – تحقيق العواصم من القواصم لابن العربي – حقوق آل البيت في مفهوم ابن تيمية – الشواهد الشعرية في معجم البلدان لياقوت الحموي – مختصر فضائل القرآن لأبي عبيد) إضافة إلى كتابين آخرين خارج السلسلة هما: علماء معاصرون نصروا الإسلام، وكتاب غرباء. وكلها كتب منشورة على مواقع نشر الكتب الإلكترونية مثل موقع: نور، وموقع فولة بوك (في صفحة: محمد علي أبو زهرة).

بداية الكتاب

المقدمة

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم

الحمدُ للهِ الذي يَرِثُ الأرضَ ومَنْ عليها، وهو خَيرُ الوارِثين، الذي كتب على عبادِه الفَناءَ، واستَأْثَرَ بالبَقاءِ، وصلَّى اللهُ على محمدٍ عبدِه ورسولِه، وعلى آلِه الطيبين الأخيارِ وسلَّم كثيراً.

قال أبو العبَّاسِ محمدُ بنُ يزيدَ الأزديُّ النحويُّ، المعروفُ بالمبرِّد رحمه اللهُ تعالى: دعانا إلى تأليفِ هذا الكتابِ واجتلابِ محاسِنِ مَنْ تكلَّمَ في أسبابِ الموتِ من المواعظِ والتعازي والمراثي على قدْرِ ما يحضُر، فإنَّا ابتدأناه عن غيرِ خَلْوةٍ بفِكْرٍ ولا تمييزٍ لكتُب، وإنما اقتضَبْناه اقتضاباً، ثقةً باللهِ وتوكلُّاً عليه، مصابُنا[1] برجُلٍ استخَفَّنا لذلكَ وبعثَنا عليه، وهو أبو إسحاقَ القاضي إسماعيلُ

[1] فاعل (دعانا) في بداية الكلام.

بنُ إسحاقَ بنِ إسماعيلَ بنِ حمادِ بنِ زيدِ بنِ دِرْهم[1]. وإنما نَسَبْناه[2] التماساً للتنويهِ باسمِ سَلَفِه الصالحين.

ولقد كان رحْمَةُ اللهِ عليه في أكثرِ الأمورِ أنجَعَ وأنفَعَ، ولو عُدَّ كاملٌ لا سَقْطةَ فيه لكان إيَّاه، لكنَّ اللهَ جلَّ ثناؤه جعلَ في المخلوقينَ النقْصَ، وجعلَهم ضعفاءَ، وحَكَم بأنهم لم يُؤتَوا من العلمِ إلا قليلاً[3]. ولقد كانت أنصباؤه[4] في ذلك القليلِ كالمحتوية على أكثره – رحمةُ الله عليه – مع ما جمع الله جل وعز فيه من حُكْم عادل، ورأْي فاصل، وأدبٍ بارع، ولبٍّ ناصع، وتصرُّفٍ في العلوم، وحلْمٍ يُرْبِي على الحُلوم.

---

[1] أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد بن درهم الأزدي البصري المالكي ، قاضي بغداد، وأحد رواة الحديث النبوي. قال عنه المبرد: «القاضي أعلم مني بالتصريف، وبلغ من العمر ما صار واحداً في عصره في علو الإسناد؛ لأن مولده كان سنة تسع وتسعين ومائة، فحمل الناس عنه من الحديث الحسن ما لم يُحمل عن كبير أحد». توفي فجأة في شهر ذي الحجة سنة ٢٨٢ هـ .

[2] يعني ذكرنا نسبه كاملاً. وقد كان صديقه، وموته المفاجئ بعثه على تأليف هذا الكتاب.

[3] مصداق ذلك قوله تعالى: (وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا).

[4] أنصباءُ: جمع نصِيبُ، وهو الحظُّ من كلّ شيء.

وفي اللهِ – تعالى ذكرُه – خَلَفٌ من كلِّ هالك، وعزاءٌ من كلِّ مُصيبة. وبرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأسوةُ والقدوةُ، وكلُّ خَطْبٍ – إذا ذُكِرَتْ وفاتُه[1] – صغيرٌ، وكلُّ رزْءٍ حقيرٌ؛ عليه رحمةُ اللهِ وبركاتُه.

ويُروَى عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رحمةُ اللهِ عليه من وجوهٍ، سمعْنا ذلك، وبعضُها يزيدُ على بعْض، أنه قال: لما تُوفي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تولَّى غسلَه العباسُ، وأنا، والفضْلُ[2]، فقال عليٌّ: فلَمْ أَرَهُ يَعْتَادُ فَاهُ فِي الْمَوْتِ مَا يَعْتَادُ أَفْوَاهَ الْمَوْتَى[3].

ثُمَّ لَمَّا فَرَغَ عَلِيٌّ مِنْ غُسْلِهِ وَأَدْرَجَهُ فِي أَكْفَانِهِ كَشَفَ الْإِزَارَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَطِبْتَ مَيِّتًا، انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ أَحَدٍ مِمَّنْ سِوَاكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْإِنباءِ، خُصِصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّيًا عَمَّنْ سِوَاكَ، وَعَمَمْتَ حَتَّى صَارَتِ الْمُصِيبَةُ فِيكَ سَوَاءً، وَلَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بالصَّبرِ ونَهيْتَ عن الجَزَعِ لأنفدْنا عليكَ الشؤونَ[4]، ولكنَّ ما لا يدفعُ كمدٌ وإدبارٌ محالفان، وهما داءُ الأجل، وقَلَّا لك. بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ وَاجْعَلْنَا مِنْ

---

[1] صلى الله عليه وسلم.

[2] انظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر.

[3] طاب حياً وميتاً بأبي هو وأمي والناس أجمعين.

[4] الدموع.

هَمِّكَ. ثُمَّ نَظَرَ إِلَى قَذَاةٍ فِي عَيْنِهِ فَلَقَطَهَا بِلِسَانِهِ، ثُمَّ رَدَّ الْإِزَارَ عَلَى وَجْهِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[1].

وقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: تَعَزّوا عَنْ موتاكُم بي[2].

وهذا كلامٌ تلقَّاه عنه المؤمنون ثم أدّوه إلى مَنْ بعدَهم من إخوانِهِمُ المؤمنين، فاحتَذَى هذا المثالَ يقيناً وإيماناً جماعةٌ كلُّهم سَلَكَه فاهتَدَى، ووصَفَه فأحسَنَ.

---

[1] السابق.

[2] لم أجده بهذا اللفظ، ووجدت: "إذا أصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها أعظم المصائب". رواه الدارمي في سننه، والطبراني في الكبير وغيرهما، قال الشيخ حسين أسد: إسناده صحيح، وهو مرسل. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

مرثية أراكة بن عبدالله

فمنهم أراكةُ بنُ عبدِ اللهِ الثَّقفيُّ[1]، فإنه أُصِيبَ بابْنٍ له فأسْرَفَ ابنُه الآخرُ عبدُ اللهِ في البُكاء على أخيه عمْروٍ، فوعظَه أبوهُ وعزَّاه فقال[2]:

وَقُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ إِذْ جَدَّ بَاكِيًا تَعَزَّ وَمَاءُ العَيْنِ مُنْهُمِرٌ يَجْرِي
لَعَمْرِي لَئِنْ أتبَعْتَ عَيْنَكَ مَا مَضَى بِهِ الدَّهْرُ أو سَاقَ الحِمَامُ إِلَى القَبْرِ
لتَسْتَنْفِدَنْ مَاءَ الشُّؤونِ بِأَسرِهِ وَلَو كُنْتَ تَمْرِيهنَّ مِنْ ثَبَجِ البَحْرِ

---

[1] في النسخة المحققة: عبدالله بن أراكة، والصواب أراكةُ بنُ عبدِ اللهِ. والتصويب من التعازي للمدائني وغيره، قال: كان عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب عاملاً لعلي رضوان الله عليه على اليمن، فخرج إلى عليّ، واستخلف على صنعاء عمرَو بنَ أراكة الثقفي؛ فقدم عليه بُسر بن أبي أرطاة، إذ سرحه معاوية، فقتل عمرَو بنَ أراكة. فجزع عليه أخوه عبدُ الله. فقال أبوه أراكة.... الأبيات. وفي هامش كتاب الغارات للثقفي: (أراكة بن عبد الله بن سفيان بن ثقيف: شاعر محسن، وهو القائل يخاطب ابنَه عبدَ الله لما قتل بسرُ بنُ أرطاة ابنَه الآخر عَمْراً، وكان عمرٌو على اليمن لعبيد الله بن العباس رضي الله عنهما: (لعمري لقد أردى ابن أرطاة فارساً * بصنعاء كالليث الهزبر أبي أَجْرِ... الأبيات). وفي موضع آخر من التعازي والمراثي حَكَى المبرِّدُ نفسه فقَالَ: رَوَى الرُّوَاةُ أَنَّ عبيدَ اللَّهِ بنَ عَبَّاسِ بن عَبْدِ المطَّلِب كَانَ وَالِيًا عَلَى اليَمَنْ مِنْ قِبَلِ عَلِيٍّ بن أَبِي طَالِبٍ فَشَخَص إِلَى عَلِيٍّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا)، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى اليَمَنِ عَمْرو بنَ أَرَاكَةَ الثَّقَفِيّ، فَوَجَّهَ مُعاوِيَةُ إِلَى اليَمَنِ وَنَوَاحِيْهَا بُسْرَ بْن أَرْطَاةَ العَامِرِيَّ، فَقَتَلَ عَمْرَو بْنَ أَرَاكَةَ، فَجَزِعَ عَلَيْهِ أَخُوْهُ عَبدُ اللَّهِ جَزَعًا عَظِيْمًا، فَقَالَ أَبُوْهُ... الأبيات. وعلى هذا يكون اسمه أراكة بن عبدالله، وليس عبدالله بن أراكة.

[2] انظر: التعازي للمدائني.

تَأَمَّلْ فإن كَانَ البُكا رَدَّ هَالِكًا علَى أحَدٍ فاجْهَدْ بُكاكَ عَلَى عَمْرِو
ولا تَبْكِ مَيْتاً بعدَ مَيْتٍ أَجَنَّهُ عَلِيٌّ وعبَّاسٌ وآلُ أبي بَكْرِ[1]

باب من التعازي

وهو أكثرُ ما تكلَّمَ فيه الناسُ، لأنه لم يَعْرَ[2] أحدٌ مِنْ مصيبةٍ بحَميمٍ، ذلك قضاءُ اللهِ على خلْقِه. فكلٌّ تكلَّمَ إمَّا مُتعزياً وإمَّا مُعزياً، وإما مُتصبِّراً مُحتسِباً.

قال أبو الحسَنِ المدائنيُّ[3]: كانتِ العربُ في الجاهليةِ وهم لا يَرْجُون ثواباً ولا يَخْشَون عِقاباً يَتَحاضُّون على الصبر، ويَعْرِفون فَضْلَه، ويُعيِّرون بالجَزَعِ أهلَه، إيثاراً للحَزْم وتزيُّناً بالحِلْم، وطَلَباً للمُروءة، وفِراراً منَ الاستكانةِ إلى حُسْنِ العَزاء، حتى إنْ كان الرجلُ منهم لَيَفْقِدَ حميَمه فلا يُعرَفُ ذلك فيه[4].

---

[1] سوف يعيد المبرد هذا الخبر والشعر معه مرة أخرى في هذا الكتاب.

[2] يعرى من الشيء: يخلو ويسلم ويتجرد منه. وعَرِيَ مِنَ العَيْبِ: سَلِمَ مِنْهُ.

[3] شيخ المبرِّد. سبقت ترجمته في المقدمة.

[4] انظر: التعازي للمدائني.

يُصَدِّقُ ذلك ما جاء في أشعارِهم، ونُثِي[1] من أخبارِهم. قال دُرَيدُ بنُ الصِّمَّة[2] في مرثيتِه أخاه عبدَ الله:

قَلِيْلُ التَّشَكِّي للمُصِيْبَاتِ حافِظٌ مِنَ اليَوْمِ أعْقَابَ الأحَادِيْثِ فِي غَدِ

صَبَا مَا صَبَا[3] حَتَّى إِذَا شَابَ رَأْسُهُ وَأَحْدَثَ حِلْمًا قَالَ لِلْبَاطِلِ ابْعُدِ

---

[1] نَثَا الْحَدِيثَ أَوِ الْخَبَرَ: حَدَّثَ بِهِ، أَشَاعَهُ، أَذَاعَهُ، كَشَفَهُ.

[2] دريد بن الصمة، شاعر عربي من قبيلة هوازن، عرف بأنهُ شجاع من صناديد العرب وهو من المعمَّرين في الجاهلية. كان سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم، وغزا نحو مائة غزوة لم يهزم في واحدة منها. وعاش حتى سقط حاجباه عن عينيه، وأدرك الإسلام، ولم يسلم، فقتل على دين الجاهلية في يوم حنين.

قَالَ العُلَمَاءُ بِالشِّعْرِ: قَوْلُ دُرَيْدُ هَذَا أشْعَر بَيْتٍ قَالَتْهُ العَرَبُ فِي المدْحِ.

[3] صَبَا فلانٌ: مال إلى اللهو.

قال أبو عُبيدةَ[1]: كان يونسُ بنُ حَبيب[2] يقولُ: هذا أشعرُ ما قيل في هذا الباب[3].

وقال أبو خِراشٍ الهُذَلي[4]:

تقولُ أَراهُ بعدَ عُروةَ لاهِياً وذلكَ رُزءٌ لو علمْتِ جَليلُ[5]

---

[1] أبو عُبَيدة مَعْمَر بن المثنّى (١١٠ – ٢٠٩ هـ): أديب، لغوي، إخباري، درس على يد أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة وعلى يونس بن حبيب، فصار أحد ثلاثة تعاصروا وتنافسوا فيما بينهم: هو، وأبو زيد، والأصمعي، وقد امتاز عنهما أبو عبيدة بمعرفة أيام العرب وأخبار العرب في الجاهلية، وقد صنف كتباً في أيام العرب وأخبارهم وأشعارهم في الجاهلية، وهو أول من صنف في غريب الحديث، وتوفي وله أكثر من مائتي كتاب، ومن أشهر تلاميذه أبو عبيد القاسم بن سلام، وعمر بن شبة، وأبو نواس الشاعر وغيرهم.

[2] يونس بن حبيب الضبي النحوي. أخذ عن حماد بن سلمة و أبي عمرو البصري والأخفش الأكبر. من تلامذته سيبويه وعلي بن حمزة الكسائي ويحيى بن زياد الفراء وأبو عبيدة معمر بن المثنى. من آثاره: «معاني القرآن»، و«اللغات»، و«النوادر»، و«الأمثال». توفي عن ثمان وثمانين سنة، سنة ١٨٢ هـ.

[3] يعني باب الفخر.

[4] أبو خراش الهذلي خويلدة بن مرّة: كان من مشاهير الصعاليك، وكان مظفراً في غزواته، والمشهور أنه ترك الصعلكة بعد إسلامه. ومات أبو خراش، في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، نهشته حية.

[5] وقبلهما كما في الاختيارين المفضليات والأصمعيات للأخفش الأصغر:

لعمري لقد راعت أميمة طلعتي وإن ثوائي عندها لقليلُ

فلا تحسَبي أنِّي تناسَيتُ عهدَهُ ولكنَّ صَبري يا أُميمَ جميلُ

وقال أبو ذُؤيبٍ[1]:

فإنِّي صَبَرْتُ النَّفْسَ بَعْدَ ابنِ عَنْبسٍ وقَدْ لَجَّ مِن ماءِ الشُّؤُونِ لَجُوجُ[2]

لِأُحْسَبَ جَلْداً أَو لِيُخْبَرَ شامِتٌ وللشَّرِّ، بَعْدَ القارِعاتِ فُرُوجُ[3]

وقال أَوْسُ بنُ حَجَر[4]:

أَيَّتُهَا النَّفْسُ أَجْمِلي جَزَعَا إِنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا[5]

---

[1] أبو ذؤيب الهذلي شاعر مخضرم جاهلي إسلامي، أسلم على عهد النبي إلا أنه لم يره.

[2] قَالَ الشَّارِح: لَجُوجٌ: اسمٌ، مثلُ سَعُوطٍ ووَجُورٍ، أَرادَ: وَقد لَجَّ دَمْعٌ لَجوجٌ.

[3] يَقُولُ: إِنِي صَبَرْتُ عَلَى رُزْئِي بِابْنِ عَنْبَسٍ لأُحْسَبَ جَلْداً أَو لِيُخْبَرَ شامتٌ بتَجَلُّدي فَيَنْكَسِرَ عَنِي.

[4] أوس بن حجر بن مالك الأسيّدي التميمي: (٢-٩٥ ق.هـ) من كبار شعراء تميم في الجاهلية، وكان زوج أم زهير بن أبي سلمى. كان كثير الأسفار، وأكثر إقامته عند عمرو بن هند في الحيرة. عمّر طويلاً (حوالي ٩٠ عاما).

[5] قال ابن دريد في الفوائد والأخبار: عن التَّوَّزي، قال: سمعت الأصمعيَّ يقول: لم يبتدئ أحدٌ من الشعراء مرثية أحسن من ابتداء مرثية أوس بن حجر:

أيتها النفس أجملي جزعا ... إن الذي تحذرين قد وقَعَا

إنّ الذي جَمَعَ السماحةَ والنَّجدَةَ ... والحَزْمَ والقوى جُمَعَا

الألمعيُّ الذي يظنُّ بكَ الظَّنَّ ... كأنْ قد رأى وقد سمعَا

وقال أبو ذؤيب[1]:

وَتَجَلُّدِي للشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ

والشيءُ يُذكَرُ بالشيء: يُروَى أنَّ الحسينَ بنَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رحمهما اللهُ دَخَلَ على مُعاويةَ وهو في عِلَّةٍ له غَليظة، فقال مُعاويةُ: ساندوني، ثم تمثَّل بهذا البيت:

وَتَجَلُّدِي للشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ أَنِّي لِرَيبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ

فسلَّمَ الحسينُ رحِمهُ اللُه ثم تمثَّل:

وإذا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَها أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ

فاستَظْرَفَ الجوابَ كوْنَ البيتينِ من قصيدةٍ واحدةٍ.

وقال عمرُو بنُ مَعدِي كَرِب[2]:

كَمْ مِنْ أَخٍ لِيَ صالِحٍ بَوَّأْتُهُ بِيَدَيَّ لَحْدا[3]

---

[1] من قصيدته الشهيرة التي مطلعها: أَمِنَ المَنُونِ وَرَيبِها تَتَوَجّعُ ... والدّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

[2] عمرو بن معديكرب الزبيدي المذحجي: أسلم وصحب النبي. وهو شاعر وفارس اشتهر بالشجاعة والفروسية حتى لُقِّبَ بفارس العرب، وكان له سيف اسمه الصمصامة، وقد شارك في معارك الفتح الإسلامي في عهد أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب في الشام والعراق وشهد معركة اليرموك والقادسية وكان أشد الناسِ قتالاً فيها.

[3] من قصيدته التي مطلعها: لَيْسَ الجَمال بمئزرٍ ... فَاعْلَم وَإِن رديت بردا

ما إنْ هلكْتُ لفقْدِهِ ليس البكاءُ يردُّ زَنْدا
أَلْبستُهُ أَثوابَهُ وخُلِقتُ يومَ خُلِقتُ جَلْدا

وقال حارثةُ بنُ بدرٍ الغدَاني[1]:

الصبرُ أجملُ والدُّنيا مفَجِّعةٌ مَنْ ذا الذي لم يُجَرَّعْ مَرَّةً حَزَنا؟

وما جاء في هذا أكثرُ من أنْ يؤتَى على غابِرِه.

وتَعزِيتُكَ الرجلَ تَسْليتُكَ إيَّاه.

والعَزاءُ هو السُّلُوُّ وحسْنُ الصَّبرِ على المصائب.

وخيرٌ من المصيبةِ العِوَضُ منها والرِّضا بقضاءِ اللهِ والتسليمُ لأمرِه؛ تَنَجُّزاً لِمَا وَعَدَ من حُسْنِ الثَّواب، وجَعَلَ للصابرينَ من الصَّلاةِ عليهم والرَّحمة؛ فإنه يقولُ تَبارَكَ وتَعالى: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ).

---

[1] حارثة بن بدر بن حصين التميمي الغداني: تابعي، من أهل البصرة، وقيل أدرك النبي صلى الله عليه وسلم، له أخبار في الفتوح، وقصة مع عُمر، ومع عليّ، وأخبار مع زياد وغيره، في دولة معاوية وولده، وأمِّر على قتال الخوارج في العراق فهزموه بنهر تيرا (من نواحي الأهواز) فلما أرهقوه دخل سفينة بمن معه فغرقت بهم.

وقال: (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ).

وقال تَبارَكَ اسمُه: (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) بقَولِ الاسترْجاعِ. خبَّر بذلك غيرُ واحدٍ من الفُقهاء.

ورَوَى أبو الحَسَنِ[1] عن الفَضلِ بنِ تَميمٍ قال: قيل للضَّحاكِ بنِ قيسٍ[2]: مَنْ قال عندَ المصيبةِ: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون كان ممن أَخَذَ بالتقوى وأدَّى الفرائضَ؟ فقال: نعمْ، أولئك عليهم صَلواتٌ من ربِّهم ورحمة[3].

قال الأصمعيُّ عن بعضِ العلماءِ: لو وُكِّلَ الناسُ بالجَزَعِ لَلَجؤوا إلى الصَّبْرِ[4].

---

[1] أبو الحسَنِ المدائنيُّ شيخ المبرد وأول من كتب في التعازي. ومن ههنا فإنه كلما ذكر المبرد أبا الحسن فإن المعني أبو الحسَنِ المدائنيُّ.

[2] الضحاك بن قيس الفهري القرشي، صحابي من صغار الصحابة وله أحاديث. كان جواداً، شهد فتح دمشق وسكنها ووليها بعد ما كان ولي الكوفة من قِبَل معاوية بن أبي سفيان. دعا لخلافة عبد الله بن الزبير بعد وفاة يزيد بن معاوية فقُتل سنة ٦٤ للهجرة في حرب خاضها ضد مروان بن الحكم بمرج راهط.

[3] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[4] انظر: سراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي.

ورُوي عن الحَسَنِ[1] أنه كان يقولُ: الحمدُ للهِ الذي أَجَرَنا على ما لا بدَّ لنا منه، وأثابَنا على ما لو كَلَّفَنا غيرَه لصِرْنا فيه إلى معْصِيَتِه[2].

قال الأصمعيُّ وأبو الحَسَنِ: جَزِعَ سُليمانُ بنُ عبدِ المَلِكِ على ابنِه أيوبَ فقال له رجلٌ من القُرَّاءِ[3]: يا أميرَ المؤمنينَ إنَّ امْرأً حدَّثَ نفسَه بالبقاءِ في الدُّنيا وظَنَّ أنه يَعْرَى مِنَ المصائبِ[4] فيها لغَيْرُ جيِّدِ الرأْيِ. فكان ذلكَ أوَّلَ ما تَسَلَّى به[5].

وكان عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضوانُ الله عليه يقولُ: عليكم بالصَّبْرِ، فإنَّ به يأخُذُ الحازِمُ وإليه يَعودُ الجازِعُ[6].

ورُوي عن أبي الحَسَنِ، عن أبي عمرِو بنِ المبارَكِ قال: دَخَلَ زيادُ بنُ عثمانَ بنِ زيادٍ[7] على سُليمانَ بنِ عبدِ المَلِكِ، وقد تُوفِّيَ ابنُه أيوبُ، فقال: يا أميرَ

---

[1] الحسن البصري التابعي الشهير.

[2] انظر: غريب الحديث للخطابي.

[3] القُرَّاءُ: المتعبِّدون النَّاسِكُون.

[4] يعني يسلم منها.

[5] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[6] السابق.

[7] زياد بن عثمان بن زياد: ويعرف بابن أبي سفيان النصري، روى عن عباد بن زياد، وعبد الرحمن بن أبي بكرة، وكان بدابق مع سليمان بن عبد الملك، وعزاه بابنه أيوب حين مات.

المؤمنينَ، إنَّ عبدَ الرحمنِ بنَ أبي بكرةَ[1] كان يقولُ: مَنْ أحبَّ البقاءَ فليوطِّنْ نفسَه على المصائبِ[2].

قال أبو الحَسَنِ عن عليِّ بنِ سُليمانَ عنِ الحَسَنِ: الخيرُ الذي لا شَرَّ فيه الشُّكرُ مع العافية، والصبْرُ عند المصيبة. فكَمْ من مُنعَمٍ عليه غيرُ شاكر، ومِنْ مُبتَلَى غيرُ صابر[3].

ومن أحْسنِ التعزية إبلاغٌ في إيجاز.

قال أبو الحَسَن[4]: ومِن أحْسَنِ ما سمعْنا في ذلك عن أبي الحَكَم الليثي عن شيبةَ بنِ نِصاحٍ[5] قال: لما قُبِض النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صَرَخَتْ أسماءُ بنتُ عُمَيسٍ[6]، فنادى منادٍ من ناحيةِ البيتِ، يَسْمعون حِسَّه ولا يَرَوْن شخصَه:

---

[1] عبد الرحمن بن أبي بكرة الثقفي، سمع أباه أبا بكرة نُفَيع بن الحارث، وعليًّا. وُلِدَ زَمَنَ عُمَرَ، وَكَانَ ثِقَةً، كَبِيْرَ القَدْرِ، مُقْرِئاً عَالِماً.

[2] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[3] انظر: السابق.

[4] انظر: السابق.

[5] شيبة بن نصاح أحد أئمة التابعين ومقرئ المدينة المنورة، مولى أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، وهو أحد شيوخ نافع بن أبي نعيم أحد القراء السبعة المشهورين.

[6] أسماء بنت عميس الخثعمية: صحابية كانت زوجة لجعفر بن أبي طالب ثم لأبي بكر الصديق ثم لعلي بن أبي طالب. هاجرت أسماء للحبشة ثم إلى يثرب، لذا فتُكنّى «صاحبة الهجرتين».

السلامُ عليكم أهلَ البيتِ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه، أَعَلى رسولِ اللهِ تَبْكون، أم على رسولِ اللهِ تَصْرُخون؟ فقالت أسماءُ: ما على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نبكي ولا على رسولِ اللهِ نصرُخ، ولكنْ على انقطاعِ الوحْي عنا. قال: ثم نادى الثانيةَ: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ). إنَّ في اللهِ عزاءً من كلِّ مُصيبة، وعِوَضاً من كلِّ مَرزِئة، ودَرَكاً من كلِّ فائت، وخَلَفاً من كلِّ هالِك. فبالله فثِقوا، وإيَّاه فارْجُوا. المحبورُ من حَبَرَه الثواب، والخائبُ من أمِن العِقاب[1].

قال أبو الحَسَنِ[2] عنِ الحَسَنِ بنِ دينارٍ[3] عن عليِّ بنِ زيدٍ عن أنسِ بنِ مالكٍ أن رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وضع إبراهيمَ[4] في حِجْره وهو يجودُ بنفسِه

---

[1] هذا واحد من الأحاديث التي تسمى (أحاديث تعزية الملائكة في رسول الله) وقد جمعها الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه "الإصابة في تمييز الصحابة" وذلك في كلامه عن الخضِر صاحب موسى عليه السلام. وقال إن إسنادها ضعيف أو ضعيف جداً أو موضوع. فمن شاء المزيد فليرجع إليه.

[2] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[3] الْحسن بن دِينَار أَبُو سعيد التَّمِيمِي الْبَصْرِيّ، وَقيل دِينَار زوج أمه وَإِنَّمَا هُوَ الْحسن بن وَاصل. يرفضون روايته ويجعلونه في الضعفاء والمتروكين.

[4] إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم، سماه باسم جده الخليل عليه السلام.

فقال: لولا أنَّ الماضي فَرَطُ[1] الباقي وأنَّ الآخِرَ لاحقٌ بالأولِ لحَزِنَّا عليك يا إبراهيم. ثم دَمِعَتْ عينُه فقال: تَدمَعُ الْعَيْنُ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ. وَإِنَّا بِكَ يا إبراهيمُ لَمَحْزُونُونَ[2].

قال أبو الحَسَن[3]: أُخْبِرنا عن مَسْلمةَ عن أبانَ عن أنسِ بنِ مالكٍ أن رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: لأَنْ أقدِّمَ فَرَطاً[4] أَحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ أَدَعَ مئةَ مُسْتَلْئِم[5].

وجاء عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنه قال: مَنْ عزَّى مُصاباً فله مثلُ أجرِهِ[6].

---

[1] سابقه إلى الجنة.

[2] قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في المطالب العالية: (٨٤٤) حديث الباب إسناده ضعيف؛ فيه ابن أبي ليلى وهو ضعيف. وقد أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف أيضًا (٣/ ٣٩٣).

[3] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[4] الفرط: الطفل الميت الذي يسبق أباه إلى الجنة.

[5] ذكره السيوطي في جامعه (١٨٢١٢) بلفظ: لأن أُقَدِّم سقطاً أحب إلى من مائة مستلئم. رواه أبو عبيد فى الغريب، والبيهقى فى شعب الإيمان عن حميد بن عبد الرحمن الحميرى مرسلاً. وعليه فإسناده فيه ضعف لهذا الإرسال. والمستلئم: أي الذي يلبس اللأمة، وهي أداة الحرب وعدَّته. يَعْنِي أَنَّ ثوْاب الفَرَط أَكثُر مِنْ ثوَاب كِبَارِ الْأَوْلَادِ؛ لِأَنَّ فِعْل الْكَبِيرِ يخصُّه أَجْرُهُ وثوابُه، وَإِنْ شَارَكه الْأَبُ فِي بَعْضِهِ، وَثَوَابَ الفَرَط موفَّرٌ عَلَى الأبِ.

[6] ضعف الألباني سنده، انظر: ضعيف الجامع الصغير وزيادته (٥٦٩٦).

قال أبو الحَسَنِ عن بعضِ أصحابِه قال: عزَّى أبو بكرٍ عُمَرَ على طفلٍ له، فقال: عوَّضَكَ اللهُ منه ما عوَّضَه مِنْك[1].

تفسيرُ هذا أنه يقال: إنَّ الطفلَ يُعوَّض مِنْ أبوَيْه الجَنَّة.

قال أبو الحَسَنِ[2] عنِ أبي بكرٍ[3] عن أبي المليح قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: قال اللهُ جلَّ ذكرُه: إذا أخذْتُ صَفيَّ عبدي فصَبَرَ لم أرْضَ له ثواباً دونَ الجنَّة[4].

---

[1] لم أعثر عليه في التعازي لأبي الحسن المدائني. وعبارة المبرد (عن بعض أصحابه) تعني أن الخبر ليس في تعازي وإنما رواه تلاميذه عنه. والخبر عند الزمخشري في ربيع الأبرار: عوضه الله منك ما هو خير منك وهو جوار الله، وعوضك منه ما هو خير منه وهو ثواب الله.

[2] في التعازي له.

[3] أبو بكر الهذلي: سلمة بن عبد الله، كان عالماً بأيام العرب وسيرها وأحد أصحاب الحديث. توفي سنة تسع وخمسين ومائة. لم يرضه يحي القطان. وقال ابن معين: ليش بشيء. وقال أحمد: ضعيف. وقال البخاري: ليس بالحافظ.

[4] أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: يقولُ اللَّهُ تَعالَى: ما لِعَبْدِي المؤْمِنِ عِندِي جَزاءٌ، إذا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِن أهْلِ الدُّنْيا ثُمَّ احْتَسَبَهُ، إلَّا الجَنَّةُ.

باب من الشعر

مَراثي الجاهليةِ المشهورةُ المستحْسَنةُ المستجادَةُ المقدَّمةُ مَعلومةٌ مَوسومة، منها قصيدةُ مُتَمِّم بنِ نُوَيرة[1] في أخيه مالكٍ، على أن سائرَ أشعارِه غيرُ مَذْموم، وإنْ تقدمتْهُنَّ العَيْنية التي أوَّلها:

لَعَمْرِي وما دَهْرِي بتأْبِينِ هَالِكٍ ولا جَزَعٍ مِمَّا أَصَابَ فأَوْجَعَا

ومنها قصيدةُ دُرَيدٍ[2] في أخيه عبدِ اللهِ التي أوَّلُها:

أَرَثَّ جَديدُ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ معْبدِ بعاقِبَةٍ وأخْلفَتْ كلَّ موْعِدِ

ومنها قصيدةُ كَعْبِ بنِ سعدٍ الغَنَوي[3] يرثي فيها أخاه[4]، وهي التي أوَّلها:

---

[1] متمِّم بن نُويرة: صحابي وشاعر وأحد أشراف قومه وفارس مشهود له، أخوه مالك بن نويرة الذي ولاه رسول الله صدقات قومه (بني يربوع)، وبعد وفاة الرسول امتنع مالك عن دفعها، ولما حارب أبو بكر مانعي الزكاة أرسل خالد بن الوليد إلى مالك بن نويرة فقتله خالد، فحزن عليه متمم ورثاه بهذه القصيدة.

[2] دريد بن الصمة. سبقت ترجمته.

[3] كعب بن سعد بن عمرو الغنوي: شاعر مخضرم مجيد وكان له أخ يدعى أبا المغوار قتل في حرب ذي قار، رثاه فصارت من المراثي المعدودة عند العرب واشتهر بها.

[4] أخوه أبو المغوار، وفيه يقول في هذه القصيدة:

وَدَاعٍ دَعَا: يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَى = فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

فَقُلْتُ ادْعُ أُخْرَى وَارْفَعِ الصَّوْتَ دَعْوَةً = لَعَلَّ أَبَا الْمِغْوَارِ مِنْكَ قَرِيبُ

تَقَوْلُ سُليمَى مَا لِجِسمِكَ شاحِباً كأنَّكَ يَحميكَ الشرابَ طبيبُ؟

ومنها قصيدةُ أعْشى باهِلة[1]، أبي قحافةَ، وهي التي أوَّلُها:

إنِّي أَتَتْني لِسانٌ مَا أُسَرُّ بها مِنْ عَلوَ لا عَجَبٌ منْهَا ولا سَخَرُ[2]

يُجِبْكَ كَمَا قَدْ كَانَ يَفْعَلُ إِنَّهُ = بِأَمْثَالِهَا رَحْبُ الذِّرَاعِ أَرِيبُ

[1] أعشى باهلة: عامر بن الحَرث، من ولد معن بن أعصر أبو باهلة وهي امرأة من همدان نسب إليها أولاد معن. شاعر جاهلي مجيد، أشهر شعره رائية له في رثاء أخيه لأمه (المنتشر بن وهب).

[2] قال المبرد في الكامل: وكانت العرب تقدم مراثي وتفضلها، وترى قائلها بها فوق كل مؤبن، وكأنهم يرون ما بعدها من المراثي منها أخذت، وفي كنفها تصلح. فمنها قصيدة أعشى باهلة، ويكنى أبا قحافة، التي يرثي بها (أخاه لأمه) المنتشر بن وهب الباهلي، وكان أحد رَجِليي العرب، وهم السعاة السابقون في سعيهم. وكان من خبره أنه أسر صلاءة بن العنبر الحارثي، فقال: افتد نفسك. فأبى، فقال: لأقطعنك أنملة أنملة، وعضواً عضواً ما لم تفتد نفسك؛ فجعل يفعل ذلك به حتى قتله، ثم حج من بعد ذلك المنتشر ذا الخُلَصة، وهو بيت كانت خثعم تحجه، زعم أبو عبيدة أنه بالعبلات، وأنه مسجد جامعها، فدلت عليه بنو نفيل بن عمرو بن كلاب الحارثيين؛ فقبضوا عليه، فقالوا: لنفعلن بك كما فعلت بصلاءة. ففعلوا ذلك به، فلقي راكبٌ أعشى باهلة، فقال له أعشى باهلة: هل من جائبة خبر؟ قال: نعم، أسرت بنو الحارث المنتشر، وكانت بنو الحارث تسمي المنتشر مجدعاً، فلما صار في أيديهم قالوا: لنقطعنك كما فعلت بصلاءة، فقال أعشى باهلة يرثي المنتشر:

إنّي أَتَتني لِسانٌ مَا أُسَرُّ بها... من عُلوَ لا عَجَبٌ منْهَا ولا سَخَرُ

ومَراثي الخَنْساءِ[1] ومَراثي لَيْلَى الأخْيَليَّةِ[2]، وسنذكُرُ من ذلك طَرَفاً، ومِنْ مَراثي أوسِ بنِ حَجَرٍ في فُضالةَ بنِ كَلَدَة الأسَدي، ومَراثي لَبِيدٍ في أخيه أرْبَد، وعَدِيّ المهلهِل[3] فيمن بكاه من قومِه، اختياراتٍ بارعة، ونُنبِّه على ما فيها ولمن اختيرتْ، ثم ننحَطُّ إلى شِعْرِ الإسلامِ مِنْ قديمٍ ومُحدَث وما بينهما إن شاء اللهُ. ونفصلُ ذلك بالمواعظِ كلاماً وشِعراً، والتَّعازي على ما يحضُرُ ونُوَفَّقُ له إنْ شاء الله.

---

[1] تَماضُر بنت عُمَرُو بن الْحَارِث السَّلَمِيَّة، الشهيرة بالْخَنْسَاء (٢٤ – ٧٠ هـ): صحابية وشاعرة، أدركت الجاهلية والإسلام وأسلمت، واشتهرت برثائها لأخويها صخر ومعاوية اللذين قتلا في الجاهلية، ولُقبت بالخنساء بسبب ارتفاع أرنبتي أنفها.

[2] ليلى الأخيلية (ت ٨٠ هـ): شاعرة عربية عرفت بجمالها وقوة شخصيتها وفصاحتها عاصرت صدر الإسلام والعصر الأموي وعرفت بعشقها المتبادل مع توبة بن الحمير.

[3] الشهير بالزير سالم أخي كُليب. سيذكر المبرد قصته كاملة في آخر الكتاب.

مرثية متمم بن نويرة

فمِمَّا اخترْنا من قصيدةِ مُتَمِّم، وكان الذي تولَّى قتلَ أخيه بأمرِ خالدِ بنِ الوليدِ بنِ المغيرةِ ضِرارُ بنُ الأَزْوَرِ الأسَديُّ[1]، وحدثنا التَّوَّزِي[2] في إسنادٍ أن ضِراراً هذا أتى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليُسْلِمَ ففَعَلَ وقال:

تَرَكْتُ الخمورَ وضربَ القِدا ... حِ واللهوَ تَصْلِيَةً وَابْتِهَالا

وَكَرِّي الْمُحَبَّرَ[3] فِي غَمْرَةٍ ... وَحَمْلِي عَلَى الْمُسْلِمِينَ[4] الْقِتَالَا

---

[1] الصحابي الجليل ضرار بن الأزور الأسدي: أسلم بعد الفتح، وقد كان لهُ مالٌ كثيرٌ، قيل إن له ألف بعير برعتها، فترك جميع ذلك، وأقبل على الإسلام بحماسة ووفاء، فقال له النبي ربح البيع. كان فارساً شجاعاً، شاعراً، ومن المحاربين الأشداء الأقوياء ومحيي المعارك، ويقول البعض إن ذكر اسمه كان كافياً ليدُب الرعب في قلوب الأعداء، وله مكانة عند النبي حيث كان يثق به، فيرسله إلى بعض القبائل فيما يتصل بشؤونهم.

[2] عبد الله بن محمد التَّوَّزِي (؟ – ٢٣٨هـ): أديب ونحوي من القرن الثالث الهجري، ومن أكبر علماء المدرسة البصرية في النَّحو. أصلُه من بلدة تَوَّز في فارس، وهو مولى قبيلة قريش، لذا يُسمَّى أحياناً أبو محمد القُرَشِي. كان إلى جانب علمه بالنَّحو مُتَبَحّراً في الآداب، أخذ اللغة والأدب عن أبي عبيدة معمر بن المثنى وعبد الملك الأصمعي. وكان شديد الاهتمام بالشعر، حتى قال فيه المبرد: «ما رأيت أحداً أعلم بالشعر من أبي محمد التوزي، كان أعلم من الرياشي، وكان أكثرهم رواية عن أبي عبيدة معمر بن المثنى».

[3] فرسُ ضرارٍ.

[4] في الأصل: المشركين، وهو خطأ يفسد المعنى. والتصويب مني.

فَيَا رَبِّ لَا أُغْبَنَنْ بَيْعَتِي فَقَدْ بِعْتُ أَهْلِي وَمَالِي بدَالَا

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا غُبِنَتْ بَيْعَتُكَ، يَا ضِرَارُ»[1].

ثم نرجِعُ إلى اختيارِنا من العَيْنِية[2]، ففيها مِنْ حُرِّ الكلامِ وصادقِ الْمَدْح قولُه:

إذا ابْتَدَرَ القومُ القِداحَ وأوقِدَتْ لهم نارُ أَيْسارٍ كَفَى مَنْ تَضَجَّعا

بِمَثْنى الأيادي ثم لم يُلْفَ مَالِكٌ على الفَرْثِ يَحْمي اللَّحْمَ أنْ يُتَمَزَّعا

وقولُه:

وكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً مِن الدَّهرِ حتى قيلَ لنْ يَتَصَدَّعَا

وَعِشْنَا بِخَيْرٍ في الحياةِ وَقَبْلَنَا أصابَ الْمَنَايَا رَهْطَ كِسْرَى وَتُبَّعَا

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكًا لِطُولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

وفيها مما يُختار:

أَقولُ وقدْ طارَ السَّنَا في رَبَابِهِ وَغَيْثٌ يَسُحُّ الماءَ حتى تَرَيَّعَا

سَقَى اللهُ أَرْضًا حَلَّها قَبْرُ مَالِكٍ ذِهَابَ الغَوَادِي الْمُدْجِنَاتِ فَأَمْرَعَا

وآثَرَ بَطْنَ الوَادِيَيْنِ بِدِيْمَةٍ تُرَشِّحُ وَسْمِيًّا مِن النَّبْتِ خِرْوعَا

تَحَيَّتُهُ مِنِّي وَإِنْ كانَ نَائِيًا وأمسى تُرَابًا فَوْقَهُ الأَرْضُ بَلْقَعَا

---

[1] انظر: المعجم الكبير للطبراني.

[2] المشار إليها سابقاً وهي مرثية متمِّم في أخيه مالك بن نويرة.

فَما وَجْدُ أَظْآرٍ ثَلاثٍ رَوَائِمٍ رَأَيْنَ مَجَرًّا مِن فصيلٍ وَمَصْرَعَا
يُذَكِّرْنَ ذا الوَجْدِ القديمِ بوَجْدِهِ إذا حَنَّتِ الأُولى سَجَعْنَ لَهَا مَعَا
بَأَوْجَدَ مِنِّي يومَ فارقتُ مالِكاً ونادَى به النَّاعي السَّميعُ فأَسْمَعا

يريد بالسَّميع: المسمِّع.

ومما يُسْتَحْسَنُ مِنْ شِعْرِهِ فيه:

كُهولٌ ومُردٌ مِنْ بَني عَمِّ مالِكٍ وأيفاعُ صَدْقٍ لو تملَّيتُهمْ رِضَى
سُقُوا بالعُقارِ الصِّرفِ حتَّى تتابَعوا كدأْبِ ثمودٍ إذ رَغا سَقْبُهُمْ ضُحَى
إذا القومُ قالوا: مَنْ فَتىً لعَظيمةٍ؟ فما كلُّهمْ يُعنَى ولكنَّه الفَتَى

وهذا يشبهُ قول طَرَفَةَ:

إذا القومُ قالوا: مَنْ فتىً؟ خِلْتُ أنَّني عُنِيتُ فلمْ أَكْسَلْ ولم أتبلَّدِ

ومن ذلك قولُه في أخرى[1]:

وكلُّ فتىً في النَّاسِ بعدَ ابنِ أمِّهِ كساقطةٍ إحدى يَدَيْهِ مِنَ الخَبْلِ
وبعضُ الرِّجالِ نَخْلَةٌ لا جَنَى لها ولا ظِلَّ إلا أنْ تُعَدَّ مِنَ النَخْلِ

[1] من قصيدته التي يقول فيها: لَئِنْ مالِكٌ خَلّى عليَّ مكانَهُ لنِعْمَ فتى العَزّاءِ والزمنِ المحْلِ

وهذا من جيدِ الكلامِ لصحَّةِ معناه، ولأنه وافق حَقّاً. قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: النَّاسُ كإبلٍ مائةٍ، لا تَكادُ تجِدُ فيها راحِلةً[1].

وقد قال الآخَرُ[2] لشَجَراتٍ ضَرَبَ بهنَّ مَثَلاً:

إذا لم يكنْ فيكنَّ ظِلٌّ ولا جَنىً فأبعدَكُنَّ اللهُ مِنْ شَجَراتِ

والرَّجلُ – رحِمَه اللهُ – الذي أنشأْنا هذا الكتابَ بسببِه، ومِنْ أجْلِ وفاتِه[3]، نأمنُ أنْ يَلْحَقَ وصْفَنَا إيَّاه تزيُّدٌ أو تكلُّفٌ؛ لإجماعِ العامَّةِ فيه على قولِ الخاصَّة.

---

[1] رواه البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر. ومعناه: النَّاسُ في أحوالهم مَذاهِبُ ومَشارِبُ، ويختَلِفون اختلافًا ظاهِرًا في التزامِهم وتطبيقِهم لأحكامِ الدِّينِ. كالإبلِ المائةِ التي لا تَكادُ تَجِدُ فيها راحلةً، وهي الجَمَلُ النجيبُ الذي يَصلُحُ لسَيرِ الأسفارِ ولحَملِ الأثقالِ.

[2] قال ابن هشام اللخمي في المدخل إلى تقويم اللسان: هو لجَعْثَنَةَ البكّاء، وكانَ حِيفَ عليه في خَرْصِ نَخْلٍ، فقالَ:

إذا كانَ هذا الخَرْصُ فيكُنَّ دائِبًا ... فأَخْبِثْ بما مُلِّكْتُ مِن نَخَلاتِ

إذا لم يكن فيكنَّ ظِلٌّ ولا جَنًى ... فأبعدَكُنَّ اللهُ مِنْ شَجَراتِ

[3] هو صديقه القاضي إسماعيل بن إسحاق الذي من أجله وضع المبرد هذا الكتاب. وجاء ذكره في المقدمة.

فكأنه شيءٌ وقَعَ إلهاماً، وكأنَّ مادِحَه يَسْتملي مدْحَه من قولِ القائل[1]:

جَلَّتْ مُصِيبَتُهُ فَعَمَّ مُصابُهُ فَالنَّاسُ فِيهِ كُلُّهُمْ مَأْجُورُ
والنَّاسُ مأتمُهُمْ عليه واحدٌ في كلِّ دارٍ رَنَّةٌ وزَفِيرُ
تجري عليكَ دُموعُ مَنْ لمْ تُولِهِ خيراً لأنَّكَ بالثّناءِ جَديرُ

ويُشاكِلُ هذا المعنى قولُ عُمارةَ بنِ عقيلٍ لخالدِ بنِ يزيدِ بنِ مَزْيد[2]:

أرى النَّاسَ طُرّاً حامدينَ لخالدٍ وما كلَّهمْ أفضتْ إليه صنائعُهْ

(قال: النصْبُ في كلِّهم أحبُّ إليَّ، والرفعُ جيدٌ).

ولنْ يَترِكَ الأقوامُ أنْ يَحمَدوا الفَتى إذا كَرُمَتْ أعراقُهُ وطبائعُهْ
فتىً أمعنَتْ ضرَّاؤهُ في عَدوِّهِ وخصَّتْ وعمَّتْ في الصَّديقِ مَنافِعُهْ

وإنْ سَلِمَ أحدٌ مِنْ أن يكونَ له عدوٌّ فإسماعيلُ بنُ إسحاقَ القاضي رحمةُ اللهِ عليه[3] ذلك الرَّجُل. ولكن مَنْ سَلِمَ مِنْ أنْ يُعادى لجنايةٍ فغيرُ سالِمٍ مِنْ حاسدٍ باغٍ.

---

[1] قال المبرد في الكامل في نسبة هذه الأبيات: والشعر لرجل من خزاعة يرثي عمر بن عبد العزيز، وقال أبو الحسن: والذي صح عندنا أن الشعر لقطرب النحوي.

[2] انظر: الكامل للمبرد.

[3] صديق المبرد الذي من أجله وضع هذا الكتاب.

وحدثني الرِّياشيُّ[1] قال: حدَّثني محمدُ بنُ عبدِ اللهِ الأنصاريُّ[2] في إسنادٍ قال: صَلَّى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ صَلاةَ الصُّبْحِ يَوْمًا، فَلَمَّا انْفَتَلَ قَامَ مُتَمِّمُ بْنُ نُوَيْرَةَ فِي آخِرِ النَّاسِ وَكَانَ رَجُلًا أَعْوَرَ دَمِيمًا، فَاتَّكَأَ عَلَى قَوْسِهِ، ثُمَّ قَالَ:

نِعْمَ الْقَتِيلُ إِذَا الرِّيَاحُ تَنَاوَحَتْ خَلْفَ الْبُيُوتِ قَتَلْتَ يَابْنَ الأَزْوَرِ
أَدَعَوْتَهُ بِاللهِ ثُمَّ غَدَرْتَهُ لَوْ هُو دَعَاكَ بِذِمَّةٍ لَمْ يَغْدِرِ

وَأَوْمَأَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَاللهِ! مَا دَعَوْتُهُ وَلا غَدَرْتُ بِهِ. ثُمَّ اتَّكَأَ عَلَى سِيَّةِ قَوْسِهِ حَتَّى دَمَعَتْ عَيْنُهُ الْعَوْرَاءُ، ثُمَّ أَتَمَّ شِعْرَهُ يَقُولُ:

لا يُمْسِكُ الْعَوْرَاءَ تَحْتَ ثِيَابِهِ حُلْوٌ شَمَائِلُهُ عَفِيفُ الْمِئْزَرِ
وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ كُنْتَ وَحَاسِرًا وَلَنِعْمَ مَأْوَى الطَّارِقِ الْمُتَنَوِّرِ

---

[1] أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي (ت ٢٥٧هـ) من كبار النحاة وأهل اللغة، راوية للشعر وعالم بأيام العرب.

[2] محمد بن عبد الله بن المثنى بن أنس بن مالك الأنصاري القاضي، ولد سنة ثماني عشرة ومائة، وثّقه ابن معين وغيره. ومات في رجب سنة خمس عشرة ومائتين.

فَقَامَ إِلَيْهِ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَالَ: لَوَدِدْتُ أَنَّكَ رَثَيْتَ أَخِي بِمَا رَثَيْتَ أَخَاكَ. فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا حَفْصٍ! لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَخِي حَيْثُ صَارَ أَخُوكَ مَا رَثَيْتُهُ. يَقُولُ: إِنَّ أَخَاكَ قُتِلَ شَهِيدًا. فَقَالَ عُمَرُ: مَا عَزَّانِي أَحَدٌ بِمِثْلِ تَعْزِيَتِكَ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّهُ رَثَى زَيْدَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَلَمْ يُجِدْ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَمْ أَرَكَ رَثَيْتَ زَيْدًا كَمَا رَثَيْتَ أَخَاكَ مَالِكًا، فَقَالَ: إِنَّهُ وَاللهِ يُحَرِّكُنِي لِمَالِكٍ مَا لا يُحَرِّكُنِي لِزَيْدٍ.

وقَالَ لَهُ عُمَرُ يَوْمًا: إِنَّكَ لَجَزْلٌ؛ فَأَيْنَ كَانَ أَخُوكَ مِنْكَ؟ فَقَالَ: كَانَ وَاللهِ أَخِي فِي اللَّيْلَةِ ذَاتِ الأَزِيزِ وَالصُّرَادِ، يركبُ الْجَمَلَ الثَّفَالَ بَيْنَ الْمَزَادَتَيْنِ، ويجتنِبُ الفرسَ الحَزَوَّر[1]، وَعَلَيْهِ الشَّمْلَةُ الْفَلُوتُ[2]، وَفِي يَدِهِ الرُّمْحُ الثَّقِيلُ؛ حَتَّى يُصْبِحَ مُتَهَلِّلاً، وَلَقَدْ أُسِرْتُ مَرَّةً فِي بعضِ أحياءِ العرب؛ فَمكثْتُ فِيهِمْ سَنَةً أحدِّثُهم وأُغَنِّيهِمْ، فَمَا أَطْلَقُونِي، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ السَّنَةِ؛ وَقَفَ عَلَيْهِمْ مَالِكٌ فِي شَهْرٍ مِنْ أَشْهُرِ الْحُرُمِ، فَحَادَثَهُمْ سَاعَةً، ثُمَّ اسْتَوْهَبَنِي مِنْهُمْ وَهُمْ لا يَعْرِفُونَهُ، فَوَهَبُونِي لَهُ، فَعَلِمْتُ أَنَّ سَاعَةً مِنْ مَالِكٍ أَكْثَرُ مِنْ حَوْلٍ مِنِّي[3].

---

[1] الحَزَوَّر: القويّ.

[2] الفَلُوتُ من الثِّياب أَو الأكسية: ما لا يَثبُتُ على لابسه لِلينه.

[3] انظر: الكامل للمبرد.

مرثية دريد بن الصمة

قال: وأمَّا مرثيَّةُ دُرَيدِ بنِ الصِّمَّة فكان الأصمعيُّ يقدِّمها جِداً، وهي أهلُ ذاكَ. وكان سببَ هذه المرثيَّة أنَّ أخاه عبدَ الله بنَ الصِّمة أحدَ بني جُشَم بن بَكْر بن هَوازن، غزا قبائلَ غَطَفانَ بنِ سعدِ بنِ قيسِ بنِ مُرَّة، وفَزارةَ[1] وأشْجَعَ وعَبْس بنِ بغيض[2]. فاكتَسَح أموالَهم وانصرفَ، فلم يجاوِز بعيداً حتى أناخ وأَمَر بالإبلِ تُنْحَر، فقال له أخوه دُريد: يا أبا قُرعان، إن غطفانَ غيرُ نائمة عن أموالِها فتقدَّمْ شيئاً ثم أنِخْ. فقال: لا واللهِ لا أَرِيم[3] حتى آخذَ مِرباعي[4] وأنتَقِعَ نَقِيعَتي[5]، فأَمَر بالإبلِ فنُحِرت، وأَجْلسُوا رَبِيئَتَهم[6] فلمَّا سَطَعَتِ الدَّواخِنُ قال له الرَّبيئةُ: إني أَرَى غَبْرَةً قد ارتفَعَتْ أكثرَ من هذه الدَّواخن. قالوا: فتأمَّلْ ماذا تَرَى! قال: أَرَى قوماً على خيلِهم كأنهم الصِّبيان. قالوا:

---

[1] في النسخة المحققة: فزازة، بتكرار الزاي، وهو خطأ واضح.

[2] بنو عبس: بطن من بطون قبيلة غطفان الثلاثة وهي عبس وأشجع وذبيان، وينسبون إلى عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان، أسلموا زمن النبي وتفرقوا بعد الفتوحات الإسلامية في البلاد.

[3] لا أريم: لا أبرح مكاني.

[4] المِرْبَاعُ: رُبْعُ الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية. وفي الحديث: في قول النبي (صَلى الله عليه وسلم) لعَدِي بن حاتم قبل إسلامه: إنك لتأكل المرباع، وهو لا يحل لك في دينك.

[5] النقيعة: ناقة تُنحر وسط الإبل، ثم يقسمها الرئيس على أصحابه.

[6] الرَبِيئة: طليعة من الجيش يرقب العدوَّ من مكان عالٍ لئلّاَ يدهَمَ قومَه.

هذه فزارةُ، لا بأسَ، فتأمَّلْ! قال: أرى قوماً كأنهم غُمِسوا في الجَأب[1]، فقالوا: تلك أشجعُ ولا بأسَ، تأمَّلْ! قال: أرى قوماً كأنما يتقلَّعون[2] من صَخْر، يقلعون دوابَّهم بسوادهم[3]. قالوا: تلك عبْس والموت. فلم ينشَبوا أن التقى القومُ فاقتتلوا شيئاً، ثم نادَوا: أُردِي — واللهِ – فارسٌ هو أبو فُرعان، فأقبل دُرَيد فإذا به صريعاً، وأصاب دُريداً جِراحاتٌ. وله خبرٌ في ذلك اليومِ ليس من هذا. ففي ذلك يقولُ في كلمتِه هذه[4]:

وقلْتُ لعارِضٍ[5] وأصحابِ عارِضٍ ... وَرَهْطِ بني السّوْدَاءِ[6]، وَالقَوْمُ شُهَّدِي

أَمَرْتُهُمُ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى ... فَلَمْ يَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إلاّ ضُحَى الغَدِ

فَلَمَّا عَصَوْنِي كُنْتُ مِنْهُم وَقَدْ أَرَى ... غَوَايَتَهُمْ؛ وأَنَّنِي غيرُ مُهْتَدِي

وهَلْ أَنَا إلَّا مِنْ غَزِيَّةِ إنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

---

[1] الجأب: طين أحمر يصبغ به.

[2] تَقَلَّعَ في مِشْيته: اشتد كأنه ينحدر من ارتفاع.

[3] في المطبوعة: ببوادهم. والتصويب من الكامل لابن الأثير.

[4] وهي من مرثيته التي مطلعها: أَرَثَّ جَدِيدُ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ ... لِعَاقِبَةٍ أَمْ أَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ؟

[5] عارِض من أسماء عبدالله أخيه.

[6] بَنُو السَّوْدَاء أَصْحَاب عبد الله أَخِيه.

فَقُلْتُ لهم: ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُمُ[1] في الفَارِسيِّ الْمُسَرَّدِ[2]
تَنَادُوا فَقَالُوا: أَرْدَتِ الخَيْلُ فَارِساً فَقُلْتُ: أَعَبْدُ اللَّهِ ذَلِكُمُ الرَّدي؟[3]
فَجئتُ كَأُمِّ البَوِّ رِيْعَتْ فَأَقْبَلَتْ إلى جَلَدٍ مِنْ مَسْكِ سَقْبٍ مُقَدَّدِ[4]
فما راعَني إلا الرِّمَاحُ تَنُوشُهُ كَوَقْعِ الصَّيَاصي في النَّسِيجِ الْمُمَدَّدِ[5]
فَإِنْ يَكُ عَبْدُ اللَّهِ خَلَّى مَكَانَهُ فَمَا كَانَ وَقَّافاً ولا طائِشَ اليَدِ
كَمِيشُ الإِزَارِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ بَعيدٌ مِنَ السوءاتِ طَلاّعُ أَنْجُدِ[6]

---

[1] السراة: الأشراف الأخيار.

[2] الفارسي المسرَّد: الدرع ذو الْحِلق متتابعة النسْج. وَالْمعْنَى أَنِّي نصحتهم وحذرتهم من الْأَعْدَاء وَقلت لَهُم أيقنوا أَن الْأَعْدَاء ألفا فَارس كاملو السِّلَاح قد لبس أَشْرَافهم الدروع المسرَّدة.

[3] قال التبريزي في شرح الحماسة: وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِك إنكاراً لقَتله واستعظاماً لِأَنَّهُ يعلم إقدامه وشجاعته فِي الْحَرْب.

[4] البَوُّ: ولد الناقة. والبَوُّ جِلد الحُوَار يُحْشَى تبناً ويُقَرّب من أُمِّه لتدرَّ عليه. وَالْجَلَد مَا جُلد من المسلوخ وألبس غَيره لتشمَّه أمُّ المسلوخ فتدر عَلَيْهِ، والمسْك الْجِلد، والسَّقب ولدُ النَّاقة. وَالْمعْنَى: فصرت فِي الْفَزع وَالْخَوْف كذات البوّ الَّتِي فزعت على وَلَدهَا فَأَقْبَلت إِلَى جلده الْمَوْضُوع على غَيره لتشمه.

[5] الصياصي جمع صيصة، وَهِي شَوْكَة يمررها الحائك على الثَّوْب وَقت نسجه. وَالْمعْنَى: أتيت عبد الله وَالْحَال أَن الرماح تتناوله وَلها صَوت كصوت شَوْكَة الحائك فِي الثَّوْب الَّذِي ينسجه.

[6] الكميش: الْخَفِيف السَّرِيع. وَقَوله خَارج نصف سَاقه يصفه أَيْضاً بالجد والنشاط . وَالْمعْنَى أَنه كَانَ إِذا أَرَادَ أمراً جد فِيهِ وشمَّر لَهُ. وهي كناية معروفة عند العرب إذا قيل جاء فلان خارج نصف

قَلِيلُ التَّشَكِّي للمُصِيبَاتِ حَافِظٌ مع اليَوْمِ أَدبارَ الأحَادِيثِ في غَدِ[1]
وهوَّنَ وَجْدي أَنَّني لم أَقُلْ لَهُ: كَذَبْتَ، وَلَمْ أَبْخَلْ بِمَا مَلَكَتْ يَدي[2]

وأشعارُ الجاهليةِ مَشْهورةٌ معروفةٌ، وإنما نُمْلِي منها العيون. ألا تَرَى إلى قولِه: قليلُ التشكِّي للمصيباتِ، ثم وصَلَه بقولِه: حَافِظٌ مع اليَوْمِ أَدبارَ الأحَادِيثِ في غَدِ، كيف قَرَنَ فيه معنًى ظريفاً بآخرَ مثلِه في الظَّرافةِ التي لا يَمتنِع اللَّبيبُ من قبولِها واستحسانِها والمعرفةِ بحقيقةِ ما فيها، كما قلْنا في الذي قبله.

وكذلك قولُ كَعْبِ بنِ سعدٍ الغَنَوي:

وداعٍ دَعَا: يَا مَنْ يُجيبُ إِلَى النَّدى؟ فلمْ يَسْتَجِبْهُ عندَ ذاكَ مُجِيبُ
فَقلت ادْعُ أُخْرَى وارفعِ الصَّوْتَ دَعْوَةً لَعَلَّ أَبَا الْمِغوارِ مِنْكَ قريبُ

ساقه كان ذلك لأمر جلل. وسوف يرد ذكره في آخر الكتاب عن جساس بن مرة حينما قتل كليباً، حتى انتهى إلى أهله خارجةً ركبتُه. قالت أخته: يا أمتاه، إن جساساً قد جاء خارجةً ركبته. قالت: والله ما خرجت ركبته إلا لأمر عظيم.

[1] قَلِيل التشكي: نفي لأَنْوَاع التشكي كلهَا لأَنهم يستعملون الْقلَّة فِي معنى النَّفْي، والتشكي الشكاية وَالْمعْنَى أَنه كَانَ عالي الهمة قوي الفكرة صبوراً على حوادث الدَّهْر بَصيرًا بالعواقب يعلم فِي يَوْمه مَا يكون فِي غده فيسعى فِي دَفعه.

[2] وهذا البيت قبله بيت مرتبط به هو قوله في أخيه: (صَبا مَا صَبا حَتَّى علا الشيبُ رَأسَه ... فَلَمَّا علاهُ قَالَ للباطلِ ابعُدِ) وَالْمعْنَى أَنه مَال إِلَى اللَّهْو مُدَّةَ صغرِ سنِّه، فَلَمَّا شَاب ترك الملاهي، وقد تلقيتُ قَوْله بِالْقبُولِ وصدقته فِيمَا يَقُول وَلم أبخل عَلَيْهِ بِمَالي وَلم أجفه وَلم أعِبه فَذَلِك الَّذِي هوَّن وجدي وَطيَّب نَفسِي.

ألا تَرَى ما وصَفَه به من الجُودِ الذي هو عادةٌ يجتمِعُ عليها ثمَّ لم يَعدِلْ به أحداً؟

وكذلك قولُ أعْشَى باهِلةَ في مرثيَّتِه الْمُنْتَشِرَ بنَ وهْبٍ حيثُ يقولُ في جَلَدِه، إذ كان جلُّ ما فيه مما يُمدَحُ به فيما كان به موصوفاً:

ما يَغْمِزُ السَّاقَ مِنْ أَيْنٍ ولا وَصَبٍ ولا يَعَضُّ على شُرْسوفِهِ الصَّفَرُ[1]

ماضِي العَزيمِ على العَزَّاءِ مُنْصَلِتٌ بِالقَوْمِ لَيْلَةَ لا ماءٌ ولا شَجَرُ[2]

كأنَّهُ عندَ صِدْقِ القومِ أنفسَهمْ باليأسِ تلْمعُ مِنْ قُدَّامِهِ البُشُرُ

ولا نعلم بيتاً في هذا المعنى من يُمْنِ النَّقيبة وبركةِ الطلعَة أبرعَ من هذا، فإنما نُملي هذا الضرْبَ من العُيون. ومثلُ ذلك قولُه:

لا يَتَأَرَّى لِمَا في القِدْرِ يرقُبُهُ ولا تَرَاهُ أَمامَ القومِ يَقْتَفِرُ[3]

---

[1] الأين: الإعياء والتعب. والوصب: الوجع والمرض. والشرسوف: البطن. والصَّفَر: شعور يصيب الضلوع والشراسيف إذا جاع الإنسان. والمعنى أنه شديد الخَلْق وصحة البنية.

[2] ماضي العزيم: ليس بالمتردد، العزاء: الشدة والجهد. منصلت: بارز القوة، ظاهرُها.

[3] يتأرى بالمكان: يقيم ويتخلف ويتحبّس ويتلبّث. يقتفر: يسبق إلى الزاد. والمعنى أنه عفٌّ، لا يتحبَّس ليأكل ما في القِدر، ولا ينتظر وراء القوم، طلبًا للمطعَم.

قال أبو العباس[1]: وحدثنا الرياشيُّ في إسنادٍ ذَكَرَه قال: أنشدَ منشِدٌ أبا بكرٍ الصديقَ رضي اللهُ عنه قولَ زهيرٍ في هَرِمِ بنِ سِنان:

أنْ نِعْمَ مُعْتَرَكُ الجِيَاع إذا خَبَّ السفيرُ وسابئُ الخَمْرِ[2]

ولنعْمَ حَشْوُ الدِّرعِ أنتَ إذا دُعِيَتْ: نَزالِ ولُجَّ في الذُّعرِ

ومُرهَّقُ النّيرانِ يُحمَدُ في الْـ لَأواءِ غيرُ مُلَعَّنِ القِدْرِ

فجعل أبو بكرٍ يقولُ عندَ كلِّ بيتٍ: هكذا كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، حتى أنشدَه:

والسِّتْرُ دونَ الفاحشاتِ وما يلقاكَ دونَ الخيرِ مِنْ سِتْرِ

فقال: هكذا، واللهِ، كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ثم قال: أشعرُ شعرائكم زهيرٌ[3].

---

[1] المبرد.

[2] وقبل هذا:

دع ذَا وعد القَوْل فِي هرِم ... خير البداة وَسيد الْحَضَرِ

تالله قد علمت سراة بني ... ذبيان عَام الْحَبْس والأصرِ

[3] انظر: الفاضل للمبرد.

ويُرْوى مِنْ غيرِ وجْهٍ حدَّثناهُ مَسْعودُ بنُ بشر وغيرُه أنه لما مات مخلدُ بنُ يزيدَ بنِ المهلَّب[1]، حضره عُمَرُ بنُ عبدِ العزيز وصلَّى عليه ثم قال:

بَكُّوا حُذيفةَ لا تُبَكُّوا مثلَهُ حتّى تَبِيدَ قبائلٌ لم تُخْلَقِ[2]

ثم قال: لو أراد اللهُ بيزيدَ خيراً لأبقى له هذا الفتى[3]. فهذا من الأبياتِ الجامعةِ كنحوِ ما ذكرْنا.

ولقد أحسَنَتِ الكِنْدَيَّة[4] في قولِها في إخوتِها:

أَبَوْا أَنْ يَفِرُّوا وَالقَنَا فِي نُحُوْرِهِمْ فماتُوا وأطرافُ القَنا تَقْطُرُ الدِّما

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَرُّوا لَكَانُوا أَعِزَّةً وَلَكِنْ رَأوا صَبْرًا عَلَى الْمَوْتِ أَكْرَمَا

---

[1] مخلد بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة: أحد الأسخياء الممدوحين، أمير، من بيت رياسة وبطولة. كان مع أبيه في أكثر وقائعه وولاياته. ولما صارت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز ونقم عمر على أمير خراسان يزيد ابن المهلب كتب إليه أن يستخلف على عمله ويحضر إليه، فاستخلف يزيد ابنه مخلداً، فقام بشؤون خراسان. ثم رحل مخلد إلى الشام وافداً على الخليفة عمر بن عبد العزيز، يلتمس الإفراج عن أبيه، وكان في سجن عمر، فناظره عمر ورأى من عقله ما أعجبه حتى قال: هذا فتى العرب، ولم يعش بعد ذلك غير أيام. ومات مخلد وهو ابن سبع وعشرين سنة في الشام.

[2] البيت لقَيْس بْن زُهَيْرِ بْنِ جَذِيمَةَ يرثي حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ في أعقاب حرب داحس والغبراء.

[3] انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر.

[4] أُمُّ الصَّرِيْحِ الكِنْدِيَّةُ الحضرميَّة: شاعرة يمنية عاشت في القرن الثاني الهجري، وقيل إن أولادها قُتلوا في معركة، في مكان يقال له: (جيشانَ)؛ فرثتهم بقصائد كثيرة.

هَوَتْ أمُّهُمْ ماذا بهمْ يومَ صُرِّعوا بجَيْشانَ مِنْ أسبابِ مجدٍ تَصَرَّما

والقائلُ[1]:

ألا لهفَ الأرامِلِ واليتامى ولهفَ الباكياتِ على قُصَيِّ

لعمرُك ما خشيتُ على قصيٍّ منيّةَ بينَ سَلْعٍ والسُّلَيِّ

ولكنّي خشيتُ على قصَيٍّ جريرةَ رمحِهِ في كلِّ حَيِّ

فأحسنُ الشعرِ ما خُلِطَ مدحاً بتفجُّع، واشتكاءً بفَضيلة، لأنه يَجمع التوجع الموجِع تفرجاً، والمدحَ البارعَ اعتذاراً من إفراطِ التفجُّع باستحقاقِ المرثي. وإذا وقع نظمُ ذلك بكلامٍ صحيح ولهجَة معْربَة ونظْم غير متفاوِت فهو الغايةُ من كلامِ المخلوقين.

واعلمْ أن قولَ الخنساءِ من أجملِ الكلامِ حيث تقول[2]:

وَإنَّ صَخْراً لَوَالِينَا وَسَيِّدُنَا وَإنَّ صَخْراً إذَا نَشْتُو لَنَحَّارُ

وإنَّ صَخْراً لتأتمُّ الهداةُ بهِ كأنَّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ

فجعلتْه موضِعاً للسُّؤدُدِ ومَعْنيّاً بأمرِ العشيرةِ؛ لقولِها: لَوالينا وسيِّدُنا، وجواداً مُفْضِلاً نَحَّاراً في وقتِ الإقتارِ والشَّتْوة، ثم قالت: وإنَّ صَخْراً لتأتمُّ الهداةُ بهِ،

---

[1] هو كعب بن زهير كما في شرح الحماسة للتبريزي.

[2] ديوان الخنساء.

فجعلتْه إمامَ الأئمة، ثم جعلتْه عَلَماً، والعَلَم: الجَبَل، فلم تقتصرْ على ذلك حتى جعلتْ في رأسِه ناراً، شُهرةً في الكرم، وناراً على عَلَم في الهداية.

وقولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) إنما هي الجِبال.

وقال جَريرٌ[1]:

إذا قَطَعْنَ عَلَماً بَدا عَلَمْ حَتَّى أنَخْناها على بَابِ الحَكَمْ

وَمِنْ عَجِيبِ مَا قِيلَ؛ قَوْلُ النَّابِغَةِ فِي حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ؛ إِكْبَارًا لِشَأْنِهِ، وَاسْتِعْظَامًا لِمَوْتِهِ، وَتَعَجُّبًا مِنْ ذَهَابِ مِثْلِهِ:

يَقُولُونَ حِصْنٌ ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُمْ[2] وَكَيْفَ بِحِصْنٍ وَالْجِبَالُ جُنُوحُ؟

وَلَمْ تَلْفِظِ الْمَوْتَى الْقُبُورُ وَلَمْ تَزُلْ نُجُومُ السَّمَاءِ وَالأَدِيمُ صَحِيحُ

فَعَمَّا قَلِيلٍ ثُمَّ جَاءَ نَعِيُّهُ فَظَلَّ نَدِيَّ الْحَيِّ وَهُوَ يَنُوحُ

---

[1] في أرجوزة له ساقها المبرد في الكامل فقال: وقال جرير للحَكَم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل، وهو ابن عم الحجاج، وكان عاملَه على البصرة:

أقبلن من ثهلان أو وادي حيمْ ... على قلاص مثل خيطان السلمْ

إذا قطعن علما بدا علمْ ... حتى أنخناها إلى باب الحكمْ

خليفة الحَجّاج غير المتهمْ ... في ضئضئ المجد وبحبوح الكرمْ

[2] جاء في خزانة الأدب: يريد أنهم يقولون: مات حصن ثم يستعظمون أن ينطقوا بذلك ويقولون: كيف يجوز أن يموت والجبال لم تنسف والنجوم لم تنكدر والقبور لم تُخرج موتاها وحِرم العالم صحيح لم يحدث فيه حادث.

مرثية أوس بن حجر

وذَكَرْنا أَوْساً ومَراثِيَه في فَضالةَ بنِ كَلَدَةَ الأَسَديِّ. وكان من خبرِه معه أنه قصَدَه مِنْ أرضِ بني تميم، فلما قارَبَ منزِلَه، جالتْ به ناقتُه فرَمَتْ به فكسرَتْ فخِذَه. فأقام ليلتَه مكانَه لا يَرِيمُ[1] حتى إذا أصبح نَظَرَ وهو في عامٍ خصيبٍ إلى جَوارٍ من صَبيَّاتِ بني أَسَد، قد خرجْنَ يَجْتَنين الكَمْأةَ، فجعل ينسبُهنَّ[2] حتى وقف على ابنةِ فَضالة، فقال لها: خُذي هذا الحَجَر فائْتي به أباكِ، فقولي له: قد زارَكَ ابنُ هذا، وخبِّريه بحالي، فلما أتتْه قال: أتانا — واللهِ – بمِدْحٍ كثيرٍ أو بذَمٍ كثير. فأتاه، فضَرَبَ قبَّةً، ولم يزلْ يعالجُه حتى بَرَأَ.

قال الأصمعيُّ: وفي بني أسدٍ حَذَاقةٌ بالجَبْرِ[3]. قال: وسمعتُ أعرابياً مِنْ بني أسدٍ يقول: أنا أجبَرُ الناسِ لِفَكٍّ أو تَرْقُوة. قال الأصمعيُّ: وهما أشدُّ ما يُجبَر. ففي ليلتِه تلك يقولُ:

خُذِلْتُ على ليلةٍ ساهِرَهْ بصحراءِ شَرْجٍ إلى ناظِرَهْ[4]

---

[1] رَامَ بِالْمَكَانِ: أَقَامَ فِيهِ وَاسْتَقَرَّ.

[2] يعني سألهن عن نسبهن.

[3] الحذاقة: المعْرِفَة الكامِلَة والمهارة والإتقان. والجبر جبر العظام وعلاجها.

[4] ساهرة: أي ساهر صاحبها. وشرج وناظرة مكانان.

تُزادُ لَياليَّ فِي طُولِها فلَيْسَتْ بطَلْقٍ وَلَا ساكِرَهْ[1]
كأنِّي أُطاوِلُ شَوْكَ السِّيالِ تَشُكُّ به مَضْجَعي شاجِرَهْ[2]

وفي حَليمةَ بنتِ فَضالةَ بنِ كَلَدَةَ التي ذهبتْ إلى أبيها برسالتِه يقولُ:

لعمرُكَ ما ذَمَّتْ ثواءَ ثَوِيِّها حليمةُ إذ ألقتْ مراسِيَ مُقْعَدِ[3]
ولكنْ تَلَقَّتْ باليَدَيْنِ ضَمَانَتَي وحَلَّ بَفَلْجٍ فالدَّثِينةِ عُوَّدِي
ولم تُلْهِها تلكَ التَّكاليفُ إنَّها كما شئتَ من أكْرُومةٍ وتَخَرُّدِ
سأَجزِيكِ أو يَجزِيكِ عنِّي مُثَوِّبٌ وقَصْرُكِ أن يُثْنَى عليكِ وتُحْمدي

فأقام عند فَضالةَ مدةً يسيرةً ثم مات فَضالةُ، ففيه يقولُ قصائدَ نذكرُ بعضَها والمختارَ منها. قال أبو عبيدةَ: كان أوسُ بنُ حَجَر شاعرَ مُضَرٍ في الجاهليةِ حتى نَشَأَ زُهَيرٌ والنابغةُ فوَضَعا منه، ولكنَّه شاعرُ تميمٍ غيرَ مُدافَع. فممَّا قال فيه[4]:

أَيَّتُهَا النَّفْسُ أجْمِلي جَزَعا إنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا
إنَّ الَّذِي جَمَّع السَّماحةَ والنْـ ـنَجْدَةَ والبَأسَ والقُوى جُمَعا

---

[1] ليلة طلق: حسنة لا حر فيها ولا برد. والساكرة: ساكنة الريح.

[2] السيال: شجر له شوك، يقول: كأن على مضجعي شوك السيال فلا أقدر على النوم.

[3] الثويّ: الضيف.

[4] في فضالة.

الألمعيُّ الذي يَظُنُّ لكَ الظْـ ـظَنَّ كأنْ قد رَأَى وقد سَمِعا
وَالْمُتلِفُ الْمُخلِفُ الْمُرَزَّأُ لَمْ يُمْتَعْ بِضَعْفٍ وَلَمْ يَمُتْ طَبَعا
وَالحافِظُ الناسَ في تَحُوطَ إِذا لَمْ يُرسِلُوا خَلْفَ عائِذٍ رُبَعا
وَعَزَّتِ الشَمأَلُ الرِياحَ وَقَدْ أَمْسى كَمِيعُ الفَتاةِ مُلتَفِعا
وَشُبِّهَ الهَيدَبُ العَبامُ مِنَ الـ أَقوامِ سَقْباً مُلَبَّساً فَرَعا
وَكانَتِ الكاعِبُ الْمُمَنَّعَةُ الـ حَسناءُ في زادِ أَهلِها سَبُعا
لِيَبكِكَ الشَّرْبُ وَالْمُدامَةُ وَالـ فِتيانُ طُرّاً وَطامِعٌ طَمِعا
وَذاتُ هِدْمٍ عارٍ نَواشِرُها تُصمِتُ بِالماءِ تَولَباً جَدِعا

تأويلُ ما في هذه القصيدةِ مما ليس بواضحٍ إلا بعدَ نَظَر:

قولُه: أَيَّتُهَا النَّفْسُ أَجْمِلي جَزَعا إِنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا، تقول العَرب: الحَذَرُ أشدُّ مِنَ الوقيعة. وإنما حقُّ الشيءِ المتخوَّف أن يكون صاحبُه مرتاعاً حِذْرَ وقوعِه، فإذا وقع البأسُ ارتفع ذلك الحذرُ.

ومن ذلك ما يتدارسُه الصالحون: إذا استأثرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بشيءٍ فالْهُ عنه[1].

ويُحكى عن بعضِ الأعاجمِ من ملوكِهم أنه مات له ابنٌ فلم يجزعْ عليه، وأقبلَ على شأنِه، فسُئل عن ذلك فقال: إنما الروعةُ قبلَ وقوعِ الْمَخُوف، فإذا وقع

[1] من لهَا عنه يلهُو: ترك وتغافل.

فعَلَى اللَّبيبِ ألا يُنسَبَ إلى الوقوفِ متفكراً في إثْرِ ما لا يُدْرَكُ، ولكنْ ليزجُرَ النفسَ عن خطائها، ويُعمِلِ الشغلَ فيما يُجدي عليه.

وقولُه: الألمعيُّ الذي يَظُنُّ لكَ الظَّنَّ كأنْ قد رَأَى وقد سَمِعا، الألمعي: الحديدُ القلبِ الذي يوقِعُ الشيءَ موقِعَه. وهذا مَثَلٌ لا نعلمُه لأحدٍ قبْلَه. وكان مَوْلانا أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه يقولُه بأوضحَ مِنْ هذا. كان يقوُل: لا يعيشُ بعلْمٍ أحدٌ حتى يعيشَ بظنِّه[1]، وقال الزبيرُ بنُ العوَّام: لا عاش بخيرٍ مَنْ لم يُرِه ظنُّه ما لم تُرِه عينُه. وقال عمرُو بنُ العاصِ: ظَنُّ الرجلِ قطعةٌ من علمِه، ولسانُه قطعةٌ من عقلِه.

وقولُه: المخْلِف المتْلِف، قد جمع فيه ما يُغني عن التفسير والتزيُّد إذ يقول: يُتلف جُوداً وكَرَماً، ويُخلِف نجْدةً واكتساباً.

[1] وفي الأمثال: ظَنُّ الرَّجُلِ قِطْعَةٌ مِنْ عَقْلِه. انظر: مجمع الأمثال للميداني.

وقولُه: لم يُمْتَعْ بضَعْفٍ، أيْ لم يُقْرَن به. تقول: أَمْتَعَ اللهُ بفلانٍ أيْ أبقاه اللهُ حتى يتمتعَ به أحبَّاؤه. وكما قال جَريرٌ[1] لعبْدِ العزيزِ بنِ الوليد[2]:

إذا جَدَّ الرَّحيلُ بنا فرُحْنا فأَحْسَنَ ذو الجلالِ بكَ الْمَتاعا

وقولُه: ولم يمُتْ طَبَعا، يقال: طَبِعَ يَطْبَعُ طَبَعاً إذا غَلَبَ عليه الحِرصُ حتى يغطيَ على قلبِه. ويُقال: طَبِعَ السيفُ إذا ركِبَه الصدأُ حتى يغطيَ على صميمِ الحديدة.

وقولُه: والحافظُ الناسَ في تَحُوط، يقال للسَّنة الجدْبة: تَحُوط وقَحُوط بالتاء والقاف جميعاً.

وقولُه: إذا لَم يُرسِلُوا خَلْفَ عائِذٍ رُبَعا، العائذ: التي معها ولدُها، فإذا كانت السَّنة الجدْبة نَحَروا الفِصال لئلا تضُرَّ بالأمهات.

---

[1] في الديوان من قصيدته التي مطلعها: (ذَكَرتَ ثَرى نَواظِرَ وَالخُزامى فَكادَ القَلبُ يَنصَدِعُ اِنصِداعا) وفيها يقول:

سَما عَبدُ العَزيزِ إِلى المِعالي وَفاتَ العالَمينَ نَدىً وَباعا

أَلَستَ اِبنَ الأَئِمَّةِ مِن قُرَيشٍ وَأَرحَبَها بِمَكرُمَةٍ ذِراعا

فَقَد أَوصى الوَليدُ أَخا حِفاظٍ فَما نَسِيَ الوَصاةَ وَلا أَضاعا

[2] عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، خاله عمر بن عبدالعزيز. كان أبوه الوليد أراد خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وتولية عبد العزيز فلم يتم له ذلك.

وقولُه: وَعَزَّتِ الشَمأَلُ الرِياحَ، يقول: غلبتِ الرياحَ، وتلك علامة الجدْب والقحْط، لأن الجنوبَ هي التي تأتي بالنَّدى والمطر. ويقال عز فلان فلاناً إذا قَهَرَه. وقول الله جل ثناؤه: (وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) أي كان أعزَّ مني في المخاطبة. وقولُهم في الْمَثَل: من عزَّ بزَّ، أي من غَلَب استَلَب.

والكَمِيع: الضَّجِيع. يقال: كامَعَها. يقال أضحى كميعُها ملتفِعاً. والملتفِع: الملتحِف؛ فهو منقبضٌ عنها مشغولٌ بما يلاقي من القُرِّ.

وقولُه: وَكانَتِ الكاعِبُ الْمُمَنَّعَةُ الحَسناءُ، الكاعِب: التي كَعَب ثَدْياها. قال اللهُ جل وعز: (وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا) والممنَّعة: المحفوظة المخبَّأة، كانت كالسَّبُع في زادِ أهلِها[1]، وإنما مِنْ شأنها أن تُتْرَفَ وتُنَعَّمَ إذا كانت في هذه الصِّفة.

وقولُه: وَشُبِّهَ الهَيْدَبُ العَبامُ، فالهَيْدَب: المسترْخِي، والعَبام: الثقيلُ الذي لا يكاد ينبعِثُ، فشُبِّه في انقباضِه بالسَّقْب، وهو وَلَدُ الناقةِ إذا كان ذَكَراً، وإنْ كان أُنْثى فحائل. مُلْبَساً فَرَعا، أيْ قد جُعِل عليه جِلْد الفَرَعَ، وهو فصيلٌ

[1] يعني أنها في الشراهة للأكل صارت مثل السبع، قال المبرد في الكامل: تصير كالسبع في زاد أهلها بعد أن كانت تعاف طيب الطعام. (يعني بسبب الجدب الذي أصابهم).

كانوا يتقرَّبون به في الجاهلية فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لا فَرَعَ[1]، فأبْطَلَه الإسلام.

وقولُه: وذاتُ هِدْم، فالأهدام خُلْقان الثياب، فيصف الفقيرةَ وأنه كان لها ملجأً.

وقولُه: عارٍ نواشرُها: من الضُّر والجُوع والبُؤس. والنواشِر: عُروق الذِّراع، كما قال زهير:

ودارٌ لها بالرَّقْمتينِ كأنَّها رَواجعُ وشْمٍ في نواشِرِ مِعْصَمِ

وقولُه: تُصْمِتُ بالماء، أيْ تُسَكِّن طِفلَها بالماء، وتسكِّنه إذ لم يكن له ثُفْل[2].

والجَدِع: السيِّءُ الغِذاء، وكذلك الجَحِن والقَتِين.

ومما قال فيه[3] مما اخترناه:

أَلَمْ تُكسَفِ الشَّمسُ وَالبَدْرُ وَالْـ كَواكِبُ لِلجَبَلِ الواجِبِ
لِفَقْدِ فَضالَةَ لا تَستَوي الـ فُقودُ وَلا خَلَّةُ الذاهِبِ

---

[1] رواه البخاري عن أبي هريرة ولفظه: لا فَرَعَ ولا عَتِيرَةَ قالَ: والفَرَعُ: أوَّلُ نِتاجٍ كانَ يُنْتَجُ لهمْ، كانُوا يَذْبَحُونَهُ لِطَواغِيَتِهِمْ، والعَتِيرَةُ في رَجَبٍ. كانوا يُعظِّمون شهرَ رجبَ ويَتقرَّبون فيه لآلهتِهم، فيَذبَحون الذَّبائحَ، ويُسمُّونها العَتِيرة.

[2] الثُّفْلُ: ما يؤكل غَيْرَ اللبن من حَبٍّ وخبزٍ وتمرٍ.

[3] في فضالة.

أَلَهْفا[1] عَلى حُسْنِ أَخلاقِهِ عَلى الجابِرِ العَظْمِ وَالحارِبِ
عَلى الأَرْوَعِ السَّقْبِ لَو أَنَّهُ يَقومُ عَلى ذِرْوَةِ الصَّاقِبِ
لَأَصْبَحَ رَتْماً دُقاقَ الحَصى كَمَتْنِ النَبِيِّ مِنَ الكاثِبِ
وَرِقْبَتِهِ حَتَماتِ الْمُلو كِ بَينَ السُّرادِقِ وَالحاجِبِ
وَيَكفي الْمَقالَةَ أَهلَ الرِحا لِ غَيرَ مَعيبٍ وَلا عائِبِ
وَيَحبو الخَليلَ بِخَيرِ الحِبا ءِ غَيرَ مُكِبٍّ وَلا قاطِبِ
بِرأَسِ النَجيبَةِ وَالعَبدِ وَالـ ـوَليدَةِ كَالجُؤذُرِ الكاعِبِ
وَبِالأُدْمِ تُحدَى عَلَيها الرِحا لُ وَبِالشَّوْلِ في الفَلَقِ العاشِبِ
فَمَن يَكُ ذا نائِلٍ يَسْعَ مِن فَضالَةَ في أَثَرٍ لاحِبِ
هُوَ الواهِبُ العِلْقَ عَيْنَ النَفيـ ـسِ وَالْمُتَعَلِّي عَلى الواهِبِ
نَجيحٌ مَليحٌ أَخو مَأْقِطٍ نِقابٌ يُخَبِّرُ بِالغائِبِ
فَأَبرَحْتَ في كُلِّ خَيْرٍ فَما يُعاشِرُ سَعْيَكَ مِن طالِبِ

وهذه القصيدةُ أَمْلَيْناها بأسْرِها لأنها جَمَعتْ تقدُّم كلِّ بيت منها وكثرةَ المعاني والاختصار.

[1] يعني يا لهفي.

قولُه: لِلجَبَلِ الواجِبِ، فالواجِبُ: الساقِطُ، يقال للبَعيرِ إذا بَرَكَ فسُمِعَ صوتُ كِرْكِرَته: وَجَبَ، وكذلك كلُّ ساقِط. قال أبو عبيدة: وأظنُّ قولَهم في الشيء: وجَبَ أي وَقَع.

وقولُه: لِفَقْد فَضالة، ثم قال: الأرْوَعُ السَّقْب، يعني فَضالة. وهذا كقولِك: إني لأُثْني على زَيْدٍ، ثم تقول: على الشريفِ الكريم، وأنت تَعْنيه. والسَّقْب: الطويل. وله مواضِع هذا أحدُها. والخَلَّة: الخَلَل الذي قد تَرَكَه، وكان مَسْدوداً به. وأصل الخَلَّة: الثُّلْمة. يقال: فلان به خَلَّة أي ليس أمرُه مُستوياً، وفلان مُخْتَلُّ الجِسم كذلك.

وقولُه: لا تَسْتوي الفُقُود، أي المصائبُ لاختلافِ أوزانِ أهلِها. فمِن ذلك مَن يوجد منه العِوَض، ومنهم من يَعْسُر وجودُ مثلِه. وأقولُ أنا: كمَنْ أنشأْنا هذا الكتابَ مِنْ أجلِه[1]، يَبْعُد في الوهْم إدراكُ نظيرِه ومُدانِيه، فضلاً عن مُساوِيه.

والصَّاقبُ الذي ذُكِر: جَبَلٌ مَعْروفٌ بعَينِه. يقول: فلو تحامل عليه. وليس "يقومُ" من القيام على القَدَم، ولكنْ من قولِك: فلانٌ يقومُ بأمرِ أهلِه، ويقومُ بهذا الأمْرِ أي يُدافع عنه. فيقول: لو دافع الجبلَ العظيمَ متحامِلاً عليه لأصبح

[1] صديقه القاضي إسماعيل

الجبلُ رَتْماً كظهْر النبي[1] – وهو رمْلٌ بعينِه – من الكاثِب، أي كمكانِ هذا من هذا. ومثَّلَه أبو عبيدةَ فقال: كقولِكَ كظهْر الْمِرْبَد من البَصرة، والمرتوم المحطوم المدقوق. يقال: رَتَم أنفَه أيْ دقَّه.

وقولُه: دُقاق الحَصى، أيْ دقيقٌ، مثلُ قولِك: رجلُ طُوال وطويل، وجُسام وجسيم، وخُفاف وخفيف.

وقولُه: وَرِقْبَتِهِ حَتَماتِ الْمُلوكِ، يقول: إذا أَحْتَمَ على الملوكِ أمراً أو في أمرٍ يخافُه، أطاعَه الملكُ وأجابَه. ويقول بعضُهم: هي الحُتْمة، وينشدُه: حُتْمات، مثل ظُلْمة وظُلْمات. وذَكَرَ قُرْبَ مكانِه مِنَ الملوكِ فقال: بين السرادقِ والحاجبِ.

وقولُه: وَيَكفي الْمَقالَةَ أَهلَ الرِّحال، يقول: إذا حَضَرَ استُغْنِيَ به عن غيرِه لبيانِه وصَوابِه، فقد كَفَى مَنْ وراءه غيرَ مَعِيب عندَهم ولا عائبٍ لهم.

وهذه الأبياتُ إذا اعتُبِرَت فأكثرُها يشتملُ البيتُ منه على معانٍ.

وقوله:

ويحُبو الخليلَ بخيرِ الحِبا ءِ غيرَ مُكِبٍّ ولا قاطِبِ

---

[1] النبي : ما ارتفع من الأرض.

أي يُتبِع ما يفعلُه بأجملِ البِشْر ولا يُكِبُّ مُفْكِراً يندَمُ على ما فَعَل، ولا طالباً حيلةً يدفعُ بها السائلَ، كما قال القائل[1]:

لا يَنْكُتونَ الأرضَ عندَ سؤالِهِمْ لِتَطَلُّبِ العِلَّاتِ بالعِيدانِ

وقولُه: وَبِالشَّوْلِ في الفَلَقِ العاشِبِ، يقول: يُعطيها في أحسنِ حالاتِها. والفَلَق: المطمئنُّ من الأرض، وهو موضع الكَلأ لاستقرار الماء به. وكانت العربُ تقول للرجلِ إذا حَسُنَتْ إبِلُه وسمُنَتْ: أخذتْ إبلُه رماحَها، وأَخَذَتْ إبلُه سِلاحَها. واستَنْجدَتْ عليه أيْ مَنَعَتْه أنفسَها مِنْ أنْ توهَبَ أو تُنْحَرَ ضَناًّ بها، كقولِ القائل[2]:

لا أخونُ الصَّديقَ ما حَفِظَ العهـ ـدَ ولا تأخُذُ السِّلاحَ لِقاحي

وقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هَلَكَ الفَدَّادون إلا مَنْ أعطاها في نَجْدَتِها ورِسْلها[3]، أيْ مَنْ أعطاها بسهولةٍ ومع امتناعِها لحُسْنِها. وهو وقتُ نجْدتِها عليه.

---

[1] هو أمية بن أبي الصلت، من قصيدته التي مطلعها: قَومي ثَقِيفُ إِن سَأَلتَ وَأُسرَتي وَهِم أُدافِعُ رُكنَ مَن عاداني

[2] لم أجده.

[3] قال أَبُو عُبَيْدَة في غريب الحديث: الفدادون المكثرون من الْإِبِل الَّذين يملك أحدهم الْمِائَتَيْنِ مِنْهَا إِلَى الْألف، يُقَال للرجل: فدّاد إِذا بلغ ذَلِك وهم مَعَ هَذَا جُفَاة أهل خُيَلَاء. وقال ابن الجوزي في غريب الحديث: قَوْله إِلَّا من أعْطى فِي نجدتها ورِسلها قَالَ أَبُو عبيد نجدتها أَن تكْثر شحومُها

وقال صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ لقيْسِ بنِ عاصِمٍ[1]: نِعْمَ الْمَالُ الْأَرْبَعُونَ، وَالْكُثْرُ السِّتُّونَ، وهَلَكَ أَصْحَابُ الْمِئِينَ، إِلَّا مَنْ نَحَرَ سَمِينَتَهَا، وَأَفْقَرَ ظَهْرَهَا، وَمَنَحَ غَزِيرَتَهَا، وَأَطْرَقَ فَحْلَهَا، وأَعْطَاها فِي رِسْلِهَا وَنَجْدَتِهَا[2].

وقالت لَيْلى الأخْيَلِية[3]:

ولا تأخُذُ الكُومُ الجِلادُ سِلاحَها لِتَوْبَةَ في صِرِّ الشِّتاءِ الصَّنابِرِ

حَتَّى يمْنَع ذَلِك صَاحبهَا أَن يَنْحَرهَا نفاسة بهَا فَصَارَ ذَلِك بِمَنْزِلَة السِّلَاح لَهَا تمْتَنع بِهِ من رَهَا، ورِسلها أَلا يكون لَهَا سِمَن فيهون عَلَيْهِ إعطاؤها فَهُوَ يُعْطِيهَا عَلَى رِسله مستهيناً بهَا كَأَن الْمَعْنى فِي الحَدِيث أَن يُعْطِيهَا عَلَى مشقةٍ من النَّفس وَعَلَى طيبٍ مِنْهَا. والجملة الأولى من الحيث (هَلَكَ القَدَّادون) لم أقف على تخريجها.

[1] قيس بن عاصم بن سنان المنقري التميمي: صحابي جليل ومن سادات العرب وأشرافهم، وهو الذي قدم على رسول الله سنة ٩ هـ في وفد بني تميم فأكرمه وقال له: «هذا سيد أهل الوبر». وهو شاعرٌ فارسٌ شجاعٌ حليمٌ كثير الغارات، مظفرٌ.

[2] والرواية كما أوردها الطبري في تهذيب الآثار: عن قَيْس بْن عَاصِمٍ، قَالَ: قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمَالُ الَّذِي لَا يَكُونُ فِيهِ تَبِعَةٌ مِنْ ضَيْفٍ إِنْ ضَافَنِي، أَوْ عَدَدٍ إِنْ كَثُرُوا؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نِعْمَ الْمَالُ الْأَرْبَعُونَ، وَالْكُثْرُ السِّتُّونَ، وَيْلٌ لِأَصْحَابِ الْمِئِينَ، إِلَّا مَنْ أَعْطَى فِي رِسْلِهَا وَنَجْدَتِهَا، وَأَفْقَرَ ظَهْرَهَا، وَأَطْرَقَ فَحْلَهَا، وَمَنَحَ غَزِيرَتَهَا، وَنَحَرَ سَمِينَتَهَا، فَأَطْعَمَ الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ»

[3] في ديوانها من قصيدتها التي مطلعها:

نَظَرْتُ ورُكْنٌ مِنْ ذِقانَيْنِ دُونَهُ ... مَفاوِزُ حَوْضَى أيّ نَظْرَةِ ناظِرِ

الفدَّادون: أصحابُ الإبلِ الكثيرة.

وقولُه: نَجيحٌ مَليحٌ أخو مأقِطٍ، يقول: هو في السِّلْم سَهلٌ مُبتذِلٌ حُلوٌ مقبولٌ، ولا يمنعُه ذلك من أن يكون جَلْداً في الحرْب. والمأقِط: موضِعَ مجتَلَدِ القَوم. وهو مع هذا فطِن طبِن، مُنقِّبٌ طوَّافٌ ببَدنه وفِكره، يَظُنُّ فيُصيبُ، فذلك قولُه: يخبِّر بالغائب.

وقولُه: نِقاب أي مُنقِّب في الأمور، كما قال اللهُ جلَّ وعزَّ: (فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ). وقال امْرؤ القَيْس:

وقدْ نقَّبْتُ في الآفاقِ حتَّى رَضِيتُ مِنَ الغَنيمَةِ بِالإيابِ[1]

ومن هذا قيل للطُّرقات في الجَبَل: النُّقوب والنِّقاب، واحدُها نَقْب.

وقال ابنُ الأيْهم التغلبيُّ يصفُ خَيلاً[2]:

وتَراهُنَّ شُزَّباً كالسَّعالِي يَتَطَلَّعْنَ مِنْ ثُغُورِ النِّقابِ

وقال أيضاً يرثيه[3]:

---

[1] وفي الديوان: طَوَّفتُ بدل نقَّبْتُ.

[2] قال المرزباني في ترجمة عمرو بن الأيهم: (وقيل اسمه عمير ويقال هو أعشى بني تغلب. ويروى عن الأخطل أنه قيل له وهو يموت: على من تخلف قومك؟ قال على العميرين. يريد القطامي واسمه عمير بن شييم وعمير بن الأيهم).

[3] يعني أوساً يرثي فضالة.

أَأَبا دُلَيْجَةَ[1] مَنْ لِحَيٍّ مُفْرَدٍ صَقِعٍ مِنَ الأَعْداءِ في شَوَّالِ؟
وَإِذا ذَكَرْتُ أَبا دُلَيْجَةَ أَسبَلَتْ عَيْني فَبَلَّ وَكِيفُها سِرْبالي
وَمُعَصَّبينَ عَلى نَواجٍ سُدْتَهُمْ مِثلُ القِسِيِّ ضَوامِرٍ بِرِحالِ
وَقَوارِصٍ بَيْنَ العَشيرَةِ تُتَّقَى داوَيْتَها وَسَمَلْتَها بِسِمالِ
لا زالَ رَيْحانٌ وَفَغْوٌ ناضِرٌ يَجْرِي عَلَيْكَ بِمُسْبِلٍ هَطَّالِ
فَلَنِعْمَ وَفْدُ الحَيِّ يَنتَظِرونَهُ وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدِرْعِ وَالسِّرْبالِ
وَلَنِعْمَ مَأْوى الْمُستَضِيفِ إِذا دَعا وَالخَيلُ خارِجَةٌ مِنَ القَسْطالِ

قولُه: مُعَصَّبين يعني مُلوكاً قد عُصِّبوا بالتِّيجان. والنَّواجي: الخيلُ السِّراع.

وقولُه: صَقِعٍ مِنَ الأَعداءِ في شَوّالِ، الصقِع: المتحيِّر الذي لا يدري أين يتوجَّه. يقال: صَقَعَ وصَعَقَ، وبنو تميمٍ تقول: صعِق، هي لغتُهم، فكأنه الذي أصابتْه الصَّاعِقة فتحيَّر لتوقُّع الغارة كما يتحير المتوقِّع الصاعقة. وقال في شوَّال لأنه شهْر حِلٍّ، ففيه يُغير الناس بعضُهم على بعض. فإن قال قائل: أفليس شهورُ الحِلِّ ثمانية، فما بالُه خَصَّ هذا؟ فالجوابُ في ذلك أنه إذا ذُكِر الشيءُ غيرُ المقصود دخل ما كان نظيرُه في حكمِه. قال اللهُ تَبارك وتعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ) ولم يقُلْ على ظُهورِهم ولم

[1] وَكَانَ فضَالة بن كلدة يكنى أَبَا دليجة.

يذكر الارتفاقَ لأنه يُعلَم أن الأمرَ في ذلك واحد. وكذلك قولُه جلَّ وعزَّ: (سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ) ولم يذكِرِ البرْد.

وقولُه:

وَقَوارِصٍ بَينَ العَشيرَةِ تُتَّقَى داوَيْتَها وَسَمَلْتَها بِسِمالِ

يقال: سَمَلَ بين العَشِيرة إذا أصلَحَ، فإنما أراد به السيِّدَ الذي يأتمرون بأمرِه. والفَغْو: نَوْر الحِنَّاء، يقال له الفَغْو والفاغِيَّة. وهو من أطيبِ الرَّيحان رائحةً. قال أبو عُبَيدة: قولُه: يَجْري عَلَيْكَ بِمُسْبِلٍ هَطَّالِ، قال: يعني: مع مُسبل، أي مع غَيْث مُسبل. قال: فالباءُ تقومُ مَقامَ "مع" يا فتى، قال أبو العبَّاس: والذي قال صوابٌ وتفسيرُه أقربُ مما قال. وتأويلُ هذا عندَ النَّحويين أن الباءَ للإلصاق، و"مع" للمقارَبة، فهما يلتقيان في هذا الموضِع. تقول: مررتُ بِزَيد، فالباء ألصقتْ مُروري به. وكذلك: كتبتُ بالقَلَم أو ضربتُ بالسَّيف. فهذا حقيقةُ معناه.

وقولُه: وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدِرْعِ وَالسِّرْبالِ، أيْ نِعْم الشيءُ في الأمْنِ والفَزَع. والمستضِيف: المُلْجَأ، يا فتى. يقال أُرهِق فلانٌ فدعا لِمَضُوفةٍ، كما قال الشاعرُ[1]:

---

[1] هو أبو جندب الهذلي. من بني هذيل كان يسمى المشؤوم، له شعر في ديوان الهذليين. والبيت في ديوانه من قصيدته التي مطلعها: أَلا أَبلِغا سَعدَ بنَ لَيثٍ وَجُندُعاً وَكَلباً أَثيبوا المنَّ غَيرَ المكَدَّرِ

وَكُنتُ إِذا جاري دَعا لِمَضوفَةٍ أُشَمِّرِ حَتّى يَنْصُفَ الساقَ مِئزَري

ويقال قَسْطَل وقَسْطال لما يثورُ من الغُبار.

وقال أيضاً يرثي فَضالة قصيدةً أوَّلُها:

عَينيَّ لا بُدَّ مِن سَكْبٍ وَتَهمالِ عَلى فَضالَةَ جَلِّ الرِّزْءِ وَالعالي

اخترْنا منها أبياتاً نادِرةً كما شرطْنا في أوَّلِ الكتاب. من ذلك قولُه:

جُمَّا[1] عَلَيهِ بِماءِ الشَأْنِ وَاحْتَفِلا لَيسَ الفُقودُ وَلا الهَلْكى بِأَمْثالِ

أَمّا حَصانُ فَلَم تُحْجَبْ بِكِلَّتِها[2] قَدْ طُفْتُ في كُلِّ هَذا الناسِ أَحْوالي

عَلى امْرِئٍ سُوقَةٍ مِمَّنْ سَمِعْتُ بِهِ أَنْدَى وَأَكْمَلَ مِنهُ أَيَّ إِكْمالِ

أَوْهَبَ مِنهُ لِذِي أَثْرٍ وَسابِغَةٍ وَقَيْنَةٍ عِندَ شَرْبٍ ذاتِ أَشْكالِ

وَخارِجِيٍّ يَزُمُّ الأَلْفَ مُعتَرِضاً وَهَوْنَةٍ ذاتِ شِمْراخٍ وَأَحْجالِ

أَبا دُلَيْجَةَ مَنْ يُوصَى بِأَرمَلَةٍ أَمْ مَنْ لِأَشْعَثَ ذي طِمْرَينِ طِمْلالِ

أَمْ مَنْ يَكونُ خَطيبَ القَوْمِ إِذْ حَفَلوا لَدى مُلوكٍ أُولي كَيْدٍ وَأَقْوالِ

أَمْ مَنْ لِقَوْمٍ أَضاعُوا بَعْضَ أَمْرِهِمُ بَيْنَ القُسوطِ وَبَيْنَ الدِّينِ أَزوالِ

خافُوا الأَصِيلَةَ وَاعتَلَّتْ مُلوكُهُمُ وَحُمِّلوا مِنْ أَذَى غُرْمٍ بِأَثْقالِ

---

[1] جَمَّ الماءَ: تَرَكه ليجتمع. والمقصود أكثِروا عليه البكاء بدمع مدرار.

[2] الكلة: الغطاء الساتر والحجاب.

أَبا دُلَيْجَةَ مَنْ يَكْفي العَشيرَةَ إِذْ ... أَمْسَوا مِنَ الأَمْرِ في لَبْسٍ وَبَلْبالِ
أَمْ مَنْ لِأَهْلِ لَوِيٍّ في مُسَكَّعَةٍ ... في أَمْرِهِم خالَطُوا حَقّاً بِإِبْطالِ
أَمْ مَنْ لِعادِيَةٍ تُرْدِي مُلَمْلَمَةٍ ... كَأَنَّها عارِضٌ مِنْ هَضْبِ أَوْعالِ
وَما خَلِيجٌ مِنَ الْمَرُّوتِ ذُو حَدَبٍ ... يَرْمي الضَّرِيرَ بِخُشْبِ الطَلْحِ وَالضَّالِ
يَوْماً بِأَجْوَدَ مِنْهُ حِينَ تَسْأَلُهُ ... وَلا مُغِبٌّ بِتَرْجٍ بَيْنَ أَشْبالِ
لَيْثٌ عَلَيهِ مِنَ البَرَدِيِّ هِبرِيَةٌ ... كَالْمَرْزُبانِيِّ عَيَّالٌ بِآصالِ
يَوْماً بِأَجْرَأَ مِنْهُ حَدَّ بادِرَةٍ ... عَلَى كَمِيٍّ بِمَهْوِ الحَدِّ قَصَّالِ
لا زالَ مِسْكٌ وَرَيْحانٌ لَهُ أَرَجٌ ... عَلَى صَداكَ بِصافِي اللَّونِ سَلْسالِ
يَسْقِي صَداكَ وَمُمْساهُ وَمُصْبَحَهُ ... رِفْهاً وَرَمْسُكَ مَحْفوفٌ بِأَظْلالِ
وَرَّثْتَني وُدَّ أَقْوامٍ وَخُلَّتَهُم ... وَذِكْرَةً مِنْكَ تَغْشاني بِإِجْلالِ
فَلَنْ يَزالَ ثَنائي غَيْرَ ما كَذِبٍ ... قَوْلَ امْرِئٍ غَيْرَ ناسِيهِ وَلا سَالِي
لَعَمْرُ ما قَدَرٍ أَجْدَى بِمَصْرَعِهِ ... لَقَدْ أَخَلَّ بِعَرْشي أَيَّ إِخْلالِ
قَدْ كانَتِ النَّفْسُ لَو سَامُوا الفِداءَ بِهِ ... إِلَيْكَ مُسْمِحَةً بِالأَهْلِ وَالمالِ

هذا آخرُ الشِّعْرِ.

قال أبو العبَّاسِ:

قولُه: لِذِي أَثْرٍ، يعني سَيْفاً له فِرَنْد وهو الرَّوْنق.

وقوله: يَزُمُّ الأَلْفَ، أي يتقدَّمُها كأنه يقودُها، يعني فَرَساً. والخارجيُّ: الذي يخرجُ بنفسه. أنشدني الرّياشي لأعرابيٍّ يمدحُ عبدَ اللهِ بنَ جَعْفر الهاشميَّ[1]:

أَبا العبَّاسِ لسْتَ بخارِجيٍّ وما إنْ بحْرُ جُودِكَ بانْتحالِ

وقولُه: ذاتِ شِمْراخٍ، فإنما يعني فَرَساً ذاتَ غُرَّة. والشِّمْراخ مِنَ الغُرَر: السائلةُ في الوجْه إذا دقتْ وطالتْ.

وقولُه: لِأَشْعَثَ ذي طِمْرَين، إنما يريدُ أنه يَجبُر الفقير. والأَطلسُ: الأغْبَر، ومِنْ ثَمَّ قيل للذِّئبِ: أَطْلس. وإنما نُسِبَ الفقيرُ إلى الطُّلْسة لسوءِ حالِه ودَناءة لِبْسته.

والأَقْوال: الْمُلوك، واحدهم قَيْل، وأصلُه قَيِّل فخفَّفوه كما قالوا في الميِّت: مَيْت، وفي الهيِّن والليِّن: هَيْن ولَيْن. وقالوا في الجمْع: أقوال كما قالوا في الميْت: أموات، ويقولون: هو من مَقاوِلة كِندة.

والقُسوط: العِصيان. يقال: قَسَطَ يَقْسِطُ إذا جارَ وخالَفَ. قال اللهُ عزَّ وجلَّ: (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا). ويقال: أَقْسَطَ يُقْسِطُ إذا عَدَلَ، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ).

---

[1] عَبْدُ اللهِ بنُ جَعْفَرِ بنِ أَبِي طَالِبٍ الهَاشِمِيُّ الجَوَادُ ابْنُ الجَوَادِ ذِي الجَنَاحَيْنِ جعفر الطيار، لَهُ صُحْبَةٌ، وَرِوَايَةٌ، وعِدَادُهُ فِي صِغَارِ الصَّحَابَةِ.

وقولُه: بَيْنَ القُسوطِ وَبَيْنَ الدِّينِ، يقول: هم بين الطاعة وبين المعصِية. والأزوالُ هم المتصرِّفون. يقال: رجلٌ زَوْلٌ وقَوْم أَزْوال. وأنشَدَني التَّوَّزي:

وقدْ أَقودُ بالكِرامِ الأَزْوالْ مُعَدِّياً لِذَاتِ لَوْثٍ شِمْلَالْ[1]

وقولُه: واعتلَّت ملوكُهم، أيْ لم يُعطوهم شيئاً. فذلك قولُه خافوا الأصيلة واعتلَّت ملوكُهم أي خافوا أن يُستأصلوا.

وقولُه: وحُمِّلوا، أيْ لزِمَتْهم حَمالات وغُرم، فهو كان يُصلح هذا كلَّه بالنَّجدة والغُرم.

وقولُه: وذاتِ أوْغالِ، هي هَضبة معروفة بعينِها، والمرُّوت: أرضٌ بعينِها فيها نباتٌ ومَسايل، وهي من أرضِ العالية.

وقولُه: يَرْمي الضَّريرَ بِخُشْبِ الطَلْحِ وَالضَّالِ، الضَّرير: ضريرُ الوادي، وهو ناحيتُه. وقوله: كالمرْزباني يريد كِسْرى، وإنما يعني ها هنا الأَسَد، فيقول هو منفردٌ بغَيْضَتِه تَهابُه الأُسْد أنْ تنزلَ معه، كما قال أبو زُبيد[2]:

أَفَرَّ عَنْهُ بَني الخالاتِ جُرأتُهُ لا الصَّيدَ يُمْنَعُ مِنْهُ وَهْوَ مُمْتَنِعُ

---

[1] نسبه الزبيدي في تاج العروس من جواهر القاموس لِكَثِيِّرِ بن مَزَرِّدٍ.

[2] أبو زبيد الطائي حرملة بن المنذر بن معد يكرب بن حنظلة، يتصل نسبة بيعرب بن قحطان. شاعر جاهلي من قبيلة طيئ في اليمن. والبيت من قصيدته التي مطلعها: مَن مُبلِغٌ قَومَنا النائينَ إذ شَحَطوا أنَّ الفُؤادَ إلَيهِم شَيِّقٌ وَلِعُ.

وقولُه: رِفْهاً يقول: دائماً، في كلِّ يومٍ يَسْقي صداه.

وقولُه: حمَّلتني وُدَّ أقوامٍ، يعني أهلَ بيتِ فَضالة.

باب من التعازي والمواعظ

ثمَّ نعودُ إنْ شاء اللهُ إلى الشِّعْر ونَصِلُه بمثلِ هذا، والقوةُ للهِ جلَّ ذِكرُه.

يُروَى عنْ جعْفرِ بنِ محمدٍ[1] أنَّه قال: مات أخٌ لبعضِ مُلوكِ اليَمَنِ فعزَّاه بعضُ العربِ فقال في تعزيتِه: اعلمْ أنَّ الخَلْقَ للخالق، والشُّكْرَ للمُنعِم، والتسليمَ للقادِر، ولا بدَّ مما هو كائن، ولا سبيلَ إلى رُجوعِ ما قد فات. وقد أقام معكَ ما سيذهبُ عنكَ أو ستتركُه، فما الجزعُ مما لا بدَّ منه، وما الطمعُ فيما لا يُرجى؟ وما الحيلةُ فيما سينتَقِل عنكَ أو تنتقِلُ عنه؟ قد مضتْ لنا أصولٌ نحن فروعُها، فما بقاءُ الفرعِ بعد أصلِه؟ وأحقُّ الأشياء عند المصائب الصبرُ. وأهلُ هذه الدنيا سَفْرٌ لا يحُطُّون الرِّكاب إلا في غيرِها. فما أحسَنَ الشكرَ عند النِّعَم، والتسليمَ عند الغِيَر. فاعتبِرْ بمن قد رأيتَ من أهلِ الجَزَع، هل رُدَّ أحدٌ منهم إلى شيءٍ مِنْ دَرَكِ؟ واعلمْ أنَّ أعظمَ من المصيبةِ سوءُ الخَلَف منها. وإنما ابتلاكَ الْمُنعِمُ وأخذ منكَ الْمُعْطِي، وما تَرَك أكثرُ. فإن نسيتَ الصبرَ فلا تغفلْ عن الشكْر، وكُلًّا فلا تَدَعْ. وما أصغرَ المصيبةَ اليومَ مع عِظَمِ المصيبةِ

---

[1] جعفر بن محمد الصادق، (٨٠ – ١٤٨هـ): إمام من أئمة المسلمين وعالم جليل وعابد فاضل من ذرية الحسين بن علي بن أبي طالب وله مكانة جليلة عظيمة لدى جميع المسلمين.

في غدٍ، فاستقْبِلِ المصيبةَ بالحسَنةِ تستخلِفْ بها نِعَماً؛ فإنما نحن في الدنيا أغراضٌ تَنْتَضِلُ فيها المنايا، ونُهبٌ للمصائب، مع كلِّ جَرْعةٍ شَرَقٌ، وفي كلِّ أكلةٍ غَصَصٌ. لا تُنالُ نعمةٌ إلا بفراقِ أخرى، ولا يستقبِلُ مُعمَّرٌ يوماً من عُمُرِه إلا بهدْمِ آخرَ من أجَلِه، ولا تحدُثُ له زيادةٌ في أكْلة إلا بنفادِ ما قبْلَها مِن رزْق، ولا يحيا له أثرٌ إلا مات له أثر. فنحن أعوانُ الحُتوفِ على أنفسِنا، وأنفسُنا تسوقُنا إلى الفَناء، فمن أين نَرجو البقاءَ وهذا الليلُ والنهارُ لا يرفعان من شيءٍ شرفاً إلا أسرعا في هدْم ما رَفَعا وتفريقِ ما جَمَعا، فاطلبِ الخيرَ وأهلَه، واعْلَمْ أنَّ خيْراً مِنَ الخيْرِ مُعْطِيه، وشراً مِنَ الشَّر فاعلُه. والسَّلام[1].

قال أبو العبَّاس: وعن جُوَيريةَ بنِ أسماء[2] عنْ عمِّه أنَّ إخوةً ثلاثةً شَهِدوا يومَ تُسْتُر[3]، فاستُشهِدوا، فخرجتْ أمُّهم إلى السوقِ يوماً لبعضِ شأنِها، فتلقَّاها رجلٌ قد حَضَرَ أمرَهم فعرفتْه فسألتْه عن بَنِيها. فقال: استُشْهِدوا. فقالت:

---

[1] انظر: التعازي للمدائني.

[2] جويرية بن أسماء بن عبيد: تابعي محدِّث ثقة، توفي في سنة ثلاث وسبعين ومائة وحديثه محتج به في «الصحاح».

[3] تُسْتُر: مدينة إيرانية فتحها المسلمون عنوة سنة ١٧ هـ بقيادة أبي موسى الأشعري، كما أسر في الوقعة الهرمزان قائد جنود الفرس.

أمُقْبِلِين أمْ مُدْبِرِين؟ فقال: بل مُقْبِلِين. فقالتِ: الحمدُ للهِ، نالُوا الفوزَ وحاطُوا الذِّمار، بنفْسي هم وأمِّي وأَبي[1].

وقال خالدُ بنُ عطيةَ: قال عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ عندَ وفاةِ ابنِه عبدِ الملِك: الحمدُ لله الذي جعلَ الموتَ حتْماً واجِباً على خلْقِه، ثم سوَّى فيه بينَهم، فقال: (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ). فليعْلَمْ ذَوو النُّهى أنهم صائرون إلى قبورِهم، مُفْرَدون بأعمالِهم، واعلَموا أنَّ عندَ اللهِ مسألةً فاحصةً فقال جلَّ وعزَّ: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[2].

وقال يحيى بنُ إسماعيلَ بنِ أبي المهاجر[3] عن أبيه: استُشْهِد ابنٌ لأبي أُمامةَ الحِمْصي[4] فكتب عُمَرُ[5] إلى أبي أمامةَ: الحمدُ للهِ على آلائه وقضائه وحسْنِ بلائه. قد بلغني الذي ساق اللهُ إلى عبدِ اللهِ بنِ أبي أمامةَ من الشهادة. فقد

---

[1] انظر: التعازي للمدائني.

[2] انظر: السابق.

[3] أبوه إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر (٦١ – ١٣٢ هـ) تابعي وفقيه، وأحد رواة الحديث، ووالي إفريقية في خلافة عمر بن عبد العزيز.

[4] لم أعثر عليه.

[5] عمر بن عبدالعزيز.

عاش بحمدِ اللهِ مأموناً، وأفضَى إلى الآخرةِ شهيداً، وقد وَصَلَ إليكم من اللهِ خيرٌ كثيرٌ إن شاء الله[1].

وقال يزيدُ بنُ عمرَ الكلابيُّ[2]: قال رجلٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ عندَ وفاةِ ابنِه عبدِ الملِك[3]:

تَعَزَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ لِمَا قَدْ تَرَى يُغْذَى الصَّغِيرُ وَيُولَدُ

هَلِ ابْنُكَ إِلَّا مِنْ سُلَالَةِ آدَمٍ لِكُلٍّ عَلَى حَوْضِ الْمَنِيَّةِ مَوْرِدُ

وقال أبو البيْداءِ الأسَدي[4] عن شيخٍ من أهلِ الحرة، أن عُمَرَ بنَ عبدِ العزيزِ خَطَبَ الناسَ بعد وفاةِ ابنِه عبدِ الملِك، ونَهَى عن البُكاءِ عليه، وقال: إن اللهَ جلَّ ذِكْرُه لم يجعلْ لمسيءٍ ولا لمحسْنٍ خُلوداً في الدنيا، ولم يرضَ بما أعجبَ أهلَها ثواباً لأهلِ طاعتِه، ولا ببلائها عُقوبةً لأهلِ معْصيتِه، فكلُّ ما فيها من محبوبٍ متروكٌ، وكلُّ ما فيها من مكروهٍ مُضمحلٌّ. كَتَبَ على أهلِها الفَناء،

---

[1] انظر: التعازي للمدائني.

[2] أعرابي من بني كلاب

[3] انظر: الكامل للمبرد.

[4] لم أجده.

وأخبَرَ أنه يرثُ الأرضَ ومَنْ عليها. فاتَّقوا اللهَ، واعمَلُوا ليومٍ (لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا)[1].

ودَخَلَ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ على ابنِه عبد المِلك وكان موتُه بالطاعون، وكانوا يقولون: إذا مُسَّ الطاعون، وهو قرحةٌ، فوجِدَ لَيِّناً طُمِعَ لصاحبِه في البُرْءِ منه، وإن كان خَشِناً يُئِس من صاحبِه، فدَخَل عمرُ على ابنِه فقال: دعْني أمسَّ قرحتَك، فكرِه عبدُ المِلك أن يمسَّها أبوه فيجزعَ، وكانت خَشنةً، فقال أوَتُعفيني يا أميرَ المؤمنين؟ فعَلِم عمرُ لِمَ مَنَعَه، فقال ولِمَ يا بُنَيَّ؟ فواللهِ لأنْ أقدِّمَك فأجدَك في ميزاني أحبُّ إليَّ من أن تقدِّمَني فتجدَني في ميزانِك. فقال: وأنا واللهِ يا أميرَ المؤمنين لأنْ يكونَ ما تحبُّ أحبُّ إليَّ من أن يكون ما أحبُّ. فلمَسَها فقال: يا عبدَ المِلك (الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ). فقال: (سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)[2].

ورَوَى عبدُ اللهِ بنُ مسلم[3] وغيرُه أن خَنْساءَ دخلَتْ على عائشةَ أمِّ المؤمنين وعليها صِدارٌ مِنْ شَعر، فقالت لها: يا خنْساءُ، أتتَّخِذين الصِّدارَ وقد نَهَى

---

[1] انظر: التعازي للمدائني.

[2] انظر التعازي للمدائني.

[3] هناك أكثر من واحد اسمه عبدالله بن مسلم، ولم أستطع تحديد المقصود.

رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ عنه؟[1] فقالت: يا أمَّ المؤمنين، إنَّ زوْجي كان رجلاً مِتلافاً فأملقْنا فقال: لو أتيتِ معاويةَ فاستعنتِه! فلقِيَني صَخْرٌ أخي فقال: أين تُريدين؟ فأخبرتُه، فشاطَرني مالَه فأتلَفَه زوْجي، ففَعَلَ ذلكَ ثلاثَ مَرَّاتٍ، فقالتِ امرأتُه: لو أعطيتَها من شِرارها، تعني الإبِلَ، فسمعْتُه يقول:

واللهِ لا أمنحُها شِرارَها ولو هلكت عطَّلتْ خمارَها

واتّخَذَتْ من شَعْرٍ صِدارَها

فلما هَلَكَ اتخذْتُ هذا الصِّدارَ، ونذرْتُ لا أضعُهُ حتى أموت[2].

وقال أبو محمودٍ[3]: قالتِ الخنساءُ: كنتُ أبكي صخراً على ما فاتَه من الحياة، فأنا اليومَ أبكي له منَ النَّار[4].

ويُروى أن عائشةَ رضي اللهُ عنها أنشدتْها الخنْساءُ بعضَ أشعارِها في صخْر، أحسبُه قولَها[5]:

---

[1] لم أعثر في المنهيات على نهي للنبي عن لبس الصدار,

[2] انظر التعازي للمدائني، والكامل للمبرد.

[3] هكذا، وهو عند المدائني: أبو محمد. قال المدائني في هذا الموضع من التعازي: قال أبو محمد: قالت خنساء: كنت أبكي لصخرٍ على الحياة، فأنا اليوم أبكي له من النار.

[4] انظر التعازي للمدائني.

[5] ديوان الخنساء.

أَلَا يَا صَخْرُ إِنْ أَبْكَيْتَ عَيْنِي لَقَدْ أَضْحَكْتَنِي دَهْراً طَوِيلَا
بَكَيْتُكَ فِي نِسَاءٍ مُعْوِلَاتٍ[1] وَكُنْتُ أَحَقَّ مَنْ أَبْدَى العَوِيلَا
دَفَعْتُ بِكَ الخُطوبَ وَأَنْتَ حَيٌّ فَمَنْ ذَا يَدْفَعُ الْخَطْبَ الْجَلِيلَا؟
إِذَا قَبُحُ البُكَاءُ عَلَى قَتِيلٍ رَأَيْتُ بُكاءَكَ الْحَسَنَ الْجَمِيلَا

فقالت لها عائشةُ: أتبكين صخْراً وإنما هو جمرةٌ في النار؟ قالت: يا أمَّ المؤمنين، ذلك واللهِ أشدُّ لجَزَعي عليه[2].

وقال مَسْلَمَةُ[3]: لما قُتِل عبدُ اللهِ بنُ عامرِ بنِ مسمع بالزاوية[4]، أتَوُا الحَجَّاجَ برأسِه، فقال اذهبُوا برأسِه إلى عامرِ بنِ مسمع، يعني أباه، فأَتَوْه به، فجعَلَه في ثوبِه وأقبلَ به إلى الحَجَّاج وهو يَبْكي، فقال: أجزِعْتَ عليه؟ فقال لا، بل جزِعْتُ له منَ النار. فإن رأى الأميرُ أنْ يأذنَ لي في دفنِه، فأَذِن له، فدَفَنَه[5].

---

[1] معولات: باكيات.

[2] انظر: أمالي الزجاجي، ونثر الدر في المحاضرات للآبي.

[3] مسلمة بن محارب الزيادي الكوفي الراوي. وقد أكثر المدائني النقل عنه.

[4] منطقة بالعراق.

[5] وقد رواها المدائني في التعازي وذكر الأعلام فيها على النحو الآتي: قُتل ابنٌ لعبد الملك بن عامر بن مسمعٍ بالزاوية، فاحتزُّوا رأسه فأتَوا به الحَجَّاج، فقال: اذهبوا برأسه إلى مسمع بن مالك بن مسمع؛ فأتَوا به، فجعله في ثوبه، وأقبل به إلى الحجاج، وهو يبكي. فقال الحجاج: أجزعت عليه؟ قال: لا، بل جزعت له من النار، فإن رأى الأمير أن يأذن لي في دفنه، فأذِن له، فدفنه.

وقال مَسْلَمَةُ بنُ مُحارِب: قُتِل معاويةُ بنُ سفيانَ بنِ معاويةَ بنِ يزيدَ بنِ المهلَّبِ في الحربِ التي كانت بين قتيبةَ[1] وبين سفيانَ بنِ معاويةَ. فلما ولي سفيانُ البصرةَ أرسَلَ إلى خالدِ بنِ صفوان أنَّ ابنَك قُتل، وقُتل ابْني فأرسلتُ إليكَ أتعزَّى بكَ وتتعزَّى بي. فقال: أصلَحَ اللهُ الأميرَ، أنا وأنت كما قالتِ الباكيةُ:

أسعِدْنَني[2] أَخَواتي فالويلُ لي ولكُنَّهْ

فقال سفيانُ: جَدَّدْتَ لي حُزْناً. فقال: أصلَحَ اللهُ الأميرَ، فليسَلِّ عنكَ ما جددتُ لكَ العلمُ بأنكَ غيرُ باقٍ[3].

وقال كُليبُ بنُ خَلَف: قال عبدُ الكريم المازني لعبدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ ابنِ الأهْتم: كيف كان جزعُكَ على أهلِ بيتِكَ؟ فَقَالَ: مَا تَرَكَ حُبُّ الْغَدَاءِ وَالْعَشَاءِ حُزْنًا عَلَى أَحَدٍ[4].

---

[1] عند المدائني: سلم بن قتيبة.

[2] أَسْعَدَتِ النائحةُ الثَّكْلَى: أَعانتها على البكاء والنَّوْح. ومن ذلك ما رواه الطبراني في المعجم الأوسط، عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ، قَالَتْ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ مِمَّا أَمَرَنَا بِهِ مِنَ الْمَعْرُوفِ: أَنْ لَا نَنُوحَ» ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ نِسَاءَ آلِ فُلَانٍ أَسْعَدْنَنِي، فَلَنْ أُبَايِعَكَ حَتَّى أُسْعِدَهُنَّ، قَالَتْ: فَأَسْعَدَتْهُنَّ، ثُمَّ بَايَعَتْهُ، فَلَمْ تَفِ امْرَأَةٌ غَيْرُهَا، وَأُمُّ سُلَيْمٍ.

[3] انظر: التعازي للمدائني.

[4] انظر: التعازي للمدائني.

وقال يزيدُ بنُ عِياضِ بنِ جُعْدُبَةُ[1]: كان عبدُ الله بنُ الزُّبير إذا أصابتْه مصيبةٌ يقول: إنِ ابتُلِيتُ فقد قُتل أبي وإمامي عُثمانُ. فصَبَرْتُ[2].

وقال قائلٌ لعبدِ الملِك بنِ مروان: أأدركْتَ قتلَ أميرِ المؤمنينَ عثمانَ؟ فقال: نعم. قال: فكيف كان جزعُكَ عليه؟ قال: شَغَلني الحنقُ لأنْ أُدركَ بثأرِه عن الحزْنِ عليه[3].

وقال أبو عبدِ الرحمنِ العجلانيُّ عن إسماعيلَ بنِ يَسار: مات ابنٌ لأرطاةَ بنِ سهيَّةَ المريِّ[4]، مُرَّة غطفان، يقال له عمرٌو، فأقام على قبرِه حَوْلاً، يأتيه كلَّ غَداةٍ فيقول: يا عمرُو، هل أنت غادٍ معي؟ فلما كان رأسُ الحوْلِ تمثَّل قولَ لَبيد[5]:

---

[1] يزيد بن عياض بن جعدبة الليثي: مدني سكن البصرة ومات بها. وقالوا إنه ضعيف الرواية.

[2] انظر: التعازي للمدائني.

[3] قال الجاحظ في البيان والتبيين: قال أبو الحَسَن: خاض جلساءُ عبدِ الملك يَوْمًا فِي مقتل عُثْمَان، فَقَالَ رجلٌ منهم: يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ، فِي أَي سنك كنت يومئذٍ؟ قَالَ: كنت دون المحتَلَم. فَقَالَ: فَمَا بلغ من حزنك عَلَيْهِ؟ قَالَ: شغلني الغضبُ لَهُ عَن الْحزن عَلَيْهِ.

[4] أرطأة بن سهية المري: شاعر فصيح، من شعراء دولة بني أمية وصدر الإسلام لم يسبقها ولم يتأخر عنها. وكان أمرأ صدق شريفاً في قومه جواداً ، ونسب إلى امة سهية حتى اشتهر بها.

[5] في ديوانه من قصيدته التي مطلعها: تَمَنّى اِبنَتايَ أَن يَعيشَ أَبوهُما وَهَل أَنا إِلّا مِن رَبيعَةَ أَو مُضَرْ

إِلَى الْحَوْلِ ثمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فقدِ اعتَذَرْ[1]

ثم تَرَك قبرَ ابنِه[2].

وقال أبو عَمرِو[3] بنُ يزيدَ: مات أخٌ لمالكِ بنِ دينارٍ[4] فبَكَى وقال: يا أخي لا تقرُّ عيني بعدَك حتى أعلمَ أفي الجنةِ أنتَ أمْ في النار، ولا أعلمُ ذلك حتى ألحقَ بك[5].

---

[1] وفي شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، عن أَبِي عُبَيْدَةَ مَعْمَرِ بْنِ الْمُثَنَّى الْبَصْرِيِّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ؛ لِأَنَّ اسْمَ الشَّيْءِ هُوَ الشَّيْءُ؛ قَالَ لَبِيدٌ: إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا ... وَمَنْ يَبْكِ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدِ اعْتَذَرْ

[2] قال المدائني في التعازي: ثم ترك أرطاةُ قبر ابنه، فقال:

وقفت على قبر ابن ليلى فلم يكن ... وقوفي عليه غير مبكىً ومُجزِعِ

هل انت ابن ليلى إن نظرتك رائحاً ... مع الركب أو غادٍ غداة غدٍ معي

فلو كان لبى شاهداً ما أصابني ... سهود على قبرٍ بأحجار أجزعِ

فما كنت إلا والهاً بعد زفرةٍ ... على شجوها بعد الحنين المرجَّعِ

متى لا تجد تنصرف لطياتها ... من الأرض أو ترجع لإلفٍ ومرتعِ

على الدهر فاعتب، إنه غير معتبٍ ... وفي غير من قد وارت الأرض فاطمعِ

[3] وعند المدائني: أبو عمر.

[4] مالك بن دينار البصري: من أعلام التابعين، قال الذهبي: «علم العلماء الأبرار، معدود في ثقات التابعين. ومن أعيان كتبة المصاحف، كان من ذلك بلغته».

[5] انظر: التعازي للمدائني.

وقال مَسْلَمَةُ بنُ مُحارِب: لما أتتْ معاويةَ وفاةُ زيادٍ[1] استرجَعَ وقال[2]:

وَأفْرِدْتُ سَهْمًا في الكِنَانَةِ وَاحِدًا سَيُرمَى بِهِ أَو يَكْسِرَ السَّهمَ كَاسِرُهُ

وقال أبو زكريا العجلاني وغيرُه إن معاوية نُعي إليه سعيد بن العاصي وعبد الله بن عامر فاسترجَعَ وقال[3]:

إِذَا ماتَ مَنْ خَلْفَ امْرِئٍ وَأَمَامَهُ وَأُفْرِدَ مِنْ جِيرَانِهِ فَهُوَ سَائِرُ

وقال عبدُ اللهِ بنُ مسلمٍ: بكى رجلٌ على شاةٍ له أصيبَ بها فأكثَرَ، فرآه رجلٌ من باهلةَ يُقال له الحارثُ بنُ حبيبٍ فقال[4]:

يا أيُّها الباكي على شاتِهِ يبكي بكاءً غيرَ إسرارِ
إنَّ الرزيئاتِ وأمثالَها ما لقِيَ الحارثُ في الدّارِ
دعا بني معنٍ وأشياعَهم فكلُّهم يعدو بمحفارِ

---

[1] زياد أخوه المعروف بزياد ابن أبيه.

[2] انظر: التعازي للمدائني.

[3] انظر: التعازي للمدائني، وتهذيب الآثار مسند عم للطبري.

[4] انظر: التعازي للمدائني، والكامل للمبرد.

وكان للحارثِ المذكورِ عشرةُ بَنين، فحَلَبَ يوماً في علبةٍ ووضَعَها فمَجَّ فيها أسْوَدُ ساخ[1]، فبعث بالعلبةِ إلى بَنيه، وهو لا يدْري، فشرِبوها فماتوا جميعاً. وقيل: بل كانوا سبعةً فسَقَطَ عليهم حائطٌ فقتلهم.

وقال خالدُ بنُ يزيدَ بنِ بشرٍ: جزع سليمانُ بنُ عبد الملك على ابنِه أيوب، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إن رجلاً حدَّث نفسَه بالبقاء لغيرُ جيِّدِ الرأْي[2].

وقال صدقة بن عبد الله المازني: مات حنظلةُ بنُ عبد الله الأسيدي فجزعتْ عليه امرأتُه، فنهتْها جاراتُها وقلْن لها: إن هذا يُحبِط أجْرَك، فقالت[3]:

تَعَجَّبَ الدَّهرُ لمحزونةٍ تَبْكِي عَلَى ذِي شَيْبةٍ شَاحِبِ
إِنْ تَسْأَلِينِي الْيَوْمَ مَا شَفَّنِي أُخْبِرْكِ قَوْلًا لَيْسَ بِالْكَاذِبِ
إِنَّ سَوَادَ الْعَيْنِ أَوْدَى بِهِ حُزْنٌ عَلَى حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ

وكان حنظلةُ قد كَتَبَ لرسولِ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ .

وقال إسحاقُ بنُ أيوبَ وعامرُ بنُ حفص ومسلمةُ بنُ محاربٍ: قَدِمَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَمَعَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدُ بْنُ عُرْوَةَ، فَدَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ

---

[1] ثعبان.

[2] انظر: التعازي للمدائني.

[3] انظر: التعازي للمدائني.

عُرْوَةَ دَارَ الدَّوَابِّ فَضَرَبَتْهُ دَابَّةٌ فَمَاتَ، وَوَقَعَتْ فِي رِجْلِ عُرْوَةَ الْأَكَلَةُ[1]، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: اقْطَعْهَا وَإِلَّا أَفْسَدَتْ جَسَدَكَ، فَقُطِعَتْ بِالْمِنْشَارِ وَهُوَ يُسَبِّحُ لَمْ يُمْسِكْهُ أَحَدٌ، فَقَالَ: وَلَمْ يَدَعْ وِرْدَهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ: (لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا)[2].

وَقَدِمَ عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ذَلِكَ الْيَوْمَ قَوْمٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ، فِيهِمْ رَجُلٌ ضَرِيرٌ، فَسَأَلَهُ عَنْ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: بِتُّ لَيْلَةً فِي بَطْنِ وَادٍ وَلَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ عَبْسِيًّا يَزِيدُ مَالُهُ عَلَى مَالِي، فَطَرَقَنَا سَيْلٌ فَذَهَبَ مَا كَانَ لِي مِنْ أَهْلٍ وَوَلَدٍ وَمَالٍ، غَيْرَ صَبِيٍّ مَوْلُودٍ وَبَعِيرٍ، وَكَانَ الْبَعِيرُ صَعْبًا فَنَدَّ، فَوَضَعْتُ الصَّبِيَّ وَاتَّبَعْتُ الْبَعِيرَ فَلَمْ أُجَاوِزْهُ حَتَّى سَمِعْتُ صَيْحَةَ الصَّبِيِّ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ وَرَأْسُ الذِّئْبِ فِي بَطْنِهِ يَأْكُلُهُ، وَاسْتَدْبَرْتُ الْبَعِيرَ لِأَحْبِسَهُ فَنَفَحَنِي بِرِجْلِهِ فَأَصَابَ وَجْهِيَ فَحَطَمَهُ، وَذَهَبَتْ عَيْنَايَ، فَأَصْبَحْتُ لَا أَهْلَ وَلَا مَالَ وَلَا وَلَدَ، فَقَالَ الْوَلِيدُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى عُرْوَةَ فَيُخْبِرَهُ خَبَرَهُ، لِيَعْلَمَ أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ بَلَاءً[3].

---

[1] الأكلة: الغرغرينا. داء يصيب العضو فيتآكل منه.

[2] انظر: التعازي للمدائني، والاعتبار وأعقاب السرور لابن أبي الدنيا.

[3] انظر: الاعتبار وأعقاب السرور لابن أبي الدنيا.

وشَخَصَ عُرْوَةُ مِنْ عِنْدِ الْوَلِيدِ إِلَى الْمَدِينَةِ أَتَتْهُ قُرَيْشٌ وَالْأَنْصَارُ يُعَزُّونَهُ فِي ابْنِهِ وَرِجْلِهِ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى بْنُ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ[1]: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ قَدْ صَنَعَ اللهُ بِكَ خَيْرًا وَاللهِ مَا بِكَ حَاجَةٌ إِلَى الْمَشْيِ، فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ مَا صَنَعَ اللهُ إِلَيَّ: وَهَبَ سَبْعَةَ بَنِينَ فَمَتَّعَنِي بِهِمْ مَا شَاءَ ثُمَّ أَخَذَ وَاحِدًا وَأَبْقَى سِتَّةً وَأَخَذَ عُضْوًا وَأَبْقَى لِي خَمْسًا يَدَيْنِ وَرِجْلًا وَسَمْعًا وَبَصَرًا، ثم قال: اللهمَّ لئنْ كنتَ أخذْتَ لقد أبقيْتَ، ولئنْ كنتَ ابتليْتَ لقد عافيْتَ[2].

وكثُر الموتُ سنةً بالبصْرة، فقيل للحَسَن[3]: يا أبا سعيد، ألا ترى؟ فقال: مَا أَحْسَنَ مَا صَنَعَ رَبُّنا؛ أَقْلَعَ مُذْنِبٌ وَأَنْفَقَ مُمْسِكٌ، ولم يُغلَط بأحد[4].

وقال مخلَدُ بنُ حمزةَ عن عبدِ الملِك بنِ عميرٍ: دخل عبدُ اللهِ بنُ الزُّبير على أمِّه أسماءَ بنتِ أبي بكر، فقال لها: يا أمَّه، قد خذلني الناسُ فما بَقِي معي إلا من ليس عنده من الصَّبر أكثرُ من ساعة، والقومُ[5] يعطونَني ما أردتُ، فما رأيُك؟ قالت: أنتَ أعلمُ بنفسِك، إن كنتَ تعلمُ أنك على حقٍّ وإليه

---

[1] عيسى بن طلحة بن عبيد الله (ت ١٠٠ هـ): تابعي وأحد رواة الحديث النبوي، وأبوه الصحابي طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة.

[2] انظر: التعازي للمدائني، وحلية الأولياء لأبي نعيم.

[3] الحسن البصري.

[4] انظر: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي.

[5] يقصد خصومه بني أمية.

تدعو فامضِ على حقِّك، ولا تمكِّن غلمانَ بني أمية من نفسِك، فقال: وفَّقكِ الله، هذا رأيي، وإني لحَسَنُ الظنِّ بربي، فإن هلكتُ فلا يشتدَّ عليَّ جزعُكِ، فإنَّ ابنَكَ لم يتعمد إتيانَ دَنيَّة، ولا عملاً بفاحِشة، ولم يَجُرْ في حُكْم، ولم يَسْعَ بغدْر، ولم يكن شيء آثرَ عندَه من رِضا ربِّه. اللهمَّ إني لا أقول هذا تزكيةً لنفسي وأنتَ أعلمُ بي، ولكني أقولُه لتسْلُوَ عني[1].

وقال عليُّ بنُ مجاهد عن عبدِ الأعلى بن ميمون: دخل عبدُ اللهِ بنُ الزُّبيرِ على أمِّه: فقال: كيف أصبحتِ يا أمَّه؟ فقالت: إني لوجِعَة، قال: إن في الموتِ لراحةً. قالت: واللهِ ما أُحبُّ أن أموتَ حتى آتِيَ على أحدِ طرفيْك: إمَّا ظفرتَ فقرَّتْ عيني، وإما قُتلتَ فاحتسَبْتُك، وإنَّ أحبَّهما إليَّ أن تكون تُصلِّي عليَّ وتدفنَني. فما دمعتْ عينُه ولا عينُها. فما نَدْري مِن أيِّهما نَعْجَب[2].

ولقد قال: إني لا آمنُ إن قُتِلتُ أن أُصْلَب، فقالت له: يا بُني إنَّ الشاةَ لا تألمُ للسَّلخ. فحَمَلَ على أهلِ الشامِ وهو يتمثَّل[3]:

فلسْتُ بمبْتاعِ الحياةِ بسُبَّةٍ ولا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيةِ الموْتِ سُلَّما

---

[1] انظر: التعازي للمدائني، وتاريخ الطبري.

[2] انظر: التعازي للمدائني، والرياض النضرة في مناقب العشرة للطبري.

[3] والبيت للحصين بن الحمام المري. انظر: التذكرة الحمدونية لابن حمدون.

قال أبو الحَسَن المدائني: وأخبرنا يزيدُ بنُ عياضٍ قال: لما مات عليُّ بنُ الحسين ضربتِ امرأتُه على قبرِه فسطاطاً، فأقامت فيه حَولاً ثم رجعتْ إلى بيتِها. فسمِعوا قائلاً يقول: أدرَكُوا ما طَلَبوا؟ فأجابه مجيبٌ: بل يئسوا فانصرَفوا[1].

قال: وأخبرنا عليُّ بنُ مجاهد عن عبدِ الأعلى بنِ ميمون بنِ مهران عن أبيه قال: عزَّى رجلٌ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ عن ابنِه عبدِ الملِك، فقال عمرُ: الذي نزل بعبدِ الملِك أمرٌ كنا ننتظرُه، فلمّا وقَع لم نُنْكرْه[2].

قال: وأخبرنا بشرُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ قال: قام عمرُ[3] على قبرِ ابنِه عبدِ الملِك، فقال: رحمكَ اللهُ يا بُني، لقد كنتَ سارّاً مولوداً، وبارّاً ناشئاً، وما أحبُّ أني دعوتُك فأجبْتَني![4]

وقال الأصمعيُّ: دخل عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ على ابنِه عبدِ الملِك وهو يجودُ بنفسِه، فقال: كيف تجدُك يا بُني؟ قال: أجدُني في الموت، فاحتسِبْني يا أميرَ المؤمنين، فإن ثوابَ اللهِ خيرٌ لك مني. قال: رضي اللهُ عنكَ يا بُني، فإنك لم تزل تسُرُّ أباك وأنت في الخرق، وما كنتَ قطُّ أسرَّ إليَّ منكَ حيث يصيرك

---

[1] انظر: التعازي للمدائني.

[2] انظر: التعازي للمدائني.

[3] عمر بن عبدالعزيز.

[4] انظر: التعازي للمدائني.

الله في ميزاني، فرضِي اللهُ عنكَ وعن كلِّ شاهدٍ وغائبٍ دعا لكَ بخير. فجعل الناسُ يدعون له رجاءَ أن يدخلوا في دعوةِ عمر. وعاش عمر بعده أربعين يوماً ثم هلك[1].

وقال الأصمعيُّ: قال عمرُ: إنما الجزعُ قبلَ فواتِ الشيء، فإذا فاتَكَ الشيءُ فالْهُ عنه[2].

وقال الأصمعيُّ: كتب رجل إلى عمرَ يعزِّيه، فأجابَه: إني لم أزلْ في صِحة منه وسلامَة، موطِّناً نفسي على فراقِه. والسلام[3].

وأخبرنا أبو الحَسَن عمَّن حدَّثه عن مَسْلَمَة قال: لما مات عبدُ المَلِك كشفَ أبوه عن وجهِه وقال: رحمَك اللهُ يا بُني، سُرِرتُ بك يومَ بشِّرتُ بك، ولقد

---

[1] انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر، والكامل في التاريخ لابن الأثير.

[2] وقد حكاها المدائني في التعازي على هذا النحو: وذكروا أن عمر بن عبد العزيز لما مات ابنه، رجع من الجنازة، فرأى قوماً يرمون، فلما رأوه أمسكوا. فقال: ارموا؛ ووقف عليهم. فرمى أحد الراميين، فأخرج؛ فقال له عمر: أخرجت، فقصر. ثم قال للآخر: ارم؛ فرمى فقصر، فقال له عمر: قصرت فبلغ. فقال له مسلمة: يا أمير المؤمنين، أيفرغ قلبك لما يفرغ له، وإنما نقضت يدك من تراب قبر ابنك الساعة، لم تصل إلى منزلك بعد؟ فقال له عمر: يا مسلمة، إنما الجزع قبل المصيبة، فإذا وقعت المصيبة فاله عما فاتك.

[3] انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر.

عُمِّرتَ مسروراً بك، وما أتت عليَّ ساعةٌ أنا بك فيها أسرُّ مني بك من ساعتي هذه، أما والله إن كنتَ لتدعوَ أباكَ إلى الجنة[1].

وتحدَّث المدائنيُّ عن سليمانَ بنِ أرقَم أن عمرَ بنَ عبد العزيز قال لأبي قلابة وكان وَلِي غسْلَ ابنِه: إذا غسَّلته وكفَّنته فآذِنِّي به قبلَ أن تغطِّيَ وجهَه. فنظرَ إليه فقال: رحمكَ اللهُ يا بُني وغَفَرَ لكَ[2].

وتحدَّثَ عن يحيى بنِ إسماعيل بنِ أبي المهاجر عن أبيه قال: استُشهِد ابنٌ لأبي أمامة الحمصي فكتب عمر إلى أبي أمامة: الحمد لله على آلائه وقضائه وحسن بلائه. فقد بلغني الذي ساق الله إلى عبدِ الله بن أبي أمامة من الشهادة، فقد عاش بحمد الله في الدنيا مأموناً، وأفضى إلى الآخرة شهيداً، وقد وصل إليكم من الله خيرٌ كثير إن شاء الله[3].

وتحدَّثَ عن جعفرَ بنِ هلالِ بنِ خبَّاب عن أبيه قال: كتب عمرُ[4] إلى عمَّاله: إنَّ عبدَ الملِك بنَ عمرَ كان عبداً من عبيد الله أحسَنَ إليه وإلى أبيه فيه، أعاشه ما شاء ثم قبَضَه إليه. وكان ما علمتُ واللهُ به أعلمُ خيراً، من صالحي

---

[1] انظر: التعازي للمدائني.

[2] انظر: التعازي للمدائني.

[3] سبق ذكر هذا الخبر.

[4] عمر بن عبدالعزيز.

شبابِ أهلِ بيتِه قراءةً للقرآنِ وتحرياً للخيرِ. وأعوذ بالله أن تكونَ لي محبةٌ في شيءٍ من الأمور تخالفُ محبةَ الله، فإن ذلك لا يحسُن بي في إحسانِه إليَّ، وتتابُعِ نعَمِه عليَّ. وقد قلتُ عند الذي كان بما أمر اللهُ عزَّ وجلَّ أن أقولَ عند المصيبة ثم لم أجدْ بحمدِ اللهِ إلا خيراً، ولا أعلمُ ما بكتْ عليه باكية، ولا ناحت عليه نائحة، ولا اجتمع لذلك أحدٌ، فقد نَهَيْنا أهلَه الذين هم أحقُّ بالبكاء عليه[1].

وتحدَّثَ عن محمدِ بنِ عبَّاد أنه بلغه أن عبدَ الملك بن عمر لما مات، فخُرِج بسريره ليُصَلَّى عليه، صف عمرُ الناسَ خلفه ثم قام حيال صدره أو رأسه ثم قال: هكذا يقوم وليُّ الرجل من الرجل، ومن المرأة يقوم حيال وسطها. فلما صار إلى القبر دخل فيه وأخذ برأس ابنِه حتى وضعه في اللحد. ثم قال: هكذا يصنعُ وليُّ الرجل بالرجل. ثم قام على قبرِه وجعل القبرِ بينَه وبين القبلة. فلما رآه الناسُ قائماً قاموا، فقال: اجلِسوا، فإنما يجب القيامُ على أولياء الميت[2].

وتحدَّثَ عن مسلمةَ بنِ عثمانَ أن سليمانَ بنَ عبدِ الملِك قال لعمرَ بنِ عبدِ العزيز: هل يكون المؤمنُ في حالةٍ تنزل به المصيبةُ فلا يأ لمُ لها؟ قال لا يا أمير

---

[1] انظر: التعازي للمدائني.

[2] وفيه أن مصيبة عمر في ولده لم تشغله عن بيان الأحكام الشرعية في الجنائز.

المؤمنين، لا يكون أن يستوي عندك ما تحبُّ وما تَكره، أو تكون الضراءُ والسراءُ عند أحد سواءً. ولكن معوَّلَ المؤمنِ الصبرُ[1].

وقال عن عبد الله بن الأسود: لما مات عاصمُ بنُ عمرَ بنِ عبدِ العزيز جزع عليه أخوه عبدُ الله فرثاه. وأنشدني هذا الشعرَ الرياشي[2]:

إن تكُ أحزانٌ وفائضُ عَبْرةٍ أثَرْنَ دَماً من داخلِ الجوْفِ مُنْقَعا
تجرُّعتُها في عاصمٍ فاحتسَبْتَها لأعظمَ منها ما احتَسَى وتَجرَّعا
فليتَ المنايا كنَّ صادفْنَ غيرَهُ فعشْنا جميعاً أو ذهبْنَ بنا مَعا

وقال إبراهيمُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ حسنِ بنِ حسنِ بن علي بن أبي طالب يرثي أخاه محمد بن عبد الله[3]:

أبا الْمنازِلِ يا عَبْرَ الفَوارسِ[4] مَنْ يُفْجَعْ بِمِثْلِكَ في الدُّنيَا فَقَدْ فُجِعَا

---

[1] انظر: التعازي للمدائني.

[2] انظر: الفاضل للمبرد.

[3] انظر: التعازي للمدائني، والكامل، والفاضل للمبرد.

[4] قال المبرد في الكامل: قوله: "يا عبر الفوارس"، يصفه بالقوة منهم وعليهم، كما يقال: ناقة عبر الهواجر وعبر السرى.

اللهُ يعلمُ أنِّي لو خشيتُهُمُ وأوجسَ[1] القلبُ من خوفٍ لهم فَزعا
لم يقتلوكَ ولم أُسلِم أخي لهمُ حتّى نعيشَ جميعاً أو نموتَ مَعا

وكان قَتَلَه في المعركة عيسى بنُ موسى بنِ محمدِ بنِ علي بنِ عبدِ الله، وهو الذي قَتَلَ إبراهيمَ أخاه.

وقال أبو الحَسَن: أخبرنا العباسُ بنُ معاويةَ قال: عزَّى محمدُ بنُ الوليدِ ابنِ عتبةَ بنِ أبي سفيانَ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ عن ابنِه عبدِ الملِك فقال: يا أميرَ المؤمنين، ليشغلْك ما أقبل من الموت إليك عمَّن هو في شغلٍ عما دخل عليك، وأعدِدْ لما ترى عدةً تكونُ لك جُنَّةً من الحُزن وسِتراً من النار. فقال عمرُ: فهل رأيتَ حُزناً يُنكَر أو غفلةً أُنَبَّه لها؟[2] فقال: يا أمير المؤمنين، لو أن رجلاً تَرَكَ تَعزيةَ رجلٍ لعلِمه وانتباهه لكنتَه، ولكنَّ الله قضى أنَّ الذِّكرى تنفعُ المؤمنين[3].

---

[1] في الكامل: أو آنس. وفسر المبرد معنى آنس فقال: يقول: أحس، وأصل الإيناس في العين، يقال آنست شخصاً، أي أبصرته من بُعد، وفي كتاب الله عز وجل: {آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً} اهـ.

[2] يعني هل رأيت من ما تنكره وتلومني عليه.

[3] انظر: التعازي للمدائني.

وقال أبو الحَسَن: دَخَلَ مَسْلَمَةُ[1] على عمرَ في مرضِه، فقال: يا أميرَ المؤمنين، ألا توصي؟ قال: وهل لي مالٌ أوصي فيه؟ فقال مَسْلَمَة: هذه مئةُ ألفٍ أبعثُ بها إليك فهي لك أَوصِ فيها. قال: فهلَّا غيرَ ذلك يا مَسْلَمَة؟ فقال: وما ذاك يا أميرَ المؤمنين؟ قال: تردُّها من حيث أخذْتَها. فبكى مَسْلَمَة وقال: يرحمُك الله، فقد أَلَنْتَ منا قلوباً كانت قاسية، وزرعْتَ لنا في قلوب المؤمنين موَدَّة، وأبقيتَ لنا في الصالحين ذِكْراً[2].

وقال أبو الحَسَن عن سعيدِ بنِ عامرٍ عن محمدِ بنِ عمرِو بنِ علقمةَ قال: سمعتُ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ يخطبُ وهو يقولُ: مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ مِنْ نِعْمَةٍ فَانْتَزَعَهَا مِنْهُ فَعَاضَهُ مِمَّا انْتَزَعَ مِنْهُ صَبْرًا إِلَّا كَانَ الَّذِي عَاضَهُ خَيْرًا مِمَّا انْتَزَعَ مِنْهُ. ثم قَرَأَ: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ)[3].

---

[1] مَسْلَمة بن عبد الملك بن مروان بن الحَكَم بن أبي العاص بن أمية الأُموي القُرشي (٦٦ – ١٢١ هـ): أمير أُموي، وقائد عسكري، ووالٍ، وسياسي ورجل دولة. ابن خليفة وعم خلفاء وصديق عمر بن عبدالعزيز وابن عمه وأخو زوجته فاطمة بنت عبدالملك.

[2] انظر: التعازي للمدائني.

[3] انظر: الصبر والثواب عليه لابن أبي الدنيا، وشُعب الإيمان للبيهقي، والمصنَّف لابن أبي شيبة.

وقال مُقسِّم[1]، وهو مولىً لبعضِ أهلِ المدينة، يَرْثي عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ رحمه الله[2]:

لَوْ أَعْظَمَ الْمَوْتُ خَلْقًا أَنْ يُلاقيَهُ ... لأَعْظَمَ الموتُ أنْ يلقاكَ يا عمرُ

لَهْفِي عليكَ ولَهْفَ الموجَعِينَ مَعي ... على العُدُولِ التي تَعْيَا لها الجُفَرُ

ثَلَاثَةٌ مَا رَأَتْ عَيْنِي لَهُمْ شَبَهًا ... تَضُمُّ أَعْظُمَهُمْ فِي الْمَسْجِدِ الْجُدُرُ

فقدْ بلغْتَ ولم تَبلُغْ فِعالُهُمُ ... ما فَوْقَهُ لإمامٍ مُبصِرٍ بَصَرُ

قال أبو الحَسَن: قال محمدُ بنُ حربٍ الهلاليُّ: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ إِذَا عَزَّى قَالَ: آجَرَكُمُ اللَّهُ وَرَحِمَكُمْ، وَإِذَا هَنَّأَ، قَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكُمْ، وَبَارَكَ عَلَيْكُمْ[3].

---

[1] مقسِّم بن بجرة، توفي سنة إحدى ومائة. قال ابن قتيبة في المعارف، باب المنسوبون إلى غير عشائرهم وآبائهم: «مقسم» مولى «ابن عباس» وليس هو مولى «ابن عباس»، ولكنه مولى «عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب»، وإنما نسب إلى «ابن عباس» للزومه إياه، وانقطاعه إليه، وروايته عنه.

[2] والأبيات نسبت أيضاً لمحَارِب بْن دِثَارٍ. انظر: البداية والنهاية لابن كثير.

[3] رواه أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهَا الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا عَزَّى قَالَ: «آجَرَكُمُ اللَّهُ وَرَحِمَكُمْ» ، وَإِذَا هَنَّأَ، قَالَ: «بَارَكَ اللَّهُ لَكُمْ، وَبَارَكَ عَلَيْكُمْ». وهو مرسل.

وقال ابنُ الأعرابيِّ[1]: وقَفَ جعفرُ بنُ سليمانَ بنِ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ العباسِ على قبرِ أخيه محمدِ بنِ سليمانَ فقال: اللهمَّ إني أمسيتُ أرجوكَ له وأخافُك عليه، اللهم فصدِّق رجائي وأمِّن خوفي، إنك على كل شيء قدير[2].

قال الأصمعيُّ: ولَّى عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه كَعْبَ بْنَ سُورٍ[3] قضاءَ البصرة. قال أبو العباس[4]: وكان سببَ ذلك أنه حضر مجلسَ عمر، فجاءت امرأةٌ فقالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي صوامٌ، قوامٌ. فقال عمر: إن هذا لرجلٌ صالح، ليتني كنتُ كذا. فردَّتْ عليه الكلامَ فقال عمر كما قال. فقال كعبُ بنُ سور الأزدي: يا أمير المؤمنين، إنها تشكو زوجَها، تُخبِر أنه ليس

---

[1] ابن الأَعرابي أبو عبد الله محمد بن زياد الهاشمي: إمام وراوية وناسب وعلامة باللغة، له مصنفات أدبية كثيرة، ولد في ١٥٠ هـ ومات بسامراء في ٢٣١ هـ ويعد الأعرابي من أعلام أهل الكوفة وكان أحول، قال ثعلب: شاهدت مجلس ابن الأعرابي وكان يحضره زهاء مئة إنسان وكان يسأل ويقرأ عليه فيجيب من غير كتاب.

[2] في التعازي للمدائني: وقف محمد بن سليمان على قبر ابنه فقال... وفي بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر: وقف محمد بن سليمان عند قبر أبيه فقال... وفي أنس المسجون وراحة المحزون لصفي الدين الحلبي: وقف سليمان بن عبد الملك على قبر ولده أيوب فقال...

[3] كَعْبُ بْنُ سُورٍ الأزدي، تابعي من أهل اليمن، كانت وفاته في موقعة الجمل سنة ٣٦هـ جَاءَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ فَقَتَلَهُ.

[4] المبرِّد.

لها منه حظٌّ. فقال: عليَّ بزوجِها. فأُتي به، فقال له: ما بالُها تشكوك، وما رأيتُ امرأةً أكرمَ شكوى منها؟ فقال: يا أمير المؤمنين:

إنّي امرؤٌ أفزعني ما قد نزلْ في الحِجْرِ والنَّحلِ وفي السَّبْعِ

فقال له كعبٌ:

إنّ لها عليكَ حقّاً يا بعلْ فأوفِها الحقَّ وصُمْ ثَمَّ وصَلّْ

فقال عمرُ لكعبٍ: اقضِ بينهما. فقال: نعم، يا أميرَ المؤمنين، أحلَّ الله للرجلِ أَرْبعاً، فأوجبَ لكلِّ واحدةٍ ليلةً، فلها في كل أربعِ ليال ليلةٌ، ويصنعُ بنفسِه في الثلاثِ ما شاء. فألزمه ذلك. وقال لكعبٍ: اخرجْ قاضياً على البصرة[٢].

قال أبو العباس: اتصلَ هذا بخبر الأصمعي. فلم يزلْ عليها[٣] حتى قُتِلَ عثمانُ. فلما كان يومُ الجَمَل، خرج مع أهلِ البصرة وفي عنقِه مُصحف، فقتل هو يومئذ وثلاثةُ إخوة له أو أربعة. فجاءت أمُّهم فوجدتْهم في القتلى، فحملتْهم وجعلتْ تقول[٤]:

---

[١] يعني القرآن الكريم.

[٢] انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد.

[٣] يعني لم يزل سور قاضياً على البصرة.

[٤] انظر: أخبار القضاة لوكيع القاضي.

أيا عين جُودي بدمْعٍ سَرِبْ[1] على فِتيةٍ من خيارِ العربْ
فما ضرَّهمْ غيرُ حَيْنِ النُّفو سِ أيُّ أميريْ قُريشٍ غَلَبْ

وقال أبو الحَسَن: أخبرني مخبرٌ قال: كتب غيلانُ إلى رجلٍ من إخوانِه أصيب بابنِه فجزع عليه: أمَّا بعد. فإن اللهَ أعطاك هبَتَه، وجعل عليك أدَبَه ومؤنَتَه، وأنت تخشى فتنَتَه، فاشتدَّ بذلك سرورُك. فلما قبض اللهُ هبتَه، وكفاك أدبَه ومؤنتَه، وأمنتَ فتنتَه، اشتدَّ لذلك جزعُك، فأُقسِم بالله أن لو كنتَ تقياً لعُزِّيتَ على ما هُنِّئتَ عليه، ولهُنِّئتَ على ما عزِّيتَ عليه. فإذا أتاك كتابي فاصبرْ على الأمر الذي لا غِنى بك عن ثوابِه، ولا صبرَ لك على عقابِه. واعلمْ أن كلَّ مصيبة لم يُذهِب فرحُ ثوابِها حزنَها، فذلك الحزنُ الدائم[2].

وقال أبو الحَسَن: لما هَلَكَ ابنُ عمرَ بنِ ذَرٍّ[3] وقف عليه أبوه وهو مسَجَّى فقال: يا بُني، ما علينا من موتِك غَضاضة، وما بنا إلى أحد سوى الله من حاجة. فلما دُفن قام على قبره فقال: يا ذرُّ غفر اللهُ لك، لقد شَغَلَنا الحزنُ

---

[1] قال المبرد في الكامل: هذه الرواية سربْ، وقالوا معناه: جار في طريقه، من قولهم: انسرب في حاجته.

[2] لم أجد عند المدائني سوى العبارة الأخيرة.

[3] عُمَرُ بنُ ذَرِّ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ زُرَارَةَ الهَمْدَانِيُّ: الإِمَامُ، الزَّاهِدُ، العَابِدُ، الكُوْفِيُّ. قاص ثقة توفي عام ١٥٣ هـ.

لكَ عن الحزن عليك، لأنَّا لا ندري ما قلتَ وما قيل لك[1]. اللهم، إني قد وهبتُ له ما قصَّر فيه مما افترضتَه عليه من حقِّي، فهبْ لي ما قصَّر فيه من حقِّك، واجعل ثوابي عليه له، وزدْني من فضلك فإني إليك من الراغبين؟ فسُئل عنه فقيل: كيف كان معك؟ فقال: ما مشيتُ معه بليلٍ قطُّ إلا كان أمامي، ولا بنهارٍ قطُّ إلا كان خَلْفي، وما علا سطحاً قطُّ وأنا تحتَه[2].

قال أبو الحَسَن: أخبرني بعضُ قريش، يرفع الحديثَ إلى ابنِ عباس قال: هَلَكَ رجلٌ من أهل المدينة فشهِد جِنازتَه عبدُ الله بن العباس رضي الله عنهما فلما دُفِن الرجل قال بعضُ من شهِده: ليت شعري إلى ماذا صار صاحبُنا؟ فسمعه ابنُ عباس فقال: أما تدري؟ قال: لا والله، قال: لكني واللهِ أدري، قال اللهُ جلَّ ثناؤه: (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ)، وليس صاحبُنا من المكذِّبين الضالِّين. فإن أخطأه أن يكون من المقرَّبين فلن يخطئه أن يكون من أصحاب اليمين. قال: ففرح جميعُ القومِ بما سمِعوا[3].

---

[1] يعني سؤال الملَكين.

[2] انظر: التعازي للمدائني، والكامل والفاضل للمبرد.

[3] لم أجده في التعازي لأبي الحسن المدائني. ولعله في أحد كتبه المفقودة أو رواه عنه تلامذته.

وقال عن عوانة: لما بلغ خالدَ بنَ الوليد موتُ أبي بكرٍ رضي اللهُ عنه قال: الحمدُ للهِ الذي أمات أحبَّ خَلْقِه إليَّ، واستخلَفَ أبغضَ الأمَّةِ إليَّ. وقد استخلف عليكم أمينَ أُمَّتِكم، يعني أبا عُبيدةَ بنَ الجرَّاح[1].

وقال الأصمعيُّ: قام خالدُ بنُ الوليدِ على رأسِ أبي عبيدةَ، فسَتَره بردائه منَ الشمسِ، فقيل له: ما أردتَ إلى هذا؟ قال: أردتُ إعزازَ الإسلام[2].

وقال أبو الحَسَن عن محمدِ بنِ الفضلِ عن أبي حازمٍ قال: مات عُقبَةُ بنُ عياضِ بنِ غَنَمٍ الفهريُّ[3] فعزَّى رجلٌ أباه فقال: لا تجزعْ عليه، فقد قُتل شهيداً

---

[1] لم أجده في كتب الحديث، وكيف لي أن أجد مثل هذا مروياً عن الصحابة وهم أصحاب محمد وتلاميذه؟ وخالد بن الوليد جندي معروف عنه حسن السمع والطاعة والخُلُق، حتى لما استعمل عمر أبا عبيدة بن الجراح على الشام وعزل خالدَ بن الوليد قال خالد بن الوليد: بُعث عليكم أمين هذه الأمة سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح، وقال أبو عبيدة بن الجراح: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: خالدٌ سيفٌ من سيوف الله ونعم فتى العشيرة. وهكذا ربَّاهم رسول الله على الحب والأدب. وأخيراً يكفي أن عوانة راوي هذا الخبر متهم بوضع الأخبار. وإن كنت تريد ما يؤكد كلامي فانظر في الخبر الذى تلا هذا الخبر.

[2] هكذا هم أصحاب محمد، وهكذا كانت أخلاق بعضهم مع بعض.

[3] عياض بن غنم الفهري القرشي: صحابي أسلم قبل صلح الحديبية وكان قد شهدها. أرسله الخليفة أبو بكر الصديق لغزو العراق وعمل تحت قيادة خالد في العراق وبعدها في الشام ضد الروم. وكان مع أبي عبيدة بن الجراح في فتح شمال سوريا وينسب إليه فتح حلب وإعزاز، وشهد اليرموك وكان من أمراء الكراديس فيها.

وكان من سادةِ الجيشِ فقال: وكيف لا أصبرُ وقد كان في حياتِه زينةَ الحياةِ الدنيا، وهو اليومَ منَ الباقياتِ الصالحات[1].

وأَخبرَ عن عامرِ بنِ الأسْود قال: استُشهِد لمولىً لبني نوْفل بَنون، فعزَّاه رجلٌ فقال: آجَرَك اللهُ في الباقين، ومتَّعَك بالفانِين. فقال له رجلٌ لعلَّك غلطْتَ. فقال: لا، إنَّ اللهَ يقول: (مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ)[2].

وأَخْبَرَ عن عُمرَ بنِ مُجاشِع[3] قال: قال نافعٌ[4]، مَوْلى عمرَ بنِ الخطَّاب[5]: سَمِعَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ رجلاً يقول: نسألُ اللهَ تمامَ النِّعمة. فقال: أتدري ما تمامُ النِّعمة؟ إنَّ تمامَ النعمةِ النجاةُ منَ النارِ[6].

---

[1] انظر: التعازي للمدائني.

[2] انظر: التعازي للمدائني.

[3] عمر بن مجاشع المدائني: صدوق حسن الحديث.

[4] نافع المدني مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب، من أئمة التابعين بالمدينة المنورة، وأحد رواة الحديث النبوي الثقات، روى عن ابن عمر وغيره من الصحابة، كان عالماً بالفقه، كثير الرواية للحديث، ويعد مالك بن أنس أشهر من لازمه وحدَّث عنه. وقيل عنه: «لا يعرف له خطأ في جميع ما رواه». حديثه في كتب الصحاح الستة. توفي سنة ١١٧هـ.

[5] هكذا عند المدائني في التعازي، والصواب مولى عبدالله بن عمر كما في ترجمته السابقة.

[6] أخرج العراقي نحوه في تخريج الإحياء عن معاذ بن جبل بإسناد حسن، ولفظه: قال رجلٌ: اللَّهمَّ إنِّي أسألُك تمامَ النِّعمةِ فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وهل تعلمُ ما تمامُ النِّعمةِ؟ قال: لا، قال: تمامُ النِّعمةِ دخولُ الجنَّةِ. وضعف الألباني إسناده.

وسمِع صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ رجلاً يقول: اللهمَّ، ارزقْني صَبراً. فقال: يا عبدَ الله، سألتَ بلاءً، فاسألِ اللهَ العافيةَ[1].

وعن عُمرَ بنِ مجاشع قال: قال رجلٌ لابنِ عُمرَ[2] وعزَّاه: أعظَمَ اللهُ أجرَك. فقال ابنُ عمر: نسألُ اللهَ العافية[3].

قال: وهذا حديثٌ نُمليه وقد مضى في صدْر الكتاب ناقصاً فأتممناه في هذا الموضع ليتوفَّر ويتصلَ به ما بعدَه:

---

[1] هذا الحديث أورده الألباني تتمة للحديث السابق، وألحقه به في الحكم، فقال في السلسلة الضعيفة: (٤٥٢٠) وسمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رجلاً وهو يقول: اللهم إني أسألك الصبر، قال: "سألت الله البلاء؛ فاسأله العافية". قلت: وهذا إسناد فيه ضعف؛ أبو الورد: هو ابن ثمامة بن حزن القشيري؛ لم يوثقه أحد.

[2] عبد الله بن عمر بن الخطاب (١٠ ق.هـ – ٧٣ هـ) محدث وفقيه وصحابي من صغار الصحابة، وابن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وأحد المكثرين في الفتوى، وكذلك هو من المكثرين في رواية الحديث النبوي. كان ابن عمر من أكثر الناس اقتداءً بسيرة النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومن أكثرهم تتبُّعًا لآثاره.

[3] انظر: التعازي للمدائني، والكامل للمبرد. قال المبرد تعليقاً على هذا الخبر: إنما دعا بأن يكثر ما يؤجر عليه، ودل على أنه من باب المصائب تعزيته إياه. اهـ

تحدَّث المدائنيُّ[1] عن يعقوبَ بنِ داودَ عن بعضِ أشياخِه أنَّ عبيدَ الله ابنَ العباسِ[2] بنِ عبدِ المطلب كان عاملاً لعليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه على اليَمَن، فخرج إلى عليٍّ، واستخلَفَ على صنعاءَ عمرَو بنَ أَراكةَ الثَّقفيَّ. فوجَّه معاويةُ بسْرَ بنَ أرطاةَ، أحدَ بني عامرِ بنِ لؤي، فقَتَل عمرَو بنَ أَراكةَ فيمن قَتَل. فجَزِعَ عليه أخوه عبدُ الله. فقال أبوه[3]:

لعمْري لئن أتبعْتَ عينيْكَ ما مضى ... به الدَّهرُ أو ساق الحِمامُ إلى القبْرِ
لتستنفدَنْ ماءَ الشُّؤون بأسْرِهِ ... ولو كنتَ تَمريهنَّ مِن ثبجِ البحْرِ
لعمْري لقد أردَى ابنُ أرطاةَ فارساً ... بصنعاءَ كاللَّيثِ الهِزبرِ أبي الأَجْرِ[4]
فقلتُ لعبدِ اللهِ إذ حَنَّ باكياً ... تَعَزَّ، وماءُ العينِ منحدِرٌ يجْري

---

[1] انظر: التعازي للمدائني، والكامل للمبرد.

[2] عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي: هو ابن عم النبي، وابن العباس بن عبد المطلب، وأخوه حبر الأمة عبدالله بن عباس. وكان أصغر من أخيه عبد الله بسنة. وكان عبيد الله كريماً جميلاً وسيماً، يشبه أباه في الجمال. كان يقدم هو وأخوه عبد الله المدينة فيوسعهم عبد الله علماً، ويوسعهم عبيد الله كرماً. وقد استنابه علي بن أبي طالب في أيام خلافته على اليمن، ثم لما صارت الشوكة لمعاوية تسلط على عبيد الله بسرُ بن أبي أرطاة ، فقتل له ولدين. ومات عبيد الله بن العبّاس سنة ثمان وخمسين.

[3] سبق ذكر هذا الخبر. وقد حققت هناك اسم أراكة بن عبدالله. وسوف يعيده المبرد ثالثة في آخر الكتاب.

[4] الأجر: جمع جَرْو: وهو صغير السَّبُع. ويجمع أيضاً على جِراء.

وأنشدني التَّوَّزي عن أبي زيد: إذ خَنَّ باكياً.

تَبيَّنْ فإن كان البُكا ردَّ هالكاً على أحدٍ فاجَهَدْ بُكاكَ على عمْرِو
ولا تَبكِ مَيتاً بعدَ مَيتٍ أجنَّهُ عليٌّ وعبّاسٌ وآلُ أبي بكرِ

قال أبو العباس[1]: وكان بسْرُ قد قَتَلَ خَلْقاً باليَمَن. يقول بعضُهم: حتى أخاض الخيلَ في الدماء. وكان في من قَتَلَ طفلان لعُبيدِ الله بنِ العباسِ أخَذَهما من الكُتَّاب. فرُوي أنه قَتَلَهما وهما يقولان: يا عمِّ لا نعود؟ وأما الرواية الفاشية التي كأنها إجماعٌ، فإنه أخَذَهما من تحتِ ذَيلِ أمِّهما وهي امرأةٌ من بني الحارث بن كعب، ففي ذلك تقول لما خَرَج بهما من عندِها:

أَلا مَنْ بَيَّنَ الأَخَوَيْـ ـنِ أُمَّهما هِيَ الثَّكْلَى
تُسائلُ مَنْ رَأَى ابْنَيْها وتَسْتَبْغِي فَمَا تُبْغَى

وقالت أيضاً[2]:

يا مَن أحسَّ بُنَيَّيَّ اللَّذينِ هما كالدُّرَّتينِ تشظَّى[3] عنهما الصَّدَفُ
يا مَن أحسَّ بُنَيَّيَّ اللَّذينِ هما قلبي وطرفي فقلبي اليوم مختَطَفُ

---

[1] انظر: الكامل.

[2] والأبيات في الكامل وفي الفاضل للمبرد.

[3] تشظى: تشقق وتتفرق شظايا.

يا مَن أحسَّ بُنَيَّيَّ اللَّذينِ هما مُخُّ العظامِ، فمخِّي اليومَ مزدَهَفُ[1]
نُبِّئتُ بسْراً وما صدَّقتُ ما ذَكَروا مِن قولِهِم ومِن الإفْكِ الَّذي اقترَفُوا
أنْحَى على ودَجَيْ شِبْليَّ مُرْهَفةً بَغْياً، كذا وعظيمُ البَغْيِ يُقتَرَفُ

قال أبو الحَسَن: مات الحَسَنُ بنُ الحُصين – أبو عبيدِ اللهِ بنِ الحَسَن – وعبيدُ اللهِ[2] يومئذٍ قاضي البصرةِ وأميرُها، فتذاكروا ما يَتَبَيَّن به جزعُ الرجل من صبرِه، فأجمعوا على أنه إذا ترك شيئاً كان يصنعُه فقد جزع، فأتاه صالحٌ الْمُرِّيُّ فعزَّاه فقال له: يا هذا، إن كانت مصيبتُك أحدَثتْ لك عِظةً في نفسِك فنِعْم المصيبةُ مصيبتُك، وإن كانت لم تُحدِثْ لك عِظةً في نفسِك فمصيبتُك في نفسِك أعظمُ من مصيبتِك بأبيك[3].

---

[1] مزدَهف: ذاهب ذاهل.

[2] عبيد الله بن الحسن بن الحصين العنبري (١٠٠ – ١٦٨ هـ): قاضي البصرة في زمن الخليفة المهدي.

[3] انظر: التعازي للمدائني، والزهد لأحمد بن حنبل.

وأَخْبَرَ[1] عن عامرِ بنِ حُصينٍ[2] والمثنى بنِ عبدِ الله قالا: مات أخٌ لمحمدِ ابنِ سيرين[3] فجزع عليه، فلما كان في مؤخَّر الدار ذَكَرَ أنه لم يسرِّح لحيتَه. فجلس ودعا بمِشْط، فسرَّح لحيتَه ورأسَه ثم خرج.

وقال الأصمعيُّ: كان ابنُ سيرين يترجَّل غِباً[4]، فجاءه نعي أخيه في يوم ترجُّله فترجَّل.

وأخبر أبو الحَسَن[5] عن عبدِ اللهِ بنِ مُرَّة عن بعضِ أشياخه أن عمرَ بنَ الخطَّاب رضي اللهُ عنه قال للخنساء: ما أقرَحَ مآقي عينيكِ؟ قالت: بكائي على الساداتِ من مُضَر! قال: يا خنساءُ، إنهم في النار. قالت: ذاك أطولُ لعَويلي عليهم.

---

[1] انظر: التعازي للمدائني.

[2] وفي التعازي للمدائني: عامر بن حفص.

[3] أبو بكر محمد بن سيرين البصري: التابعي الكبير والإمام القدير في التفسير، والحديث، والفقه، وتعبير الرؤيا، والمقدم في الزهد والورع وبر الوالدين، توفي ١١٠ هـ بعد الحسن البصري بمائة يوم، وكان عمره ٧٨ عاماً.

[4] غباً: أي: يومًا بعدَ يوَم. وترجيل الشعر تسريحه.

[5] انظر: التعازي للمدائني، والفاضل للمبرد.

وقال عن أبي محمود: قالتِ الخنساءُ: كنتُ أبكي لصخْرٍ على الحياة فأنا اليومَ أبكي له من النار[1].

وأَخْبرَ عن محمدِ بنِ عبدِ الحميد قال: نَعَى رجلٌ لرجلٍ ابنَه فقال: قد نُعِي إليَّ قبلَ ذلك، قال: ومن أعلمَكَ بموتِه، وما نعاه غيري ممن يعرفُك؟ قال: نعاه اللهُ حيث يقول لنبيِّه: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ)[2].

وأَخْبَرَنِي[3] عن أبي المقدام، وكان كبيراً، أدرك سعيدَ بنَ المسيَّب[4] قال: بلغني أن أبا مُسْلم الخَوْلاني[5] كان يقول: لأنْ أقدِّمَ سَقطاً أحبُّ إليَّ من أن أَدَع مئةً من خَوْلان، ولأن أقدِّم فَرَطاً أحبُّ إليَّ من أن أخلِّف خَوْلان كلَّها[6].

---

[1] سبق ذكره.

[2] انظر: التعازي للمدائني.

[3] انظر: التعازي للمدائني.

[4] سعيد بن الْمُسَيِّبِ (١٥ – ٩٤ هـ): تابعي مدني، مُلقّب بـ «عالم أهل المدينة»، وبـ «سيد التابعين» في زمانه، وأحد رواة الحديث النبوي، وأحد فقهاء المدينة السبعة.

[5] أبو مسلم الخولاني الزاهد (ت ٦٢ هـ): أدرك الجاهلية وسكن المدينة ثم هاجر إلى الشام فنزل بداريا وأصله من اليمن، وقد أسلم في أيام رسول الله ولكنه لم يلتق به فهو مخضرم ودخل المدينة في خلافة الصديق.

[6] وقد ذكره المبرد قبل ذلك منسوباً إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

باب من التَّعازي والتعزِّي في الأشعار

مرثية ليلى الأخيلية

قالت ليْلَى الأَخْيَلية[1]، قال أبو العبَّاس: قرأته على الرِّياشي:

أَقْسَمْتُ أَرْثِي بَعْدَ تَوْبَةَ هالِكاً ... وأَحْفِلَ مَنْ دارَتْ عَلَيْهِ الدَّوائِرُ

لَعَمْرُكَ ما بالْمَوْتِ عارٌ على الفَتى ... إذا لَمْ تُصِبْهُ في الحياةِ الْمَعايرُ

فلا الحَيُّ مِمَّا يُحدِثُ الدَّهرُ سالِمٌ ... ولا الميْتُ إنْ لم يصْبرِ الحيُّ ناشِرُ[2]

وكلُّ شبابٍ أو جَدِيدٍ إلى بِلىً ... وكُلُّ امرِئٍ يَوْماً إلى اللهِ صائِرُ

فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ يا تَوْبَ هالكاً ... أَخا الحَرْبِ إِذْ دارَتْ عَلَيْكَ الدَّوائِرُ

فأقسمْتُ لا أَنْفَكُّ أَبْكِيكَ ما دَعَتْ ... على فَنَنٍ وَرْقاءُ أَوْ طار طائِرُ

قَتِيلُ بَنِي عَوْفٍ فيا لَهْفَتا لَهُ ... وما كُنْتُ إِيَّاهُمْ عَلَيْهِ أُحاذِرُ

قال أبو العبَّاس: وأشعارُ المراثي كثيرة، وإنما نختار عيوناً من جميعِها ومن الشيء أحسنَه. وكذلك الكلامُ غير الشِّعر.

ولم تكنْ ليْلَى الأَخْيَلِيَّةُ امرأةً لتَوْبَة، ولا بينَهما نَسَبٌ لاصِقٌ، إلا أنهما جميعاً من بَني عُقَيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصعة. وكانت تحبُّه ويحبُّها.

---

[1] انظر ديوانها.

[2] ناشر: أي منشور ومبعوث في الدنيا بعد الموت. من النشور والبعث,

وروتِ الرواةُ أنه خَلا بها مرَّةً فأرادَها على ما يريدُ الرِّجال، فأبتْ واشمأزتْ. ففي ذلك تقول[1]:

وذِي حاجَةٍ قُلْنا لَهُ لا تَبُحْ بها فَلَيْسَ إليها ما حَيِيتَ سَبِيلُ
لَنا صاحِبٌ لا يَنْبَغي أَنْ نَخُونَهُ وَأَنْتَ لأُخْرى صاحِبُ وحَلِيلُ[2]

فأقاما دهْراً على حبٍّ عفيفٍ، وهي السُّنَّة الجارية في العُشَّاق الماضِين من بني عُذْرة[3]، وغيرِهم.

وكان سببُ قتْل تَوْبةَ أنَّ بَني عَوف كانوا يَطلبُونه فأحسُّوه، وقد قدِم من سَفَر ومعه عبيدُ الله بنُ الحُمَير، أخوه، وقابضٌ، مَولاه. وبينه وبين الحي ليلةٌ، فأتَوْه طُروقاً[4]، فهرب صاحباه وأسلماه فقُتل. ففي ذلك تقول ليلى[5]:

دعا قابِضاً والْمُرْهَفاتُ تَنوشُهُ فقُبِّحْتَ مَدْعُوّاً ولُبِّيتَ داعِيا
فَلَيْتَ عُبَيْدَ اللهِ حلَّ محلَّهُ فأوْدى ولَمْ أَسْمَعْ لِتَوْبَةَ ناعِيا

---

[1] انظر ديوانها.

[2] ويفهم من ذلك أنه كان متزوجاً وأنها كانت متزوجة.

[3] بنو عذرة قبيلة حُمَيرية كانت تقطن في وادي القرى، ينسب إليها الحب العذري العفيف ومنها الشاعر جميل بن معمر العذري الملقب جميل بثينة.

[4] طروقاً: جمع طارق، والطَّارِقُ: الوَافِدُ لَيْلاً.

[5] انظر: الديوان.

وقالت[1]:

أَعَيْني ألا فابْكِي على ابنِ حُمَيِّرٍ بدمْعٍ كَفَيْضِ الجَدْوَلِ الْمُتَفَجِّرِ
لِتَبْكِ عَلَيْهِ مِنْ خَفَاجَةٍ نِسْوَةٌ بماءِ شُؤُونِ العَبْرَةِ الْمُتَحَدِّرِ

خَفاجةُ بنُ عُقيل[2].

سَمِعْنَ هَيْجا أَوْجَفتْ فَذَكَرْنَهُ وقد يَبْعَثُ الأَحْزانَ طولُ التّذَكُّرِ
كأنَّ فَتى الفِتْيانِ تَوْبَةَ لَمْ يُنِخْ بِنَجْدٍ ولَمْ يَطْلُعْ مَعَ الْمُتَغَوِّرِ
ولَمْ يَرِدِ الماءَ السِّدامَ إذا بَدا سَنا الصُّبْحِ في أعقابِ أخْضَرَ مُدبِرِ

السِّدام: الآبار القديمة المندفِنة. وجمعها سُدوم. وقولُها: سَنا الصبح، السَّنا: من الضوء، مقصور، كقول الله جل وعز: (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأَبْصَارِ). والسَّناء: من الشَّرف، ممدود.

وقولُها: في أعقابِ أخضرَ مُدبِرٍ، تعني الليل، تريد بأخضرَ: أسْود. وجعلته مُدبِراً لورود الصُّبح.

ولمْ يقْدَعِ الخَصْمَ الألدَّ ويَمْلَأَ الْـ ـجِفانَ سَدِيفاً يَوْمَ نَكْباءَ صَرْصَرِ

---

[1] انظر: الديوان

[2] خفاجة قبيلة عربية يعود نسبها إلى خفاجة بن عمرو بن عقيل، سيد بني هوازن.

النكباء: الرِّيح بين الرِّيحين. والسَّديف: شُقق السِّنام، والصَّرْصَر: الريح الشديدة الصوت، الباردة.

أَلا رُبَّ مَكْرُوبٍ أَجَبْتَ ونائِلٍ بَذَلْتَ ومَعْرُوفٍ لَدَيْكَ ومُنْكَرِ
فَيا تَوْبَ للهَيْجا ويا تَوْبَ للنَّدى ويا تَوْبَ لِلْمُسْتَنْبِحِ الْمُتَنَوِّرِ

فقال لها رجلٌ: ما كان توبةُ كما ذكرتِ، وقلتِ فتى الفِتيان وما كان كذاك. فقالت: إن كنتَ كاذباً فأشلَّ الله عَشْرَك، وأدام فَقرَك. كان والله شديدَ الْمِرَّة، ليِّن العطْفَة، يُرضيه أقلُّ مما يُسْخِطُه[1].

وقالت أيضاً[2]:

نَظَرْتُ وزُكْنٌ مِنْ أَبانَيْنِ[3] دُونَهُ مَفاوِزُ حِسْمَى[4] أيَّ نَظْرَةِ ناظِرِ
كأنَّ فَتى الفِتْيانِ تَوْبَةَ لَمْ يُنِخْ قَلائصَ يَفْحَصْنَ الحَصا بالكَراكِرِ
ولَمْ يَبْنِ أَبْراداً عِتاقاً لِفِتيةٍ كِرامٍ وَيَرْحَلْ[5] قَبْلَ فَيْءِ الهواجِرِ
فَتىً لا تَخَطَّاهُ الرِّفاقُ ولا يَرى لِقِدْرٍ عيالاً دُونَ جارٍ مُجاوِرِ

---

[1] رواها المدائني في التعازي عن رجل مات أخوه فقالوا له صف لنا أخاك.

[2] الديوان.

[3] أبانان: جبلان في الجزيرة العربية أحدهما أبان الأحمر والآخر أبان الأسود.

[4] صحراء حِسْمَى صحراء رملية تتخللها هضاب وجبال من الحجر الرملي في الجزيرة العربية.

[5] الفعل يرحل معطوف على (لم يبنِ) مجزوم. والتقدير: ولم يرحل.

فإنْ تَكُنِ القَتْلى بَواءً فإنَّكُمْ فَتىً ما قَتَلْتُمْ آلَ عَوْفِ بنِ عامِرِ

البَواء: الأَمْثال. يقال: باء فلانٌ بفلانٍ إذا قُتِل به. تقول: فإنْ تكنِ القَتْلى يَبوءُ بعضُها ببعضٍ، فإن توبةَ فوقَ ذلك.

وأما قولُه جلَّ وعزَّ: (إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ)، إنما هو إنْ فعلتَ أنْ تَحتمِل الإثْمَيْنِ المتساوِيَيْن: الذي ردَّ عليكَ قربانَك فلم يُقبَل من أجلِه، وقَتْلكَ إيايَّ، وكان كلُّ واحدٍ منهما كِفاءَ الآخَر. هذا اشتقاقُ هذا المعنى. ومن ذلك قولُ مُهلهِل بنِ ربيعةَ[1] حين قَتَلَ بُجَيرَ بنَ الحارثِ بنِ عبَّاد[2]: بُؤْ بشِسْعِ

---

[1] عدي بن ربيعة بن الحارث بن مرة بن هبيرة التغلبي الوائلي (توفي ٩٤ ق.هـ): شاعر عربي، وهو أبو ليلى المكنى بالمهلهل، ويعرف أيضاً بالزير سالم، من أبطال العرب في الجاهلية. وهو جد الشاعر عمرو بن كلثوم حيث أن أم عمرو هي ليلى بنت المهلهل ، وذهب البعض إلى أنه خال الشاعر الكبير امرئ القيس. كان من أصبح الناس وجهاً ومن أفصحهم لساناً. عكف في صباه على اللهو والتشبيب بالنساء، فسمي (زير النساء) أي جليسهن. ولما قَتَل جساسُ بنُ مُرَّة أخاه وائل بن ربيعة المعروف بكليب، ثار المهلهل فانقطع عن الشراب واللهو إلى أن يثأر لأخيه، فكانت وقائع بكر وتغلب (حرب البسوس)، التي دامت أربعين سنة، وكانت للمهلهل فيها العجائب والأخبار الكثيرة.

[2] الحارث بن عباد البكري (توفى نحو ٥٠ ق هـ): حكيم، شاعر وسيد من سادات العرب في الجاهلية. انتهت إليه إمرة بني ضبيعة وهو شاب. في أيامه كانت حرب البسوس فاعتزل القتال. ثم إن المهلهل قتل ولدا له اسمه بُجير، فثار الحارث ونادى بالحرب، وارتجل قصيدته المشهورة التي كرّر فيها قوله «قرّبا مربطَ النعامةِ مني»، أكثر من خمسين مرة، والنعامة فرسه، فجاؤوه بها، فجزّ ناصيتها وقطع ذنبها – وهو أول من فعل ذلك من العرب فاتُّخِذ سُنة عند إرادة الأخذ بالثأر – ونُصرت

كُلَيب[1]، فقيل للحارثِ بنِ عبَّاد: إنَّ ابنَكَ بُجَيراً قد قُتِل. قال: إنه لأعْظمُ قتيلٍ بركةً إنْ أصلَحَ اللهُ به بين ابنَيْ وائلٍ. قيل: إنَّ مُهلهِلاً لما قَتَلَه قال: بُؤ بشِسْعِ كُلَيب. فعند ذلك دَخَل الحارثُ في حَرْبِهم ولم يكن دَخَلَها[2].

رجْع الشِّعر

وإلاّ يكن فيها بَواءٌ فإنَّكم ستَلْقَوْنَ يَوْماً سِرُّهُ غَيْرُ صادِرِ
وكُنْتَ إذا مَوْلاكَ خافَ ظُلامَةً دَعاكَ ولَمْ يَعْدِلْ سِواكَ بناصِرِ
وقد كنتَ مرهوبَ الجَنان وبَيِّناً وبِحْدامَ سَيْرٍ دائباً غيرَ فاتِرِ
ونِعْمَ الفَتى إنْ كانَ تَوْبَةُ فاجِراً وفوقَ الفَتى إن كان ليس بفاجِرِ
أَتَتْهُ الْمَنايا دُونَ دِرْعٍ حَصِينَةٍ وأَسْمَرَ خَطِّيٍّ وأجرَدَ ضَامِرِ
فَباللهِ تَبْنِي بَيْتَها أُمُّ عاصِمٍ عَلى مِثْلِهِ أُخْرى اللَّيالي الغوابِرِ

به بكر على تغلب، وأسر المهلهل فجز ناصيته وأطلقه، وأقسم ألا يكف عن تغلب حتى تكلمه الأرض فيهم، فأدخلوا رجلا في سرب تحت الأرض ومر به الحارث فأنشد الرجل:

أَبا مُنذِرٍ أَفنَيتَ فَاستَبقِ بَعضَنا حَنانَيكَ بَعضُ الشَرِّ أَهوَنَ مِنْ بَعضِ

فقيل: بر القسم: واصطلحت بكر وتغلب. وعمِّر الحارث طويلاً.

[1] والشِّسْع من النعل: السَيْرُ الذي يمسك النَّعْلَ بأَصَابع القدم. والمعنى أنه حين قتله ساواه بحذاء كليب.

[2] سيعيد المبرد هذا الخبر في آخر الكتاب.

وروتِ الرواةُ أنها زارتْ قبرَه، فجعلتْ تقول: يا توبةُ، يا توبةُ! ثم أقبلتْ على مَنْ معها بعد أن سلَّمتْ على القبر. فقالت: ما كَذَبَني قبلَها. فقيل: فيم ذاك، وما تبيَّنا منه كَذِباً؟ قالت لأنه قال في بعضِ قولِه:

وَلَوْ أَنَّ لَيلَى الأَخيَلِيَّةَ سَلَّمَتْ عَلَيَّ وَفَوْقِي تُربَةٌ وَصَفَائِحُ
لَسَلَّمتُ تَسلِيمَ البَشَاشَةِ أَو زَقَا[1] إِلَيهَا صَدًى مِن جَانِبِ القَبرِ صَائِحُ

قال: وهذا الكلامُ غايةُ المدح، لا لأنها جهِلَتْ حالَ الموتى ولكنها دَلَّتْ على أنه لم تُعرَفْ منه كذبةٌ قطُّ حتى يُعتَدَّ عليه بها مَيِّتاً.

مرثية سليمان بن قتة

وقال سليمانُ بنُ قَتَّةَ[2] – وهو مولىً لبني تيم، وانقطاعُه إلى بني هاشم – يَذْكُر يومَ الحُسين بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رحمه الله:

مَرَرْتُ عَلى أَبْيَاتِ آلِ مُحَمَّدٍ فَلَمْ أَرَها كَعَهْدِها يَوْمَ حُلَّتِ[3]
فَلا يُبْعِدِ اللهُ الدِّيارَ وَأَهْلَها وَإِنْ أَصْبَحَتْ مِنْ أهلِها قَدْ تَخَلَّتِ

---

[1] زَقا الطَّائِرُ: رَفَعَ صَوْتَهُ صائِحاً.

[2] سليمان بن حبيب بن محارب التيمي القرشي، المعروف بـ (سليمان بن قتَّة) وقتَّة هي أمه وقد غلبت نسبته إليها دون أبيه. توفي ١٢٦ هـ.

[3] يعني ظهر عليها من آثار الفجع والمصيبة ما صارت له دهشاً، فحالها في ظهور الجزع عليها ليست كحالها في السرور أيام حلُّوها.

وَكانُوا رجاءً ثُمَّ عادُوا رَزِيَّةً فَقَدْ عَظُمَتْ تِلْكَ الرَّزايا وَجَلَّتِ
وَإِنَّ قَتِيْلَ الطَّفِّ[1] مِنْ آلِ هَاشِمٍ أَذَلَّ رِقَاباً مِنْ قُرَيْشٍ فَذَلَّتِ[2]
وعند غَنِيٍّ[3] قطرةٌ من دِمائنا سنجزيهمُ يوماً بها حيثُ حَلَّتِ
إذا افتقرتْ قيسٌ جَبَرْنا فقيرَها وتقتُلُنا قيسٌ إذا النَّعلُ زَلَّتِ

قال أبو العبَّاس: أنشَدَنيها الرِّياشيُّ، وأنشَدَني ما بعدَها مما أُمليه إلى انقطاعِه.

---

[1] معركة الطَّف أو كربلاء (أرض على شط الفرات) كانت بين سيد الشهداء الحسين بن علي بن أبي طالب ابن بنت رسول الله، ومعه أهل بيته وأصحابه، وجيش تابع ليزيد بن معاوية.

[2] يعني أن قتْل الحسين أذل رقاب المسلمين الذين تركوه يُقتل. وفي مرويات الشيعة أن أم هانئ عمة الحسين حاولت منعه وقالت له أنا متطيرة عليك من هذا المسير لهاتف سمعتُ البارحة يقول: (وإن قتيل الطف من آل هاشم * أذل رقابا من قريش فذلت) فقال لها الحسين: يا عمة! لا تقولي من قريش، ولكن قولي أذل رقاب المسلمين فذلت.

[3] غني قبيلة معروفة، والنسب إليها غنوي، والبيت له رواية أخرى (وعند غنيٍّ قطرةٌ من دمائنا ... وَفِي أَسَد أخرى تعدُّ وتُذكر) وأسد قبيلة أسد المعروفة. والشاهد في البيت كما قال البلاذري في أنساب الأشراف: ورمى عَبْد اللَّهِ بْن عقبة الغنوي أبا بكر ابن الحسن بْن علي بسهم فقتله، وَقَالَ بعضهم: قتل حرملة بْن كاهل الأسدي العباس ابن عَلِيّ بْن أَبِي طالب مَعَ جماعة وتعاوروه . اهـ. لذَلِكَ يقول الشاعر إن لنا ثأراً عند هاتين القبيلتين سنأخذه يوماً.

مراثي الفرزدق

وقال الفرزدقُ يذكُرُ ابْنَيْ مَسْمَعٍ، وكان قد قتَلَهما معاويةُ بنُ يزيدَ بنِ المهلِّب[1] بعد قتْل ابنِه، وكانا مَرْوانِيَّينِ، وكان سائرُ بكْرِ بنِ وائلٍ مع يزيدَ بنِ المهلب، وكان الْمَنْتُوفُ مولى بني قيسِ بنِ ثعلبة، على شُرْطةِ يزيد، فقُتِل لسببٍ عندَه مع يزيدَ، فبكتْه بكرُ بنُ وائلٍ وهو مَوْلىً وأعرضتْ عن ابنَيْ مَسْمَع[2] وهما صَلِيبةً[3]. فقال الفرزدقُ[4]:

تُبَكِّي عَلَى الْمَنْتُوفِ بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ ... وَتَنْهَى عَنِ ابْنَيْ مَسْمَعٍ مَنْ بَكَاهُمَا

غلامانِ شَبَّا في الحروبِ وأَدْرَكا ... كِرامَ المساعي قبلَ وصْلِ لِحَاهُما

---

[1] أسرة المهلب بن أبي صفرة معروفة في الإمارة والقيادة العسكرية في خراسان، وقد تولى يزيد بعد وفاة أبيه المهلب بن أبي صفرة سنة ٨٤ هـ وساءت العلاقة بينه وبين الخلافة الأموية واستولى ابن المهلب على البصرة وما يليها من فارس والأهواز. فبعث إليه يزيد بن عبد الملك بجيش يقوده مسلمة بن عبد الملك. ولما أراد القتال استخلف ابنه معاوية على الإمارة وانتهت المعركة بالقضاء على ثورة يزيد بن المهلب ومقتله فيما عرف بمعركة العقر.

[2] ابنا مسمع: مالك وعبد الملك ابنا مسمع، قتلهم معاوية بن يزيد بن المهلب.

[3] المولى والصليبة ضدان، فالمولى غير العربي والصَّلِيبة العربيٌّ الخالصُ النسب.

[4] الديوان.

وَلَو كانَ حَيّاً مالِكٌ[1] وَابْنُ مالِكٍ إذنْ أَوْقَدا نارَيْنِ عالٍ سَناهُما

وقال الفرزدقُ أيضاً يَرْثي ابْنينِ له ماتا في مدةٍ يسيرة[2]:

بِفِي الشَّامِتينَ التُّرْبُ إن كانَ مَسَّني رَزِيَّةُ شِبْلَيْ مُخدِرٍ[3] في الضَراغِمِ

وَما أَحَدٌ كانَ الْمَنايا وَراءَهُ وَإنْ عاشَ أَيَّاماً طِوالاً بِسالِمِ

أَرى كُلَّ حَيٍّ لا تَزالُ طَلِيعَةً عَلَيهِ الْمَنايا مِن ثَنايا الْمَخارِمِ

يُذَكِّرُني اِبنَيَّ السِّماكانِ مَوهِناً إذا ارْتَفَعا بَينَ النُّجومِ العَواتِمِ

وقَد رُزِئَ الأَقوامُ قَبلي بَنِيهُمُ وَإخوانَهم فَاقْنَيْ حَياءَ الكَرائِمِ[4]

وَماتَ أَبي وَالْمُنذِرانِ كِلاهُما وَعَمروُ ابنُ كُلثُومٍ شِهابُ الأَراقِمِ

وقد كان ماتَ الأَقرَعانِ وَحاجِبٌ وَعَمْرٌ أبو عمْروٍ وقيسُ بنُ عاصِمِ

وَقَد ماتَ بِسطامُ ابنُ قَيسِ بنِ خالِدٍ وَماتَ أَبو غَسَّانَ شَيْخُ اللِّهازِمِ

وَقَد ماتَ خَيراهُمْ فَلَم يُهلِكاهُمُ عَشِيَّةَ بانا رَهْط كَعْبٍ وَحاتِمِ

---

[1] مالك بن مسمع بن شيبان البكري سيد ربيعة وزعيم بكر بن وائل في البصرة. وفد على معاوية بن أبي سفيان، وشهد معركة الجفرة وفقئت عينه فيها، وتوفي في عام ٧٣ هـ في زمن الخليفة عبد الملك بن مروان بالبصرة.

[2] الديوان.

[3] المخدر: الأسد الذي يلزم خدره، وهوهنا كناية عن نفسه. وخَدَرَ الْحَيَوَانُ: انفرد عَنِ الْقَطِيعِ.

[4] يخاطب زوجته نوار.

فَما ابناكِ إِلَّا مِن بَني الناسِ فَاصْبِري فَلَن يُرْجِعَ الْمَوتى حَنينُ الْمَآتِمِ

ويقال: خَنين.

وماتت امرأةٌ له أيضاً وبها حَمْلٌ، فقال[1]:

وجَفْنِ سِلاحٍ قد رُزِئتُ فلم أَنُحْ عَليهِ ولم أبعثْ عليهِ البوَاكيا

وفي جَوفِهِ من دارِمٍ ذو حَفيظةٍ لو انَّ الْمَنايا أرجأَتْهُ لَيالِيا

وقال بعضُ الشُّعراء[2] يعزِّي رجلاً عن ابنِه:

اِصبِر لِكُلِّ مُصيبَةٍ وَتَجَلَّدِ وَاعْلَم بِأَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

وَإِذا ذَكَرْتَ مُحَمَّداً وَمُصابَهُ فَاذْكُرْ مُصابَكَ بِالنَبِيِّ مُحَمَّدِ[3]

مرثية أبي نواس

وقال الحَكَمِيُّ[4] وأحسَنَ جداً:

---

[1] الديوان.

[2] قيل هو أبو العتاهية: إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني الشهير بأبي العتاهية.(١٣٠ –٢١١هـ) شاعر مكثر، سريع الخاطر، في شعره إبداع.

[3] صلى الله عليه وسلم.

[4] أبو نواس: الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكميُّ بالولاء، (١٤٦ – ١٩٨هـ) شاعر العراق في عصره. ولد في الأهواز (من بلاد خوزستان) ونشأ بالبصرة، ورحل إلى بغداد فاتصل فيها

طَوى الْمَوتُ ما بَيْني وَبَينَ مُحَمَّدٍ[1] وَلَيسَ لِما تَطوِي الْمَنِيَّةُ ناشِرُ
لئن أوحَشَتْ مِمَّن أحبُّ مَنازِلٌ فَقَد أنِسَتْ مِمَّن أُحِبُّ الْمَقابِرُ
وَكُنتُ عَلَيهِ أَحذَرُ الْمَوتَ وَحْدَهُ فَلَم يَبْقَ لي شَيءٌ عَلَيهِ أُحاذِرُ

وهذا يشبه قول التَّيْمي[2] في يزيدَ بنِ مَزْيَد[3]:

لقد عَزَّى رَبِيعةَ أنَّ يوماً عليها مثلَ يومِكَ لا يعودُ

بالخلفاء من بني العباس، ومدح بعضهم، وخرج إلى دمشق، ومنها إلى مصر، فمدح أميرها الخصيب، وعاد إلى بغداد فأقام إلى أن توفي فيها.

[1] محمد الأمين ابن هارون الرشيد.

[2] عبد اللَّه بن أيوب، أبو مُحَمَّد التيمي: من أهل الكوفة، وقد تركها إلى بغداد طلباً لجوائز الخلفاء والوزراء والقواد، واتصل بالرشيد والبرامكة ومدحهم جميعاً ونال جوائزهم. واتصل بيزيد بن مزيد، فلم يزل منقطعاً إليه حتى مات.

والبيت من مرثيته التي مطلعها: (أَحَقٌّ أَنَّهُ أَودَى يَزيدُ ... تَأَمَّل أَيُّها الناعي المشيدُ) ويقال إن الرشيد كان حين يسمع هذه المرثية فى قائده يبكي بدموع غزار حتى لو كان بين يديه كأس لملأه بدموعه.

[3] يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني (ت ١٨٥هـ): قائد عسكري ينتمي للدولة العباسية، حكم أحفاده شروان وأذربيجان وكانوا يعرفون بالشروانشاه. وهو ابن أخي معن بن زائدة. ولاه هارون الرشيد اليمن ثم أذربيجان وأرمينية، وهو من قتل رأس الخوارج الوليد بن طريف.

مرثية حارثة بن بدر الغدانيّ

وقال حارثةُ بنُ بدر الغدانيُّ[1] يرثي زياداً[2]:

صَلَّى الإلهُ علَى قَبْرٍ وطَهَّرهُ ... عندَ الثَّوِيَّةِ يَسْفي فوْقَهُ الْمُورُ[3]

زفَّتْ إليه قريشٌ نَعْشَ سيِّدِها ... فالجودُ والحزمُ فيه اليومَ مقبورُ

أبا المغيرةِ والدُّنيا مُفَجِّعَةٌ ... وإنَّ مَنْ غَرَّتِ الدُّنيا لمغرورُ

قد كان عندَكَ للمعروفِ معرِفةٌ ... وكان عندَكَ للنَّكراءِ تنكيرُ

وكنتُ تُغْشَى وتُعْطي المالَ مِنْ سَعةٍ ... إنْ كان بابُكَ أضْحى وهْوَ مَهجورُ

فالنَّاسُ بعدَكَ قد خَفَّتْ حُلومُهُمُ ... كأنَّما نُفِخَتْ فيها الأعاصيرُ

---

[1] حارثة بن بدر بن حصين التميمي الغداني: تابعي من أهل البصرة، قيل إنه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم. له أخبار في الفتوح، وقصة مع عمر، ومع عليّ، وأخبار مع زياد بن أبيه وغيره، في دولة معاوية وولده، وأمِّر على قتال الخوارج في العراق فهزموه بنهر تيرا (من نواحي الأهواز) فلما أرهقوه دخل سفينة بمن معه فغرقت بهم.

[2] زياد بن أبيه (١ — ٥٣ هـ): قائد عسكري من أعلام عهد الخلافة الراشدة، وسياسي أموي شهير، لم يعرف اسم أبيه ونسبه فقيل إنه زياد بن عبيد الثقفي، وقيل إأنه ابن أبي سفيان بعد أن استلحقه معاوية بن أبي سفيان. ساهم في تثبيت الدولة الأموية وكان واحدًا من دهاة العرب.

[3] المور: الغبار المتطاير.

مرثية خُلَيْد عَيْنَين

وقال خُلَيْدُ عَيْنَين[1] يَرْثي المُنْذِرَ بنَ الجارودِ العبديَّ[2]، وكانت بَحريَّةُ ابنةُ المنذِر تحت عُبيد الله بن زياد، ومات المنذرُ بالسِّند في موضع يقال له قُصدار[3]:

بَحْرِيَّ، قُومِي فاندُبِي مُنْذِراً ... وابْكِي ابْنَ بِشْرٍ[4] سَيِّدَ الوافِدِينْ

وابْكِي أَبا الأَشْعَثِ[5] لَمَّا ثَوَى ... بالهِنْدِ لم يَقْفِلْ مع القافلينْ

---

[1] خليد عينين العبدي: شاعر من عبد القيس، من ولد عبد الله بن دارم بن مالك، وكان ينزل أرضاً بالبحرين تعرف بعينين فنسب إليها. قال ابن منظور في لسان العرب: «وبالبحرين قرية تعرف بعينين، وقد دخلتها أنا، وإليها ينسب خليد عينين، وهو رجل كان يهاجي جريراً». وفي الكامل للمبرد: «قال جرير يهجو خالد عينين العبديَّ: كم عمة لك يا خليد وخالة ... خُضْر نواجذها من الكرَّاث». فالظاهر أن أصل اسمه «خالد» فصغَّره جرير فشهَّر بالاسم مصغَّراً.

[2] المنذر بن الجارودِ بن المعلَّى: أبوه صحابي جليل وفد على النبي سنة ٩ هـ وكان سيد عبد القيس. وابنه المنذر كان من وجوه أهل البصرة ووفد على معاوية وكان من أصحاب عليٍّ. شارك مع أبيه في الفتوحات الإسلامية في بلاد فارس وكان على رأس قبيلة عبد القيس في هذه الفتوحات. ولعل أباه سمَّاه المنذر باسم رفيقه المنذر بن ساوَى ملك البحرين ورفيقه في القدوم على النبي صلى الله عليه وسلم.

[3] قُصدار ويقال لها قُزدار: من نواحي الهند. انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر، والكامل للمبرد.

[4] بشر اسم الجارود.

[5] كنية المنذر.

جاوَرَ قُصْدارَ وأكنافَها تَسْفِي عليه الرِّيحُ مُورَ الدَّرِينْ[1]
في جَدَثٍ عافٍ[2]، بمَهْجورةٍ ناءٍ عنِ الزُّوَّارِ والعائدِينْ
فأصْبَحَ المَجْدُ بها ثاوِياً بين صَفاً[3] صُمٍّ وصَخْرٍ رزينْ
للهِ قُصْدارٌ وأكنافُها أيَّ فَتَى دُنيا أَجَنَّتْ ودِينْ
قد عَلِمَتْ نَفْسِي فما أَمْتَري حَقّاً سِوى الظَّنِّ[4] وقَولِ اليَقينْ
ما الحيُّ والميِّتُ فيما تَرَى من حَدَثِ الدَّهرِ وريْبِ المنونْ
إلَّا كَغادٍ راحَ أصحابُهُ أو رائحٍ في أَثَرِ الْمُغتَدينْ
مات بها الجُودُ وأَوْدَى النَّدى وانقَطَعَ الخَيْرُ عن السَّائلينْ

---

[1] سفَتِ الرِّيحُ التُّرابَ: نثَرته وذرَته. والمورُ: الغُبار المتردِّدُ في الهواءِ، ورياحٌ مُورٌ: مُثيرةً للتراب. والدَّرِينُ: حُطام المرْعى القديم اليابس، وكل نبات جف وتطاير. وقد أخطأ من قال إن الدرين هي الجزيرة المعروفة بالبحرين (دارين) فأين الهند التي مات فيها المنذر من البحرين؟ وأنى للريح أن تسفي تراباً في جزيرة في وسط البحر؟ إذن فليُنتبَه إلى أن درين غير دارين.

[2] الجدث العافي: القبر الذي يعلوه الغبار.

[3] الصفا: جمع صَفاة، وهي الحجَرُ الأملسُ.

[4] الظن هنا بِمَعْنَى اليَقينِ، ومنه قوله تعالى: قَالَ الذينَ يظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقو اللَّهِ. وقوله: وَظَنُّوا أن لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ.

مرثية جرير

وقال جريرٌ[1] يَرْثي عُمرَ بنَ عبدِ العزيز رحمةُ اللهِ عليه:

نَعَى النُّعاةُ أميرَ المؤمنينَ لنا ... يا خَيْرَ مَن حَجَّ بَيْتَ اللهِ واعتَمَرا

حُمِّلْتَ أَمراً عَظيماً فَاصْطَبَرْتَ لَهُ ... وَقُمْتَ فيهِ بِأَمْرِ اللَهِ يا عُمَرا[2]

فالشَّمْسُ طالعةٌ ليْسَتْ بكاسِفةٍ[3] ... تَبْكي عَلَيكَ نُجومَ اللَيلِ وَالقَمَرا[4]

---

[1] في ديوانه.

[2] وفي نصب "عمر" قال ابن هشام في أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: وجه الاستشهاد: استعمال "يا" للندبة؛ لوضوح الأمر وأمن اللبس فإن صدور ذلك بعد موت "عمر" دليل على أن المقصود الرثاء والتوجع لا النداء؛ فهو يعلم أن عمر لن يجيبه، ولن يسمعه. وقال المبرد في الكامل: قوله: يا عمرا ندبةٌ، أراد: يا عمراه، وإنما الألف للندبة وحدها، والهاء تزاد في الوقف لخفاء الألف، فإذا وصلت لم تزدها، تقول: يا عمرا ذا الفضلِ، فإن وقفت قلت: يا عمراه: فحذف الهاء في القافية لاستغنائه عنها.

[3] وفي الديوان: فالشمسُ كاسفة ليست بطالعةٍ.

[4] قال المبرد في الكامل: فأما قوله: "نجومَ الليل والقمرا"، ففيه أقاويل كلها جيدٌ، فمنها أن تنصب "نجومَ، والقمرَ" بقوله: بكاسفةٍ، يقول: نجومَ الليل والقمرَ.

مرثية بُكَيْر بْن مَعْدَانَ

وقال بُكَيْرُ بْنُ مَعْدَانَ اليَرْبوعيُّ[1] يَرْثي يَحْيَى بنَ مُبَشِّر[2]، وكان قُتِل بمَسْكِن[3] مع مُصْعَب بنِ الزُّبير[4]:

صَلَّى على يَحْيَى وأشياعِهِ ... رَبٌّ غَفورٌ وشَفيعٌ مُطاعْ[5]

لَمَّا عَصَى الْمُصْعبَ أصحابُهُ ... أَدَّى إِليه الكَيْلَ صاعاً بِصَاعْ

---

[1] أَبُو السَّفَّاحِ بُكَيْرُ بْنُ مَعْدَانَ بْنِ عُمَيْرَةَ بْنِ طَارِقٍ الْيَرْبُوعِيُّ، من بني يربوع. انظر: الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار. وقد نص على أنه أبو السفاح وليس السفاح.

[2] يَحْيَى بْنُ مُبَشِّرٍ مِنْ بَنِي رَبِيعَةَ بْنِ حَصْبَةَ بْنِ أَرْقَمَ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ يَرْبُوعٍ.

[3] قال ياقوت في معجم البلدان: مسكِن موضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق (قرب بغداد) به كانت الوقعة بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير في سنة ٧٢ فقتل مصعب وقبره هناك معروف.

[4] مصعب بن الزبير ابن العوام: أمير العِراقَيْن، ابن الصحابي الزبير بن العوام وأخو الخليفة عبد الله بن الزبير وقائد معركته ضد المختار بن أبي عبيد الثقفي، أمه الرباب بنت أنيف الكلبية، وكان يسمى آنية النحل لكرمه وجوده، كان أميرًا على العراق في خلافة أخيه عبد الله بن الزبير، وقُتِل في معركته أمام جيش بقيادة عبد الملك بن مروان، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي يرافقه في الجيش، عند دير الجاثليق في جمادى الآخرة ٧٢ هـ وأمر الحجاج بقطع رأسه وبعث به إلى أخيه عبد الله بن الزبير في مكة.

[5] قال الأخفش في الاختيارين: يعني بـ"الشفيع المطاع": النبي محمداً، صلى الله عليه وعلى آله وسلم. والصلاة هنا بمعنى الترحم، ومنه الحديث الذي رُوي عن ابن أبي أوفى قال: (أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم لصدقة عامنا فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى). فمعناه: ترحمْ عليهم.

أُمُّ عُبيدِ اللهِ[1] محزونةٌ ما نَومُها بَعْدَكَ إلّاَ الرُّوَاعْ
يا فارِساً، ما أنتَ من فارسٍ مُوَطَّأِ البيْتِ رحيبِ الذِّرَاعْ
قَوَّالِ مَعْروفٍ وفَعَّالِهِ عَقَّارِ مَثْنَى أُمَّهاتِ الرِّباعْ[2]
لا تخرُجُ الأضيافُ مِنْ بيتِهِ إلَّا وهُمْ منه رِواءٌ شِباعْ
مَنْ يَكُ لا ساءَ فقد ساءني تَرْكُ أُبَيْنِيكَ[3] إلى غيرِ راعْ

وحدَّثَنا بعضُ جُلساء القحْذمي[4]، وذَكَرَ امرأةً مِن الأعراب، فقال: كان لها أربعةُ بَنين، وكان يمرُّ بها إخوةٌ أربعةٌ غادُون لشَأْنِهم، وكانت تأنسُ بهم

---

[1] أم عبيد الله زوجته.

[2] الرِّباع: جمع رُبَع، والرُّبَعُ: فصيل الناقة يُنْتَج في الربيع وهو أول النّتاج، و"الربع" يكون مع أمه، وأكرم عندهم إذا كانت الناقة مع ولدها. وَخص أُمَّهَات الرباع لِأَنَّهَا غزيرة.

[3] أُبينيك: أي أبناؤك الصغار، جمْع ابن على أبناء؛ ثم صغّر. وتفسير (تَرْكُ أُبَيْنِيكَ إلى غيرِ واعْ) ورد في بيت تال لم يذكره المبرد وهو:

مَنْ يَكُ لا ساءَ فقد ساءني ... تَرْكُ أُبَيْنَيْكَ إلى غيرِ راعْ
إِلَى أَبِي طَلْحَةَ أَوْ وَاقِدٍ ... وَذَاكَ عِنْدِي حَقُّ عَيْنِ الضِّيَاعْ

جاء في الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار: أَبُو طَلْحَةَ وَوَاقِدٌ مَوْلَيَانِ لَيَحْيَى كَانَ أَوْصَى إِلَيْهِمَا (يعني أوصى إليهما برعاية أبنائه الصغار).

[4] الإخباري الوليد بن هشام القحذمي (ت ٢٢٢ هـ): عاش بالعصر العباسي الأول وكان من إخباريي تلك الفترة التي عاصرها، وقد روى القحذمي عن أكثر من (٤٥) شيخاً كوالده هشام بن قحذم وعمه المحبر بن قحذم.

لِمُشاكَلَتِهم بَنِيها في العَدد والأَسْنان[1]، ثم أصيب بَنُوها جميعاً إما بطاعُون أو ما يشبِهُه فاجتَنَبَها الإخوةُ الأربعةُ إبقاءً عليها من الحُزن إذا رأَتْهم، ثم عَزموا عزمةً على المرورِ بها مَرَحاً وبَغْياً. فلما رأَتْهم ذَرَفَتْ عيناها وتمثَّلت:

لَنْ يَلْبَثَ الْقَرْنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا لَيْلٌ يَكُرُّ عَلَيْهِمْ وَنَهَارُ[2]

فاعتلَّ أحدُهم فمات، فغَبَرَ[3] الثلاثةُ لا يَقْربونها، ثم فَعَلوا فلما رأَتْهم تمثَّلت:

كُلُّ بَنِي أُمٍّ وإِنْ أَكْثَرَتْ يَوْماً يَصِيرُونَ إِلَى وَاحِدِ[4]

فلم يلبث واحدٌ منهم أن مات. وغَبَر الاثنان لا يَقْرَبانها، ثم اجتازا بها على نحو ما فَعلوا من الْمَرح والدَّالةِ[5]، فلما رأَتْهما قالت:

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلاَّ الفَرْقَدَانِ[6]

---

[1] يعني السن والعمر.

[2] البيت لجرير من قصيدته التي يرثي فيها زوجته ومطلعها:

لَولا الحَياءُ لَعادَني اِستِعبارُ وَلَزُرتُ قَبرَكِ وَالحَبيبُ يُزارُ

[3] غَبَرَ الشَّيْءُ: مَكَثَ، بَقِيَ، ومنه: غبَر شهرَيْن ثم جاء بكلبَيْن: وصفُ من أبطأ ثم أتى بشيء فاسد.

[4] والبيت لعَمْرو بْن دَارَةَ، كما في حماسة البحتري.

[5] الدالة: الجرأة.

[6] وهذا البيت لعَمْرو بْن مَعْدِي كَرِب، ويُنسب أيضاً إلى حضرميّ بن عامرٍ الأسديّ.

فمات أحدُهما فاجتَنَبَها الباقي دهْراً. ثم مرَّ بها فتمثَّلتْ:

وَالْوَاحِدُ الْبَاقِي كَمَنْ قَدْ مَضَى لَيْسَ بِمَتْرُوكٍ وَلا خَالِدِ[1]

فقال: أَقيليني[2] جَعَلَنِيَ اللهُ فِداكِ، فإني والله غيرُ عائد[3].

قال أبو العبَّاس: وهذان بيتان قديمان لا يعُرف قائلُهما. ويُروى أن أبا بكرٍ الصِّدِّيق رحمه الله كان ينشدُهما، فبعضُ الناس يقول: هما له[4]:

تَنْفَكُّ تسْمعُ ما حَيِيـ ـتَ بهالكٍ حتَّى تكونَهْ

والمرءُ قد يَرْجو الرَّجا ءَ مغيَّباً والموتُ دونَهْ

وقال وضَّاحُ اليَمَن[5]:

يَا دَهْرُ مَا إِنْ تَزَالُ مُعْتَرِضًا لآمِلٍ دونَ مُنْتَهَى الأَمَلِ

---

[1] والبيت لعَمْرِو بْن دَارَةَ، كما في حماسة البحتري. وقد ورد قبله البيت المشار إليه سابقاً:

كُلُّ بَنِي أُمٍّ وإِنْ أَكْثَرَتْ يَوْماً يَصِيرُونَ إِلَى وَاحِدِ

وَالْوَاحِدُ الْبَاقِي كَمَنْ قَدْ مَضَى لَيْسَ بِمَتْرُوكٍ وَلا خَالِدِ

[2] يعني سامحيني واعفي عني.

[3] انظر: أخبار أبي القاسم الزجاجي. قلت الصنعة بادية جداً على هذه القصة.

[4] سيعيد المبرد هذا الخبر في آخر الكتاب.

[5] وضّاح اليمن (ت ٨٩ هـ): عبد الرحمن بن إسماعيل الخولاني، لقب بالوضّاح لوسامته، من شعراء الغزل في العصر الأموي. قيل إنه مات مقتولًا بأمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك لتشبيبه بزوجته.

لَوْ كَانَ مَنْ فَرَّ مِنْكَ مُنْفَلِتًا إذنْ لأَوْشَكْتُ[1] رِحلةَ الجَمَلِ

مرثية معن بن أوس

وقال مَعْنُ بنُ أَوْسٍ الْمُزَنِي[2]:

أَلَمْ تَعْلَمي عَمْراً وسُفيانَ بعدَه وضَمْرةَ أمسى فاتني ومُسافِعُ
أولئك لا أنثُنَّ كانوا فوارسي بهِمْ كنتُ أستخشي العِدا وأدافعُ
فأصبحتُ أرقي الشّامتين رُقاهُمُ ليَرْبُوَ طفلٌ أو ليُجْبرَ ظالِعُ
وصانعتُ في أشياءَ لو أنَّهم معي لباعدتُ حتَّى تَسْتقيدَ[3] التَّوابِعُ

قال: وحدَّثني الرِّياشيُّ في إسنادٍ قال: أنشد عروةُ بنُ الزُّبير قولَه بهم: كنتُ أستخشي العِدا وأدافعُ، فقال عروةُ: فهلاً قال: فباللهِ، أستخشي العِدا وأدافعُ ولا ينكسِرُ عليه شعرُه.

---

[1] في حماسة البحتري: أَسرَعْتُ، وهما بمعنى واحد، يقال: وَشُكَ الأَمْرُ: سَرُعَ.

[2] معن بن أوس المزني: مخضرم أدرك الإسلام، شاعر فحل مجيد، له مدائح في جماعة من الصحابة، رحل إلى الشام والبصرة، وكف بصره في أواخر أيامه، وكان يتردد إلى عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب فيبالغان في إكرامه. وله أخبار مع عمر بن الخطاب، وكان معاوية يفضله ويقول: أشعر أهل الجاهلية زهير بن أبي سلمى، وأشعر أهل الإسلام ابنه كعب ومعن بن أوس. وهو صاحب لامية العجم التي أولها: لعمرك ما أدري وإني لأوجل على أينا تعدو المنية أول. توفي سنة ٦٤ هـ.

[3] اسْتَقَادَتِ الدَّابَّةُ: مَشَتْ خَلْفَ قائدها.

قال الرِّياشي: وأنشد عبدُ اللهِ بنُ عُمَر قولَ حسانَ بنِ ثابت:

يَأبى لِيَ السَيفُ وَاللِسانُ وَقَو مٌ لَم يُضاموا كَلِبدَةِ الأَسَدِ[1]

فقال: هلَّا قال: يأبَى ليَ اللهُ. ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ.

وقال محمدُ بنُ حرْبٍ الهلاليُّ: أتى جبَّار بنُ سَلْمى العامريُّ[2] قبْرَ عامرِ بنِ الطُّفيل[3] ولم يكن شهِدَه[4] فقال: أنْعِمْ صَباحاً[5] أبا عليٍّ، واللهِ لقد كنتَ سريعاً

---

[1] من قصيدته التي مطلعها: انظُر خَليلي بِبَطنِ جِلِّقَ هَل تُؤنِسُ دونَ البَلقاءِ مِن أَحَدِ

[2] في النسخة المحققة: حيان بن سلمى، وتصويب الاسم من سيرة ابن هشام ومُحَمَّد بْن سعد، وغيرهما من المصادر.

جبار بْن سلمى بْن مالك بْن جَعْفَر بْن كلاب بْن ربيعة بْن عامر بْن صعصعة: وفد عَلَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأسلم، ثم رجع إِلَى بلاد قومه بضرية، وكان ممن حضر مع عامر بْن الطفيل بالمدينة لما أراد أن يغتال النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذي قتل عامر بْن فهيرة يَوْم بئر معونة، وكان يقول: مما دعاني إِلَى الإسلام أني طعنت رجلاً منهم فسمعته يقول: فزت والله، فقلت في نفسي: ما فاز؟ أليس قد قتلته؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا: الشهادة، فقلت: فاز لعمر اللَّه.

[3] عامر بن الطفيل الكلابي: شاعر جاهلي وفارس وسيد من سادات قبيلة هوازن. أدرك الإسلام ولم يسلم بل حاول اغتيال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[4] يعني لم يكن حضر موته ودفنه.

[5] أنْعِم صَبَاحَاً: تحية جاهلية معناها أسْعَدَكَ الله وَجعَلَكَ تَعِيشُ صَبَاحاً مَلِيئاً بِالرَّفَاهِيَةِ وَالعَيْشِ الرَّغْدِ.

إلى الْمَولى بوعدِك، بطيئاً عنه بإيعادِك، ولقد كنتَ أهدَى من النَّجْم، وأجرأَ من السَّيل. ثم التفتَ إليهم فقال: كان ينبغي أن يُصيِّروا قبرَ أبي عليٍّ ميلاً في ميل[1].

وقال محمدُ بنُ عليٍّ المنسوبُ إلى أمِّه الحَنَفِيَّة[2]: أيُّها الناس، إنكم في هذه الدارِ أغراضٌ تَنْتضِلُ[3] فيكم المنايا، لن يستقبل أحدٌ منكم يوماً جديداً من عمْرِه إلا بآخرَ من أجَلِه، فأيةُ أكلةٍ ليس معها غَصَص، أم أيةُ شَرْبة ليس معها شَرَق؟ فاستصلِحوا ما تُقدمون عليه بما تَظْعنون عنه، فإن اليومَ غنيمة، وغداً لا يُدرَى لمن هو. أهلُ الدنيا أهل سَفَر، يحُلُّون عقدَ رحالِهم في غيرِها. قد خلتْ من قبْلِنا أصولٌ نحن فروعُها. فما بقاءُ الفرْع بعد أصلِه؟ أين الذين كانوا أطولَ منا أعماراً وأبعدَ منا آمالاً؟ أتاك يابنَ آدمَ ما لا تردُّه، وذهب عنك ما لا يعود إليك. فلا تعُدَّن عيشاً منصَرِفاً عيشاً ما لك منه إلا لذةٌ

---

[1] انظر: الكامل للمبرد.

[2] محمد بن الحنفية: محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أمه خولة بنت جعفر الحنفية، فينسب إليها تمييزاً عن أخويه الحسن والحسين، يكنى أبا القاسم، حيث أذن رسول الله لولد من علي بن أبي طالب أن يسمى باسمه ويكنى بكنيته. ولد في خلافة عمر بن الخطاب سنة إحدى وعشرين للهجرة، وهو أحد الأبطال الأشداء، كان ورعاً واسع العلم ثقة له عدة أحاديث في الصحيحين.

[3] انتضلت: تناضلت وتبارت في الرمْي.

تزدلِف بك إلى حِمامِك، وتُقرِّبك من أَجَلِك، فكأنك قد صرتَ الحبيبَ المفقودَ والسوادَ الْمُحْتَرَم. فعليكَ بذاتِ نفسِك، ودعْ ما سواها، واستغنِ بالله يُغْنِك[1].

ومما يُستحسَن من قولِ مُتَمِّم بن نُوَيرة الدَّال على صحةِ عقلِه وتمكُّن الحُزن من قلبِه، وقلةِ نسيانِه أخاه، أنه كان لا يمرُّ بقبْر، ولا يُذكَر الموتُ بحضْرتِه إلا قال: يا مالكُ، ثم فاضتْ عَبْرتُه، ففي ذلك يقول[2]:

وقالوا أَتَبْكي كلَّ قبرٍ رأيتَهُ لقبْرٍ ثَوَى بين اللِّوى والدَّكادكِ؟
فقلتُ لهم إنَّ الأسَى يبعثُ البُكا ذَرُوني فهذا كلُّهُ قبرُ مالِكِ

[1] وقد نسب هذه الخطبة أبو نعيم في الحلية إلى عمر بن عبدالعزيز، وكذا فعل القالي في الأمالي. كما نسبت في شرح النهج لعمر بن الخطاب. وقال ابن أبي الحديد: وأكثر الناس يرويه لعلي.

[2] من قصيدته الي مطلعها: لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذرافِ الدموع السوافكِ

ومن هذه المختَصَرات قولُ هشامِ بنِ عقبة، أخي ذي الرُّمة[1]، وكان له إخوةٌ جماعةٌ فمات أكبرُهم، وكان يُقال له أَوْفى، ثم مات ذو الرُّمة، وكان يقالُ له غَيْلان، فقال هشامٌ[2]:

تَسَلَّيتُ عَن أَوفَى بغَيلَانَ بَعدَهُ عَزاءً وَجَفْنُ العَيْنِ بالدَّمعِ مُترَعُ
وَلَمْ تُنْسِنِي أَوْفَى الْمُصِيْبَاتُ بَعْدَهُ ولكنَّ نَكْءَ القَرْحِ بِالقَرْحِ أَوْجَعُ

فاخْتَصَر هذا اختصاراً يوفِّر على كلِّ واحدٍ منهما نصيبَه من الحُزن.

ويُروى من غيرِ وجْه أنَّ حسانَ بنَ ثابتٍ دخل على النابغةِ الذبياني فتَلَقَّتْه الخنساءُ خارجةً من عندِه، فأنشدَه قصيدَتَه التي يقول فيها[3]:

أَوْلَادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمُ قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضَلِ[4]

---

[1] ذُو الرُّمَّة: غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي الربابي التميمي، من شعراء العصر الأموي، من ولد سنة ٧٧ هـ، وتوفي بأصفهان سنة ١١٧ هـ وهو في سن الأربعين. وإنما قيل له ذا الرمة لقوله في الوتِد –أشعث باقي رمة التقليد–، والرُّمَّة، بضم الراء، الحبل البالي. كان قصيرًا دميمًا، يضرب لونه إلى السواد، أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال. كان ذو الرمة أحد عشاق العرب المشهورين، إذ كان كثير التشبيب بمَيَّة، وهي مية بنت مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم المنقرية، كانت فاتنة الجمال.

[2] انظر: الكامل للمبرد.

[3] ومطلع القصيدة: لله در عصابةٍ نادمتهم ... يَوْمًا بجلق فِي الزَّمَان الأول

[4] جاء في المجالسة وجواهر العلم للدينوري: كُنَّا عِنْدَ الْأَصْمَعِيِّ، فَسُئِلَ: مَاذَا أَرَادَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: (أَوْلَادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ ... قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضَلِ) مَا فِي هَذَا

يُغْشَوْنَ حتَّى ما تَهِرُّ كلابُهُمْ لا يَسْأَلون عن السَّوادِ الْمُقْبِلِ

فقال: إنكَ لشاعرٌ وإنَّ أختَ بني سليمٍ لبَكَّاءة.

مراثي الخنساء

قال أبو العبَّاس: فمِمَّا قدَّمناه من شِعرِها واستحْسَنَّاه مِن تخلُّصها قولُها[1]:

أَعَيْنَيَّ جُودَا وَلاَ تَجْمُدا أَلاَ تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى؟

أَلاَ تَبْكِيَانِ الجريءَ الْجَمِيلَ أَلاَ تَبْكِيَانِ الْفَتَى السَّيِّدا؟

فجَعَلَتْه ساد حَدَثاً، ووكَّدَت ذلك وزادتْ فيه وأوضحتْه بأنْ قالت:

طَوِيلَ النِّجَادِ رَفِيعَ الرَّمَا دِ سَادَ عَشِيرَتَهُ أَمْرَدَا

إِذا الْقَوْمُ مَدُّوا بِأَيْدِيهِمُ إِلَى الْمَجْدِ مَدَّ إِلَيْهِ يَدَا

فَنَالَ الَّذِي فَوْقَ أَيْدِيهِمُ مِنَ الْمَجْدِ ثُمَّ نَمَا مُصْعِدا

يُكَلِّفُهُ الْقَوْمُ مَا عَالَهُمْ وَإِنْ كَانَ أَصْغَرَهُمْ مَوْلِدَا

تَرَى الْمَجْدَ يَهوي إلى بيتِهِ يَرَى أفضَلَ الزَّادِ أنْ يُحْمَدا

فقرَنَتْ له المجدَ بالحَمْد.

مِمَّا يَمْدَحُهُمْ به؟ قال: أرادأنهم مُلُوكٌ حُلُولٌ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ، وَهُمْ أَهْلُ مَدَرٍ وَلَيْسُوا بِأَهْلِ عَمَدٍ يَنْتَقِلُونَ.

[1] الكامل.

ويقال: بل صحَّ أنَّه كان من دُعاءِ سعدِ بنِ عُبادة[1] وهو سيِّد الخَزْرج: اللهمَّ ارزقْني مجْداً وحَمْداً فإنه لا مَجْدَ إلا بمال، ولا حَمْدَ إلا بفِعال[2].

وكان سببُ مِيتةِ أخيها صخْرٍ أنه شَهِد حَرباً فأَبْلى فيها وتقدَّم، فحَمَل عليه رجلٌ من القومِ فطَعَنَه في خاصِرَتِه، فتحامَلَ في الجِراحة فجَوِيَ[3] منها ولم يُفْصَد[4] فخَرَجَ منها كمِثْل اليد[5]، وأضْنَتْه حَوْلاً أو حَوْلين لا يَنْبَعِث، فسمِع مَن يسألِ امرأتَه عن عِلَّته، وأين بلغَتْ منه؟ فقالتِ امرأتُه قولاً يدلُّ على البَرَم به، والْمَلَل لصُحْبته: لا حَيٌّ فيُرجَى، ولا ميتٌ فيُحتَسَب.

والتفتَ إلى أمِّه فإذا دموعُها تَجري فقال[6]:

أرَى أُمَّ صَخْرٍ مَا تَجِفُّ دُمُوعُها ومَلَّتْ سُلَيمى مَضْجَعي ومَكَاني

---

[1] سعد بن عبادة الأنصاري الساعدي الخزرجي زعيم الخزرج قبل الإسلام. صحابي أسلم مبكراً، وشهد بيعة العقبة، وعاش إلى جوار الرسول. ولعلّ سعد بن عبادة ينفرد بين الأنصار جميعاً بأنه حمل نصيبه من تعذيب قريش الذي كانت تنزله بالمسلمين في مكة.

[2] أخرجه الحاكم (٣/ ٢٥٣)، وابن سعد (٣/ ٦١٤)، وابن أبي الدنيا في إصلاح المال (٥٤)، والبيهقي في الشُّعب (١٢٥٨)، وابن أبي شيبة في المصنَّف (٢٨٣١٩).

[3] جَوِيَ الرَّجُلُ: مَرِضَ – نَتِنَ.

[4] فَصَدَ الْمَرِيضَ: شَقَّ عِرْقَهُ وَذَلِكَ لإِخْرَاجِ مِقْدَارٍ مِنَ الدَّمِ لِلتَّحْلِيلِ.

[5] يعني خُرّاج كبير في حجم كف اليد.

[6] انظر: الأصمعيات.

ومَا كُنْتُ أخْشَى أنْ أكُونَ جِنازَةً عليكِ ومَنْ يغتَرُّ بالحَدَثانِ
فَأَيُّ امْرِئٍ ساوَى بأمٍّ حَليلَةً فلا عاشَ إلَّا في شَقاً وهَوانِ
لعَمْري لقد نَبَّهْتِ مَن كان نائماً وأسمَعْتِ مَن كانت له أُذُنانِ
أهُمُّ بأمرِ الحزْمِ لو أستطيعُهُ وقد حيلَ بين العَيْرِ والنَّزوانِ

فلما رأى ذلك بَرِمَ بتلك الخُرَّاجة من جَنْبه، فأشاروا بقَطْعها ففَعَل، فلما قَطَعَها يئس من نفسِه، ففي ذلك يقول[1]:

أجَارَتَنَا إنَّ الْمَنونَ قَريبُ مِنَ النَّاسِ كُلَّ الْمُخْطَئِيْنَ تُصِيْبُ
كأنِّي وقد أَدْنَوا إليَّ شِفارَهُمْ من البُزْلِ[2] أَحْوى الصَّفْحتينِ نكيبُ
أجَارَتَنَا لا تَسْأليني فإنني مُقيمٌ لعَمْري ما أقامَ عَسِيبُ

قال أبو عُبيدة: وعَسِيب: جَبَل معروف، فقبرُه هناك معروف المكان.

قولُه من البُزْل: يعني: كأني بَعيرٌ قَرْمٌ[3] من الإبِل قد كُوِي لداءٍ به، فيقول: أُحلِلت ذاك المحلَّ لقطعِ ذلك اللَّحم وكيِّه. وجَعلَه أحْوى الصفْحَتين، وهما الجَنْبان، لتتابُع الهَنَاءِ عليه ضَنّاً به. والنكيب والأنكب واحدٌ، وهو الحامل، وذلك مما يوصَف به الفَحْل أنه يحمل نشاطاً وتكبُراً.

---

[1] انظر: أمالي الزجاج.

[2] البزل: جمع بازل، وهو البعير انشقّ نابُه، وذلك في السنة التاسعة ذكرًا كان أو أنثى.

[3] أَقْرَمَ الفَحْلَ: أَكْرَمه فجعله قَرْماً، وهو الذي يُترَكُ من الركوب والعمل ويُوَدَّع للضِّرَاب.

وكانت الخنساءُ تقول الأبياتَ اليَسيرةَ، فلما أُصيبَتْ بأخيها صَخْر جَدَّتْ وأجادت، وجمَعَتْ نفْسَها وشهرتْ. فمما يُستحسَنُ من شِعرها قولُها في قصيدةٍ أولها[1]:

يا عَينِ جُودِي بدَمْعٍ منكِ تَغْزارِ وابْكِي لصَخْرٍ بدَمْعٍ منكِ مِدْرارِ

وقولُها:

إنِّي أَرِقْتُ فبِتُّ اللَّيلَ ساهِرةً كأنَّما كُحِلَتْ عيْني بعُوَّارِ

والعُوَّار والعائر سواءٌ، وهو المستأخِذ، أشدُّ الرَّمد وأغلبُه، كما قال القائل[2]:

بأعيُنٍ لم يُصِبْها عَائِرُ الرَّمَدِ

وكما قال الراعي[3]:

غَضاًّ كَمَا كَسَفَ الْمُسْتَأْخِذُ الرَّمِدُ

---

[1] انظر: حماسة البحتري وديوان الخنساء.

[2] ولأبي تمام بيت ورد فيه هذا التعبير (عائر الرمد) من قصيدة يمدح بها أبا المغيث بن إبراهيم:

قَوْمٌ إِذَا أَعْيُنُ الآمَالِ جِئنَهُمُ رَجَعْنَ مكتحلاتِ عائرَ الرمدِ

[3] الراعي النُمَيري (ت٩٠ هـ):عُبَيد بن حُصين بن معاوية بن جندل، النميري. شاعر من فحول الشعراء المحدَثين، كان من جلّة قومه، ولقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل.

أَرْعى النُّجومَ وما كُلِّفْتُ رِعْيَتَها وَتَارَةً أَتَغَشَّى فَضْلَ أَطْمَارِي[1]

إنّي سَمِعْتُ فَلَمْ أَبْهَجْ[2] بِهِ خَبَراً مخبِّراً جاءَ يَنْثو[3] جَمْعَ أَخْبَارِي

قالَوا: ابنُ أُمِّكِ أضحى في الضَّريحِ[4] وقدْ شَدُّوا عليه بأعوادٍ وأحْجارِ

اذْهَبْ فَلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ مِنْ رَجُلٍ تَرَّاكِ ضَيْمٍ وَطَلاَّبٍ بِأَوْتَارِ

قَدْ كُنْتَ تَحْمِلُ قَلْباً غَيْرَ مُؤتَشَبٍ[5] مُرَكَّباً فِي نِصَابٍ[6] غَيْرِ خَوَّارِ

الخوَّار: الضعيف.

وحدَّثَني رجلٌ من بني هاشِم عن سعيدِ بنِ سلمٍ الباهِلي[7]. قال: كنتُ مع أميرِ المؤمنينَ هارونَ الرَّشيدِ في سَفَر، فسَأل عما حُمِل معه من الثَّلْج، فاستقلَّ

---

[1] جمع طِمْرُ: الثوب الخَلَق البالي.

[2] أفرح – أسعد.

[3] نَثَا الْحَدِيثَ أَوِ الْخَبَرَ ينثوه: حَدَّثَ بِهِ، أَشَاعَهُ، أَذَاعَهُ، كَشَفَهُ.

[4] القبر.

[5] المؤتشب: المعيب أو الدنيء.

[6] يعني في أصل صدقٍ وكرم وشرف.

[7] سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي: بصري الأصل سمع عبد الله بن عون وطبقته، وكان قد سكن خراسان، وولاه السلطان بعض الأعمال بمرو، وقدم بغداد وحدَّث بها فروى عنه محمد بن زياد بن الأعرابي صاحب اللغة.

ما ذُكِر له فاغتاظ واحتَدَّ، فتركْتُه حتى سَكن غَرْبُه[1] ثم قلتُ: يا أميرَ المؤمنين، إني أقولُ كلاماً واللهِ ما أريدُ به مَلَقاً ولا تنبيهاً على نفسي لأني فطِنْتُ إلى ما لم يَفطِن إليه مَنْ سواي، وما أقولُه إلا بالنصيحة المحضَة. فقال: هات. فقلت: يا أميرَ المؤمنين، إنك قسَمْتَ الدَّهْر شَطْرين، شَطراً للحَجِّ، وشطْراً للغَزْو؛ والمسافرُ يَرِد على ضُروب من المياه، وسَفَرُك أكثرُ من حَضَرِك، فلو أن أمير المؤمنين عوَّدَ نفسَه الخشونة شيئاً فمتى احتاج إليها لم تُنْكرْها النفس لتلك العادة. قال: فأطرَق ثم قال: يا سعيد، بنُصْحٍ قلْت: ولكنا نلبس العافية ما لَبِسَتْنا، فإن اضْطُررنا رجعْنا إلى أصلٍ غيرِ خوَّار[2].

رجْع الشِّعر

مِثْلُ السِّنَانِ كضَوءِ البدْرِ صُورَتُهُ جَلْدُ الْمَرِيرَةِ[3] حُرٌّ وَابْنُ أَحْرَارِ
فَسَوْفَ أَبْكِيكَ مَا نَاحَتْ مُطَوَّقَةٌ[4] وَمَا أَضَاءَتْ نُجُومُ اللَّيْلِ لِلسَّارِي

---

[1] الغَرْبُ: الحِدَّةُ.

[2] والقصة كما أوردها القاضي وكيع في أخبار القضاة منسوبة إلى أبي البختري (القاضي) لا سعيد بن سلم. والظاهر أن أحدهما رواها عن الآخر فنسبت له.

[3] المريرة: عزة النفس، والعزيمة، واستحكام الأمر.

[4] المطوّقة: الحمامة، القماريّة، الفاختة.

وَلَنْ أسَالِمَ قَوْماً كُنْتَ حَرْبَهُمُ حَتَّى تَعُودَ بَيَاضاً حُلْكَةُ الْقَارِ[1]

أَبلِغْ خُفافاً وعَوْفاً[2] غيرَ تَقصِرةٍ عميدَ قومٍ نداءً غيرَ إسرارِ[3]

والحربُ قد سُعِّرَتْ حَرْباً مذكَّرةً شهباءَ تَفْري بأنيابٍ وأَظْفارِ

شُدُّوا المآزرَ حتَّى تَستَقيدَ[4] لكمْ وشمِّروا إنَّها أيَّامُ تَشْمارِ

وابْكُوا فَتى الحيِّ لاقتْهُ مَنِيَّتُهُ وكلُّ نفسٍ إلى وقتٍ ومِقدارِ

كأنَّهُمْ يومَ رامُوهُ بجمْعِهِمُ رامُوا الشَّكيمةَ من ذي لِبْدةٍ

والشَّكِيمة: شِدَّة النفْس وصحَّة العزيمة. والشَّكيمة: الحديدة المعترِضة في اللِّجام.

حَتَّى تَفَرَّجتِ الآلافُ عنْ رجلٍ مُجَدَّلٍ خَرَّ كَرْهاً غيرَ مُختارِ

تَجيشُ منه فُوَيقَ الثَّدي مُزبِدةٌ بعاندٍ من نجيعِ الجوْفِ ثَوَّارِ[6]

---

[1] حلكة القار: سواد الزفت والقطران.

[2] قال ابن داود في الزهرة: خفاف بن ندبة وعوف هذان اللذان عاتبتهما من الفرسان المعدودين وكانا مع صخر فهربا عنه، وقد أدرك خفافاً الإسلام فأسلم.

[3] يعني أبلغهما رسالة واضحة لا خفاء فيها.

[4] تتهيأ وتنقاد.

[5] يعني كأنهم يوم راموا قتله بجماعتهم راموا أسداً ضارياً.

[6] تجيش: تقذف بالدم، مزبدة: طعنة يفور دمها وله زَبَد.

لو منكُمُ كان فينا لم يُنَلْ أبداً حتَّى تُلاقُوا أُموراً ذاتِ آثارِ[1]

أعْني الَّذينَ إليهمْ[2] كان منزِلُهُ هل تَعرِفونَ ذِمامَ[3] الضَّيفِ والجارِ؟

تُعاتِب خُفافَ بنَ نُدبة وعَوْفاً لأنهما هرباً عنه وهما من المعدودين من الفُرسان. وكان خُفاف من فُرسان العرب وأدرك الإسلامَ فأسلم.

لا صُلْحَ حتَّى تَكُرُّوا الخيلَ عابِسةً تَعْدو وتَرْمي بمُهراتٍ وأَمهارِ[4]

فتَغسِلوا عنكُمُ عاراً تجلَّلَكُمْ غَسْلَ الجواريَ حَيْضاً عند إطْهارِ

قال: هذا مَثَل[5].

وقالت أيضاً تَرثي صخراً[6]:

أَلاَ مَا لعَيْنكِ أَمْ مَا لهَا لَقَدْ أَخْضَلَ الدَّمْعُ سِرْبَالهَا

---

[1] أي تلاقوا عواقب لها ذكر وآثار وخيمة.

[2] إليهم بمعنى معهم، ومنه قوله تعالى: (مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ) أي مع الله.

[3] الذمام: الذمة والعهد. والمعنى أنه كان جديراً بكم أن تحفظوا له عهده وذمامه وحقه لا أن تفروا وتتركوه وحده.

[4] أي حتى تغزوهم بخيل عابسة كالحة ترميهم بأولادها.

[5] أي قوله (غَسْلَ الجواريَ حَيْضاً عند إطْهارِ).

[6] الديوان.

فأقسمْتُ آسَى على هالِكٍ وأَسْأَلُ نائحةً ما لَهَا[1]

أَبَعْدَ ابنِ عمرِو بنِ آلِ الشَّرِيـ ـدِ حَلَّتْ به الأرضُ أثقالَها

معنى حَلَّت به الأرض أثقالَها: مِن الحِلية: أي زَيَّنتْ به أثقالَها، تعني الموتى. قال اللهُ عزَّ وجلَّ: (وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) قالوا: يعني الموتى.

لَعَمرُ أَبيهِ لَنِعمَ الفَتى تَحُشُّ بِهِ الحَربُ أَجذالَها

أي تُوقِد به الحربُ أجذالَها. والجِذلُ: أصلُ الشجرة. فضربَتْه مثلاً لشدة الاتِّقاد، وأنه صاحب ذلك.

حَديدُ السِّنانِ ذَلِيقُ اللِّسانِ يُجازِي الْمَقارِضَ أَمثالَها[2]

وَخَيلٍ تَكَدَّسُ مَشْيَ الوُعُو لِ نازلْتَ بالسيفِ أبطالَها[3]

بِمُعتَرَكٍ بَينَهُمْ ضَيِّقٍ مَجَرَّ الْمَنِيَّةِ أَذيالَها[4]

---

[1] آسى: أي لا آسى. والمعنى: أقسمت ألا أحزن على هالك بعده ولا أبالي بمن مات.

[2] أي شجاع فصيح، يرد العدوان بمثله.

[3] التكدُّس: السير المستعجل المتقحِّم واقترابُ بعضها من بعض، تمشي مشي الوعول لأنها قصيرة الأيدي طويلة الأرجل. والمعنى أنها خيل تكدست في ساحة المعركة، مثقلة بالحديد، والفرسان، فنازلتهم بشجاعة.

[4] المعترك: ساحة المعركة. ضيقة تجر فيها المنية أذيالها حيث الموت الأكيد. وقد نصبت كلمة مجر على نزع الخافض.

تُقابِلُها فَإذا أَدْبَرَتْ بَلَلْتَ مِنَ الطَّعْنِ أَكفالَها[1]

الأَكْفال: واحدُها كَفَلٌ[2]، وهو الرِّدْف من الرَّجل والمرأة.

تُهينُ النُفوسَ وَهُونُ النُفوسِ غَداةَ الكَريهةِ أَوْفى لها[3]

يُرْوى عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي اللهُ عنه أنه قال: رُبَّ مَنيَّةٍ سببُها طلبُ الحياة، وحياةٍ سببُها التعرُّض للموت[4].

وَرَجراجَةٍ فَوقَها بيضُها عليها الْمُضاعَفُ زِفْنا لها[5]

تعني بقولِها: زِفْنا لها أي جئنا نمشي إليها هوناً.

كَكِرْفِئَةِ الغَيْثِ ذاتِ الصَّبيرِ تَرْمي السَّحابَ وَيُرمَى لَها[6]

الكِرْفئة واحدةُ الكَرافئ وهو تكاثُف الغَيْم واسوِدادُه.

---

[1] أي تطعنها مقبلة فإذا أدبرت مولية طعنتها في ظهورها فبللتها من الدم.

[2] الكَفَلُ: العَجُزُ للإنسان والدَّابَّة. والجمع: أَكْفالٌ.

[3] يعني تبذل النفس رخيصة يوم الحرب الكريهة فإذا في ذلك إكرام ورفعة وإغلاء لِشأنها وإعلاء لذكرها، مما لو بقيت وحافظوا عليها.

[4] انظر: التذكرة الحمدونية لابن حمدون.

[5] الرجراجة: الكتيبة التي تهتز وتضطرب من كثرة فرسانها. والمضاعَف من الدروع: المنسوج حلقتين حلقتين، وزفنا لها: مشينا باختيال.

[6] يعني مشينا إليهم في تتابع وكثرة مثل السحاب الأسود المتتابع يمد بعضه بعضاً.

قال: وحدَّثنا المازنيُّ بإسناد آخرُه رُؤبةُ بنُ العَجَّاج[1] قال: خَرجْتُ مع أبي، نُريد الوليدَ بنَ عبدِ الملِك، فأُهدِي لنا جَنْب من لحْمٍ عليه كَرافئ الشَّحْم ووَطَب من لَبَن، فطَبَخْنا هذا بهذا، فمازالت ذِفْرياىَ تَنْتَحانِ[2] منه حتى رَجَعْنا. وإنما شبَّهه لكثرةِ الشَّحْم وركوب بعضِه على بعض بكِرْفئة الغَيْم.

وَداهِيَةٍ جَرَّها جارِمٌ تُبِيلُ الخَواصِرَ أحْبالَها[3]

كَفَيْتَ ابنَ عَمرٍو وَلَم تَسْتَعِنْ وَلَو كانَ غَيرُكَ أَدْنى لَها[4]

وعَيْرانةٍ كأتانِ الثَّمِيـ ـلِ غادَرْتَ بالخَلِّ أوصالَها

---

[1] رؤبة بن عبد الله العجاج بن رؤبة (٦٥ – ١٤٥ هـ): من رجَّاز الإسلام وفصائحهم وهو من مخضرمي الدولة الأموية و العباسية. كان رأسًا في اللغة، وكان أبوه قد سمع من أبي هريرة. ولما مات رؤبة قال الخليل: دفنا الشعر واللغة والفصاحة.

[2] الذِّفْرَى من الحيوان والإنسان: العَظم الشاخص خَلْفَ الأذُن والجمع: ذَفَارَى. وتنتحان: ترشحان وتسيلان بهذا الشحم. فكأنه يرشح شحماً مكان العرق.

[3] الجارم: المجرِم المذنِب، والخواصِر: الحوامِل، مفردها خاصرة وهي المرأة الحامل، سميت بذلك لانتفاخ خصرها بالحَمْل، وأحبال جمع حَبَل، والمعنى أن هذه الداهية تفزع الحوامل فيسقطن حملهن من شدة الفزع.

[4] يعني كفيتنا هذه الداهية ونهضت بها ولم تستعن بغيرك ولو كان أقرب إليها.

قولها: وعَيْرانة تعني: ناقةً تُشبَّه بالحِمار الوحْشي. وأتان الثَّميل: صخرة تكون في الحوض معروفة. والثَّميل: بقية الماء. فتقول هي صلبة كصلابة هذه الصخرة. والخَلُّ: الطريق في الرَّمل. فتقول: غادَرْتُها هناك لشِدَّة السير.

إلى مَلِكٍ لا إلى سُوقَةٍ[1] وذلكَ ما كان إكلالَها[2]
ومُحْصَنةٍ مِنْ بَناتِ الملو كِ قَعْقَعْتَ بالرُّمحِ خَلْخالَها
وقافيةٍ مثل حدَّ السِّنا نِ تَبْقى ويَهلِكُ مَنْ قالَها
نَطَقْتَ ابنَ عمْروٍ فسَهَّلْتَها ولم يَنْطِقِ النَّاسُ أمثالَها
فَإِنْ تَكُ مُرَّةُ أَودَتْ بِهِ فَقَد كانَ يُكثِرُ تَقْتالَها
فزالَ الكَواكبُ مِنْ فقْدِهِ وجُلِّلَتِ الشَّمسُ أَجْلالَها[3]
هَمَمْتُ بنفسِيَ كلَّ الهُمومِ فأَوْلى لنفسِيَ أوْلى لَها
لِأَحْمِلَ نفسِي على آلةٍ فإمَّا عليها وإمَّا لَها

---

[1] أي غادرت أوصالها عامِداً إلى ملِك لا سوقة. والسوقة ضد المِلك، قال الجواليقي في التكملة فيما يلحن فيه العامة: ومن ذلك السوقة. يذهب عوام الناس إلى أنهم أهل السوق، وذلك خطأ، إنما السوقة عند العرب من ليس بمِلك، تاجراً كان أو غير تاجر بمنزلة الرعية التي يسوسها الملوك، وسُموا سوقةً لأن المِلك يسوقهم فينساقون له ويصرِّفهم على مراده، يقال للواحد: سوقة وللاثنين: سوقة.

[2] يعني: وذلك العمل إكلال وإعمال لها.

[3] الأجلال: جمع جَلّ، وهو ما تُغطى به الدابة. والمعنى أن الشمس كسفت لفقده وأظلمت.

ومما يؤْثَر ويُقتفى من قولِها[1]:

قَذَىً بِعَينِكِ أَمْ بِالعَيْنِ عُوَّارُ أَمْ أَوْحَشَتْ أنْ خَلَتْ مِن أَهلِها الدَّارُ[2]

ويُنشِد بعضُهم: أقذىً بعينِك، وهو أقومُ للبيْت، وزيادةُ الألف في قولها: أقذىً، أبلغُ. ولا ضرورة فيه ولكنه مَخْزوم[3].

تَبكي لِصَخْرٍ هِيَ العَبْرى وَقَد وَلِهَتْ وَدونَهُ مِن جَديدِ التُّرْبِ أَستارُ

لا بُدَّ مِن مِيتَةٍ في صَرْفِها عِبَرٌ وَالدَّهْرُ في صَرْفِهِ[4] حَوْلٌ وَأَطْوارُ

يا صَخْرُ وَرَّادُ ماءٍ قَد تَناذَرَهُ[5] أَهلُ المياهِ وما في وِرْدِهِ عارُ[6]

وهذا بيتٌ يُسأل عنه: كيف تَناذَرَه أهلُ المياه ولا عارَ فيه؟ فالمعنى أنها تعني الموت.

مَشى السَبَنتى إلى هَيجاءَ مُعضِلَةٍ لَهُ سِلاحانِ أَنيابٌ وَأَظفارُ

---

[1] الديوان.

[2] والمعنى: أي شيء هاج حزنك؟ عوار بعينك أم سالت دموعها لخلاء هذه الدار من أهلها؟

[3] الخَزْمُ في الشِّعر: زيادةٌ تكون في أول البيت لا يُعْتَدُّ بها في التقْطِيع، وتكون بحرف إلى أربعة أحرف.

[4] صرفه: تصاريفه؛ نوائبه ومصائبه.

[5] تناذر القومُ: أنذر بعضُهم بعضًا شرًّا، وتناذروا العدوّ/ الكارثةَ/ الهجومَ عليهم. يعني عدوه نذير شؤم.

[6] يعني أنه ورد الموت الذي يرده كل الناس وليس في ورده عار على أحد.

يقال لكل جريء الصدر: سبندى وسبنتى بالتاء والدال، والأغلب عليه النَّمِر.

عَبْلُ الذِّراعينِ[1] قد تُخشى بوادِرُهُ ... عند الوقيعةِ للأقرانِ هَصَّارُ
فَما عَجُولٌ عَلى بَوٍّ تُطِيفُ بِهِ[2] ... لَها حَنِينانِ إِعلانٌ وَإِسرارُ[3]
تَرتَعُ ما غَفَلَتْ حَتَّى إِذا ادَّكَرَتْ ... فَإِنَّما هِيَ إِقبالٌ وَإِدبارُ[4]
يَوماً بِأَوْجَدَ مِنِّي يَوْمَ فارَقَني ... صَخْرٌ وَلِلدَّهرِ إِحْلاءٌ وَإِمْرارُ[5]
وَإِنَّ صَخْراً لَوالِينا وَسَيِّدُنا ... وَإِنَّ صَخْراً إِذا نَشْتُو لَنَحَّارُ
وَإِنَّ صَخْراً لَتَأتَمُّ الهُداةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رَأسِهِ نارُ

---

[1] عَبْل: ضَخْم سمين.

[2] الْعَجُولُ: الثَّكْلَى، والْوَالِهُ، مِنَ النِّساءِ والإِبِلِ، وَهِيَ الَّتِي فَقَدَتْ وَلَدَها، سُمِّيَتْ لِعَجَلَتِهَا فِي حَرَكاتِها، أَي فِي جِيئَتِها وذَهابِها، جَزَعاً. والبوُّ أن يُذبح الفصيل فيسلخ برأسه وقوائمه ثم يحشى تبناً لتعطف عليه أمه وتشمه ولا تنكره وتدر عليه حتى لا ينقطع لبنها. قال أبو عبيدة: العَجول والخَلوج والسَّلوب والواله والفاقِد واحد.

[3] يعني ترفع صوتها مرة وتخفضه أخرى.

[4] يعني تقبل وتدبر من شدة القلق على ولدها.

[5] يعني هذه الناقة الثكلى ليست أكثر حزناً على ولدها مني على أخي.

العَلَم ها هنا: الجَبَل، وكذلك قال المفسِّرون في قول الله جلَّ وعزَّ: (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأعْلامِ). ومنه قولُ جَرير[1]:

إذا قَطَعْنَ عَلَماً بدا عَلَمْ

رجع إلى الشعر

طَلْقُ اليَدَيْنِ لِفِعْلِ الخَيْرِ ذو فَخَرٍ[2] ضَخْمُ الدَّسيعَةِ[3] بالخَيْراتِ أَمَّارُ
مِثْلُ الرُدَينِيِّ[4] لَمْ تَنْفَذْ شَبيبَتُهُ كَأَنَّهُ تَحْتَ طَيِّ البُرْدِ أُسوارُ[5]
لَيَبْكِهِ مُقْتِرٌ أَفْنَى حَلُوبَتَهُ دَهْرٌ وَحالَفَهُ بُؤسٌ وَإِقْتارُ
وَرِفْقَةٌ حارَ هادِيهِم بِمَهْلِكَةٍ كَأَنَّ ظُلْمَتَها في الطُّخْيَةِ القارُ[6]
لَمْ تَرَهُ جارَةٌ يَمشِي بِساحَتِها لِريبَةٍ حينَ يُخْلي بَيْتَهُ الجارُ

فقولها: كأنه علمٌ في رأسه نارُ أحدُ ما قُدِّمَتْ به[7].

---

[1] سبق ذكره.

[2] وفي رواية: فجر.

[3] الدَّسِيعَةُ: المائدةُ الكريمةُ. وكل عطية يقدمها الإنسان.

[4] الرديني: رُمْح (نسبة إلى رُدَيْنة وهي امرأة اشتهرت بتقويم الرِّماح).

[5] أي قليل اللحم كأنه أسوار من ذهب أو فضة في حسنه وضمره.

[6] المهْلَكَةُ: المَفَازةُ. والطُّخْيَةُ: الظُّلمةُ الشديدة.

[7] يعني قدمها النقاد على غيرها من الشعراء بسبب هذا البيت.

فقال عمرُ بنُ الخطاب رضِي الله عنه: أما رَضِيتِ أنْ تَجْعليه عَلَماً حتى جعلْتِ في رأسِه ناراً، ذاكَ رسولُ صلى اللهُ عليه وسلَّم، يريد: البيانَ والدِّلالة.

وقال عُمَرُ في قول الحُطيئة[1]:

مَتى تَأتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نارٍ عِندَها خَيْرُ مَوقِدِ

كَذَبَ الحُطيئة، تلك نارُ موسى صلى الله عليه وسلم[2]. وهذا مِن نوادِر الشِّعر.

وقالت أيضاً[3]:

كَأنَّ العَيْنَ خالَطَها قَذاها بعُوَّارٍ فما تَقْضِي كَراها

على صَخْرٍ وأيُّ فَتىً كَصَخْرٍ إذا ما النَّابُ[4] لم تَرْأَمْ[5] طَلاها

قولها إذا ما النابُ لم تَرْأَم طَلاها: الطَّلا: الصغير من أولاد الوَحْش والنَّعَم، ويقال ذلك في الآدميين، وإنما تريد زَمَنَ الصَّرِّ والبَرْد.

---

[1] وينسب أيضاً إلى النابغة الذبياني.

[2] انظر: الأغاني.

[3] الديوان.

[4] النَّابُ: النَّاقةُ المسِنَّةُ.

[5] رئمتِ الأنثى ولدَها: أحبّته ولزمته وعطفت عليه، فهي رَائمةٌ، ورَائمٌ، ورَءومٌ.

حَلَفْتُ بِرَبِّ صُهْبٍ مُعْمَلاتٍ[1] إلى البَيْتِ الْمُحَرَّمِ مُنْتَهاها
لئنْ جَزِعَتْ بنو عَمْرٍو عليهِ لقد رُزِئَتْ بنو عَمْرٍو فَتاها
فَتى الفِتيانِ ما يُعْلَى مَداهُ ولا يُكْدِي إذا بلغتْ كُداها[2]

يقال: أكْدى، إذا أقلَّ، وأصل ذلك في البئر تُحْفَر، فإذا بلغ منها إلى حَجَر أو كذَّان استَصْعَبَ على الحافِر. وقيل: قد بلغت كُديتها وجمعُها كُدى فلا يخرج من التراب إلا اليسير، فلذلك قيل للذي يعطي قليلاً: أَكْدى. قال الله جلَّ وعزَّ: (وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ). فقالت: إذا بلغ الجهدُ من الناس لم يكن عطاؤه قليلاً ولا نَزْراً.

لهُ كَفٌّ يَشُدُّ بها وكَفٌّ تَحَلَّبُ ما يَجِفُّ ثَرَى نَداها[3]
فمَنْ للضَّيْفِ إنْ هَبَّتْ شَمالٌ مُزعْزِعَةٌ يُجاوِبُها صَباها[4]

---

[1] صُهْب: جمع صَهباء، ودابة صَهْباءُ: حمْرَاء أو شقْرَاء الشَّعَرِ. والصهب المعملات: الإبل المسرعات المجدات في السير.

[2] يعني إذا سئل لا يشح ولا يمنع، ومنه قوله تعالى: (وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ). وقوله: إذا بلغت كُداها: يعنى إذا بالناس الجهد لم يبخل هو.

[3] كف يشد بها على الأعداء وكف دائمة العطاء أبداً.

[4] ريح شديدة تزعزع أعمدة الخيام، تقابلها ريح الصَّبا الباردة.

وأَلْجَأَ بَرْدُها الأَشْوالَ حُدْباً[1] إلى الحَجَرَاتِ بارزةً كُلاها[2]

يقول: لا شَحْم عليها.

هُنالِكَ لو نَزَلْتَ بآلِ صَخْرٍ قِرَى الأضيافِ شَحْماً من ذُراها[3]

هذا على مخاطَبَتيْن. قالت: هنالك لو نزلْتَ، للذي تخاطبُه، ثم خبَّرَتْه فقالت: قِرَى الأضياف، فتأويل هذا على ضَرْبين، أحدِهما على حذف المفعول كأنها قالت: لو نزلت به لرأيتَه يَقْري الأضياف، ويكون على أنها جعَلَتْه وغيرَه على مخاطَبَتَيْن، تتحول من إحداهما إلى الأخرى كقول اللهِ عزَّ وجلَّ: (حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ)، وكقَوْلِ عَنْترة:

شَطَّتْ مَزَارُ العَاشِقِينَ فَأَصْبَحَتْ عَسِراً عَلَيَّ طِلاَبُهَا ابْنَةُ مَخْرَمِ

ومثلُ هذا كثيرٌ جداً.

أمُطعِمَكُمْ وحامِلَكُمْ تَرَكْتُمْ لَدَى غَبراءَ مُنْهَدِمٍ رَجاها[4]

---

[1] الأشوال: جمع شول. وهي النوق التي خفت بطونها، وجفت ألبانها. حدباً قد تقوست من الضر.

[2] الحَجرات: جمع حَجْرة، وهي الطُّرق. بارزة كلاها: جوانبها قد ظهرت بسبب الضمر والهزال.

[3] هنالك: يعني في تلك الليالي الباردة إذا نزلت ضيفاً على آل صخر لوجدت الضيافة من أفضل الإبل وأعلاها وأغلاها.

[4] الغبراء: الأرض الجرداء. والرَّجا: جانب القبر. وهذا العتاب معناه أنكم أسلمتم صخراً فطُعن ومات بسبب هذه الطعنة، وكانت نهايته بقبر منهدم الجوانب في صحراء جرداء وهو الذي كان يكرمكم ويوفر لكم الحُملان في الحرب مع أعدائكم.

تَرَى الشُّمْطَ الجَحاجِحَ مِنْ سُلَيْمٍ تَبُلُّ ذُرَى مَدامِعها لِحاها[1]

لِيَبْكِ الخَيْرَ صَخْراً مِنْ مَعَدٍّ ذَوُو أَحْلامِها وذَوُو نُهاها

وخَيْلٍ قدْ لَفَفْتَ بجَوْلِ خَيْلٍ فَدارَتْ بين كَبْشَيْها رَحاها[2]

مُحافَظَةً ومَحْمِيَةً إذا ما نَبا بالقومِ من جَزَعٍ لَظاها[3]

وقالت[4]:

ألا يا عَيْنِ فانْهَمِلي بغَزْرِ وفِيضِي عَبْرَةً من غيرِ نَزْرِ[5]

ولا تُعْزِي عَزاءً بعدَ صَخْرٍ فقَد غُلِبَ العَزاءُ وَعِيلَ صَبْري[6]

لِمَرْزِئَةٍ كَأَنَّ الجَوْفَ مِنها بُعَيْدَ النَّوْمِ يُشعَرُ حَرَّ جَمْرِ[7]

عَلى صَخْرٍ وَأَيُّ فَتىً كَصَخْرِ لِعانٍ عائِلٍ غَلَقٍ بِوِترِ[8]

---

[1] الجحاجح: السادة الضخام، والمفرد جحجح وجحجاح.

[2] الكبشان: رئيسا الجيشين.

[3] يعني حينما تشتبك الرماح دفاعاً وصدًّا في لظى الحرب المستعرة.

[4] الديوان.

[5] أي صبي الدمع الغزير ولا تقللي الانهمار.

[6] عيل صبري: عجز وغُلب.

[7] المرزئة: المصيبة. ويشعر من الشعار الملاصق للجسم،

[8] العاني: الأسير والعبد والسائل، عائل: كثير العيال. غلق بوتر: يطلب ثأراً لا يقدر عليه فهو موتور.

وللأَضْيافِ إنْ طَرَقُوا هُدُوًّا وَلِلْكَلِّ الْمُكِلِّ وَكُلِّ سَفْرِ[1]

إذا نَزَلَتْ بِهِمْ سَنَةٌ جَمادٌ أَتَى بالدَّرِّ لَمْ يُكْسَعْ بِغُبْرِ[2]

كان مِنْ شَأنهم، إذا أجدَبَتِ السَّنة أو خافوا الجَدْب، أن تُنضَحَ الضُّروعُ بالماء البارِدِ ليَبْقى اللَّبنُ فيها ادخاراً واستعداداً وبُخلاً مِن بعضهم. فلذلك يقول الحارثُ ابنُ حِلِّزة[3]:

لاَ تَكْسَعِ الشَّوْلَ بأغْبَارِهَا إنَّكَ لاَ تَدْرِي مَنِ النَاتِجُ

الغُبْر: بقيةُ اللَّبن، وغابر كل شيء: باقِيه. ويقول: لا تَبْخَلْ فتحْبِسَ لبَنَك، فإنك لا تدري لمن يكون ذلك اللبنُ، أَلَكَ أمْ لوارِثِكَ أمْ لِمُغيرٍ عليكَ.

واصْبُبْ لأَضْيافِكَ أَلْبانَهَا فإنَّ شَرَّ اللَّبَنِ الوالِجُ

وكل مردودٍ مكسوعٌ.

هنالِكَ كان غَيْثَ حَياً وعِزّاً لمن أرسى إليه غيرَ وعْرِ[4]

---

[1] طرقوا هدواً: أتوا في هدأة الليل. والكَل الضعيف العالة على غيره، ومنه قوله تعالى (وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ). والمكِل: الذي كلَّت ركابُه في السفر.

[2] سَنة جماد: جافة لا مطر فيها. أتى بالدَّر: اللبن الغزير. لم يُكسع بغبْر: لم يُرَدَّ في الضرع أو يُحبس فيه ضَناً به وبُخلاً وادخاراً.

[3] الحارث بن حلّزة اليَشْكُرِيّ، من عظماء قبيلة بكر بن وائل، من بادية العراق، كان شديد الفخر بقومه حتى ضرب به المثل فقيل «أفخر من الحارث بن حلزة».

[4] غير وعر: سهلاً سمحاً غير غليظ.

وَأَحْيا مِنْ مُخَبَّأَةٍ كَعابٍ وَأَشْجَعَ مِنْ أَبي شِبْلٍ هِزَبرِ[1]
هَرِيتِ الشِّدْقِ رِئبالٍ إِذا ما غَدا لَمْ تُنْهَ غَدْوَتُهُ بِزَجْرِ[2]
تَدِينُ الخادِراتُ لَهُ إِذا ما سَمِعْنَ زَئيرَهُ في كُلِّ فَجْرِ[3]
غِياثٌ إِنْ تَأَوَّبَهُ غَريبٌ[4] لعُسْرٍ في الحوادثِ أو لِيُسْرِ
إِذا ما الوفْدُ حَلَّ إِلى ذَراهُ تلقَّاهمْ بوجْهٍ غيرِ بَسْرِ[5]
تُفَرَّجُ بِالنَّدى الأَبْوابُ عَنْهُ ولا يَكْتَنُّ دونَهُمُ بسِتْرِ[6]
دَهَتْني الحادِثاتُ به فأَضْحَتْ عليَّ هُمومُهُ تَغدُو وتَسْرِي

وقالت أيضاً[7]:

يا عَيْنِ ما لَكِ لا تَبْكينَ تَسْكابا إِذْ رابَ دَهْرٌ وَكانَ الدَّهْرُ رَيَّابا[8]

---

[1] أحيا: أكثر حياء من المخبأة الكعاب: الفتاة الحيية. وأشجع من الأسد.

[2] هريت الشدق: واسعُه. رئبال: يتبختر في مشيه. إذا غدا إلى ما يريد لم يُزجَر.

[3] يطيعه سائر الضواري المخدَّرة إذا سمعت زئيره.

[4] تأوَّبه غريب: نزل به ليلاً.

[5] إذا حلوا في كنفه تلقاهم بوجه غير كالح.

[6] تفتح الأبواب بنداه، ولا يستتر عن ضيوفه.

[7] الديوان.

[8] راب دهر: تغير عليك، بعد سرور وأُخوة واستقامة حال. وكان الدهر ريباً: يأتي بالشر وهو قتل أخيها.

فابْكِي أخاكِ لأيْتامٍ وأَرْمَلَةٍ ... وابْكي أخاكِ إذا جاورْتِ أَجْنابا[1]

وابْكي أخاكِ لخيْلٍ كالقَطا قُطُفٍ ... فَقَدْنَ لَمَّا ثَوَى سَيْباً وأَنْهابا[2]

يَعْدو به سابِحٌ نَهْدٌ مَراكِلُهُ ... مُجَلْبَبٌ مِن سَوادِ اللَّيلِ جِلْبابا[3]

حتَّى يُصَبِّحَ قَوْماً في دِيارِهِمُ ... ويَحْتَوي دونَ صَفِّ الموتِ أَسْلابا[4]

هو الفَتى الكاملُ الحامي حَقيقتَهُ ... مَأْوى الغَريبِ إذا ما جاء مُنْتابا[5]

يَهْدِي الرَّعيلَ إذا ضاقَ السَّبيلُ بِهِمْ ... نَهْدَ التَّليلِ، لزُرْقِ السُّمرِ رَكَّابا[6]

---

[1] الأجناب: الغرباء. والمفرد جُنُب. وهو من جاء يستجير أو يستعين. وكان أخوها يُختار لذلك.

[2] القطا: جمع قطاة وهي طيور مرقطة جميلة. قُطُفاً: جمع قَطوف وهي منَ الدَّوابِّ التي تُبْطئ السير لامتلائها. ثوى: مات. السَّيب: العطاء. أنهاباً: جمع نهب. والمعنى أنه كان يعطي ماله ويجعله نهبة للسائلين.

[3] يعني أنه كان يغير على ظهر جواد سابح نَهْد ضخم واسع الخَطْو. والمراكل جمع مَرْكَل وهو موضع عَقِب الفارس.

[4] يأتيهم في عقر دارهم صباحاً ويحتويهم أسلاباً ويأخذهم غنائم.

[5] الحقيقة: الراية، وكل ما يلزمُ الرجلَ حِفْظُهُ والدفاعُ عنه، ويؤوي الغريب المنتاب الذي يأتي مرة بعد مرة وينزله عنده ويشمله برعايته.

[6] الرَّعِيلَ: الجماعةُ من الرِّجال، أَو الخيل، أَو التي تتقدَّمُ غيْرَها. نهد التليل: ذو العنق الغليظ وهو قائد العدو. والمعنى أنه في الغزو يسبق زملاءه لملاقاة قائد الأعداء ولا يهاب الرماح ذات الأسنة الزرق.

الْمَجْدُ خِلَّتُهُ والجُودُ عِلَّتُهُ والصِّدقُ حَوزَتُهُ إن قِرنُهُ هابا[1]

رَكَّابُ مُفْظِعَةٍ، حَمَّالُ مُضْلِعَةٍ إنْ خافَ مُعْضِلَةً سَنَّى لها بابا[2]

شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ لِلوِتْرِ طَلَّابا[3]

سُمُّ العُداةِ وفَكَّاكُ العُناةِ إذا كان الوَغَى لم يكُن للموتِ هَيَّابا[4]

قال أبو العبَّاس: والجودُ عِلَّته أي أنَّ الناس إذا سُئلوا اعتلُّوا في الجود بالعِلل، فجعلَتْه هو عِلتُه الجُود، كما قال الله جل وعز: (النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) معناه: الوعدُ النار.

وقالت أيضاً تَرْثي أخاها معاويةَ بنَ عَمْرو[5]:

هَرِيقِي مِنْ دُموعِكِ واسْتَفِيقي وصَبْراً إنْ أَطَقْتِ ولَنْ تُطِيقي[6]

---

[1] إذا طلبتَ إليه حاجة كانت علته واهتمامه أن يقضيها لك، وكان الصدق عند لقاء الأعداء حوزته وحرزه الذي يستحرز به ولا يخاف إذا أصاب الخوف أقرانه ونظراءه.

[2] ركّاب مفظِعة لا يهاب الشدائد، حمَّال مُضلِعة يفرّج الصعاب، إذا اعترضت سبيله معضلة سَنّى لها باباً: سهله وفتحه ويسره.

[3] شهاد أندية فلا يقضون أمراً إلا في وجوده. هباط أودية فيسير حيث شاء ويغزو حيث شاء. حمّال ألوية فهو القائد، ويأخذ بثأره من أعدائه.

[4] سُمُّ العُداةِ وفَكَّاكُ العُناةِ: سُمٌّ على أعدائه يقتلهم، ويفك الأسرى العُناة ويحررهم من الأسْر.

[5] الديوان.

[6] أي لن تستطيعي الصبر.

وقُولِي إنَّ خَيْرَ بَني سُلَيْمٍ وفارِسَهمْ بصَحْراءِ العَقِيقِ[1]
أَلا هَلْ تَرْجِعَنَّ لَنا اللَّيالي وأيَّامٌ لنا بِلِوَى الشَّقيقِ[2]
وإذْ فينا مُعاوِيةُ بنُ عَمْرٍو على أَدْماءَ كالجَمَلِ الفَنِيقِ[3]
فبَكِّيهِ فقدْ وَلَّى حَمِيداً أَصِيلَ الرَّأْيِ محمودَ الصَّدِيقِ
فلا واللهِ لا تَسْلاكَ نَفْسي لفاحِشَةٍ أَتَيْتَ ولا عُقُوقِ[4]
ولكنِّي رأيْتُ الصَّبْرَ خَيْراً مِنَ النَّعْلَينِ والرَّأسِ الحَلِيقِ

وكانوا في الجاهلية إذا بالَغُوا في الجَزَع حَلَقَ النساءُ رؤوسَهن، ولَطَمْنَ خُدودَهنَّ بالنِّعال.

وقال عبدُ مَناف بنُ رِبْع الهُذَلي[5] يذْكُر أُخْتيه:

---

[1] صحراء العقيق ماء ونخل لبني سُليم قتل عنده أخوها معاوية.

[2] لوى الشقيق: موضع فى ديار بنى سُلَيم. انظر: معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع لأبي عبيد البكري.

[3] الأدماء الناقة البيضاء، والفنيق الجمل الفحل.

[4] ما خبثت نفسي عليك لفاحشة أتيتَها قط، فلم تكن غليظاً ولا عاقاً ولا قاطع رحم.

[5] هو عبد مناف بن ربع الجُربي الهذلي: شاعر جاهلي، نسبته إلى جُرَيب (كقريش) وهو بطن من هذيل. أورد البغدادي قصيدة له ذكر فيها يوم (أنف) من أيام الجاهلية، بين هذيل وبني ظفر من سُليم. وهذا البيت من قصيدته التي مطلعها: ماذا يَغيرُ اِبنَتَيْ رِبعٍ عَويلُهُما لا تَرقُدانِ وَلا بوسى لِمَن رَقَدا

إِذَا تَأَوَّبَ نَوْحٌ قَامَتَا مَعَهُ ضَرْبًا أَلِيمًا بِسِبْتٍ يَلْعَجُ الْجِلدَا[1]

ألا يا لَهْفَ نَفْسِي بعدَ عَيْشٍ تَوَلَّى بَعْدَه عَيْشٌ أَنيقِ[2]
وإذْ يَتَحاكَمُ الحُكَّامُ فينا إلى أَبْياتِنا وذَوُو الحُقوقِ[3]
وإذْ فينا فَوارِسُ كلِّ هَيْجٍ إذا فَزعوا وفِتْيانُ الخُرُوقِ[4]

الخروق: المتَّسَع من الأرض، وذلك قول رُؤبةَ بنِ العجَّاج:

وقاتِمِ الأعماقِ خاوِي الْمُخْتَرَقْ[5]

---

[1] إذا تأوب: تهيّأ. نَوْح: أي نساء يَنُحن قياما قامتا معهنّ. والنَّوْح: النساء القيام. والسِّبت: نَعل مِن جلودِ البقر تضربان به صدريهما. وقوله: "يَلعَج" يُحرِق الجلد. ويقال: وجدتُ لاعجَ الحَزْن أي حُرْقَته. ووجدتُ في جلدى لعْجا، أي حُرقة. والبيت أورده المبرد شاهداً على عادة النساء في الجاهلية ضرب أنفسهن بالنعال حزناً على الميت.

[2] أنيق نعت للعيش الأولى مجرورة به.

[3] أي يتحاكمون عندنا من أجل أخي، وأصحاب الحقوق يطلبونها باسْمه.

[4] أي يعلون كل خرق من الأرض يسيرون فيه. والخرق الفلاة المتسعة تنخرق فيها الريح ويشتد هبوبها على غير استقامة.

[5] القاتم: المغبرّ، صفة لبلد. الأعماق: النواحي القصية. الخاوي: الخالي، المخترق: المتَّسع، يعني جوف الفلاة.

أي المتَّسَع. وقال بعضُ المفسِّرين في قول الله جلَّ وعزَّ: (إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ) قال: تبلغ قُطْرَيها. والقول الفاشي إنما هو تنقبُها بأجمعِها إلى حيث بلغْتَ.

إذا ما الحَرْبُ صَلْصَلَ ناجِذاها وفاجَأها الكماةُ لدى الْمَضِيقِ[1]

وكان مِنْ خَبَرِ مقتلِ مُعاويةَ بنِ عمْرو، وكان أخا خنساءَ لأبيها وأمِّها، وكان صخْرٌ أخاها لأبيها، وكانت بصخْرٍ أمَسَّ؛ لفضْلِه على معاوية، ولم يكن معاويةُ متخلِّفاً بل كان لاحقاً في السُّؤدد بأخيه، أو دُوَيْنَه[2] شيئاً. قال أبو عُبيدةَ مَعْمَر بنُ المثَنَّى: حدثني أبو بلال وربما قال: أبو بلال سهم بن أبي بن العباس بن مرداس قال: غزا معاويةُ بنُ عمْرِو بنِ الشَّريد، أخو خنساءَ، مُرَّة

[1] يعني إذا كشرت الحرب عن أنيابها وأبدت ناجذيها، أجابها فرساننا الشجعان بقيادة أخي معاوية عند المضيق واشتداد الأمر.

[2] تصغير كلمة دون.

وفَزارة، ومعه خُفافُ بنُ نُدبة[1]، فاعْتَوَرَه[2] هاشمٌ ودُريدٌ الْمُرِّيان، ابنا حَرْمَلة، فاسْتَطْرد[3] له أحدُهما ثم وَقَف، وشدَّ عليه الآخرُ فقَتَلَه. فلما تَنادَوا: قُتِل معاويةُ! قال خُفافٌ: قتلني اللهُ إنْ رِمْتُ[4] حتى أثأرَ به، فشد على مالكِ بنِ حمار، سيد بني شمخ بن فَزارة فقتله وقال[5]:

فَإِن تَكُ خَيْلي قَد أُصِيبَ صَمِيمُها فَعَمْداً عَلى عَيْني تَيَمَّمتُ مالِكا
وَقَفْتُ لَهُ عَلْوَى وَقَد خامَ[6] صُحْبَتي لِأَبْنِيَ مَجْداً أَو لِأُثْأَرَ هالِكا

---

[1] خفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد السُّلَميّ أبو خراشة: شاعر وفارس من غُرابة العرب، كان أسود اللون (أخذ السواد من أمه ندبة) وعاش زمناً في الجاهلية، وله أخبار مع العباس بن مِرداس ودُريد بن الصِّمة. وأدرك الإسلام فأسلم. وشهد فتح مكة وكان معه لواء بني سليم، وشهد حُنيناً والطائف. وثبت على إسلامه في الردّة، ومدح أبا بكر وبقي إلى أيام عمر. أكثر شعره مناقضات له مع ابن مرداس وكانت قد ثارت بينهما حروب في الجاهلية، وله يقول العباس بن مرداس: (أبا خراشة إما أنت ذا نفر – البيت) قال الأصمعي: خفاف ودُريد بن الصِّمة، أشعر الفرسان.

[2] اعْتَوَرُوا الشيءَ: تداولُوهُ فيما بينهم.

[3] اِسْتَطْرَدَ لَهُ في الحَرْبِ: فَرَّ مِنْهُ حيلَةً وَمكِيدَةً، ثُمَّ حَمَلَ عَلَيْهِ.

[4] رَامَ مَكَانَ إِقَامَتِهِ: بَرِحَهُ، فَارَقَهُ.

[5] انظر: الكامل للمبرد.

[6] خام عن القتال، وفيه: جَبُن وتراجَعَ.

عَلْوى: اسْمُ فَرَسِه[1].

أَقولُ لَهُ وَالرُّمْحُ يَأْطُرُ مَتْنَهُ تَأَمَّلْ خِفافاً إِنَّني أَنا ذَلِكا[2]

فلما بلغ صخْراً قتْلُ أخيه، أتى مُرَّةَ في الشهْرِ الحرام فوقف على ابنيْ حَرْمَلة، فإذا أحدُهما به طَعْنة في عَضُدِه، فقال: أيُّكما قَتَلَ مُعاوية؟ فسَكَتا، فقال الصَّحيحُ للجَريح: ما لَكَ لا تُجيبُه؟ فقال: وقفتُ له فطعَنَني هذه الطعنة، وشَدَّ عليه أخي فقتَلَه، فأيَّنا قتلْتَ فقد أدركتَ بثأرِك، أمَا إنَّا لم نسلبْ أخاك. قال: فما فَعَلَتْ فَرَسُه السَّماء؟ قال: ها هي تيكَ، ردُّوها عليه، فرَدُّوها. فلما أتى صخْرٌ قومَه قالوا: اهْجُهُم. قال: ما بيننا أجَلُّ من القَذْع[3]، لو لم أَكْفُفْ عن هجائهم إلا رغبةً بنفسي عن الخَنا[4] لكَفَفْت. وقال[5]:

وَعاذِلَةٍ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَلُومُني ألا لا تَلُومِيني كَفَى اللَّوْمَ ما بِيا
تقولُ: ألا تَهْجُو فَوارِسَ هاشِمٍ وما لِيَ إذْ أهجوهُمُ ثُمَّ ما لِيا

---

[1] انظر: أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها للأسود الغندجاني.

[2] قال المبرد في الكامل: يريد: أنا ذلك الذي سمعت به. وقوله: "يأطر متنه" أي يُثني. يقال: أطرت القوسَ آطرها أطراً، وهي مأطورة.

[3] القذع: السب والشتم.

[4] الخنا: الفُحش.

[5] انظر: الكامل للمبرد.

أبى الشَّتْمَ أنِّي قد أصابوا كَرِيمتي[1] وأنْ ليس إهداءُ الخَنا مِن شِماليا[2]

إذا ذُكِرَ الإخْوانُ رَقْرَقْتُ عَبْرَةً وحَيَّيْتُ رَمْساً[3] عندَ لَيَّةَ[4] ثاوِيا

إذا ما امرؤٌ أَهْدى لميْتٍ تحيّةً فحيَّاكَ رَبُّ النَّاسِ عَنِّي مُعاوِيا

وهوَّنَ وجْدِي أنَّني لم أَقُلْ له كَذَبْتَ، ولم أَبْخَلْ عليه بمالِيا[5]

ثم زاد عليها بيتاً بعدَما أوقع بهم فقال:

وذي إخْوةٍ قَطَّعْتُ أَرْحامَ بينهمْ كما تَرَكوني واحداً لا أَخا لِيا[6]

---

[1] الكَرِيمَةُ: الرجلُ الحسيب الكريم، إذا أَتاكم كريمةُ قومٍ فأَكرموه. وقال المبرد في الكامل عن زيادة التاء في كريمة: وتقول العرب للرجل: راوية ونسّابة، فتزيد الهاء للمبالغة، وكذلك علّامة، وقد تلزم الهاء في الاسم فتقع للمذكر والمؤنث على لفظ واحد، نحو ربعةٍ ويفعةٍ وصرورةٍ. وهذا كثير لا تنزع الهاء منه، فأما راوية وعلّامة ونسّابة فحذف الهاء جائز فيه، ولا يبلغ في المبالغة ما تبلغه الهاء. اهـ.

[2] الشمال: الطبع والخصلة الحسنة، والجمع شمائل.

[3] الرمس: القبر.

[4] لَيَّةُ: اسْم مَوضِع.

[5] وهذا البيت كما قال دريد بن الصِّمة في أخيه: وهَوَّنَ وَجْدِي أَنَّنِي لَمْ أَقُلْ لَهُ كَذَبْتَ ولَمْ أَبْخَلْ بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

[6] والمعنى: وَرب رجل صَاحب إخْوَة قطعتُ الْأَسْبَاب الجامعة بينه وَبَين إخْوَته بقتلي إيَّاهُم كَمَا أَنهم تركوني وحيداً فريداً.

ثم غزاهم في العام المقبل فلما دنا وعَلا السماءَ[1] قال: إني أخاف إذا طلعت أن يعرفوا طلعةَ السماءِ، فحَمَّم غُرَّتَها[2]، فلما أشرف على أداني القوم قالت امرأةٌ لابنِها: هذه، والله، السماءُ. فنظر إليها فقال: السماءُ غَرَّاءُ، وهذه بهيمٌ، فلم يَشعروا إلا والخيلُ دوائسُ، وقَتَل صخرٌ دُريداً وأصابوا في مُرَّة، فقال:

ولقد قَتَلتُكُمُ ثُناءَ[3] ومَوْحَداً ... وتَرَكْتُ مُرَّةَ مِثْلَ أمْسِ الْمُدْبَرِ

ولقد دَفعْتُ إلى دُريدٍ طعنةً ... نجلاءَ تُزْغِلُ مِثْلَ عَطِّ الْمَنْحَرِ[4]

---

[1] يعني ركب فرسه السماء.

[2] حمَّم غُرتها: طلاها بالسواد.

[3] ثُناء: اثنين، بوزن ثُلاث ورُباع.

[4] الطعنة النجلاء: الواسعة. و"أزْغَلَت" الطعنة بالدم: دفعته زغلة زغلة، أي دفعة دفعة. والعط: الشق، وعط الثوب عطًّا: شقَّه. والمنحر: موضع نحر البعير، أي أعلى صدره، حيث ينحر، أي: يطعن في نحره، فيتفجر منه الدم. وفي رواية (غط المنخر) وهو الصوت المتردد في الخياشيم.

قوله: تُزْغِل أي تَفيض بسجال الدم. قال ابنُ أحمر[1] يعني القطاةَ إذا مجَّت الماء في حَوْصلة فرخِها[2]:

فأَزْغَلَتْ في حَلْقِهِ زُغْلَةً لم تُخْطِئِ الجِيدَ ولم تَشْفَتِرّْ[3]

والإيزاغ مثل الإزغال.

وأما هاشِم بن حَرْمَلة فإنه خرج غازياً، فلما كان في بلاد جُشَم بن بَكر ابن هَوازن، نزل فأخذ صُفْنَتَه[4] ويقال صُفْنَه وخلا لحاجته بين الشجر ورأى غَفْلته قيسُ بنُ الأسوار الجُشَمي فتبعه وقال: هذا قاتلُ معاوية، لا وَأَلْتُ إنْ وَأَلَ[5].

---

[1] عمرو بن أحمر الباهلي: شاعر مخضرم، ولد ونشأ في نجد، أدرك الإسلام وأسلم وشارك في الفتوحات ويروى أنه شارك في الفتوحات مع خالد بن الوليد. مدح الخلفاء الراشدين عدا أبي بكر الصديق وكان من المطالبين بدم عثمان. وقد هجا في شعره يزيد بن معاوية وظل مختفياً عنه حتى وفاته. ثم عاد فأصلح ما فسد بينه وبين بني أمية فمدح عبد الملك بن مروان.

[2] يعني سقته الماء.

[3] اشْفَتَرَّ الشيء: تَفَرَّقَ.

[4] وعاء الماء.

[5] وَأَلَ: نجا. والمعنى: لا نجوت إن نجا.

فلما قعد لحاجته تستَّر له بين الشجر حتى إذا كان خلفَه أرسل عليه مِعْبَلةً[1] ففَلَق قُحْقُحَه، وهو العُصْعُص الذي عليه عَجْب الذَّنَبِ[2]، فقالت الخنساء[3]:

فِدَىً لِلفارِسِ الجُشَميِّ نَفْسِي ... وَأَفْديهِ بِمَنْ لي مِنْ حَميمِ[4]

فداكَ الحيُّ حيُّ بَني سُلَيْمٍ ... بِظاعِنِهِم وَبِالأَنَسِ الْمُقيمِ[5]

كما مِن هاشِمٍ أَقْرَرْتَ عَيْني ... وكانت لا تَنامُ ولا تُنِيمِ[6]

وكان هاشِم من أشد العرب، وله يقال:

أَحْيَا أَباهُ[7] هاشِمُ بنُ حَرْمَلَةْ ... تَرَى المُلُوكَ حَوْلَهُ مُغَرْبَلةْ[8]

يَقْتُلُ ذا الذَّنْبِ ومَنْ لا ذَنْبَ لهْ[9]

---

[1] المِعْبَلَةُ: نَصْلٌ طويلٌ عريضٌ (رُمح).

[2] أسفل العمود الفقري.

[3] انظر: الكامل للمبرد، وديوان الخنساء.

[4] الحميم القريب، وفي القرآن الكريم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ من الأقارب.

[5] الأنس: الجماعة من الناس.

[6] ولا تنيم غيرها من بكائها.

[7] المعنى أنه أخذ بثأره، فَكَأَنَّهُ أَحْيَاهُ.

[8] مغربلة: مقتولة.

[9] يعني أنه لَا يخَاف أحداً فيقتل السادة وغير السادة.

فقالت الخَنساءُ ترثيه[1] وأخاها صخْراً[2]:

بَكَتْ عَيْني وَعاوَدَتِ السُّهُودا ... وَبِتُّ اللَّيلَ جانِحَةً عَميدا[3]

لِذِكْرى مَعْشَرٍ وَلَّوْا وَخَلَّوْا ... عَلَينا مِن خِلافَتِهِمْ فُقُودا

فَكَمْ مِن فارِسٍ لَكِ أُمَّ عَمْرٍو ... يَحُوطُ سِنانُهُ الأَنَسَ الحَرِيدا[4]

الحريد: البعيد.

كَصَخْرٍ أَو مُعاوِيَةَ بنِ عَمْرٍو ... إِذا كانَت وُجوهُ القَوْمِ سُودا[5]

يَرُدُّ الخَيلَ دامِيَةً كُلاها ... جَديرٌ يَومَ هَيْجا أَن يَصيدا[6]

يَكُبُّونَ العِشارَ لِمَن أَتاهُم ... إِذا لم تُصْمِتِ الأُمُّ الوَليدا[7]

---

[1] يعني أخاها معاوية.

[2] الديوان.

[3] جانحة: يملأ الحزن جوانحها فلا تستطيع الجلوسَ ولا الرقود، عميداً: حزينة لا تنام من الألم والأرق.

[4] الأنس الحريد المنفرِد من الناس، يحميه إخوة خنساء ويحوطونه ويمنعونه برماحهم فلا يطمع فيه أحد.

[5] سوداً من الجوع والضر.

[6] دامية كُلاها: مطعونة في خواصرها. وهو خليق بأن يصيد رئيس الجيش.

[7] ينحرون النوق العشار لمن أتاهم، وهي أنفس الإبل عندهم، إذا اشتد الزمان ولم يكن لدى أمِّ الصغير ما تسكته به من اللبن.

فتابَعَ بينَهمْ وِرْدٌ فأضْحَوا مع الهُلَّاكِ قد لَحِقُوا ثَمُودا[1]

وقالت أيضاً تَرْثي صخراً[2]:

أَلَهْفِي على صَخْرٍ لكلِّ عَظيمةٍ إذا الخيلُ من طولِ القِيادِ اقْشَعَرَّتِ[3]

إذا الخيلُ شكَّتْ في السَّريحِ وطابَقَتْ طِباقَ الكِلابِ في الهَراسِ وصَرَّتِ[4]

يقال: شَكَّ الفَرَسُ والبعيرُ وغيرُ ذلك من الظَّهْر إذا ظَلَعَتْ[5] ظَلَعاً خفيفاً كما قال ذو الرُّمة[6]:

وَثْبَ الْمُسَحَّجِ مِنَ عَانَاتِ مَعْقَلةٍ كأنَّهُ مُسْتَبانُ الشَّكِّ أَوْ جُنُبُ[7]

---

[1] يعني ورد هؤلاء الفرسان جميعاً حياض الموت فماتوا كما مات الأقوام قبلهم من عهد ثمود وعاد.

[2] الديوان.

[3] اِقْشَعرَّ شعْرُها فانْتَصَبَ وأخذته رعدة مِنْ فَزَعٍ وَهلَعٍ وغيرهما.

[4] تصف الخيل إذا عرِجت وغمزت في مشيتها وفي أرجلها سيور النعال الجلدية، وطابقت بأرجلها مكان أيديها كما تطابق الكلاب في وثبها، وصرت آذانها، فلم يكن لها في هذه الحال سوى صخر.

[5] عرِجت وغمزت في مشيتها لألم أصابها.

[6] انظر: جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، وديوان ذي الرمة بشرح الباهلي.

[7] وقبل هذا البيت:

تُصْغي إذا شدّهَا بالكُور جانِحَةً ... حتى إذا ما اسْتَوى في غَرْزِهَا تَثِبُ

وَثْبَ المسَحَّجِ مِنَ عَانَاتِ مَعْقَلةٍ ... كأنّه مستبانُ الشّكّ أَوْ جُنُبُ

وإنما هذا من الخُيلاء في هذا الموضع. وطابَقَتْ أي وقَعَتْ أرجلُها مكانَ أيديها وصَرَّتْ آذانَها[1].

وَخَيْلٍ تَنَادَى لَا هَوَادَةَ بَيْنَهَا مَرَرْتَ لَهَا دُونَ السَّوَامِ وَمرَّتِ[2]
كَأَنَّ مُدِلًّا مِنْ أُسُودِ تَبالَةٍ يَكُونُ لَهَا حَيْثُ اسْتَدارَتْ وَكَرَّتِ[3]
شَدَدْتَ عِصَابَ الْحَرْبِ إِذْ هِيَ مَانِعٌ فَأَلْقَتْ بِرِجْلَيْهَا مَرِيًّا وَدَرَّتِ[4]
وَكَانَ أَبُو حَسَّانَ صَخْرٌ يَصُدُّهَا ويرغثُها بالرُّمْحِ حَتَّى أَقَرَّتِ[5]

جاء في لسان العرب: يقول : تثب هذه الناقة وثب الحمار الذي هو في تمايله في المشي من النشاط كالجُنُب الذي يشتكي جَنْبه اهـ. وقال الباهلي: "المسحج": الحمار المكدح المعضض. و"معقلةُ": موضع بالدهناء. و"الشك": الظلع، يقال: "هو يشك". فيقول: الحمار كأن به ظلعاً وليس به ذلك، كذلك خلقته أول ما يعدو [من نشاطه]. و"عاناتٌ" جمعُ "عانة": وهي الجماعة من الحمير. و"الجنب": الذي لصقت رئته بجنبه من العطش. و"الجنب" أيضاً: الذي يشتكي جنبه، فهو على شقٍ من النشاط.

[1] صَرَّ الفرَسُ أو الحمار أو الكلب أُذُنَهُ، وبأُذنه: نَصَبَها للاستماعِ.

[2] خيل يتنادى فرسانها للمبارزة في شدة وغلظة، أخذت سوامهم برغم أن هذه الخيل مَرَّ عليك سوامها وصعب.

[3] كأن هذه الخيل إذا رجعت عليك وكرَّت بمنزلة أسد مُدل بشدته يحمل عليك فلا يكذب.

[4] شَدَدْتَ عِصَابَ الْحَرْبِ مَثَل، من العصوب، وهي الناقة التي لا تدر حتى تُعصب، فإذا عُصبت درَّت واستجابت، وهكذا كان صخر يُكره أهل الحرب حتى يعطوا ما يراد منهم شاءوا أو أبوا.

[5] حتى أقرت ولانت وذلت.

وكَانَتْ إذا ما حَالِبٌ يَسْتَدِرُّها تَقَتْهُ بِإِيزَاغٍ دَمًا وَاقْمَطَرَّتِ[1]

اقْمَطَرَّتْ: معناه اشْتَدَّتْ.

وقالت أيضاً ترثيه[2]:

أَمِنْ حَدَثِ الأَيَّامِ عَينُكِ تَهْمُلُ تُبَكِّي عَلى صَخْرٍ وَفِي الدَّهْرِ مَذْهَلُ[3]

أَلا مَنْ لِعَيْنٍ لا تَجِفُّ دُموعُها إذا قِيلَ تَفْنَى تَستَهِلُّ فَتَحفِلُ[4]

عَلى ماجِدٍ ضَخْمِ الدَسيعَةِ بارِعٍ لَهُ سُورَةٌ في قَوْمِهِ ما تُحَوَّلُ[5]

قال: السُّورة ها هنا: الدَّرجة من الْمُلْك والقدرة العالية، من ذلك قول النابغة:

ألم تَرَ أنَّ اللهَ أعطاكَ سُورةً تَرَى كلَّ مَلْكٍ دونَها يتذبذبُ

ويقول الرجل: سِرْتَ، فمعناه: ارتفعْتَ وعلَوْتَ. قال العجَّاج:

يا رُبَّ ذي سُرادقٍ محجورِ سِرْتَ إليه من أعالي السُّورِ

---

[1] وكانت هذه الحرب قبل صخر عصية شديدة حتى قام بأمرها صخر فذللها وطوعها.

[2] الديوان.

[3] مذهل ينسّي ويسّلي.

[4] تستهل: تدمع من جديد وتمتلئ بالدموع.

[5] ماجد شريف، ضخم الدسيعة، كريم سخي واسع العطاء، له سورة ومنزلة رفيعة في قومه.

وقال الأخطل يصف خَمْراً خرجتْ حين فتح مِبْزَلها[1]:

لَمَّا أتوْها بمصباحٍ ومِبْزَلِهم سارت إليه سؤورُ[2] الأَبْجَلِ الضَّاري

فَما بَلَغَتْ كَفُّ امرِئٍ مُتَناوِلٍ مِنَ الْمَجْدِ إِلَّا حَيْثُ ما نِلْتَ أَطوَلُ[3]
وَما بَلَغَ الْمُهْدونَ في القَوْلِ مِدْحَةً وإِنْ كثُرتْ إِلَّا الَّذي فيكَ أفضلُ[4]
وَما الغَيْثُ في جَعْدِ الثَّرى دَمِثِ تَبَعَّقَ[5] فيهِ الوابِلُ الْمُتَهَلِّلُ
بأَجْزَلَ سَيْباً مِنْ نَداكَ ونِعْمَةً تَعُمُّ بِها بَل سَيْبُ كَفَّيْكَ أَجْزَلُ[6]
وَجارُكَ مَحْفوظٌ مَنيعٌ بِنَجْوَةٍ مِنَ الذُّلِّ لا يُؤذَى وَلا يَتَذَلَّلُ
مِنَ القَوْمِ مَغْشِيُّ الرِّواقِ كَأَنَّهُ إذا خاف صبْحاً خادِرٌ مُتَبَسِّلُ[7]

---

[1] المبزل: أداة يثقب بها إناء الخمر فتتدفق منه كما يتدفق الدم من العِرق الأكحل الضاري الشديد السيلان.

[2] والشاهد فيه كلمة سؤور، وهي مصدر سار يسور، أي وثب، وتدفق.

[3] ما بلغ أحد من الجود والسخاء والرفعة ما بلغت أنت.

[4] وما مدحك مادح بقول أو فضيلة إلا وفيك أفضل مما ذكر.

[5] تَبَعَّقَ المطرُ: نزل بشدّة.

[6] وأنت أوسع عطاء من الغيث المتفجر.

[7] وجارك عزيز بعزك، تغشى الضيفان رواقه

شَرَنْبَثُ أَطْرافِ البَنانِ ضُبارِمٌ لَهُ في عَرينِ الغيلِ عِرْسٌ وَأَشْبُلُ[1]
هِزَبْرٌ هَرِيتُ الشَدْقِ رِئبالُ غابَةٍ مَخوفُ اللِقاءِ كالِئُ العَيْنِ أَنْجَلُ[2]
أَخُو الجُودِ مَعْروفٌ لَهُ الجُودُ وَالنَّدَى حَليفانِ ما قامَتْ تِعارُ وَيَذبُلُ[3]

باب وصايا

قال أبو العبَّاس: ونذكر وصايا يؤثَر بعضُها عن أهل الدين وبعضُها عن أهل الآداب والطبائع المحمودة. وقد تجتر إلى أنفسها غير ذلك من سائر الوصايا. ثم نعود إن شاء الله تعالى إلى التعازي بالمنثور والموصوف. وبالله الحول والقوة، ونشوبه بشيء من الاعتبار:

---

[1] فخم ضخم كأسد في عرينه وحوله أنثاه وأشباله.

[2] هريت الشدق واسعه لضخامة جسمه وفخامة هيكله.

[3] تعار ويذبل جبلان معروفان.

وصية أبي بكرٍ الصدِّيق رحمه الله

قال فطر بن خليفة[1] عن عبد الرحمن بن سابط[2] قال: أوصى أبو بكرٍ الصدِّيقُ عمرَ بنَ الخطاب رحمه الله حين استخلفه فقال: "إني مستخلفُك، وأوصيك بتقوى اللهِ يا عمر، إن للهِ عملاً بالليلِ لا يقبلُه بالنهار، وعملاً بالنهارِ لا يقبلُه بالليل. واعلمْ أنه لا تُقبَل نافلةٌ حتى تؤدَّى الفريضة، وأنه إنما ثقلتْ موازينُ من ثقلتْ موازينُه يومَ القيامة باتباعِهمُ الحقَّ. وَحُقَّ لِمِيزَانٍ أَنْ لَا يُوضَعَ فِيهِ إِلَّا الْحَقُّ أَنْ يَكُونَ ثَقِيلًا. وَإِنَّمَا خَفَّتْ مَوَازِينُ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِاتِّبَاعِهِمْ فِي الدُّنْيَا الْبَاطِلَ. وَحُقَّ لِمِيزَانٍ أَلَّا يُوضَعَ فِيهِ إِلَّا الْبَاطِلُ أَنْ يَخِفَّ. وَإِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِصَالِحِ مَا عَمِلُوا، وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، فإذا ذكرْتَهم فقلْ إني لأخافُ ألا أكونَ مِنْ هؤلاء. وذكرَ أهلَ النارِ بسوءِ أعمالِهم، فإذا ذكرْتَهم فقلْ إني لأرجو ألا أكونَ من هؤلاء. وَذَكَرَ آيَةَ الرَّحْمَةِ، وَآيَةَ الْعَذَابِ،

---

[1] فطر بن خليفة أبو بكر الكوفي القرشي المخزومي، من التابعين، قال البخاري عَن علي بْن المديني: لَهُ نحو ستين حديثا. كان يتشيع، وابنه بكر من أصحاب جعفر الصادق. توفي سنة ١٥٣هـ، وقيل سنة ١٥٥هـ أيام أبي جعفر المنصور، وهو من المعمّرين.

[2] عَبْد الرَّحْمَن بْن سابط الْجُمَحِي الْمَكِّيّ، رَوَى عَنْ: أَبِيهِ وله صُحبة، وعَنْ عَائِشَةَ، وجابر، وأَبِي أُمَامة، وأرسل عَنْ مُعاذ، وغيره، وكان أحد الفقهاء، وثّقوه، لكن كَانَ ابن مَعِين يعدّ أنّ أكثر رواياته مُرْسَلَة. مات سنة ثماني عشرة ومائة.

فَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ رَاغِبًا رَاهِبًا، وَلَا يَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ، وَلَا يُلْقِي بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَإِنْ حَفِظْتَ قَوْلِي فَلَا يَكُونَنَّ غَائِبٌ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنَ الْمَوْتِ، وَلَا بُدَّ لَكَ مِنْهُ، وَإِنْ ضَيَّعْتَ وَصِيَّتِي فَلَا يَكُونَنَّ غَائِبٌ أَبْغَضَ إِلَيْكَ مِنَ الْمَوْتِ، وَلَنْ تُعْجِزَهُ"[1].

وصية عمر بن الخطاب رحمه الله

قال فطرُ بنُ خليفة وغيرُه: دعا عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه عند موته عبدَ الله بنَ عمر فقال: أي بُنَي: إذا قام الخليفةُ بعدي فائته فقل إن عمر يقرأ عليك السلامَ ويوصيك بتقوى الله لا شريك له، ويوصيك بالمهاجرين الأوَّلين خيراً: أن تعرف لهم سابقتَهم. ويوصيك بالأنصار خيراً: أن تقبل من محسنِهم وتتجاوز عن مسيئهم. ويوصيك بأهل الأمصار خيراً، فإنهم غيظ العدو وجباة الفيء، لا تحمل فيئهم إلا عن فضلٍ منهم. ويوصيك بأهل البادية خيراً، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام: أن تأخذ من حواشي أموالهم فترد على فقرائهم. ويوصيك بأهل الذمَّة خيراً: أن تقاتل من وراءهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم[2].

---

[1] انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر، وتاريخ المدينة لابن شبة.

[2] انظر: المعمرون والوصايا للسجستاني.

وصية عليِّ بن أبي طالب رحمه الله

قَالَ لُوطُ بْنُ يَحْيَى[1] عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُنْدُبٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ حِينَ ضَرَبَهُ ابْنُ مُلْجَمٍ أَسْأَلُ بِهِ، فَلَمْ أَجْلِسْ عِنْدَهُ لأَنَّهُ دَخَلَتْ عَلَيْهِ بِنْتٌ لَهُ مُسْتَتِرَةٌ، فَدَعَا الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللَّهِ وَلا تَبْغِيَا لِلدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا، وَلا تَبْكِيَا عَلَى شَيْءٍ زُوِيَ عَنْكُمَا مِنْهَا، قُولا الْحَقَّ وَارْحَمَا الْيَتِيمَ وَأَعِينَا الصَّانِعَ وَاصْنَعَا لِلأَخْرَقِ وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْمًا وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا، وَلا تَأْخُذْكُمَا فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لائِمٍ. ثُمَّ نَظَرَ إِلَى ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ فَقَالَ أَسمعتَ مَا وَصَّيْتُهُمَا بِهِ؟ قَالَ نعم! قَالَ أوصيك بِمِثْلِهِ وَبِتَزْيِينِ أَمْرِ أَخَوَيْكَ وَلا تَقْطَعْ أَمْرًا دُونَهُمَا، ثُمَّ قَالَ لَهُمَا وَأُوصِيكُمَا بِهِ فَإِنَّهُ شَقِيقُكُمَا وَابْنُ أَبِيكُمَا، وَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنَّ أَبَاهُ كَانَ يُحِبهُ فأحباه[2].

---

[1] أبو مخنف لوط بن يحيى الغامدي الأزدي (١١٠ – ١٧٠ هـ)، مؤرخ، وأحد أقدم مؤرخي العرب. شيعي، طُعن في روايته للحديث، وفي بعض أخباره، وفيه يقول الذهبي: «إخباري تالف لا يوثق به».

[2] انظر: مقتل علي لابن أبي الدنيا، وأمالي الزجاجي.

وصية معاوية بن أبي سفيان رحمه الله

قال عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب[1]: لما ثقل معاوية، بعث إلى يزيد وهو في ضياعه، فأتاه غلام له يقال له عجلان، فأخبره بثقل أبيه، فأقبل وقد قال في ذلك شعراً[2]:

جَاءَ الْبَرِيدُ بِقِرْطَاسٍ يَخُبُّ بِهِ ... فَأَوْجَسَ الْقَلْبُ مِنْ قِرْطَاسِهِ جَزَعا

قُلْنَا: لَكَ الْوَيْلُ مَاذَا فِي كِتَابِكُمُ؟ ... قَالَ: الْخَلِيفَةُ أَمْسَى مُثْبَتًا وَجِعَا

فَمَادَتِ الْأَرْضُ أَوْ كَادَتْ تَمِيدُ بِنَا ... كَأَنَّ أَغْبَرَ مِنْ أَرْكَانِهَا انْصَدَعَا

ثُمَّ انْبَعَثْنَا إِلَى خَوْضٍ مُزَمَّمَةٍ ... نَرْمِي الْفِجَاجَ بِهَا لَا نَأْتَلِي سِرَعَا

لَسْنا نُبالي إذا بَلَّغْنَ أَرْحُلَنا ... ما مات منهنَّ بالبيداءِ أو ظَلَعا

حَتَّى دَفَعْنا لرأسِ النَّاسِ كُلِّهِمِ ... هَدْياً، وخَيْرِهِمِ فِعْلاً ومُصْطَنَعا

مَنْ لَمْ تَزَلْ نَفْسُهُ تُوفِي عَلَى شَرَفٍ ... تُوشِكْ مَقَالِيدُ تِلْكَ النَّفْسِ أَنْ تَقَعَا

لَمَّا انْتَهَيْنَا وَبَابُ الدَّارِ مُنْصَفِقٌ ... وَصَوْتُ رَمْلَةَ رِيعَ الْقَلْبُ فَانْصَدَعَا

---

[1] عيسى بن يزيد بن دأب الليثي الكناني ، اديب وراوية من رواة الأخبار والأشعار وحفاظهم وعالم بالأنساب ومعلم من علماء الحجاز.

[2] انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير.

قال: فلما دخل على معاويةَ خلا به وأخرج عنه أهلَ بيته[1] وقال: يا بُني قد جاء أمر الله، وهذا أوان هلاكي، ما أنت صانعٌ بهذه الأمة بعدي؟ فمن أجلِك آثرتُ الدنيا على الآخرة، وحملتُ الوزرَ على ظهري لتعلو بني أبيك. قال يزيد: آخذُهم بكتاب الله وسُنَّة رسوله وأقتلهم عليه. قال: أولا تسير بسيرة أبي بكر الذي قاتل أهل الردة ومضى والأمة عنه راضون؟. قال: لا، إلا بكتاب الله وسنة نبيه، آخذهم به وأقتلهم عليه. قال: أولا تسير بسيرة عمر الذي مصَّر الأمصار وجنَّد الأجناد، وفرض الأعطية، وجبى الفيء وقاتل العدو، ومضى والأمة عنه راضون؟ قال: لا، إلا بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام، آخذهم به وأقتلهم عليه. قال: أولا تسير بسيرة عمِّك عثمان بن عفان الذي أُكِل في حياته، ووُرِث في مماته، واحتمل الوزر على ظهره؟ قال: لا، إلا بكتاب الله وسنة نبيه، آخذهم به واقتلهم عليه. قال: يا يزيد، انقطع منك الرجاء وأظنك ستخالف هؤلاء جميعاً فتقتُل خيار قومك وتغزو حرم ربِّك بأشابات الناس فتطعمهم لحومهم بغير الحق فتدركك ميتة فجاءة، فلا دنيا أصبتَ، ولا آخرة أدركتَ[2].

---

[1] إذا كان لما دخل يزيد على معاوية خلا به وأخرج عنه أهل بيته فمن الذي أخبر بهذا الخبر؟

[2] انظر: المعمرون والوصايا للسجستاني. وأرى الصنعة بادية على هذا الخبر، فكيف لمن يموت بهذا الجدل كله؟ ثم إن المحققين من الإخباريين قالوا: فَأَقْبَلَ يَزِيدُ وَقَدْ دُفِنَ معاوية فَأَتَى قَبْرَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ. انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير.

يا يزيدُ أما إذا لم تُصِبِ الرشدَ فإنِّي قَدْ كَفَيْتُكَ الشَّدَّ وَالتَّرْحَالَ، وَوَطَّأْتُ لَكَ الْأُمُورَ، وَذَلَّلْتُ لَكَ الْأَعْدَاءَ، وَأَخْضَعْتُ لَكَ رِقَابَ الْعَرَبِ، وَجَمَعْتُ لَكَ مَا لَمْ يَجْمَعْهُ أَحَدٌ[1].

وَإِنِّي لَسْتُ أَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ يُنَازِعَكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ إِلَّا ثلاثة[2] نَفَرٍ: الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ. فَأَمَّا ابْنُ عُمَرَ فَإِنَّهُ رَجُلٌ قَدْ وَقَذَتْهُ الْعِبَادَةُ وتَخَلَّى من الدُّنيا وشَغَلَ نَفْسَه بالقرآن. وما أظنُّه يقاتلُ عليها إلا أن تأتيَه عَفواً. وأما الذي يجثم جثومَ الأسدِ ويروغُ رَوَغان الثعلب، فإن أمكنَتْه الفرصةُ وَثَبَ فابنُ الزبير، فإنْ هو فعل فاستمكنتَ منه فقطِّعه إرباً إرباً إلا أن يلتمس منك صلحاً، فإن فعل فاقبل منه واحقن دماءَ قومِه تُقْبِل قلوبَهم إليك. وَأَمَّا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ فَإن له رحماً وحقاً وولادةً من رسولِ الله

---

[1] عبارة (يا يزيدُ أمَّا إذا لم تُصِبِ الرشدَ) لم ترد عند ابن الأثير. وأراها أقحمت على هذا النص. ومكان هذه العبارة قال ابن الأثير: فَلَمَّا مَرِضَ الْمَرَضَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ دَعَا ابْنَهُ يَزِيدَ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ كَفَيْتُكَ الشَّدَّ وَالتَّرْحَالَ، وَوَطَّأْتُ لَكَ الْأُمُورَ، وَذَلَّلْتُ لَكَ الْأَعْدَاءَ، وَأَخْضَعْتُ لَكَ رِقَابَ الْعَرَبِ، وَجَمَعْتُ لَكَ مَا لَمْ يَجْمَعْهُ أَحَدٌ

[2] عبارة ابن الأثير (إِلَّا أَرْبَعَةُ نَفَرٍ) وزاد عليهم عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، وقال في نهاية الخبر ما يشعر بأن فيه اضطراباً يبعث على الشك: (هَكَذَا فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ ذُكِرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ، فَإِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ كَانَ قَدْ مَاتَ قَبْلَ مُعَاوِيَةَ. وَقِيلَ: إِنَّ يَزِيدَ كَانَ غَائِبًا فِي مَرَضِ أَبِيهِ وَمَوْتِهِ، وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ أَحْضَرَ الضَّحَّاكَ بْنَ قَيْسٍ وَمُسْلِمَ بْنَ عُقْبَةَ الْمُرِّيَّ فَأَمَرَهُمَا أَنْ يُؤَدِّيَا عَنْهُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ إِلَى يَزِيدَ ابْنِهِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ). وانظر إلى كلمة ابن الأثير الأخيرة (وَهُوَ الصَّحِيحُ).

صلى اللهُ عليه وسلَّم وَلَنْ يَتْرُكَهُ أَهْلُ الْعِرَاقِ حَتَّى يُخْرِجُوهُ عَلَيكَ[1]، فإن قدرتَ عليه فاصفحْ عنه؛ فإني لو كنتُ صاحبَه صفحتُ وعفوتُ عنه. قُمْ عَنِّي. وصلى عليه عمرُو بنُ العاص[2].

وصية أبي عبيدة بن الجراح

تحدث لوط بن يحيى أبو مخنف قال: لَمَّا طُعِنَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِالأُرْدُنِّ وَهِيَ قَبْرُهُ؛ دَعَا مَنْ حَضَرَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: إِنِّي مُوصِيكُمْ بِوَصِيَّةٍ، إِنْ قَبِلْتُمُوهَا لَمْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ: أَقِيمُوا الصَّلاةَ، وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَصُومُوا شَهْرَ رَمَضَانَ، وَتَصَدَّقُوا وَحُجُّوا وَاعْتَمِرُوا، وَتَوَاصَوْا، وَانْصَحُوا لِأُمَرَائِكُمْ وَلا تَغُشُّوهُمْ، وَلا تلهكم الدنيا؛ فإن امرءا لَوْ عُمِّرَ أَلْفَ حَوْلٍ ماكان لَهُ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَصِيرَ إِلَى مَصْرَعِي هَذَا الَّذِي تَرَوْنَ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ الْمَوْتَ عَلَى بَنِي آدَمَ؛ فَهُمْ مَيِّتُونَ، وَأَكْيَسُهُمْ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَعْمَلُهُمْ لِيَوْمِ مَعَادِهِ، وَالسَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ. يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ! صَلِّ بِالنَّاسِ. وَمَاتَ، فَقَامَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فِي النَّاسِ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! تُوبُوا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ ذُنُوبِكُمْ تَوْبَةً نَصُوحًا؛ فَإِنَّ عَبْدًا لا يَلْقَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ تَائِبًا مِنْ ذَنْبِهِ إِلا كَانَ حَقًّا عَلَى

---

[1] هل كان معاوية يقرأ الغيب؟ بالطبع لا ولكنه اللعب الذي أقحم على معاوية رضي الله عنه.

[2] عبارة (وصلى عليه عمرُو بنُ العاص) دليل على أن يزيد لم يكن حاضراً موت أبيه وأن الخبر كله محل اضطراب وشك.

اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، مَنْ كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ؛ فَلْيَقْضِهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ مُرْتَهَنٌ بِدَيْنِهِ، وَمَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُهَاجِرًا أخاه فليلقه فليصالحه، وَلا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فِي اللهِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثٍ، وَالذَّنْبُ عَظِيمٌ، إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ قَدْ فُجِعْتُمْ بِرَجُلٍ مَا أَزْعُمُ أَنِّي رَأَيْتُ عَبْدًا أَبَرَّ صَدْرًا وَلا أَبْعَدَ مِنَ الْغَائِلَةِ، وَلا أَشَدَّ حُبًّا لِلْعَامَّةِ وَلا أَنْصَحَ لِلْعَامَّةِ مِنْهُ؛ فَتَرَحَّمُوا عَلَيْهِ رَحِمَهُ اللهُ، وَاحْضَرُوا الصَّلاةَ عَلَيْهِ[1].

وصية معاذ بن جبل رحمه الله

قال: ولما احتُضِر معاذُ بنُ جَبَل قال لوط بن يحيى: حدثنا الصعب بن زهير عن شهر بن حوشب قال: أتى آتٍ معاذَ بنَ جبل عند موته فقال: يا معاذ، أوصني بما ينفعني قبل أن تفارقني، فلعلي أحتاج إلى سؤال الناس بعدك، فلا أجد فيهم مثلَك. قال معاذ: بلى، صلحاءُ الناس بحمد الله كثير، ولن يضيع الله أهلَ هذا الدين. خذ عني ما آمرُك به: كن من الصائمين بالنهار، والمستغفرين بالأسحار، والذاكرين الله على كل حال، ولا تشرب الخمر، ولا تَعُقَّ والديك، ولا تأكل مال اليتيم، ولا تفرَّ من الزحف، ولا تأكل الربا،

[1] قال الدينوري في المجالسة وجواهر العلم: (حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُبَرِّدُ) ثم ساق هذا الخبر.

ولا تدع الصلاة المكتوبة، وصِلْ رحمك لله، وكن بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً. وأنا لك بالجنة زعيم. ثم مات رحمه الله. فصلى عليه عمرو بن العاص[1].

وصية عبد الملك بن مروان رحمه الله

وأوصى عبدُ الملِك بنُ مروان حين حضرته الوفاةُ فقال لبنيه: أوصيكم بتقوى الله، فإنها عصمةٌ باقية وجنةٌ واقية. والتقوى خيرُ زاد، وأفضلُ في المعاد، وأحصنُ كَهْف، وأزينُ حِلْية. ليعطفِ الكبيرُ منكم على الصغير وليعرفِ الصغيرُ منكم حقَّ الكبير، مع سلامة الصدور والأخذ بجميل الأمور. فإنكم إذا فعلتم ذلك كنتم للعز خُلقاء، وهابتكم الأعداء. إياكم والتباغيَ والتحاسدَ فإن بهما هلك الملوكُ الماضون، وذوو العز المتكبرون. انظروا يا بَنِيَّ، مسلمةَ بنَ عبد الملك فاصدُروا عن رأيه، فإنه نابُكم الذي تفتَرُّون عنه، ومِجَنُّكم الذي تستجِنُّون به. وأكرموا الحَجَّاج، فإنه الذي وطَّأ لكم المنابر، وكفاكم قحْمَ تلك القناطر. كونوا أولاداً أبراراً، وفي الحرب أحراراً، وللمعروف مناراً، واحلَوْلوا في مرارة، ولِينوا في شدة. ثم رفع رأسه إلى الوليد فقال: لا ألفينَّك يا وليد، إذا وضعتني في حفرتي تعصر عينيك كما تفعل الأَمَة، بل شمِّر واتَّزر، والبَسْ جلد نمِر، وادع الناس إلى البيعة، فمن قال برأسه هكذا فقل بالسيف هكذا. أوصيكَ بأخيك عبدِ الله بن عبد الملك وبعمرَ بنِ عبد العزيز خيراً. لا تعزلهما

---

[1] انظر: المعمرون والوصايا للسجستاني.

ولا تستبدل بهما. وأوصيك بابن عمنا هذا خيراً يعني علي بن عبد الله بن العباس. فأمَّا الحجَّاج فلست تستغني عنه.

ثم أرسل إلى خالد وعبد الله، ابني يزيد بن معاوية. فلما جلسا قال: ما تقولان: أأقيلكما بيعةَ الوليد؟ قالا: معاذَ الله يا أمير المؤمنين. قال: لو قلتما غير ذلك لقتلتكما على حالي هذه. قوما. فقاما فخرجا[1].

ثم دعا بقِداح بعدَّة ولدِه فأمر بها فجُمعت ثم دفعها إلى الوليد فقال: اكسرْها. فلم يقدر على ذلك. ثم دُفعت إلى آخر، ثم آخر، حتى استقراهم جميعاً، فأعياهم كسرُها، فأَمَر بها ففرِّقت، ثم دفع إلى كل واحد منهم قدحاً وأمره بكسره ففعل، فقال: هكذا أنتم بعدي، إن اجتمعتم لم يكسر أحدٌ، وإن تفرقتم كسرتم[2]. وقال: احفظوا عني هذه الأبيات[3]:

---

[1] انظر: تاريخ مشق لابن عساكر.

[2] هذا الجزء من الخبر لم أجه عند غير المبرد، برغم أنه قصة مشهورة متداولة.

[3] عبارة ابن عساكر في تاريخ دمشق تشي بأن الأبيات للوليد وليست لعبدالملك، قال: ثم صعد الوليد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: إنا لله، وإنا إليه راجعون، يا لها مصيبة، ما أعظمها وأقطعها وأخصها وأعمها وأوجعها! موت أمير المؤمنين، ويا لها نعمة، ما أعظمها وأجسمها وأوجب للشكر لله عليَّ فيها خلافته التي سرنا بها. فكان أول من عزى نفسه وهنأها. ثم قال: انهضوا فبايعوا على بركة الله، فلما بايعه الناس جلس مجلس عبد الملك، وجمع أهل بيتهم وقال... الأبيات. أما عبارة أسامة بن منقذ في لباب الآداب فتشي بأن الأبيات لشاعر، قال: قال الشاعر من وصية عبد الملك بن مروان لبنيه... الأبيات.

انفوا الضّغائنَ عنكمُ وعليكمُ عندَ المغيبِ وفي الحضورِ الشُّهَّدِ
بصلاحِ ذاتِ البينِ طولُ بقائكمْ إنْ مدَّ في عُمري وإنْ لم يمدَدِ
فلمثلِ ريبِ الدَّهرِ ألّفَ بينَكم بتواصلٍ وتراحمٍ وتودُّدِ
حتّى تلينَ قلوبُكمْ وجلودُكمْ لمسوَّدٍ منكم وغيرِ مسوَّدِ
إنّ القداحَ إذا اجتمعن فرامَها بالكسر ذو حَنقٍ وكسرٍ أيّدِ
عزَّتْ فلم تُكسر وإن هي بدِّدتْ فالوهنُ والتّكسيرُ للمتبدِّدِ

فلما توفي سجاه الوليد، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: لم أر مثلها مصيبةً ولا مثلها نعمة. فقْدُ الخليفة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، على عظم المصيبة. والحمد لله رب العالمين، على عظيم النعمة. ثم دعا الناس إلى بيعة، فبايع الناس ولم يتخلف أحد. فسمع أحد ولد عبد الملك يبكي ويقول: مات، والله، أمير المؤمنين. فقال: ويلك لا تقل هكذا، ولكن قل كما قال أخو بني أسيد أوس بن حجر:

إذا مُقْرَمٌ منَّا ذرا حَدُّ نابِهِ تخمَّطَ فينا نابُ آخرَ مُقْرَمِ[1]

[1] قال كتاب أبو عبيد في غريب الحديث: وَإِنَّمَا سمي السَّيِّد الرئيس من الرِّجَال المقْرَم لِأَنَّهُ شبِّه بالمقْرَم من الْإِبِل لعظم شَأْنه وَكَرمه عِنْدهم.

وصية أبي قيس بن صرمة الأنصاري رحمه الله

وأوصى أبو قيس بن صرمة الأنصاري[1] ولدَه عند موتِه فقال[2]:

يَا بَنِيَّ الأَرْحَامَ لَا تَقْطَعُوهَا ... وَصِلُوهَا قَصِيرَةً مِنْ طِوَالِ
وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي ضِعَافِ اليَتَامَى ... رُبَّمَا يُسْتَحَلُّ غَيْرُ الحَلَالِ
وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلْيَتِيمِ وَلِيًّا ... عَالِمًا يَهْتدِي بِغَيرِ السُّؤَالِ
يَا بَنِيَّ الأَيَّامَ لَا تَأْمَنُوهَا ... وَاحْذَرُوا مَكْرَها وَمَكْرَ اللَّيَالِي
واعْلَمُوا أَنَّ مُرَّها لنفادِ الـ ... ـخلقِ ما كان مِنْ جَديدٍ وبالِ
وَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ عَلَى البِرِّ وَالتَّقْـ ... ـوَى وَتَرْكِ الخَنَا وَأَخْذِ الحَلَالِ

وصية أبي جهم بن حذيفة العدوي رحمه الله

وأنبأنا أبو عبد الرحمن قال: أنبأنا أبو يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمير اللخمي قال: جاء أبو جهمِ بنِ حذيفة العدوي[3]، وهو يومئذ ابنُ مئةِ سَنَة، إلى مجلسٍ لقريش، فأوسَعوا له عن صدْر المجلس، وقائلٌ يقول: بل كان عروةُ

---

[1] قيس بن صِرْمَة بن أَبي أَنَس بن مَالِك الأَنصاري الخزرجي النجاري: شاعر من أسرة كثر فيها الصحابة، له أشعار حِسَان فيها حِكم ووصايَا وعِلم، ذكر بعضَها ابنُ إسحاق في السِّيَر.

[2] انظر: أُسْد الغابة في معرفة الصحابة لابن حجر.

[3] أبو جهم بن حذيفة القرشي العدوي: صحابي جليل صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من مسلمة الفتح.

بنُ الزبير[1] مكانَ أبي جهم، فقال: يا بَني أخي، أنتم خيرٌ لكبيرِكم من مهرةَ لكبيرِهم. قالوا: وما شأن مهرةَ وكبيرِهم؟ قال: كان الرجلُ منهم إذا كبر وضعف أتاه ابنُه أو وليُّه فعقله بعقال ثم قال: قمْ. فإن استتَمَّ قائماً وإلا حَمَلَه إلى محبسٍ لهم يُجْرَى على أحدِهم فيه رزقُه حتى يموت. قال: فجاء شابٌّ منهم إلى أبيه ففعل ذلك، فلم يستتِمَّ قائماً، فحَمَلَه فقال: أيْ بُنَيَّ إلى أين؟ قال: إلى سُنَّة آبائك، فقال: أيْ بُنَيَّ لا تفعلْ، فوالله لقد كنتُ أوعدك فلا أحقك، وأُماشِيك فما أبذُّك، وأَسْقيك الدأداة[2] قال: وكانتِ العربُ تقول: إذا سُقي الغلامُ اللبنَ وهو قائمٌ كان أسرعَ لشبابِه فقال الفتى: لا جَرَمَ، والله، لا يُذْهَب بكَ، فاتخذتها مهرةُ سُنَّةً[3].

وصية سعيد بن العاص رحمه الله

وأخبر عبد الرحمن بن إسرائيل عن أشياخه قال: لما حضرتِ الوفاةُ سعيدَ ابنَ العاصي[4] قال: يا بَنِيَّ، أيُّكم يكفُل عني دَيْني؟ قال عمرو بن سعيد: عليَّ

---

[1] ونسبها البلاذري في أنساب الأشراف إلى عقيل بن أبي طالب.

[2] يعني اللبن، وفي رواية: الدُّواية.

[3] انظر: المعمرون والوصايا للسجستاني.

[4] سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي (٢ – ٥٩ هـ): مات أبوه يوم بدر في جيش قريش، وهو صحابي صغير مات النبي صلى الله عليه وسلم وله تسع سنين ، كان أحد أشراف قريش وأجوادها وفصحائها الممدّحين.

دينُك يا أبَه. كم هو؟ قال: ثمانون ألفَ دينار. قال: وفيمَ استدنْتَها؟ قال: في كريم سددتُ خللَه، أو لئيم اشتريتُ عِرضي منه، ثم قال سعيد: هذه خصلة وبقيت خصلتان. قال: ما هما يا أبَه؟ قال: يا بُنَي لا تزوِّجن بناتي إلا من الأكفاء ولو بفلق خبز الشعير. قال: أفعل. قال: يا بُنَي، ذهبتْ خصلتان وبقيتْ خصلة. قال: وما هي يا أبَه؟ قال: يا بُنَي، إنْ فَقَدَ إخواني وجهي فلا يفقدوا معروفي. قال: أفعل يا أبَه. قال: يا بُنَي ما زلتُ أعرف الكرم في حماليقِ عينيكَ وأنت يُحَرَّك بك في مهدِك حتى بلغتَ ما أرى. يا بُنَي، ما شاتمتُ رجلاً مذ كنت رجلاً، ولا زاحمتْ ركبتاي ركبتَه ولا كلفتُ من يرتجيني أن يسألني فيبذلَ وجهَه ويرشحَ جبينُه رشحَ السقاء، إذن، والله، فما وصلتُه. يا بُنَي، أخزى الله المعروف إذا لم يكن ابتداءً عن غير مسألة. فأما إذا أتاك تكاد ترى دمَه في وجهه مخاطراً، لا يَدري أتعطيه أم تمنعه، فوالله لو خرجتَ له من جميع ما تملكه ما كافأتَه، ولا الذي بات يتململُ على فراشه يعقب بين شفتيه أيجدني موضعاً لحاجته أم لا، لهو أعظمُ عليَّ منةً مني عليه، إذا قضيتُها له[1].

[1] انظر: تاريخ مشق لابن عساكر.

وفي هذا الحديث بغير هذا الإسناد، ولكن عن الزبير بن أبي بكر قال: كانت علته[1] التي مات فيها في ضيعة له بقرب المدينة، فلما اشتدت علته قال لابنه عمرو: يا بُني، قد ترى ما نزل بي، فقال له عمرو: يا أبَه، لو حُمِلتَ إلى المدينة. فقال: يا بُني، إن الحركة تتعبني، وإن أهلي لا يبخلون عليَّ بحملي على رقابهم ساعةً. يا بُني، إن ضيعتي هذه متريف وليست بمال غلة، فإذا أنا متُّ ففرغتَ من دفني، فوجِّه مطيتَك نحو معاوية فانْعني له، فإنه سيسألك عن دَيني ويتضمنُه، فأعلمْه أني قد علمتُ ذلك وجزِّه خيراً. ثم قل له: يا أمير المؤمنين، إن له ضيعةً أمر ببيعها لقضاء دَينه، فإنه سيشتريها منك، فاسأله أن يكتب لك بمالها إلى المدينة فأقم بها ديني وعداتي. فلما دُفن كانت مطايا عمرو موقوفةً فعزِّي عنه، وركب يريد معاويةَ من ساعتِه حتى ورد عليه فنعاه له فتفجَّع وقال: ما خلَّف من الدَّين فهو عليَّ. فقال: يا أمير المؤمنين، قد علم ذاك فوصلتُك رَحِم، ولكنه أمرني ببيع ضيعة له وهي الفلانية. قال: قد اشتريتُها بدَينه، وكتب له بالمال إلى المدينة، فجاءه صعلوكٌ من صعاليك قريش بصكٍّ على أبيه بعشرين ألف درهم، فيه شهادة مولىً له، فقال له: يا هذا، إني أعرف الخط وإني أنكر أن يكون لمثلك مثلُ هذا المال عليه، فدعا مولاه فقال له: أتعرفُ هذا؟ فشهد به؛ فقال له: ما سببُه؟ فقال: إن أباك

[1] أي سعيد بن العاص.

في وقت عزلِه وكان معاوية يولِّيه المدينة سنةً ويولِّي مروانَ بنَ الحكم سنةً رآه وحدَه وقد ركب لبعض حاجاته، فسار معه حتى بلغها ورجع. فلما انتهى قال له: يا فتى، ألك حاجة؟ فقال: لا، ولكني رأيتك مفرَداً فأحببت أن أصل جناحَك، فالتمسَ مالاً يهبُه له فلم يحضُرْه فقال لي: عجِّل عليَّ بصحيفة، فكتب له بهذا ديناً عليه حالاً. فقال عمرو: إذن والله لا يأخذها إلا معجلةً منتقدةً[1].

وصية عمر بن عبدالعزيز رحمه الله

قال ابن دأب: لما حضرتْ عمرَ بنَ عبد العزيز الوفاةُ قيل له: يا أمير المؤمنين، اكتبْ إلى يزيدَ بنِ عبد الملك فأوصِه بالأمَّة خيراً فقال: وبم أوصيه؟ إني لأعلم أنه من بني مروان. ثم أمر بالكتاب إليه: أما بعد، فاتقِّ يا يزيد، الصرعة بعد الغفلة فلا تقال العثرة، ولا تقدر على الرجعة. تترك ما تترك لمن لا يحمدُك، وتقدُم على من لا يعذُرُك والسلام[2].

---

[1] انظر: كنز الدرر وجامع الغرر لابن الدواداري.

[2] انظر: أنساب الأشراف للبلاذري، والكامل في التاريخ لابن الأثير.

وصية هشام بن عبد الملك

ويروى أن أَنَّ هِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ لَمَّا احْتُضِرَ نَظَرَ إِلَى حَشَمِهِ وَلَحْمَتِهِ يَبْكُونَ؛ فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ وَبَكَى فِي وُجُوهِهِمْ، ثُمَّ قَالَ: جَادَ هِشَامٌ عَلَيْكُمْ بِالدُّنْيَا وَجُدْتُمْ عَلَيْهِ بِالْبُكَاءِ؛ فَتَرَكَ عَلَيْكُمْ مَا خَلَّفَ وَتَرَكْتُمْ عَلَيْهِ مَا اكْتَسَبَ! مَا أَسْوَأَ حَالَ هِشَامٍ إِنْ لَمْ يَغْفِرِ اللهُ لَهُ![1]

ولما احتُضِر معاوية أقبل على ابنة قرظة[2] فقال: بكِّيني، فقالت:

ألا ابكيهِ ألا ابكيهِ ألا كلُّ الفتى فيهِ

ثم قال لابْنَتَيْه: قَلِّباني. فجعَلَتا تُقلِّبانه لجنْبٍ بعد جَنْب فقال: إنكما لتُقلِّبانِ حُوَّلًا قُلَّبًا[3]. ثم أنشد[4]:

---

[1] انظر: المجالسة وجواهر العلم للدينوري، والمحتضرين لابن أبي الدنيا.

[2] زوجته.

[3] في المعجم: فلان حُوَّلٌ قُلَّبٌ أي محتال بصير بتقليب الأمور. وسوف يعيد المبرد هذا الخبر في نهاية الكتاب.

[4] وجاء في كتاب المحتضَرين لابن أبي الدنيا: لَمَّا حَضَرَتْ مُعَاوِيَةَ الْوَفَاةُ احْتَوَشَتْهُ بَنَاتُهُ، فَضَرَبَ بِيَدِهِ، فَسَقَطَتْ يَدُهُ فِي حِجْرِ رَمْلَةَ ابْنَتِهِ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَتْ رَمْلَةُ: أَنَا يَا أَبَتَاهُ. قَالَ: حَوِّلِي أَبَاكِ، فَإِنَّكِ تُحَوِّلِينَ حُوَّلًا قُلَّبًا. ثُمَّ قَالَ: (لَا يَبْعَدَنَّ رَبِيعَةُ بْنُ مُكَدَّمٍ ... وَسَقَى الْغَوَادِي قَبْرَهُ بِذَنُوبِ) فَكَانَتْ آخِرَ كَلَامِهِ.

لا يَبْعَدَنَّ رَبِيعَةُ بْنُ مُكَدَّمٍ[1] وَسَقَى الْغَوَادِي قَبْرَهُ بِذَنُوبِ[2]

ثم قال ليزيدَ[3]: إذا أنا قَضَيْتُ فأحسِنْ غسْلي، واجعل في آخرِهِ مِسْكاً وكافوراً، وأحسِنِ الصلاةَ عليَّ، ثم ادْفِنِي في لَحْدي ودَعْني ورَبِّي. فلما بلغ ابنَ عباسٍ موتُه قال[4]:

جَبَلٌ تَصَدَّعَ ثمَّ مالَ بجُمْعِهِ في البَحْرِ لا رَتَقَتْ عليهِ الأبْحُرُ[5]

---

[1] ربيعة بن مكدَّم الفراسي الكناني: فارس عربي من قبيلة كنانة وأحد فرسان العرب المعدودين في الجاهلية وصاحب الفرس اللطيم. اشتهر بلقب حامي الظعائن حياً وميتاً وضربت به العرب المثل في الشجاعة والنجدة فقالوا: أشجع من ربيعة بن مكدَّم وأحمى من مجير الظُّعن. وكان يعقر على قبره في الجاهلية ولم يعقر على قبر أحد في الجاهلية غيره. قتله نبيشة بن حبيب السلمي بسهْم.

[2] البيت منسوب في الحماسة البصرية لمكرّز بن حَفْص بن الْأَحْنَف الْكِنَانِي الجاهلي. وفي جمهرة أشعار العرب لحَفْص بن الأحنف الكناني، وهناك من نسبه لحسان بن ثابت.

[3] ابنه. وسبق أن أوضحت أن يزيد لم يكن حاضراً موت أبيه كما عند ابن الأثير.

[4] وجاء في كتاب المحتضرين لابن أبي الدنيا: لما جاء نعي معاوية إلى ابن عباس، والمائدة بين يديه، فقال لغلامِه: ارفع ارفع. ثم قال: اللهم أنت أوسع لمعاوية، ثم قال: خيرٌ ممن يكون بعده، وشر ممن كان قبله؛ ثم قال: جبلٌ تزعزع ثم مال بجمعه ... في البحر لا رَتقَت عليك الأبحر. أ.هـ. كما أخرجه ابن أبي الدنيا في حلم معاوية، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ، وفي سنده ضعف من جهة داود بن المحبر، وهو متروك، كما في التقريب (١٨١١).

[5] والظاهر أنه من إنشاء ابن عباس.

وصية الربيع بن خثيم[1]

وروى إسرائيلُ عن يونسَ بنِ أبي إسحاقَ السبيعيِّ، عن سعيدِ بنِ مسروقٍ الثوريِّ، عن منذرِ بنِ يعلى الثوريِّ قال: أوصى الربيعُ بنُ خُثَيْم: «هَذَا مَا أَوْصَى بِهِ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ وَأَشْهَدَ اللَّهَ عَلَى نَفْسِهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا وَجَازِيًا لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ وَمُثِيبًا، أَنِّي رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا. وَرَضِيتُ لِنَفْسِي وَمَنْ أَطَاعَنِي أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ فِي الْعَابِدِينَ، وَيَحْمَدُوهُ فِي الْحَامِدِينَ، وَيَنْصَحُوا لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ».[2]

وصية جُندب بن عبد الله البَجَلي[3]

وروى شُعبةُ بنُ الحجَّاج عن يونسَ بنِ جُبَيرٍ قال: شَيَّعْنَا جُنْدُبَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ فَلَمَّا بَلَغْنَا حِصْنَ الْمُكَاتَبِ[4] قُلْنَا لَهُ: أَوْصِنَا قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ نُورُ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ وَهُدَى النَّهَارِ، فَاعْمَلُوا بِهِ عَلَى مَا كَانَ مِنْ جَهْدٍ وَفَاقَةٍ، وَإِنْ عَرَضَ بَلَاءٌ فَقَدِّمْ مَالَكَ دُونَ نَفْسِكَ، فَإِنْ تَجَاوَزَ الْبَلَاءُ

---

[1] الربيع بن خثيم الثوري تابعي كوفي، وأحد رواة الحديث النبوي.

[2] انظر: سنن سعيد بن منصور، والطبقات الكبرى لابن سعد، والمصنف لابن أبي شيبة.

[3] جندب بن عبد الله البجلي صحابي من بجيلة، روى عدة أحاديث عن النبي صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ.

[4] مكان قريب من البصرة.

فَقَدِّمْ مَالَكَ وَنَفْسَكَ دُونَ دِينِكَ؛ فَإِنَّ الْمَحْرُوبَ[1] مَنْ حُرِبَ دِينَهُ وَالْمَسْلُوبَ مَنْ سُلِبَ دِينَهُ، إِنَّهُ لَا غِنَى بَعْدَ النَّارِ وَلَا فَاقَةَ بَعْدَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ النَّارَ لَا يُفَكُّ أَسِيرُهَا وَلَا يَسْتَغْنِي فَقِيرُهَا"[2].

وصية عمرَ بنِ هُبَيرة

ولما حضرتِ الوفاةُ عمرَ بنَ هُبَيرة[3] جزع وجعل يقول: للهِ دَرُّ البَغْلاتِ الْمُسرجاتِ الواقفاتِ بأبوابِ السلطان. واللهِ لوَدِدتُ أني كنتُ راعيَ إبل مئةٍ لرجلٍ سيئ الَمَلَكة[4].

---

[1] المحروب: المحروم المسلوب مالَه.

[2] انظر: الزهد لأحمد بن حنبل، وشُعب الإيمان لأبي بكر البيهقي، والمطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر العسقلاني.

[3] عمر بن هبيرة بن معاوية بن سكين الأمير المعروف بأمير العراقين: عراق العرب وعراق العجم. ولي إمارة البحر عند حصار القسطنطينية الثاني تحت قيادة مسلمة بن عبد الملك، ثم عينه الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك أميراً على العراق سنة ١٠٣ هـ.

[4] والعبارة الأخيرة منسوبة لكثيرين، منهم بشر بن مروان لما حضرته الوفاة قال: والله لوددت أني كنت عبداً حبشيا لأسوأ أهل البادية مَلكةً، أرعى عليهم غنمهم، وإني لم أكن فيما كنت فيه.

وصية إبراهيمَ بنِ يزيدَ النَّخْعيِّ

ولما احتُضِر إبراهيمُ بنُ يزيدَ النَّخْعيُّ[1] جَزِع جَزَعاً شديداً وجعل يقول: نفسي أعزُّ الأنفُس عليَّ. فقيل له: يا أبا عمران، أتجزع هذا الجزعَ من الموت؟ فقال: وأيُّ غَرَرٍ[2] أعظمُ مما أنا فيه، إنما أتوقع رسولاً من ربي إما بجنةٍ وإما بنارٍ[3].

وصية فتىً من الأعراب

ويروى أن فتىً من الأعراب حضرَتْه الوفاةُ، فنظر إلى أبيه وأمِّه يبكيان حواليه بكاءً ذريعاً، فقال: ما يُبكيكما؟ فقالا له: إنا لنعلمُ أن للموتِ ما تلدُ الوالدة، ولكن لزهوٍ كان فيك. فقال: آللهِ، ما يبكيكما إلا ذاك! فحلفا على ذلك فقال: فوالله الذي لا إله إلا هو ما يسرُّني أن إليكما مِنْ أمري ما إلى ربي[4].

---

[1] إبراهيم بن يزيد النخعي (٤٧ هـ – ٩٦ هـ): تابعي وفقيه وقارئ كوفي، وأحد رواة الحديث النبوي، وهو ابن أخي علقمة بن قيس النخعي.

[2] الغَرَرُ: الخطر، والتعريض للهَلَكَةِ، وجهْل المصير. ومنه بَيْعُ الغَرَرِ: بَيْعُ مَا يَجْهَلُهُ الْمُتَبَايِعَانِ.

[3] انظر: الكامل لابن المبرد، ووفيات الأعيان لابن خلكان.

[4] يعني أن الله أرحم به منهما.

وصية رجل من أبناء فارس

ويروى أن رجلاً من أبناء فارس احتُضِر فجزع فقيل له: ما بك؟ فقال: ما ظنُّكم بمن يقطع سفراً بعيداً بلا زاد، ويُقدِم على حَكَم عادِل بلا حُجة، ويسكن قبراً موحِشاً بلا مُؤنِس؟

وصية المهلَّب بن أبي صُفْرة الأزدي[1]

ولما احتُضِر المهلَّب بن أبي صُفرة أوصى بَنيه فقال: أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم، فإن تقوى الله تُعقب الجنة، وإن صلة الرحم تَنسأ في الأجل، وتُثري المال، وتجمع الشمل وتُكثر العدد، وتُعمر الديار، وتُعز الجانب. وأنهاكم عن معصية الله، فإنها تُعقب النار، وإن قطيعة الرحم تورث القلة والذِّلة، وتفرق الجمع، وتَذر الديار بلقعاً وتُذهب المال، وتُطمع العدو، وتُبدي العورة. يا بنيَّ، قومَكم قومَكم! إنه ليس لكم عليهم فضل بل هم أفضلُ منكم إذ فضَّلوكم وسوَّدوكم ووطأوا أعقابكم، وبلغوا حاجاتكم لما أردتم، وأعانوكم، فلهم بذلك حقٌّ عليكم، وبلاء عندكم لا تؤدون شكرَه ولا تقومون بحقه. فإن طلبوا فأَطلِبوهم، وإن سألوا فأَعْطوهم، وإن لم يسألوا فابتدِئوهم، وإن شَمَتوا فاحتملوهم، وإن غَشَوْا أبوابَكم فلتُفتح لهم ولا تُغلق دونهم. يا بَنِيَّ، إني

---

[1] المهَلّب بن أبي صفرة بن سراق بن صبح الأزدي: والٍ من ولاة الأمويين على خراسان، استعمله الحجاج عاملاً على خراسان عام (٧٨هـ) وقام بفتوحات واسعة في بلاد ما وراء النهر.

أحبُّ الرجلَ منكم أن يكون لفعله الفضلُ على لسانه، وأكره للرجل منكم أن يكون للسانه الفضلُ على فعله.

يا بَنِيَّ، اتقوا الجوابَ وزَلةَ اللسان، فإني وجدت الرجلَ تعثر قدمُه فيقوم من زلته وينتعش منها، ويزلُّ لسانُه فيوبِقه، وتكون فيه هلكتُه. يا بَنِيَّ، إذا غدا عليكم رجلٌ أو راح فكفى بذَلِكم مسألةً وتذكرةً بنفسه. يا بَنِيَّ، ثيابُكم على غيركم أحسنُ منها عليكم، ودوابُّكم تحت غيركم أحسنُ منها تحتكم. يا بَنِيَّ، أحِبوا المعروف، واكرهوا المنكر واجتنبوه، وآثِروا الجُود على البخل، واصطِنعوا العَرَب وأكرِموهم؛ فإن العربيَّ تَعِدُه العِدَة فيموتُ دونَك ويشكر لك، فكيف بالصنيعة إذا وصلتْ إليه، في احتماله لها، وشكره والوفاء لصاحبها.

يا بَنِيَّ، سوِّدوا كبارَكم واعرِفوا فضل ذوي أسنانكم تعظُموا به، وارحموا صغيرَكم وقرِّبوه وألْطِفوه، واجبُروا يتيمَكم وعُودوا عليه بما قَدَرْتم، وخذوا على يديْ سفهائكم، وتعاهدوا فقراءكم وجيرانَكم بما قدرْتم عليه، واصبروا للحقوق ونوائب الدهر. وعليكم في الحرب بالأناة، والتُّؤدة في اللقاء. وعليكم بالتماس الخديعة في الحرب لعدوِّكم، وإياكم والنَّزق والعَجَلة؛ فإن المكيدة والأناة والخديعة في الحرب أنفع من الشجاعة. واعلموا أن القتال والمكيدة مع الصبر، فإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن ظفر امرؤ وقد أخذ بالحزم قال القائل: قد أتى الأمرَ من وجهه، وإن لم يظفر قال: ما ضيَّع ولا فرَّط ولكن القضاء

غالب. والزموا الحزم على أي الحالتين وقع الأمر، والزموا الطاعة والجماعة، وإياكم والخلافَ. تواصلوا وتآزروا وتعاطفوا، فإن ذلك يثبِّت المودة. وخذوا فيما أوصيكم به بالجد والقوة والقيام به تظفروا بدنياكم ما كنتم فيها، وبآخرتِكم إذا صِرتم إليها ولا قوة إلا بالله. وليكن أول ما تبدؤون به إذا أصبحتم تعليم القرآن والسُّنن والفرائض، وتأدبوا بآداب الصالحين من قبلكم مِنْ سَلَفكم، ولا تُقاعِدوا أهل الدعارة والريبة، ولا يطمع في ذلك منكم طامعٌ. وإياكم والخفةَ في مجالسِكم وكثرةَ الكلام، فإنه لا يسلم منه صاحبه، وأدوا حق الله عليكم، فإني قد أبلغتُ إليكم في وصيتي، واتخذتُ لله الحجة عليكم[1].

وتُوُفِّي بمرْو الرَّوذ[2] ووليَ خُراسان أربعَ سنين. فقال نهار بن توسعة[3]:

---

[1] انظر: تاريخ الطبري، ولباب الآداب لأسامة بن منقذ، والمعمرون والوصايا لأبي حاتم السجستاني.

[2] قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: مَرْوُ الرُّوذ مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم فلهذا سميت بذلك، وهي صغيرة بالنسبة إلى مرو الأخرى، خرج منها خلق من أهل الفضل ينسبون مروروذي ومروذي. وذكر محمد بن جرير الطبري في تاريخه أن المسلمون فتحوها في سنة (٢٢ هـ) في خلافة عمر بن الخطاب وذلك على يد الأحنف بن قيس التميمي.

[3] نَهار بن تَوْسِعة بن أبي عِتبان: شاعر أموي، وصل إلى خراسان الكبرى وكان أشعر البكريين فيها. كان هجاءً، هجا قتيبة بن مسلم، فطلبه، فهرب واستجار بأم قتيبة فترضت له ابنَها فرضي عنه وأكرمه. وكان أبوه توسعة شاعراً أيضاً.

ألا ذَهَبَ الغَزْوُ الْمُقَرِّبُ للغِنى ومات النَّدى والحزمُ بعدَ الْمُهَلَّبِ
أقاما[1] بمَرْوِ الرَّوْذِ رَهْنَيْ تُرابِهِ وقد غُيِّبا عنْ كلِّ شَرْقٍ ومَغْرِبِ

قال: ثم وَلِيَ بعد المهلَّب قتيبةُ بنُ مُسلم فدخل عليه نَهارُ بنُ توسعة وهو يُعطي الناسَ، فلما رآه عرفه وقال: أنت القائل في المهلَّب ما قلتَ؟ قال: بل أنا الذي أقولُ:

وما كان مُذْ كُنَّا ولا كان قَبْلَنا ولا هو فينا كائنٌ كابنِ مُسْلِمِ
أعمُّ لأهْلِ الشِّرْكِ قَتْلاً بسَيفِهِ وأَقْسَمَ فينا مَغْنَماً بعدَ مَغْنَمِ

قال: إن شئتَ فأقللْ، وإن شئتَ فأكثِرْ، لا تصيبُ مني خيراً، يا غلامُ، حَلِّقْ على اسمِه، فلزِمَ بيتَه حتى وَلِيَ يزيدُ بنُ المهلَّب خراسانَ، فأتاه فدخل عليه وهو يقول:

فإنْ يَكُ ذَنْبي يا قُتَيْبةُ أَنَّني بكَيْتُ امْرَءاً قد كان في الجُودِ أَوْحَدا
أَبَا كلِّ مَظْلومٍ ومَنْ لا أَبَا لَهُ وغَيْثُ مُغِيباتٍ أَطَلْنَ التَّلَدُّدا[2]
فَشَأْنَكَ إنَّ اللهَ إنْ سُؤْتَ مُحْسِنٌ إليَّ فقد أَبْقَى يَزيدَ ومخْلَدا

فقال له: احتكمْ، فقال: مئةَ ألْف.

---

[1] يعني الندى والحزم.

[2] المغيبات: جمع مغيب ومغيبة، وهي المرأة التي غاب عنها زوجها أو أحد من أهلها. والتلدد: من تلدد إذا تلفت يميناً وشمالاً، وتحير متلبداً.

ويقال: إن مخلد بن يزيد هو الذي أعطاه، لأن أباه كان قدَّمه خليفةً على خراسان. فكان يقول بعد موت مخلد: رحم الله مخلداً، ما ترك لي بعدَه من قول.

وكان يزيدُ بنُ المهلب أوصى مخلداً ابنَه، لما سار من خراسانَ إلى جرجانَ فاستخلفه على خراسان، أن قال له: يا بُني، انظر هذا الحيَّ من اليمن فكن فيهم كما قال أبو دُؤادٍ الإيادِيُّ[1]:

إِذَا كُنْتَ مُرْتَادَ الرِّجَالِ لِنَفْعِهِمْ فَرِشْ وَاصْطَنِعْ عِنْدَ الَّذِينَ بِهِمْ تَرْمِي

وكن لهذا الحيِّ من بكْر بنِ وائل كما قال امرُؤُ القَيْس:

يا راكباً قُولَا لإخوانِنا مَنْ كان مِنْ كِنْدةَ أو وائلِ

إنَّا وإيَّاكمْ وما بَيْنَنا كموضعِ الزَّورِ[2] من الكاهِلِ

قال: ونمى إليَّ عن مَسْلَمَةَ بنِ عَلقمةَ قال: كتب مروانُ بنُ محمد إلى ولد المسوِّر[3] يعزِّيهم عن أبيهم: قد بلغ أميرَ المؤمنين الذي كان من نازلِ قضاء

---

[1] أبو دُؤَاد الإيادي من شعراء العصر الجاهلي، اسمه جارية بن الحجاج الإيادي، وكان وصَّافاً للخيل.

[2] الزَّوْرُ :مُلْتَقَى أَطرافِ عِظام الصَّدْر حيث اجتمعت.

[3] المسور بن عمرو بن عباد بن الحصين التميمي (٦٤ – ١٢٩ هـ) أمير من سادات العرب في البصرة، وكان سيد بني تميم في زمانه، ولي إمارة البصرة في عهد مروان بن محمد الأموي آخر خلفاء

الله في المسوِّر بنِ عمرو، وما اختار اللهُ له من المصير إليه، فعند الله يَحتسِب أميرُ المؤمنين مُصابَه ونعم المتوفى توفاه الله مِنْ بينكم. وفي جُود الله الخَلَفُ الكافي. وقد أعاضكم الله من رزيئتكم رأياً من أمير المؤمنين جميلاً، فيه حُسْن الخلف عليكم: فلتَحْسُن ظنونُكم بربِّكم وخليفتِكم؛ فإن الله لم يقبضْ ولياً له إلا أَحْسَنَ خلافتَه في ولدِه وأهل لُحْمته[1].

وتحدث يعقوبُ بنُ داود قال: عُزِّي السائبُ بنُ الأقرع[2] عن ابنٍ له، فقال السائب: هكذا الدنيا تُصبح لك سارةً، وتُمْسي عليك متنكِّرة. ثم تمثَّل[3]:

ألا قَدْ أَرَى أَنْ لا خُلُودَ وَأَنَّهُ سَيَنْعِقُ فِي دَارِي غُرَابٌ وَيَحْجلُ

وَيَقْسِمُ مِيرَاثِي رِجَالٌ أَعِزَّةٌ وَتَذْهَلُ عَنِّي الْوَالِدَاتُ وَتُشْغَلُ

الدولة الأموية ووثب على ابن سهيل الأموي أمير البصرة ليزيد بن الوليد وهزمه وأجلاه عن البصرة، وكان من أسرةٍ شريفة فجده عباد بن الحصين من أشهر فرسان العرب في الإسلام..

[1] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[2] السائب بن الأقرع الثقفي: كوفي شهد فتح نهاوند مع النعمان بن مقرن، وكان عمر بعثه بكتابه إلى النعمان بن مقرن ثم استعمله عمر على المدائن. قال البخاري: السائب بن الأقرع أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ومسح برأسه.

[3] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

وتحدث النضر بن إسحاق قال: ماتت امرأةُ بكر بن عبد الله المزَني[1] فاشتد حزنُه عليها، فنهاه الحَسَنُ[2] فقال: يا أبا سعيد، إنها كانت مواتيةٌ[3]، وكانت.. وكانت.. فقال له الحَسَن: لا تيأس، فعند الله خيرٌ منها. فتتزوج أختَها بعدَها، فمر به الحَسَنُ بعد ذلك فقال: يا أبا سعيد، هذه خيرٌ من أختِها.

قال أبو الحَسَن المدائني عن الحسن الجفري قال: لما مات سعيدٌ، أخو الحَسَن[4]، حزن عليه الحَسَن وقال: إنه لأعزُّ أهلي عليَّ، ولأن يكون لي أحبُّ إليَّ مِنْ أن أكونَ له[5]. فعاتبه بعضُ إخوانه فقال الحَسَن: يا عبد الله، قد حزن يعقوبُ على ابنِه يوسفَ فلم يعنِّفه اللهُ عز وجل بذلك[6].

---

[1] بكر بن عبد الله المزني البصري، قال حميد الطويل: «كان بكر مجاب الدعوة»، سكن البصرة، وكان فقيهًا، مات سنة ١٠٨ هـ.

[2] الحسن البصري.

[3] يعني مطيعة.

[4] الحسن البصري.

[5] يعني أنه يفدّيه ويقدمه على نفسه.

[6] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

وقال عن كليب بن خلف: قال عبد الكريم المازني لعبد الله بن عبد الله بن الأهتم: كيف كان جزعُك على أهلِ بيتِك؟ فقال: ما ترك حبُّ الغَداء والعَشاء في قلبي حُزناً على أحد[1].

وقال يزيد بن عياض بن جعدبة: كان عبدُ الله بن الزبير إذا أصابته مصيبة قال: قد قُتل أبي وإمامي عثمانُ بنُ عفان فصبرت[2].

وقال أبو عبد الرحمن العجلاني: أخبرنا إسماعيل بن يسار قال: مات ابنٌ لأرطاةَ بنِ سهية المري، من غطفان، فأقام على قبره حَوْلاً يأتيه كل غداة فيقول: يا عمرو، إن أقمتُ حتى أُمسي هل أنت رائح معي؟ ويأتيه عند المساء فيقول مثلَ ذلك، ثم ينصرف. فلما كان في رأس الحَوْل تمثل[3]:

إلى الحولِ ثمّ اسمُ السّلامِ عليكما ومَنْ يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ[4]

ثم انصرف عنه وهو يقول:

وقفتُ على قبرِ ابنِ ليلى فلم يكن وقوفي عليه غير مبكىً ومجزعِ
هل انت ابنَ ليلى إنْ نظرتُك رائحٌ مع القوم أو غادٍ غداة غدٍ معي؟

---

[1] السابق.

[2] السابق.

[3] ذكره سابقاً. وسيذكره في آخر الكتاب.

[4] والبيت للبيد بن ربيعة.

فلو كان لبَّى شاهداً ما أصابني شهيقٌ على قبرٍ بأحجارِ أجرعِ
فما كنتُ إلاّ والهاً بعد زفرةٍ على شجوِها بعد الحنينِ المرجَّعِ
متى لا تجدْه تنصرفْ لطياتها من الأرضِ أو ترجعْ لإلفٍ فترتعِ
على الدَّهرِ فاعتبْ إنّه غير معتِبٍ وفي غيرِ من قد وارتِ الأرضُ فاطمعِ

وقال أبو محمد الكعبي: قال عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه حين استُشهِد أخوه زيدُ بنُ الخطاب باليمامة وحضره رجلٌ من بني عدي بن كعب، فرجع إلى المدينة، فلما رآه عمر دمعت عينُه ثم قال: أَخَلَّفْتَ زَيْدَاً ثَاوِيَاً وَأَتَيْتَنِي[1].

وقال المثنى بن عبد الله بن عوف: كان عمر بن الخطاب رحمه الله إذا أصابته مصيبة قال: قد فقدتُ زيداً فصبرت. وكان يقول: ما هبَّت الصَّبا إلا وجدتُ نسيمَ زيد.

وقال أبو الحسن: أخبرني مَنْ أثق به عن حكيم من الحكماء قال: مات أخٌ له فجزع عليه، فقال له قائل من أصحابه: اصنع بنفسك ما يصنعه بك الدهر[2].

---

[1] وجاء في الهم والحزن لابن أبي الدنيا: كانَ مَعَ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ رَجُلٌ بِالْيَمَامَةِ فَقَدِمَ بَعْدَ قَتَلِ زَيْدٍ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ عُمَرُ، فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَقَالَ: «خَلَّفْتَ زَيْدًا ثَاوِيًا وَأَتَيْتَنِي».

[2] لم أجده في التعازي لأبي الحسن المدائني.

وأخبر عن أبي إبراهيم قال: قال عبَّاد بن مخاشن: استُشهِد لي ابنان فجزعتُ عليهما. فقال له رجل: ثم ماذا؟ قال: كان جُرحاً فبرأ[1].

تعزية عطاء بن أبي صيفي

وتحدث قال: لما مات معاويةُ دخل على يزيدَ أشرافُ أهل الشام، فلم يجتمع لأحد منهم تعزيةٌ مع تهنئة إلا عطاءَ بن أبي صيفي[2] فإنه قال: يا أمير المؤمنين، أصبحتَ قد رُزئتَ خليفةَ الله، وأُعطِيتَ خلافةَ الله، قضى معاويةُ نحبَه، فغفر اللهُ له ذنبَه، وأُعطِيتَ بعده الرئاسة، ومُنِحتَ السياسة؛ فاحتسِبْ عند الله عظيمَ الرزيَّة، واشكره على جميل العَطيَّة[3].

---

[1] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[2] عطاء بن أبي صيفي بن نضلة الثقفي: وفد على يزيد بن معاوية وعزاه عن أبيه.

[3] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

تعزية شبيب بن شيبة

وقال الأصمعيُّ: لما ماتت البانوقة[1]، ابنةُ المهدي، اشتد جزعُه عليها فحَجَب الناسَ، فتلطف شبيبُ بن شيبة[2] فدخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين، واللهِ للهُ خيرٌ لها منك[3]، ولثوابُ الله خيرٌ لك منها. وإن أحقَّ ما صُبِر عليه ما لم يُقْدَر على دفعه[4]. فكان هذا أولَ ما تسلَّى به، وأذِن للناس.

وقال جويرية بن أسماء: اشتكى ابنٌ لعبد الله بن عمر بن الخطاب، فجزع عليه. فلما مات لم يَظْهر منه مثلُ ما كان يَظْهر في مرضه. فقيل له في ذلك فقال: كان ذلك مني رحمةً له ورقَّة، فلما وقع القضاء رضيتُ وسلَّمت[5].

---

[1] البانوكة بنت المهدي محمد بن المنصور أخت هارون الرشيد، وأمهما الخيزران. توفيت في حياة والديها، ورثاها سلم الخاسر بأبيات أوردها صاحب الأغاني يقول فيها:

أودى ببانوكة ريب الزمان مؤنسة المهدي والخيزران

[2] شبيب بن شيبة بن عبد الله التميمي: خطيب البصرة في زمن العباسيين. امتاز بخطبه البليغة والقصيرة. نشأ في البصرة. وكان يعرف أبا جعفر المنصور قبل توليه الخلافة وعندما أصبح المنصور خليفة جاء إلى بغداد واتصل به وتعرف على المهدي ولي العهد وأصبح صديقاً له وبقي كذلك عندما أصبح المهدي خليفة فصار من خيرة سمّاره وجلسائه وبقي كذلك إلى أن توفي سنة ١٧٠ للهجرة.

[3] يعني جوار الله لها خير من جوارك.

[4] انظر: تاريخ الطبري.

[5] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

وقال أبو الحسن[1]: أصبح رجل من بني نهشل وقد موتت له عدة أباعر وشاء، فقال: لئن كانت المنيَّة باتت تطيف بي، ثم أصبحتُ وقد زالت عني إلى شاتي وبعيري، ثم جزعتُ إني لجزوعٌ[2]، ثم قال:

المرءُ يسعى سادِراً حتّى يقالَ له تعالَهْ

وتحدث أبو الحسن المدائني، أو غيرُه، عن أبان بن تغلب النحوي[3] قال: شهدتُ امرأةً من الأعراب وبين يديها ابنٌ لها رجلٌ وهو يجود بنفسه، وعندها جماعة من قومها. فلما قَضَى وثبتْ إليه فغمَّضتْه وعصبتْه وترحمتْ عليه ثم تنحتْ إلى مجلسِها فقالت: يا أبان، ما أحقُّ من أُلبس النعمة وأُطيلت به النِّظرة ألا يعجزَ عن التوثُّق لنفسه من قبل حَلِّ عُقدته والحُلول بعَقْوتِه[4] والحيالة بينه وبين نفسه. قال: فقال رجل من الأعراب ممن حضرها: إنا لم نزل نسمع أنما الجزعُ للنساء، فوأبيك لقد كرم صبرُك، وما أشبهتِ النساء؟! فقالت: ما ميز إنسانٌ بين صبر وجزع إلا وجد بينهما منهجين بعيدي التفاوت في

---

[1] السابق.

[2] السابق.

[3] أبان بن تغلب بن رباح البكري الجريري الكندي (ت ١٤١ هـ): راوٍ ومُفسّر ومُحدّث ونحوي شيعي كوفي.

[4] عَقْوَةُ الدار: ساحَتُها؛ يقال : نَزَل بعَقْوَته، وفي حديث ابن عمر ، رضي الله عنهما : المؤمنُ الذي يأْمَنُ مَن أَمْسى بعَقْوتِه.

حالتيهما، أما الصبرُ فحَسَنُ العلانية، محمودُ العاقبة، وأما الجزعُ فغيرُ معوَّض عوضاً مع مأثمه، ولو كانا رجلين في صورة كان الصبر أَوْلاهما بالغلبة على الحسن في الخِلقة والكرم في الطبيعة[1].

وقال أبان: حدثنا ابن السماك قال: جلسنا ننتظر جِنازةً لتخرج إذ مر بنا أعرابيٌّ فوقف علينا فسلَّم ثم قال: إن أعظم المصيبة مصابُكم برسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، عظَّم الله أجركم، ورحم ميِّتكم. قال ابن السماك: فما يخيل إليَّ أني سمعت كلمات أوجز منهن: إنه صدَّر كلامَه برسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، وعزَّانا، وترحَّم على ميِّتنا في كلمة واحدة.

وقال أبان: سمعتُ بعضَ الأعراب يتلهف على حميم له ثم تنفس الصعداء وقال: أيهات! عتب الناسُ على الدهر فلم يُعتِب مستعتِباً، ولم يَرْثَ لمتلهِّف عليه، ثم قال: كل امرئ منا يجري في السوابق من حتم الله عليه.

وتحدث الحرمازيُّ[2] رحمةُ الله عليه قال: كان مروان بن عبد الملك، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، من أحب ولد عبد الملك إليه، فتوفي في حياة عبد الملك، وكان أهل العلم بعبد الملك بن مروان يرون أنه لو بقي لثلَّث به في

---

[1] السابق.

[2] الْحسن بن عَليّ الحرمازي. نزل بِالْبَصْرَةِ فِي بني الحرماز فنسب إِلَيْهِم. قَالَ الْمبرد كَانَ الثَّوْريّ والحرمازي والجرمي يَأْخُذُونَ عَن أبي عُبَيْدَة وَأبي زيد الْأنْصَارِيّ والأصمعي.

العهد. فكتب إلى عبد الملك بعضُ عمومته من بني الحَكَم وهو غائب يعزيه عنه ويسأله كيف كان صبره؟ فكتب إليه عبد الملك:

كتبتَ تسأل عن صبري لتعلمَهُ على الرّزيّةِ بالمأمولِ مروانِ
فقد صبرتُ بعونِ اللهِ محتسِباً لموعدِ اللهِ من فوزٍ ورضوانِ
ولو حزنتُ ولم أصبرْ لفرقتِهِ ما كان في فقدِهِ منهاةُ أحزاني

وقال الحرمازيُّ: كان سبب موت مروان بن عبد الملك أنه وقع بينه وبين أخيه سليمانَ كلامٌ فعَجِل عليه سليمانُ فقال له: يابن ملخن أمه[1]، ففتح فاه ليجيبه وإلى جانبه عمرُ بنُ عبد العزيز فأمسكَ على فيه وردَّ كلمته وقال له: يا أبا عبد الملك، أخوك إمامُك وله السِّنُّ عليك. فقال: يا أبا حفص قتلْتَني. قال: وما صنعتُ بك؟ قال: رددْتَ في جوفي أحرَّ من الجَمْر. ومال لجنبِه فمات. وفيه يقول جريرٌ يخاطب أخاه لأمِّه، يزيَد بن عبد الملك:

أَبَا خَالِدٍ فَارَقْتَ مَرْوَانَ عَنْ رِضًا وَكَانَ يَزِينُ الْأَرْضَ أَنْ تُرَيَا مَعَا
فَسِيرُوا فَلَا مَرْوَانَ لِلْحَيِّ إِنْ شَتَوْا وَلِلرَّكْبِ إِذْ أَمْسَوْا مُكِلِّينَ جُوَّعَا

قال: وبلغني أن عبد الملك أمر غاسلَه إذا فرغ من جهازه أن يؤذنه، ففعل، فكشف عن وجهه ثم قال: الحمد لله الذي يقتل أولادنا ونحبُّه.

---

[1] كلمة للسب. واللَّخَنُ نتْنٌ يكون في أفخاذ الإنسان، وأكثر ما يكون في السُّودان.

قال أبو الحسن: لما حَضَرَتْ أيوبَ بنَ سليمان بنِ عبد الملك[1] الوفاةُ – وكان وليَّ عهدِ أبيه – دخل عليه أبوه وهو يجود بنفسه، ومعه عمرُ بنُ عبد العزيز وسعيدُ بنُ عقبة ورجاءُ بنُ حَيْوة[2] قال: فجعل ينظر في وجهه وهو يفوق بنفسه فخنَقَتْه العَبرة فردَّها ثم نظر إلينا فقال: إنه والله ما يملك العبدُ أن يسبق إلى قلبِه الوجدُ عند المصيبة والناسُ عند ذلك أخياف[3]، فمنهم من يغلب صبرُه جزعَه، فذلك الجَلدُ الحازم المحتسِب، ومنهم من يغلب جزعُه صبرَه، فذلك المغلوب الضعيفُ العُقدة[4]، وليست منكم حِشْمة، وإني أجد في قلبي لوعةً إنْ لم أبرِّدها بعَبْرة خشيتُ أن تنصدع كبدي كمداً وأسفاً. فقال له عمرُ بنُ عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، الصبرُ أولى بك فلا تُحبِطَن أجرَك. قال سعيدُ بنُ عقبة: فنظر إليَّ وإلى رجاء بن حيوة نظر مستغيثٍ يرجو أن

---

[1] كان قد أصابه الطاعون.

[2] سعيد بن عقبة الطبراني (نسبة إلى بلده طبرية): مولى بني الحارث بن كعب، كاتب يزيد بن عبد الملك.

ورجاء بن حيوة بن جندل بن الأحنف بن السمط بن امرئ القيس بن كندة، ولد في مدينة بيسان الغور، وعاش في فلسطين وسكنها، ودخل الكوفة والأندلس، وكان يصاحب الخلفاء لنصحهم، فلما مات عمر بن عبد العزيز أبى أن يصاحب أحدًا من الخلفاء.

[3] الأَخيَافُ من الناس: الضُّروب المختلفة الأخْلاق والأشْكال. والإخوة الأخياف: من آباء شتى وأم واحدة.

[4] أي لا يُحكم الأمور. والعُقْدَةُ من كلِّ شيءٍ: وجوبُهُ وإحكامُهُ وإبرامُهُ.

نساعدَه على ما أراد من البكاء. فأمَّا أنا فكرهتُ أن آمرَه أو أنهاه، وأما رجاء فقال: يا أمير المؤمنين، افعلْ، فإني لا أرى بأساً ما لم تأت الأمرَ الْمُفْرِط؛ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَدَ عَلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: «تَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ، وإنا بك لمحزونونَ يا إبراهيمُ»[1]. قال: وأرسلَ عينيه فبكى حتى ظننا أن نياطَ قلبِه قد انصدع، فقال عمر: يا رجاء، هذا ما صنعتَ بأمير المؤمنين! فقال: دعه يا أبا حفص يقضِ من بكائه وَطَراً، فإنه لو لم يُخرِج من صدره ما ترى لخفتُ أن يأتي عليه، ثم رقَأَتْ عَبْرتُه فدعا بماء فغسل وجهه فأقبل علينا وقد قَضَى الفتى، فأمر بجهازه وخرج يمشي أمام جِنازته، فلما دُفن وحُثي عليه التراب وقف قليلاً ينظر إلى قبره ثم قال:

وُقُوفٌ عَلَى قَبْرٍ مُقِيمٍ بِقَفْرَةٍ مَتَاعٌ قَلِيلٌ مِنْ حَبِيبٍ مُفَارِقِ

ثُمَّ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَيُّوبُ:

كنتَ لنا أُنْساً فأوْحَشتَنا فالعيشُ مِنْ بعدِكَ مُرُّ المذاقْ

ثم قال: أَذْنِ يا غلامُ دابَّتي مني. فركب ثم عطف برأس دابته إلى القبر ثم قال:

فإنْ صَبَرْتُ فلم أَلْفِظْكَ مِن شِبَعٍ وإنْ جَزِعْتُ فعِلْقٌ مُنْفِسٌ ذَهَبا

---

[1] رواه البخاري ومسلم وابن ماجه والطبراني.

فقال عمر: يا أمير المؤمنين، بل الصبرَ، فإنه أقرب إلى الله وسيلةً، وليس الجزع يُحيي من مات، وبالله العصمة والتوفيق[1].

صبر أبي بكر

وقال الحسن بن عمارة عن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد عن أبيه عن عائشةَ قالت: لما مات عبدُ الله بنُ أبي بكر[2] وَجَدَ عليه أبو بكر وَجْداً شديداً ثم دخل عليَّ فَقَالَ: «أَيْ بُنَيَّةُ، وَاللَّهِ لَكَأَنَّمَا أُخِذَ بِأُذُنِ شَاةٍ، فَأُخْرِجَتْ مِنْ دَارِنَا»[3]، فقلتُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَبَطَ عَلَى قَلْبِكَ، وَعَزَمَ لَكَ عَلَى رُشْدِكَ»، فَخَرَجَ ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ: «أَيْ بُنَيَّةُ، أَتَخَافُونَ أَنْ تَكُونُوا دَفَنْتُمْ عَبْدَ اللَّهِ وَهُوَ حَيٌّ؟» فَقلتْ: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ يَا أَبَتِ»، فَقَالَ: «أَسْتَعِيذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، أَيْ بُنَيَّةُ إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَلَهُ لِمَّةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ»[4]. فرثته عاتكةُ امرأتُه، وهي ابنةُ زيد بن عمرو بن نُفيل فقالت:

فآليتُ لا تنفكُّ عَيْني سَخينةً عليكَ وجِلْدي آخِرَ الدَّهْرِ أَغْبَرا

---

[1] انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، والاعتبار وأعقاب السرور والأحزان لابن أبي الدنيا.

[2] رُمِيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بِسَهْمٍ يَوْمَ الطَّائِفِ، فَانْتُقِضَتْ بِهِ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَمَاتَ.

[3] يعني أن الأمر وقع عليه سهلاً.

[4] انظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم.

وهذا يتصل بخبر ليس من هذا الباب.

ولما مات عبدُ الرحمن بنُ أبي بكر لم تحضره عائشةُ[1]، فأتت قبرَه فقالت: يا أخي، لو كنتُ شهِدتُ وفاتَك لم أزر قبرَك، ثم تمثلت[2]:

وَكُنَّا كَنَدْمَايَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكًا لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

وحدثنا ابنُ عائشة، وحدثنيه غيرُه - وحديثُه أتمُّ - أن عائشةَ حضرت أبا بكرٍ رحمةُ الله عليه وهو يقضي فقالت: هذا والله قولُه:

أَمَاوَيَّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

فَقَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ: يَا بُنَيَّةُ لَا تَقُولِي هَذَا وَلَكِنْ قُولِي (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ)[3] وَهَكَذَا كَانَ يَقْرَؤُهَا أَبُو بَكْرٍ رَحِمَه الله.

قال الهلالي: كان أبو بكرٍ الصديقُ - رحمة الله عليه - إذا قيل له: مات فلان قال: لا إله إلا الله. وكان عثمان - رحمه الله - إذا قيل له: مات فلان قال: لا إله إلا الله.

---

[1] لأنه دفن بمكة وأتت عائشة من المدينة فزارت قبره. انظر طبقات ابن سعد وتاريخه.

[2] ذكرهما سابقاً. والبيتان لمتمم بن نويرة اليربوعي يرثي أخاه مالك بن نويرة.

[3] أخرجه البيهقي، وإسحاق بن راهويه، وابن أبي شيبة، وأحمد.

وقال الهلالي: قيل لمعاويةَ: مات زيادٌ[1]، فقال: وارَجُلاه، ثم قال:

وَأُفْرِدْتُ سَهْمًا فِي الكَنَانَةِ وَاحِدًا سَيُرْمَى بِهِ أَوْ يَكْسِرُ السَّهْمَ كَاسِرُ

وقال: لما هلك ابنُ معاذ بن جبل، كتب إليه رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: من محمدٍ رسول الله إلى معاذ بن جبل، سلامٌ عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد. فإن أنفسنا وأهلينا وأموالنا ودائع الله جل ذكره وعواريه المستودعة يمتع بها من يشاء إلى أجل معدود، ويقبضها لوقت معلوم، فأمَرَنا بالشكر إذ أعطانا، وبالصبر إذ ابتلانا، فكان ابنك من مواهب الله الهنية، ومن عواريه المستودعة، يمتع بها من يشاء إلى أجل معدود، ويقبضها لوقت معلوم. وقد متعك الله به، في غبطة وسرور، وقبضه منك بأجر كبير، فالصلاة والرحمة والهدى يا معاذ إن صبرت واحتسبت، فلا يُذهبن جزعُك أجرَك فتندمَ على ما فاتك؛ فإنك لو قدمت على ثواب مصيبتك أرضيت ربك وتنجزت موعوده وعلمت أن المصيبة قد قصرت عنك. واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ولا يدفع حزناً، فأحسن العزاء، وتنجز الموعود، وليُذهب أسفك ما هو نازل بك فكأن قَدِ[2].

---

[1] زياد أخوه.

[2] رواه أبو نعيم في الحِلْية. والطبراني في معجمه والحاكم في المستدرك. وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، وقال الذهبي: هذا من وضع مجاشع بن عمرو.

ولما مات مَسْمَعٌ[1] جاء شبيبُ بنُ شيبة[2] حتى أخذ بالباب الذي فيه ولدُه وأهلُه وبنو عمه فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثم قال:

بَكُّوا حُذَيْفَةَ لَنْ تُرَثُّوا مِثْلَهُ حَتَّى تَبِيدَ قَبَائِلٌ لَمْ تُخْلَقِ[3]

قال الأصمعي: مر رجل على بعض مقابر العرب فإذا هو بشيخ قاعد على شفير قبر، وبين يديه فِتْية كأنهم الرماح يدفنون رجلاً، والشيخ يقول:

أُحْثُوا على الدَّيْسَمِ من بَرْدِ الثَّرى قِدْماً أبى ربُّكَ إلا ما تَرَى

قال: فسألت الشيخ: من الميت؟ فقال: ابني. فقلت: فمن هؤلاء؟ قال: بنوه[4].

---

[1] لم أجده.

[2] سبقت ترجمته.

[3] هذا البيت لقَيْس بْن زُهَيْرِ بْنِ جَذِيمَةَ يَرْثِي حُذَيْفَةَ بْن بَدْرٍ حين وَقَعَتْ الْحَرْبُ بَيْنَ عَبْسٍ وَفَزَارَةَ، فَقُتِلَ حُذَيْفَةُ، فَقَالَ:

كَمْ فَارِسٍ يُدْعَى وَلَيْسَ بِفَارِسٍ ... وَعَلَى الْهَبَاءَةِ فَارِسٌ ذُو مَصْدَقِ

بَكُّوا حُذَيْفَةَ لَنْ تُرَثُّوا مِثْلَهُ ... حَتَّى تَبِيدَ قَبَائِلٌ لَمْ تُخْلَقِ

[4] انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة.

صبر معاذ بن جبل

وقال أبو جعفر الدمشقي: حدثنا أبو بكر السلمي عن المعافَى بن عمران عن شهاب بن خراش عن عبد الرحمن بن عثمان قال: دخلْنا على معاذ بن جبل وهو قاعد عند رأس ابنٍ له يجود بنفسه، فما ملكْنا أنفسَنا أن ذرفتْ أعيننا وانتحب بعضُنا فزجره معاذٌ وقال: مه، فوالله لعلمُ الله برضاي بهذا أحبُّ إليَّ من كل غزوة غزوتُها مع رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، فإني سمعتُه يقول: "من كان له ابنٌ وكان عليه عزيزاً وبه ضنيناً، فصبر على مصيبته واحتسبه أبدل اللهُ الميتَ داراً خيراً من داره، وقراراً خيراً من قراره، وأبدل المصابَ الصلاةَ والرحمةَ والمغفرةَ والرضوانَ"[1]. فما برحْنا حتى قضى الغلام حين أخذ المنادي في النداء لصلاة الظهر، فرحْنا نريد الصلاة فما جئنا إلا وقد غسله وحنَّطه وكفَّنه ودخل بسريره غير منتظر لشهادة الإخوان ولا لجمع الجيران. قال: فلما بلغنا ذلك تلاحقناه فقلنا: يغفر الله لك يا أبا عبد الرحمن، هلَّا انتظرتنا حتى نفرغ من صلاتنا ونشهد ابنَ أخينا. فقال: أُمِرْنا ألا ننتظر بموتانا ساعةً، ماتوا من ليل أو نهار. والإذنُ فيهم مِنْ نَعْي الجاهلية. قال: فنزل في القبر ونزل معه آخر فقلت: الثالثَ يا أبا عبد الرحمن، فقال: إنما يقول الثالث الذين لا يعلمون. فلما سوَّى عليه التراب أراد الخروج فناولْتُه يدي لأنتشطَه

---

[1] لم أجد هذا الحديث إلا من طريق ابن عساكر.

من القبر فأبى وقال: ما أدعُ ذلك لفضل قوة، ولكن أكره أن يرى الجاهلُ أن ذلك مني جزع أو استرخاء عند المصيبة. ثم أتى مجلسه فدعا بدهن فادَّهن وبكحل فاكتحل وببردة فلبسها، وأكثر في يومه ذلك من التبسُّم، ينوي به ما ينوي، ثم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، في الله خَلَف من كل هالك، وعزاء من كل مصيبة، ودرك لكل ما فات. وقال: سمعت أبا القاسم صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ يقول: "من أصيب بمصيبة فدعا عليها ويلاً غضب الله عليه، ومن لطم عليها وجهاً احتجب الله عنه، ومن خرق عليها ثوباً خرق دينه ومزقه وبدده"[1]. قال: فلما كان طاعون عمواس طُعن معاذ في يده، فدخلنا عليه فرأيناه مغمىً عليه، باسطاً يده كأنه يصافح قوماً ويرحِّب بهم. فلما أفاق قلنا له: يا أبا عبد الرحمن، دخلنا عليك وكأنك تصافح قوماً وترحب بهم. فقال: أجل، شكرني ربي بصبري على ابني فأرسل إليَّ ملائكة من الكروبيين يشيعوني إلى قبري[2].

باب مَراثٍ من أشعار المحْدَثين

قال أبو العبَّاس: وقصَدْنا في وقتِنا هذا لذكْر مَراثٍ من أشعار المحدَثين لنُنزِل بها من خشونة أشعار القدماء إلى لُطف المولَّدين، لمشاكَلة الدهر وملاحة

---

[1] لم أجد هذا الحديث إلا من طريق ابن عساكر.

[2] رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق. والله أعلم بصحته.

القول لنمضي من ذلك شيئاً ثم نعود إلى أمرِنا الأول إن شاء الله تعالى من أشعار قديمة ومواعظَ حكيمة. وبالله الحول والقوة.

مرثية مُسْلِم بن الوليد

قال مُسْلِم بن الوليد[1] يرثي الفضْل بنَ سهْل[2] ذا الرئاستين[3]:

وَهِلْتُ فَلَمْ أُمْتَعْ عَلَيْكَ بِعَبْرَةٍ ... وَأَكْبَرْتُ أَنْ أَلْقَى بِيَومِكَ نَاعِيَا

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهُ لاَعِجُ الأسَى ... وَأَنْ لَيْسَ إلاَّ الدَّمْعُ لِلحُزْنِ شَافِيا

بَعَثْتُ لَكَ الأَنْوَاحَ فَارْتَجَّ بَيْنَهَا ... نَوائحُ يَنْدُبْنَ العُلَى والْمَساعِيا

---

[1] صريع الغواني أبو الوليد مسلم بن الوليد الأنصاري: أحد الشعراء الفلقين، قال الشعر في صباه ولم يتجاوز به الأمراء والرؤساء مكتفيا بما يناله من قليل العطاء، ثم انقطع إلى يزيد بن مزيد الشيباني قائد هارون الرشيد الذي اتصل به فيما بعد ومدحه ومدح البرامكة وحسن رأيهم فيه. ولما أصبح الحل والعقد بيد ذي الرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون في أول خلافته، قربه وأدناه وولاه أعمالا بجرجان، ثم الضياع بأصبهان. واكتسب من عمله الجديد مئات الألوف وأنفقها في لذاته وشهواته، ولما قتل الفضل لزم منزله ونسك ولم يمدح أحدا حتى مات بجرجان سنة ٢٠٨ هـ.

[2] الفضل بن سهل السرخسي (١٥٤ – ٢٠٢ هـ): الملقب بذي الرياستين، سليل ملوك المجوس، أخو الحسن بن سهل. أسلم الفضل بن سهل على يدي المأمون ونال بره وإحسانه وصار وزيره. وفوَّض له أموره كلها وسماه ذا الرياستين لتدبير أمر السيف والقلم. ولما ثقل أمر الفضل بن سهل على المأمون ورأى فيه تهديداً لسلطانه قتله.

[3] انظر حماسة أبي تمام.

أَلِلْبَأْسِ أَمْ لِلْجُودِ أَمْ لِمَقَاوِمٍ مِنَ الْمُلْكِ يَزْحَمْنَ الجِبَالَ الرَّوَاسِيَا
فَلَمْ أَرَ إِلاَّ قَبْلَ يَوْمِكَ ضَاحِكًا وَلَمْ أَرَ إِلاَّ بَعْدَ يَوْمِكَ بَاكِيَا

مرثية إبراهيم بن المهدي

وقال إبراهيم بن المهدي[1] يرثي ابناً له أصيب به بالبصرة وهو واليها. وكان فيما يؤثر عنه يستحق أن يُرثى وأن يوصَف، وشعرُه هذا يستحق أن يُبكي القلوبَ، ويستنزل الدموعَ لحُسْن لفظه، وصحة معناه، وشرف قائله، وأنه إذا سُمع عُلم أنه عن نية صادقة. قال[2]:

نَأَى آخِرَ الْأَيَّامِ عَنْكَ حَبِيبُ فَلِلْعَينِ سَحٌّ دائِمٌ وَغروبُ[3]
دَعَتْهُ نَوَىً لا يُرتَجَى أَوْبةٌ لها فقلبُكَ مسلوبٌ وأنتَ كئيبُ
يَؤُوبُ إِلَى أَوْطانِهِ كُلُّ غائبٍ وَأَحْمَدُ فِي الْغُيَّابِ لَيْسَ يَؤُوبُ[4]

---

[1] أبو إسحاق إبراهيم بن المهدي بن أبي جعفر المنصور: أخو الخليفة هارون الرشيد الصغير من غير أمه، ولد في بغداد سنة ١٦٣ هـ. توفي أبوه وعمره ست سنوات فتعهدته أمه وثقفته ثقافة موسيقية لأنها هي كانت موسيقية. كان أخوه الخليفة هارون الرشيد يشجعه على الموسيقى والغناء ثم بعد أن توفي الخليفة هارون الرشيد استدعاه ابن أخيه الأمين وقرّبه إليه، إلا أنه انهزم في عهد ابن أخيه المأمون فقبض عليه ثم عفا عنه.

[2] انظر: الكامل للمبرد، وأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم للصولي.

[3] من غَرِبَتِ الْعَيْنُ: سَالَ دَمْعُهَا، وَورِمَتْ مَآقِيهَا.

[4] قال الصولي: يرثي ابنه أحمد وهو أكبر ولده.

تَبَدَّلَ داراً غَيْرَ دارِي وَجِيرةً سِوايَ وَأَحْداثُ الزَّمانِ تَنوبُ
أَقامَ بِها مُسْتَوْطِناً غَيْرَ أَنَّهُ علَى طُولِ أَيَّامِ الْمَقامِ غَرِيبُ
تَوَلَّى وأَبْقَى بَيْنَنا طِيبُ ذِكْرِهِ كباقي ضِياءِ الشَّمْسِ حين تَغِيبُ
خَلا أنَّ ذا يَفْنى ويَبْلى وذِكرُهُ بقلبي على طُولِ الزَّمانِ قَشِيبُ
كأنْ لم يكُنْ كالدُّرِّ يَلْمعُ نورُهُ بأصدافِهِ لَمَّا تَشِنْهُ ثُقوبُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كالْغُصْنِ فِي مَيْعَةِ الضُّحَى سَقَاهُ النَّدى فَاهْتَزَّ وَهْوَ رَطيبُ
كأنْ لم يكن زَيْنَ الفناءِ ومعقلَ النّسـ ـاءِ إذا يومٌ يكون عَصِيبُ
وَرَيْحانَ قَلْبِي كانَ حِينَ أَشَمُّهُ وَمُؤْنِسَ قَصْرِي كانَ حِينَ أَغِيبُ
قليلاً من الأيّامِ لم يُرْوِ ناظري بها منه حتّى أعلقتْهُ شعوبُ
كظلِّ سحابٍ لم يُقِمْ غيرَ ساعةٍ إلى أن أطاحتْهُ فطاح جنوبُ
أو الشّمسُ لَمَّا عن غمامٍ تحسَّرتْ مساءً وقد ولَّتْ وحان غروبُ
كأنِّي به إذ كنتُ في النَّوْمِ حالِمٌ نَفَى لَذَّةَ ٱلأَحلامِ عَنْهُ هُبُوبُ
فلستُ خطوبَ الدّهرِ أحفِلُ بعدَهُ ولو كان ما منه الوليدُ يشيبُ
ولا ليَ شيءٌ عنه ما عشتُ لذّةٌ ولو نلتُ ما هبَّتْ عليه هبوبُ
وَكانَ نَصِيبَ الْعَيْنِ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ فَأَضْحى وَما لِلعَيْنِ فِيهِ نَصِيبُ
وكان وقد آزى الرجالَ بعقلِهِ فإن قال قولاً قال وهو مصيبُ
بما تتهاداهُ الرّكابُ لحسنِهِ ويفحمُ منه الكهلُ وهو أريبُ

وكانت يَدِي مَلأى به ثمَّ أصبحَتْ بعدلِ إلهي وهْي منه سليبُ
وكنتُ به في النّائباتِ إذا عَرَتْ وظهريَ ممتدُّ القناةِ صليبُ
بحالِ الّذي يجتاحُهُ السّيلُ بغتةً فيفتقدُ الأدنينَ وهو حريبُ
جَمَعْتُ أَطِبَّاءَ الْعِراقِ فَلَمْ يُصِبْ دَواءَكَ مِنْهُمْ فِي الْبِلادِ طَبِيبُ
وَلَمْ يَمْلِكِ الآسُونَ نَفْعاً لِمُهْجَةٍ عَلَيْها لأَشْراكِ الْمُنونِ رقِيبُ
سأبكيكَ ما أبقتْ دموعيَ والبكا بعينيَّ ماءً يا بُنَيَّ يجيبُ
وما لاح نجمٌ أو تغنَّتْ حمامةٌ أو اخضَرَّ في فرع الأراكِ قضيبُ
وأُضْمِرُ إنْ أنفدتُ دمعيَ لوعةً عليكَ لها تحت الضُّلوعِ وجيبُ
حياتي ما كانت حياتي فإن أمتْ ثويتُ وفي قلبي عليكَ ندوبُ
يعزُّ عليَّ أنْ تنالَكَ ذرّةٌ يَمَسُّكَ منها في الممرِّ دبيبُ
وما زال إشفاقي عليكَ عشيّةً حواكَ بها بعد النّعيمِ قليبُ
وما زال إشفاقي عليكَ عشيةً وسادك فيها جندلٌ وجبوبُ
فما لي إلاّ الموتُ بعدَكَ راحةٌ وليس لنا في العيش بعدَكَ طيبُ
قصمتَ جَناحي بعدما هَدَّ منكبي أخوكَ، ورأسي قد علاه مشيبُ
فأصبحتُ في الهُلّاك إلاّ حشاشةً تُذاب بنارِ الشّوقِ فهي تذوبُ
تولَّيْتُما في حَجّةٍ فتركتُما صدىً يتولّى تارةً ويثوبُ
ولا رُزْءَ إلاّ دون رُزْئِكَ رُزْؤُهُ ولو فُتِّتَتْ حُزناً عليكَ قلوبُ

وَإِنِّي وَإِنْ قُدِّمْتَ قَبْلِي لعَالِمٌ بأَنِّي وَإِنْ أُخِّرْتُ مِنْكَ قَرِيبُ
وَإِنَّ صَبَاحاً نَلْتَقِي فِي مَسائِهِ صَبَاحٌ إِلَى قَلْبِي الْغَداةَ حَبِيبُ

مراثي أبي العتاهية

وقال إسماعيل بن القاسم، أبو العتاهية[1] يرثي أخاً له، يقال له عليُّ بنُ ثابت وكان عليٌّ ناسِكاً فاضِلاً أديباً شاعراً:

أَلا مَنْ لي بِأُنسِكَ يا أُخَيَّا وَمَن لي أَنْ أَبُثَّكَ ما لَدَيَّا
طَوَتْكَ خُطوبُ دَهْرِكَ بَعْدَ نَشْرٍ كَذاكَ خُطُوبُهُ نَشْراً وَطَيَّا
وَلَو نَشَرَتْ قُواكَ لِيَ الْمَنايا شَكَوْتُ إِلَيْكَ ما صَنَعَتْ إِلَيَّا
بَكَيْتُكَ أَيْ أُخَيَّ بِدُرِّ عَيْني فَلَم يُغْنِ البُكاءُ عَلَيكَ شَيَّا
وكانتْ في حياتِكَ لي عِظاتٌ وأنتَ اليومَ أوعظُ منكَ حَيَّا

[1] إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني الشهير بأبي العتاهية.(١٣٠ –٢١١ هـ) شاعر مكثر، سريع الخاطر، في شعره إبداع. كان ينظم المئة والمئة والخمسين بيتاً في اليوم، حتى لم يكن للإحاطة بجميع شعره من سبيل. وهو يعد من مقدمي المولدين، من طبقة بشار وأبي نواس وأمثالهما. جمع الإمام يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي ما وجد من (زهدياته) وشعره في الحكمة والعظة. وماجرى مجرى الأمثال.

قال: أخذ هذا المعنى مما يؤثر عن بعض ملوك العَجَم أنه احتُضِر فحضره من يحضر الملوكَ من الحكماء حتى قَضَى. فقال ذلك الحكيمُ: كان الملك أمس أنطقَ منه اليوم، وهو اليومَ أوعظُ منه أمس.

وقال أبو العتاهية أيضاً:

يا عَلِيَّ بنَ ثابِتٍ أَينَ أَنْتا أَنتَ بينَ القُبورِ حَيثُ دُفِنْتا
يا عَلِيَّ بنَ ثابِتٍ بانَ مِنِّي صاحِبٌ جَلَّ فَقدُهُ يَومَ بِنْتا
قَدْ لَعَمْري حَكيْتَ لي غُصَصَ الْمَو تِ وَحَرَّكْتَني لَها وَسَكَنْتا

أخذ هذا المعنى من قول بعضِ الحكماء وحضر ميْتاً، فارتفع البكاءُ عليه حين قَضَى، فقال الحكيمُ: حَرَّكنا بسكونه.

وقال فيه أيضاً:

صاحبٌ كان لي هَلَكْ والسَّبيل الّذي سَلَكْ
يا عليَّ بنَ ثابتٍ غَفَرَ اللهُ لي ولكْ
كلُّ حَيٍّ مملَّكٍ سوف يَفْنى وما مَلَكْ

مرثية رجلٍ من قيس

قال أبو العبَّاس: وأنشدني أبو محمد التَّوَّزي لرجلٍ من قيس يرثي ابنه[1]:

[1] الأبيات منسوبة أيضاً لبشار بن برد.

أَجارَتَنا لا تَجْزَعي وَأَنِيبِي ... أَتاني مِنَ الْمَوتِ الْمُطِلِّ نَصِيبِي
بُنَيِّي عَلى قَلبي وَعَيْني كَأَنَّهُ ... ثَوَى بينَ أحجارٍ وبَطْنِ جبوبِ
عَجِبْتُ لِإِسْراعِ الْمَنِيَّةِ نَحوَهُ ... وَما كانَ لَو مُلِّيتُهُ بِعَجِيبِ
وما هَدَّ رُكْني أن سُلِبتُ جمالَهُ ... على أنَّني أَرْثي لكلِّ سَليبِ
صَبَرْتُ عَلى خَيْرِ الفُتُوِّ رُزِئتُهُ ... وَلَولا اِتِّقاءُ اللَهِ طالَ نَحيبي
وَما جَزَعي مِن زائِلٍ عَمَّ فَجعُهُ ... وَمِنْ وِرْدِ آباري وَقَصدِ شَعيبي
لَعَمْري لَقَد دافَعْتُ مَوتَ مُحَمَّدٍ ... لَو اَنَّ الْمَنايا تَرعَوي لِطَبيبِ
وكان كريحانِ العروسِ بقاؤهُ ... ذَوَى بعد إشراقِ الغصونِ وطيبِ
فيا حزناً نغَّصْتِ قربَ محمّدٍ ... وأيَّ فتىً نغّصتِ يومَ ركوبي
أغرُّ طويلُ السّاعدينِ مشيّعٌ ... كسيفُ المحامي هزّ غير كذوبِ
دعتْه المنايا فاستجاب لصوتِها ... فلله من داعٍ دعا ومجيبِ
فأصبحتُ أبدي للعدوِّ جلادةً ... ويا لكَ من قلبٍ هناك كئيبِ
يذكِّرني نوحُ الحمامِ فراقَهُ ... وإرنانُ[1] أبكارِ النّساءِ وثيبِ
ولي كلَّ يومٍ عَبْرَةٌ لا أفيضُها ... لأحظى بصبرٍ أو بحطِّ ذُنوبِ
أظلُّ لأحداثِ المنونِ مفزَّعاً ... كأنَّ فؤادي في جناحِ طلوبِ
إذا شئتُ راعتْني مقيماً وظاعناً ... مصارعُ شُبّانٍ لديَّ وشيبِ

[1] الإرْنان: صوت الشَّهيق مع البكاء.

غدا سلفٌ منّا وهجَّر رائحٌ على أثر الغادينَ قود جنيبِ
وما نحن إلاّ كالخليطِ الّذي مضى فرائس دهرٍ مخطئٍ ومصيبِ
نؤمِّلُ عيشاً في حياةٍ ذميمةٍ أضرَّتْ بأبدانٍ لنا وقلوبِ
وما خيرُ عيشٍ لا يزالُ مفزَّعاً بفوتِ نعيمٍ أو بموتِ حبيبِ

مرثية عبد الله بن عمر العبلي

حدثنا المغيرةُ بن محمد المهلبي عن الزبير بن بكار الزبيري عن سليمان بن العباس السعدي قال: جاء عبدُ الله بنُ عمر العبلي[1] إلى سويقةَ[2] – وهو طريدُ بني العباس – وكان ذلك بزمان خروج مُلْك بني أمية وانتقاله إلى بني العباس، قاصداً لعبدِ الله وحسن، ابنيْ حسن، فاستنشده عبدُ الله من شعره

---

[1] عبد الله بن عمر العبلي: حجازي شاعر مشهور، وفد على هشام بن عبد الملك. قال الزبير بن بكار: لحق العبلي الدولة العباسية، ولما ظهر محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن اتبعه العبلي، وطلبه المنصور بعد ذلك فقال:

وتقربت باتباعي عليًّا ... فإذا ذاك كان داءً دويًّا

وهو الذي يقول حين قتل مروان بن محمد، وظهرت بنو هاشم:

هيهات مروان وأشياعه ... هيهات أهل الجور والباطلِ

مريت يا مروان أطنابها ... حتى استمرت بدم حائلِ

[2] سويقة: موضع قرب المدينة كان يسكنه آل علي بن طالب رضي اللّه عنه.

فأنشدهم فقالوا: نريد من شعرِك ما رثيتَ به قومَك، وما كان من أمرِكم وأمرِ القوم، فأنشدهم قولَه[1]:

تَقولُ أُمامَةُ لَمَّا رَأَتْ ... نُشُوزِي عن الْمَنْزِلِ الْمُنْفِسِ
وقِلَّةَ نَوْمِي عَلَى مَضْجَعِي ... لَدَى هَجْعَةِ الأعْيُنِ النُّعَّسِ:
أبِي، مَا عَراكَ؟ فقلتُ: الهُمُو ... مُ عَرَيْنَ أبَاكِ فلا تُبْلِسِي
عَرَيْنَ أباكِ فحبَّسْنَهُ ... مِنَ الطَّرْدِ في شَرِّ ما مَحْبِسِ
لِفَقْدِ العَشيرةِ إذْ نالهَا ... سِهَامٌ من الحَدَثِ الْمُؤْيِسِ
رَمَتْهَا الْمَنُونُ بلاَ نُصَّلٍ ... ولا طائِشاتٍ ولا نُكَّسِ
بأسْهُمِها الخالِسَاتِ النُّفُوسَ ... مَتَى ما تُصِبْ مُهْجَةً تَخْلِسِ
فصَرْعاهُمُ في نواحِي البلا ... دِ تُلْقَى بأرْضٍ ولمْ تُرْسَسِ
تَقِيٌّ أصِيبَ وأثْوابُهُ ... مِنَ العَارِ والعَيْبِ لم تَدْنَسِ
وآخَرُ قد رُسَّ في حُفْرَةٍ ... وآخَرُ طَار فلَمْ يُحْسَسِ
فكمْ من كوابٍ بواكي العيو ... نِ حُزْناً ومِنْ صِبيةٍ بُؤَّسِ
إذا ما ذَكَرْتُهُمُ لم تَنَمْ ... صِباحُ الوجُوهِ ولَم تَجْلِسِ
يُرَجِّعْنَ مِثْلَ بُكاءِ الحَمَا ... مِ في مَأتَمٍ قُلُلَ الْمَجلِسِ

[1] انظر: جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار، وأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم للصولي، والحماسة البصرية لصدر الدين البصري.

فذاكَ الّذي غالَني فاصْمُتي ولا تَسَلِيني وتَسْتَنْحِسي
وفي ذاكَ أشْياءُ قد ضِفْنَني ولَسْتُ لَهُنَّ بمُسْتَحْلِسِ
أفاضَ المدامِعَ قَتْلَى كُدًى وقَتْلَى بكُوثةَ لم تُرْمَسِ[1]
وبالزَّابِيَيْنِ نُفُوسٌ ثَوَتْ وقَتْلَى بنَهْر أبي فُطْرُسِ
أولئك قومِي أذَاعَتْ بهِمْ حَوادثُ من زَمَنٍ مُتْعِسِ
فذلَّتْ قناتي لمن رامَها وأنْزَلَتِ الرَّغْمَ بالْمَعْطِسِ

قال: فلما أتى عليها استبكى محمدُ بنُ عبد الله بن حسن، فنظر عبدُ الله إلى أخيه حسن فقال: ما لكَ تنظرُ إليَّ! أما والله لو كان ابنُك على غير ما ترى لكان خيراً لنا ولك. فأقبل محمدٌ على عمِّه بإظهار الشفقة على بني العباس ويقول إنهم ليسوا كبني أمية لقرب بني العباس من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقام الحسنُ إلى منزله فبعث إلى العبلي بخمسين ديناراً، وأمر له عبدُ الله، ومحمدُ وإبراهيمُ ابناه، كلُّ واحد بخمسين ديناراً. وكانت هندُ بنتُ

[1] قال مصعب الزبيري: قتلى كدى: يعني آل أسيد بن أبي العيص، مسكنهم مكة، فهربت منهم طائفة، فنزلوا الطائف، فقتل داود بن علي منهم خلقاً حتى قتل أربعين صبياً، ما فيهم أحد لبس سراويل، وكدى: عقبة الطائف التي يهبط عليها، وقوله: وقتلى بكوثة، ويروى بكثوة، والأجود الأول، يعني من قتله داود بن علي من بني أسيد بن أبي العيص، ومكة تسمى كوثة.

أبي عبيدة بن عبد الله بن زمعة مقتفيةً[1] بالعبلي. وهند المذكورة هي امرأة عبد الله بن حسن، ومحمد وإبراهيم ولداها. فقال العبليُّ:

أقامَ ثَوِيُّ[2] بِنْتِ أبي عُبَيْدٍ بخيرِ مَنَازِلِ الجِيرَانِ جَارَا
أتاهُمْ خَائفاً وَجِلاً طريداً فَصَادفَ خيرَ دُور الناسِ دَارَا
إذا ذَمَّ الجِوَارَ نَزِيلُ قَوْمٍ شَكَرْتُهُمُ ولم أذْمُمْ جِوارَا

فقالت هندُ لعبد الله وابنيها محمد وإبراهيم: والله ما مدَحكم بأفضل مما مدحني به فلتعطُنَّه عني مثلَ ما أعطاه أحدُكم. فأعطَوه عنها خمسين ديناراً.

فقال الزُّبير: إنما يُنسب عبلياً من كان من ولد أمية الأصغر، وليس عبد الله هذا من ولده، إنما أمية عمُّه[3].

يقال: فلان يقتفي بفلان إذا كان يؤثره، والقَفِيَّة[4]: الطعام يؤثِر به الرجلُ واحداً يقدِّمه. ويقال للرجل يختار ويُقصد بالبر: ألقيتُ قَفِيَّتي عليك.

---

[1] يعني تؤثره وتخص نفسها به.

[2] الثويّ: الضيف. ويقصد العبلي نفسَه.

[3] انظر: جمهرة نسب قريش وشعرها للزبير بن بكار.

[4] والقَفِيَّةُ أيضاً: الشَّاةُ ذُبِحَتْ من قفاها.

مرثية أحد الأعرابِ الفصحاءِ

وقال أحدُ الأعرابِ الفصحاءِ[1]:

لعَمْري لقد نادَى بأرْفعِ صوتِهِ نَعِيُّ حُيَيٍّ أنَّ سيِّدَكمْ هَوَى[2]
أجلْ صادقاً والقائلَ الفاعلَ الَّذي إذا قال قولاً أنبَطَ الماءَ في الثَّرى[3]
فَتَى قَبَلٌ لم تُعْنِسِ السِّنُّ وجهَهُ سوى شَهَبٍ في الرَّأْسِ كالفَجْرِ في الدُّجى[4]
أشارتْ له الحربُ العوانُ فجاءها يُقَعْقِعُ بالأقرابِ أوَّل مَنْ أَتى[5]
ولم يَجْنِها لكنْ جَناها وليُّهُ فآسَى وآداهُ فكان كمَنْ جَنَى[6]

---

[1] في شروح الحماسة أنه سُويد المراثد الحَارِثِي (لم يعثر له على ترجمة) وسويد تصغير أسود. والمراثد جمع مرثد وهو في الأصل مصدر رثدت المتاع بعضه على بعض أي نضدته.

[2] هوى: مات.

[3] أنبط الماء في الثرى: استخرجه كناية عن إنجاز ذلك الوعد. والمعنى: أجل نعيتَ صَادِقاً فِي عزمه إِذا قَالَ فعل وَإِذا وعد أنْجز وَأعْطى وَإِذا صرف نَفسه إِلَى أَمر لَا ينْصَرف عَنهُ حَتَّى يبلغ غَايَته.

[4] لم تُعنِس السن وجهه: لم تغيره وتحوِّله إلى الكبر. وَالْمعْنَى أَنه كَانَ فَتى فِي مقتبل عمره وريعان شبابه لم يُغير وَجهه كبر السن سوى شَيْء من بَيَاض الشيب فِي رَأسه يشبه لمعان الْبَرْق فِي الظلام.

[5] الأقراب: جمع قُرْب، والقُرْبُ: خاصِرَةُ الخيل. يريد أنه تقلد سيفه وتنكب قوسه وكنانته، وسبق الناس إلى الحرب، وموقع هذه الآلات كلها علي الخاصرة اليسرى. والمعنى: ظهرت له الحرب فبادر إليها كامل السلاح متقدماً أصحابه.

[6] آداه: أعانه. والمعنى: ولم تكن الحرب من جنايته ولكن من جناية من يقرب منه فساعده وأعانه فكان كالجاني.

وقال أيضاً يرثيه[1]:

ألا لَهْفَ الأرامِلِ واليتامَى ولَهْفَ الباكياتِ على حُيَيِّ
لعمرُكَ ما خشِيتُ على حُيَيٍّ متالفَ بين حِجْرٍ والسُّلَيِّ
ولكنِّي خشِيتُ على حُيَيٍّ جَريرةَ رُمحِهِ في كلِّ حَيِّ

مرثية امرأة من كِندة

وقالت امرأةٌ من كِندة[2] ترثي إخوتها:

أَبَوْا أَنْ يَفِرُّوا وَالْقَنَا فِي نحورِهِمْ فماتوا وأطرافُ القَنا تقطرُ الدِّما
وَلَوْ أَنَّهُمْ فَرُّوا لَكَانُوا أَعِزَّةً وَلكِنْ رَأَوْا صَبْرًا عَلَى الْمَوْتِ أَكْرَمَا
هوتْ أُمُّهُمْ ماذا بِهِمْ يومَ صُرِّعوا بجيشانَ من أسبابِ مجدٍ تصرَّما[3]

---

[1] في شروح الحماسة أن هذه الأبيات لكعب بن زهير. وفيها أبيّ بدل حيي.

[2] في حماسة البحتري: امْرَأَة مِنْ عَبْدِ الْقَيْس. وسماها الصحاري في الإبانة: أراكة الباهلية. وسماها الفارسي في شرح الحماسة: أُمُ الصَّرِيْحِ الكِنْدِيَّة.

[3] هوت أمهم كقولك: ثكلته أمه، يوم صرعوا أي قتلوا، بجيشان وهو موضع، ولم يفروا، ولو أنهم فروا لعذروا وكانوا أعزة لم يلمهم صديق ولم يصبهم عدو لوضوح أمرهم، وأنهم قد عرفوا بالشجاعة قبل. المعنى: تصفهم بالمجد، وتذكر تصرم أسباب المجد بقتلهم، وأنهم ثبتوا في الحرب مع إمكانهم الفرار فأنفوا منه واختاروا الموت عليه.

مرثية رجل من الخوارج

وقال رجلٌ من الخوارج[1] يرثي عدداً منهم:

ألا في اللهِ لا في النّاسِ سالتْ بداوودٍ وإخوتِهِ الجذوعُ[2]
مَضَوا قَتْلاً وتَشْريداً وصَلْباً تحومُ عليهمُ طيرٌ وقوعُ
إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَابَدُوهُ فَيُسْفِرُ عَنْهُمُ وَهُمُ رُكُوعُ
أَطَارَ الْخَوْفُ نَوْمَهُمْ فَقَامُوا وَأَهْلُ الأَمْنِ فِي الدُّنْيَا هُجُوعُ

وقالت الكِنْدية[3]:

لا تُخبِروا النّاسَ إلاّ أنَّ سيّدَكمْ أسلمتموهُ ولو قاتلتُمُ امتَنَعا

---

[1] نسبها القرشي في حماسته لعيسى بن فاتكٍ الخطي الخارجي، ونسبها البلاذري في أنساب الأشراف لسعيد المرادي، كما نسب البيتين الأخيرين منها ابن أبي الدنيا في "التهجد وقيام الليل" لعبدالله بن المبارك.

[2] داود بن النعمان العبدي: كان أحد بني أنمار بْنِ وَدِيعَةَ، عابداً مجتهداً، وكان يقول لأصحابه: إني مللت الدنيا والمقام في دار الكفر مع الظلمة الكفرة، وقد انقطع العذر. فقال له أصحابه: فما يمنعك من الخروج؟ قال: مكان أبي بهذه البلاد. ثم حج ورجع فقال لأصحابه: اخرجوا بنا إلى البصرة فإن لنا بها إخواناً، فأجابه أربعون رجلًا. خرج إليه عبد الله بن كرمان الجهضمي فقتل أصحابه ثم قتله.

[3] وسماها الفارسي في حماسته: كبشة بنت جفنة.

أنعَى فتىً لم تَهُبَّ الرّيحُ رائحةً يوماً من الدَّهرِ إلاّ ضَرَّ أو نَفَعا[1]
الواهبُ الألفِ لا يبغي لها ثمناً إلاّ من اللهِ والحمدَ الّذي صَنَعا

مراثي أبي عبد الرحمن العُتْبي

وقال أبو عبد الرحمن العُتْبي[2]:

قَد كُنتُ أَبكي عَلى مَن فاتَ مِن سَلَفي وَأَهلُ وُدِّي جَميعٌ غَيرُ أَشتاتِ
فَاليَومَ إِذ فَرَّقَتْ بَيني وَبَينَهُم نَوىً بَكَيْتُ عَلى أَهلِ المَوَدَّاتِ
وما بقاءُ امرئٍ أضحتْ مدامِعُهُ مَقسومَةً بَينَ أَحياءٍ وَأَمواتِ

وكان أبو عبد الرحمن وسيطاً في قريش، من ولد عُتْبة بن أبي سفيان. وكان معدِناً من معادن العلم بالأخبار جاهليتِها وإسلاميتِها وكان بالإسلاميِّ أخبر. وتوالى له بنون موتاً. ورثاهم مراثيَ كثيرة نذكر بعضَها مع ما في غيرهم من المراثي إن شاء الله.

---

[1] قولها: "لا تخبروا الناس إلا" تهكم وسخرية، يشوبهما تعيير شديد. أي قد ارتكبتم أمراً عظيماً بتسليمكم سيدكم، فاستروا أمركم ولا تنبئوا الناس به. وهذا مخاطبة لقوم خذلوا رئيسهم ولم يثبتوا معه.

[2] محمد بن عُبيدالله بن عمرو، أبو عبد الرحمن الأموي. من بني عتبة بن أبي سفيان: أديب، كثير الأخبار، حسن الشعر، من أهل البصرة، ووفاته فيها. له تصانيف، منها (أشعار النساء اللاتي أحببن ثم أبغضن)، و(الأخلاق)، و(أشعار الأعاريب)، و(الخيل). قال ابن النديم: كان العتبي وأبوه سيدين أديبين فصيحين. وقال ابن قتيبة: الأغلب عليه الأخبار، وأكثر أخباره عن بني أمية.

فمن ذلك قولُه[1]:

أضحَتْ بِخدِّي للدُموعِ رُسُومُ ... أسفاً عليكَ وفي الفؤادِ كُلومُ
والصّبرُ يُحمَد في المصائبِ كلِّها ... إلاّ عليكَ فإنَّهُ مذمومُ
يا واحداً مِنْ ستَّةٍ أسكنتُهُمْ ... حُفَراً تُقَسَّم بينهمْ ورجومُ
لولا مَعالِمُ رُوسِهِنَّ لما اهتَدَى ... لحميمِهِ بين القبورِ حميمُ

وقال أيضاً[2]:

كَلَّ لِسَانِي عَنْ وَصْفِ مَا أَجِدُ ... وذُقْتُ ثُكلًا مَا ذَاقَهُ أَحَدُ
وأوطنتْ حرقةً حشايَ فقدْ ... ذاب عليها الفؤادُ والكبدُ
إنْ أزمعتْ بالعزاءِ لجَّ بها الشَّـ ... ـوقُ فنيرانُ حرِّها تَقِدُ
ما عالجَ الحزنَ والحرارةَ في الـ ... أحشاءِ مَنْ لم يمتْ له ولدُ
فُجِعتُ بابنينِ ليس بينهما ... إلاّ ليالٍ ليست لها عددُ
فالنّفسُ تطوى على أحرِّ من الـ ... ـجمرِ وأدنى أرجائها الكمدُ
وكلُّ حزْنٍ يَبْلَى عَلَى قِدَمِ الدَّهـ ... ـرِ وَحُزْنِي يُجِدُّهُ الأَبَدُ

---

[1] انظر: الكامل للمبرد.

[2] السابق.

ويُروى عن الحَسَن البصري أنه قال: قدم علينا بِشْرُ بنُ مروان[1]، وهو أشرف الناس، وأجمل الناس، وأشبُّ الناس، ابنُ خليفة وأخو خليفة، فلبث خمسةً وأربعين يوماً ثم طَعَنَ في نَيْطِه[2] فمات. فخُرج به إلى قبره والناس معه. وجاء سودانٌ ثلاثة يحملون أسودَ، فدُفن هذا وهذا. وخرجتُ إلى الصحراء ثم رجعتُ وقد انصُرِف عنهما، فلم أعرف قبرَ هذا من قبرِ هذا.

مراثي محمد بن عبد الملك الزيات

قال أبو العباس[3]: حدثني هارونُ بنُ محمد بن عبد الملك المعروف بالزيات[4]، وحدثني بهذا الحديث الذي أذكره غيرُه أيضاً، أن محمد بن عبد الملك[5] كانت

---

[1] بشر بن مروان بن الحكم الأموي. ثالث أبناء الخليفة مروان بن الحكم، بعد عبد الملك، وعبد العزيز. اهتم بالشعراء، ومدحوه لكرمه، ولاّه أخوه عبد الملك حين كان خليفة الكوفة سنة ٧١ هـ وضم إليها البصرة سنة ٧٣ هـ، ثم عزله بعد سنتين، وولّى الحجاج بن يوسف الثقفي مكانه.

[2] أصابته القرحة في يده اليمنى ثم سرت في بقية جسده. ومعنى طَعَنَ في نيْطِه أَي في جَنازته إِذا مات.

[3] المبرد.

[4] هارون بْنِ مُحَمَّد بْن عَبْد الملك بْن أبان بْن أبي حمزة، أَبُو مُوسَى الكاتب، المعروف بابن الزَّيَّات: كان ثقة.

[5] محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، أبو جعفر، المعروف بابن الزيات (١٧٣ – ٢٣٣ هـ) هو وزير المعتصم بالله وأديب وشاعر عربي وعالم باللغة والأدب، من بلغاء الكتاب والشعراء. نشأ في بيت تجارة (كان أبوه زياتاً) ونبغ فتقدم حتى بلغ رتبة الوزارة. وعَوَّل عليه المعتصم في مهام دولته.

له جارية وكان بها ضنيناً، وكان له منها ابن يقال له عُمَر وهو باقٍ الآن، فماتت وابنُها هذا صغيرٌ. وسمعتُ أبا أيوب سليمان ابن وهب يتحدث بقطعة من خبر محمد بن عبد الملك في ضَنِّه بابنه هذا. فرثاها ببيتين هما جاريان على ألسُن الناس مشهوران[1]:

يقولُ لي الخِلَّانُ لو زرتَ قبرَها فقلت: وهل غيرُ الفؤادِ لها قبرُ
على حينَ لم أَحْدُثْ فأجهلَ عهدَها ولم أبلغِ السِّنَّ الّتي معها الصّبرُ

ورثاها فقال شعراً يقرب من القلب، ويضطر إلى تصديقه، ويُرتاح لعهد قائله، ويُرحم لشكوى بثّه وهو[2]:

ألا مَنْ رَأَى الطِّفْلَ المفارقَ أمِّهِ بُعَيْدَ الكَرَى عيناهُ تَنْسكبانِ؟
رأى كلَّ أُمٍّ وابنَها غيرِ أُمِّهِ يبيتانِ تحت اللّيلِ يَنْتجيانِ
يرنُّ بصوتٍ مَضَّ قلبي نشيجُهُ وسحِّ دموعٍ ثَرَّةِ الهَمَلانِ
وبات وحيداً في الفراشِ تحثُّهُ بلابلُ قلبٍ دائمِ الخفقانِ
ألا إنَّ سَجْلاً واحداً إنْ هرقتُهُ مِنَ الدَّمعِ أو سَجْلينِ قد شَفياني

وكذلك ابنه الواثق. ولما مرض الواثق عمل ابن الزيات على تولية ابنه وحرمان المتوكل فلم يفلح، وولي المتوكل فنكبه وعذبه إلى أن مات ببغداد. وكان من العقلاء الدهاة وفي سيرته قوة وحزم.

[1] انظر: خاص الخاص لأبي منصور الثعالبي.

[2] انظر: الزهرة لابن داود الظاهري.

فلا تَلْحَياني إنْ بكيتُ فإنما أداوي بهذا الدَّمعِ ما تريانِ
وإنَّ مكاناً في الثَّرَى خُطَّ لحدُهُ لِمَنْ كان من قلبي بكلِّ مكانِ
أحقُّ مكانٍ بالزّيارةِ والهوى فهل أنتما إنْ عُجْتُ منتظرانِ؟
فهَبْني عزمتُ الصَّبرَ عنها لأنَّني جليدٌ، فمن بالصَّبرِ لابنِ ثمانِ؟
ضعيفِ القُوى لا يطلبُ الأجرَ ولا يأتسي بالنَّاسِ في الحَدَثانِ
ألا مَنْ أُمَنِّيهِ المنى وأعدُّهُ لعثرةِ أيّامٍ وصرفِ زمانِ؟
ألا مَنْ إذا ما جئتُ أكرمَ مجلسي وإنْ غبتُ عنه حاطني وكفاني؟
فلم أر كالأيّامِ كيف تصيبُني ولا مثلَ هذا الدَّهرِ كيف رماني
ولا مثلَ أيّامٍ فجعتُ بفقدِها ولا مثلَ يومٍ بعد ذاك دهاني
أعينيَّ إلا تُسعدا اليومَ عَبْرتي فبئس إذنْ ما في غدٍ تَعِداني
أعينيَّ إنْ أنعَ السّرورَ وأهلَه وعهدَ الصِّبا عندي فقد نَعياني
أعينيَّ إنْ أبكِ البشاشةَ والصِّبا فقد آذَنا منّي وقد بَكَياني
ألا إنَّ بيتاً لم أزرْهُ لشدّ ما تلبَّسَ مِنْ قلبي به وعناني
ألا إنَّ بيتاً لم أزرْهُ لعزّ ما تضمَّنَ منه في الثَّرى الكفنانِ

وقال رجل من الأنصار يذكر امرأةً كانت له، وكانت به بَرَّة، وله حافظةً إذا غاب، وسارةً إذا حضر، فأصيب بها[1]:

ألا ما لهذا البيتِ ليس بذي أهلِ تنكّرتَ ما قد كنتَ تألفُ من قبلي
أيا جارتا لا تبعدي خيرَ جارةٍ لبعلٍ وأحناهُ على ولدٍ طفلِ
فلو أنّني كنتُ العليلَ لأيقظتْ بَنِيهَا وَمَا نَامَتْ وَلَا فَعَلَتْ فِعْلِي

وقال رجل من بني شيبان[2] يرثي معن بن زائدة[3]:

أحين ثَوَى مَعْنٌ ثَوَى الجودُ والنَّدى وأصبح عِرنينُ المكارمِ أجْدَعا
فيا قبرَ مَعْنٍ أنتَ آخرُ خُطَّةٍ مِنَ الأرضِ خُطَّتْ للمكارمِ
ويا قبرَ مَعْنٍ كيف واريتَ جودَهُ وقد كان منه البَرُّ والبحرُ مُترَعا
بلى قد وسِعْتَ الجودَ والجودُ ميِّتٌ ولو كان حيّاً ضِقْتَ حتّى تَصَدَّعا

---

[1] روى السرقسطي في كتاب الدلائل في غريب الحديث عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، وَهُمْ يَبْكُونَ فِي مَنَاوِحِهِمْ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ: أَلَا مَا لِهَذَا الْبَيْتِ لَيْسَ بذي أَهَلِ ... تَجَنَّبْتَهُ قَدْ كُنْتَ تَأْلَفُهُ قَبْلِي... الأبيات.

[2] هو الحُسَيْن بن مُطَيْرٍ مَوْلَى بَنِي أَسَدٍ: شَاعِرٌ مُحْسِنٌ، بَدِيعُ القَوْلِ، أَدْرَكَ الدَّوْلَتَيْنِ: الأُمَوِيَّةَ وَالعَبَّاسِيَّةَ، وَبَقِيَ حَتَّى مَدَحَ المَهْدِيَّ. وتذكر المصادر: أن ابن مطير أنشد المهدي البيتين: (أضحت يمينك..) ، فقال له: كذبت. فقال ابن مطير: ولم ذاك يا أمير المؤمنين؟ فقال: هل تركت في شعرك موضعاً لأحد بعد قولك في معن: ألما بمعن ... الأبيات.

[3] انظر: شروح الحماسة، ومعجم الأدباء، وفوات الوفيات، وخزانة الأدب، وتاريخ ابن عساكر.

فتىً عِيشَ في معروفِهِ بعد موتِهِ كما عاد غيثٌ بعد جدواهُ مرتَعا

مراثي عبد الصمد بن المعذّل

وقال عبد الصمد بن المعذّل[1] يرثي سعيدَ بن سَلْم[2]. وشهرة أفعالِ سعيدٍ وبُعْد صِيته في عقله وأدبه، وجاهِهِ وقدرِه، وكثرةِ معروفِه وتمكُّنه من الخلفاء، تُغني عن ذكر شيء من أفعاله:

ما للسَّماءِ عليه ليس تنفطِرُ وللكواكبِ لا تهوي فتنتثِرُ؟
وللبلادِ ألا تسمو زلازُلُها والرّاسياتِ ألا ترْدَى فتنقعِرُ؟
إنَّ النَّدى وأبا عمروٍ يضمُّهما قبرٌ ببغدادَ يُستسقَى به المطَرُ
للهِ حزمٌ وجودٌ ضمَّهُ جَدَثٌ ومُكرماتٌ طَواها التُّرْبُ والمدَرُ
يا طالباً وَزَراً مِنْ ريبِ حادثةٍ أَوْدى سعيدٌ فلا كهفٌ ولا وَزَرُ
أبكى عليك عيونَ الحيِّ مِنْ يَمَنٍ ومِنْ ربيعةَ ما تبكي له مُضَرُ
كلُّ القبائلِ قد رَدَّيْتَ أرديةً من فضلِ نُعماكَ لا يجزي بها شكرُ

---

[1] عبد الصمد بن المعذّل بن غيلان بن الحكم العبدي القيسي أبو القاسم. من بني عبد القيس، من شعراء الدولة العباسية. ولد ونشأ في البصرة. كان هجاءً، شديد العارضة سكيراً خميراً.

[2] سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم القائد الباهلي: بصري سمع عبد الله بن عون وطبقته، وكان قد سكن خراسان، وولاه السلطان بعض الأعمال بمرو، وقدم بغداد وحدَّث بها فروى عنه محمد بن زياد بن الأعرابي صاحب اللغة. وكان عالماً بالحديث والعربية، إلا أنه كان لا يبذل نفسه للناس.

ما خصَّ رُزؤكَ لا قَيْساً ولا مُضَراً إنَّ الرّزيّةَ معمومٌ بها البَشَرُ
لو كان يبكي كتابُ الله مِن أحدٍ لطولِ إلفٍ بكتْكَ الآيُ والسُّوَرُ
أبو الأراملِ والأيتامِ ليس لهُ إلاّ مراعاتُهُمْ همٌّ ولا وُطَرُ
للهاربينَ مَصَادٌ غيرُ مطَّلَعٍ وللعفاةِ جَنابٌ ممرعٌ خَضِرُ
من كلِّ أفقٍ إليه العيسُ معمَلَةٌ وكلُّ حيٍّ على أبوابِهِ زُمَرُ

المصاد: رأس الجبل يتحصن فيه الخائفون، كما قال أوس بن حجر:

إذا أبرز الخوفُ الكعابَ فإنّهمْ مصادٌ لمن يأوي إليهم ومعقلُ

مشيّعٌ لا يفوت الذّحل صولتَهُ وأكرمُ النّاسِ عفواً حين يقتدَرُ
لا يزدهيهِ لغيرِ الحقِّ منطقُهُ ولا تناجيه إلاّ بالتُّقى الفكَرُ
ثَبتٌ على زللِ الأيّامِ مضطلعٌ بالنّائباتِ لصعبِ الدّهر مقتسِرُ
سامي الجفونِ يروق الطّرفَ منظرُهُ وأطهرُ النّاسِ غيباً حين يُختبَرُ
الحلمُ يُصمِتُهُ والعلمُ يُنطِقُهُ وفي تُقى الله ما يأتي وما يَذَرُ
لم تَسْمُ هِمَّتُهُ يوماً إلى شَرَفٍ إلاّ حباه بما يسمو له الظَّفَرُ
يعطيكَ فوقَ المنى من فضلِ نائلِهِ وليس يعطيكَ إلاّ وهو معتذِرُ
يزيد معروفُهُ كبراً ويرفعُهُ أنَّ الجسيمَ لديه منه محتقَرُ
وليس يسعى لغيرِ الحمدِ يكسبُهُ وليس إلاّ من المعروفِ يدّخِرُ

عفُّ الضّميرِ رحيبُ الباعِ مضطلعٌ ... لحرمةِ اللهِ والإسلامِ منتصِرُ
ما انفكَّ في كلِّ فجٍّ من نَدى يدِهِ ... للنّاسِ جودان: محويٌّ ومنتظَرُ
لو هاب عن عزَّةٍ أو نجدةٍ قَدَرٌ ... مِنَ البريّةِ خَلْقاً هابَكَ القَدَرُ
ليبْكِ فقدَكَ أطرافُ البلادِ كما ... لم يخلُ من نعمةٍ أسديتَها قُطُرُ
وليبْكِكَ المرملونَ الشُّعثُ ضَمَّهمُ ... من كلِّ أوبٍ إلى أبياتِكَ السَّفَرُ
وذاتُ هَدْمَينِ تزجي دردقاً قزماً ... مثلَ الرّئالِ حباها البؤسُ والكِبَرُ
ويبكِكَ الدِّينُ والدُّنيا لرعيهما ... والبرُّ والبحرُ والإعسارُ واليَسَرُ
كفلتَ عترةَ أقوامٍ مهاجرةٍ ... عثمانُ جدُّهمُ أو جدُّهمْ عُمَرُ
وقد نصرتَ وقد آويتَ محتسِباً ... أبناءَ قومٍ هُمُ آوَوا وهمْ نصرُوا
يا رُبَّ أرملةٍ منهمْ ومكتهلٍ ... أيتمتَهُ وهو مُبْيَضٌّ له الشَّعَرُ
للهِ شملُ جميعٍ كان ملتئماً ... أضحى ليومِ سعيدٍ وهو منتشِرُ
أمسى لفقدِكَ ظهرُ الأرض مختشِعاً ... بادي الكآبةِ واختالت بك الحفَرُ
أحياك عمروٌ[1] ولولاهُ وإخوتُهُ ... عفا النّوالُ فلم يُسمَعْ له خَبَرُ
ألهمتَهم طوعَهُ فانقاد رشدُهُمُ ... كلٌّ يراه بحيث السّمعُ والبصَرُ
كأنّهم كنفاهُ وهو بينهمُ ... بدرُ السّماءِ حوتْهُ الأنجُمُ الزُّهُرُ
بنو قتيبةَ نورُ الأرضِ نورهُمُ ... إذا خبا قمرٌ منهم بدا قمَرُ

[1] عمرو ابنه.

إذا تشاكهتِ الأيّامُ واشتبهتْ أبان أيّامَكَ التّحجيلُ والغرَرُ
إمّا ثويتَ فما أبقيتَ مكرمةً إلاّ بكفّيكَ منها العينُ والأثرُ
إنَّ اللّياليَ والأيّامَ لو نطقتْ أثنتْ بآلائك الآصالُ والبكرُ
كان النَّدى في شهورِ الحولِ مقتَسَماً بين البريّةِ فاغتالَ النَّدى صَفَرُ

قال: وكان سعيدٌ عامراً لطُرق الخير، عواداً على الأيتام والأرامل، وعلى أبناء المهاجرين والأنصار. وكان حسن العزاء، وكان يقدم من بنيه عَمْراً وسَلْماً فأتاه موتُ ابْنٍ له يقال له العباس في يوم مات سَلْم بحضرتِه، وكانت ميتةُ العباس بكرمان، قتله بها الخوارج، فذكر الحسن بن رجاء أنهم دخلوا عليه مع رجاء بن أبي الضحاك ليعزُّوه عنهما، فرأوا عنده من العزاء ما لو شهده من لم يعرف القصة لظن أنه المعزِّي.

وحدثني ابن لموسى بن سعيد بن سلم أن سعيداً كان عنده قوم على الطعام في عقب موت سَلْم، فحدَّثهم حديثاً ثم قال لهم، واللقمة في يده: حدثني بهذا ابني سَلْم رحمه الله. ثم وضع اللقمة في فيه.

وقال عبد الصمد فيه[1]:

رُبَّ طفلٍ نَعَشْتَهُ[2] بعد يُتْمٍ وفقيرٍ أغنيتَهُ بعد عُدْمِ

---

[1] انظر: الكامل للمبرد.

[2] يعني رفعته.

كلّما عضّتِ الحوادثُ نادَى رَضِي اللهُ عن سعيدِ بنِ سَلْمِ

وقال عبد الصمد يرثي عمرَو بنَ سعيد بن سَلْم:

هَرِيقا دَمَاً إنْ أُنفِدَتْ عَبْرَةٌ تَجْري أبَى الصَّبرُ إنَّ الرُّزءَ جَلَّ عنِ الصَّبرِ
ولا تجمُدا عينيَّ قد حسَّنَ البُكا وفرطَ الأسى فقْدُ الْمُغيَّبِ في القَبْرِ
ليُغْرِكما بالبثِّ أنْ لستُ واقفاً مِنَ الصَّبْرِ يوماً بعد عمْرٍو على عُذْرِ
سلامٌ وسُقيا من يدِ اللهِ ثَرَّةٌ على جسدٍ بالٍ بلمَّاعةٍ قَفْرِ
جرتْ فوقَه الأرواحُ أَمْناً لجريِهِ وقد كنَّ حَسْرَى حين يجري كما تجري
تولَّى النَّدى والبأسُ والحِلمُ والتُّقى فلم يَبْقَ منها بعد عمْرٍو سوى الذِّكرِ
فإنْ تَطْوِهِ الأيَّامُ لا تَطْوِ بعدَهُ صنائعَ منه لا تَبِيدُ على النَّشْرِ
متى تَلْقَهُ لا تَلْقَ إلاّ ممنَّعاً حِماهُ مَصونُ العِرْضِ مُبتذَلُ الوفْرِ
وأيُّ مَحَلٍّ لا لكفَّيْهِ نِعْمةٌ على أهلِهِ مِنْ أرضِ بَرٍّ ولا بَحْرِ
وما اختلفتْ حالانِ إلاّ رأيتَهُ رَكوبَ التي تَسْبي هَيُوبَ التي تُزري
ومَنْ تكنِ الأوراقُ والتِّبرُ ذخرَهُ فما كان غيرَ الحمدِ يرغبُ في ذُخْرِ
كِلا حالَتَيْهِ الجُودُ أنَّى تَصَرَّفَتْ به دُوَلُ الأيامِ في العُسْرِ واليُسْرِ
وما عُدِمَتْ يوماً لكفَّيهِ أَنْعُمٌ تُضاف له منها عَوانٌ إلى بِكْرِ
وما انتسبتْ إلاّ إليه صنيعةٌ وما نطقتْ إلاّ به أَلْسُنُ الفَخْرِ
يَرَى غُبناً يوماً يمرُّ وليلةً عليه ولم يكسِبْ طريقاً مِنَ الشُّكْرِ

تُغَضُّ له الأبصارُ عند اجتلائهِ ... وليس به إلاّ الجلالةُ مِنْ كِبْرِ
تَرَى جَهْرَهُ جَهْرَ التقِيِّ وسِرَّهُ ... إذا ما اختبرْتَ السِّرَّ أتقى مِنَ الجَهْرِ
ولم يَصْحُ مِنْ يَوْمٍ ولم يُمْسِ لَيْلَةً ... بَغْيرِ اكتسابِ الحَمْدِ مُشتَغِلَ الفِكْرِ
وكانت تَعُمُّ النّاسَ نعماءُ كفِّهِ ... فعَمُّوا عليه بالمصيبةِ والأَجْرِ
تناعاهُ أقطارُ البلادِ تفجُّعاً ... لمصرعِهِ تبكيهِ قُطْراً إلى قُطْرِ
تباشَرَ بطنُ الأرضِ أُنساً بقربِهِ ... وأضحتْ عليه وهي خاشعةُ الظَّهْرِ
ولم تَكُ تُسقَى الأرضُ إلاّ بسَيْبِهِ ... إذا ما جَفا أقطارَها سُبَلُ القَطْرِ
إذا نَشَأتْ يوماً لكفَّيهِ مُزْنَةٌ ... أُدِيلَ الغِنَى في كلِّ فجٍّ مِنَ القَفْرِ
هوى جبلُ اللهِ الّذي كان مَعْقِلاً ... وعِزّاً لدينِ اللهِ، ذُلّاً على الكُفْرِ
عجبتُ لأيدي الحَتْفِ كيف تغلغلتْ ... إليكَ وبينَ النَّسْرِ بَيْتُكَ والنَّسْرِ
وما كُنْتَ بالْمُغْضِي لدهرٍ على القَذَى ... ولا ليِّنٍ للحادثاتِ على القَسْرِ
ولو دَفَعَ العِزُّ الحِمامَ عن امرئٍ ... لما نال عَمْراً للحِمامِ شَبَا ظُفْرِ
ألم تكُ أسبابُ الرَّدَى طَوْعَ كفِّهِ ... تُبينُ لصَرْفِي ما يَرِيشُ وما يَبْرِي
إذا صاح داعي الرَّوْعِ سارَ أمامَهُ ... لواءانِ معقودانِ بالفتْحِ والنَّصْرِ
يقسِّمُ آجالَ العِدَى عزمُ بأسِهِ ... بهنديَّةٍ بيضٍ وخَطِّيَّةٍ سُمْرِ
وما ذبَّ إلاّ عن حِمَى الدِّينِ سيفُهُ ... ولا قاد خيلَ اللهِ إلاّ إلى ثَغْرِ
وقد كان يَقْرِي الحَتْفَ أعداءَ سِلْمِهِ ... فأضحى قِرَى ما كان أعداءَهُ يَقْرِي

تولَّى أبو عَمْرٍو فقلْنا لنا عَمْرُوْ كَفَانا طُلوعُ البدْرِ غَيْبوبَةَ البدْرِ
وكَان أبو عَمْرٍو مُعَاداً حياتُهُ بعمْرٍو، فلمّا مات مات أبو عمْرِو
وكنّا عليه نحْذَرُ الدَّهرَ وحدَهُ فلم يبقَ ما يُخْشى عليه مِنَ الدَّهْرِ
وهَوَّنَ وجْدِي أنَّ مَنْ عاشَ بعدَهُ يُلاقي الّذي لاقى وإنْ مُدَّ في العُمْرِ
وهَوَّنَ وجْدي أنَّني لا أرى امْرءاً مِنَ النَّاسِ إلاّ وهْوَ مُغْضٍ على وتْرِ
رَمَتْنَا الليالي فيكَ يا عمرُو بَعْدَمَا حَمِدْنَا بكَ الدُّنيا بقاصمةِ الظَّهْرِ
سأجزيكَ شُكري ما حييتُ فإن أمُتْ أُبَقِّ ثناءً فيكَ يبقَى إلى الحَشْرِ
وأوتِرُ حُزني فيكَ دونَ تجلُّدي وإسبالَ دَمْعٍ لا بكيءٍ ولا نَزْرِ

مرثية مروان بن أبي الجنوب

قال أبو العباس[1]: وكان مروانُ بنُ أبي الجنوب بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة[2] مداحاً للخلفاء من لدُن المهدي إلى أن قام محمد ولي عهد، ولم يبلغ

---

[1] المبرد.

[2] مروان بن سليمان بن يحيى أبي حفصة: شاعر، عالي الطبقة، نشأ في العصر الأموي، باليمامة، حيث منازل أهله. وأدرك زمناً من العهد العباسي فقدم بغداد ومدح المهدي والرشيد ومعن بن زائدة، وجمع من الجوائز والهبات ثروة واسعة. توفي ببغداد.

خلافتَه. وكان مطبوعاً خطيباً في شعره، صحيح المعاني، قليل الإغماض صلب الكلام، وأعطاه المهدي فأكثر. وفي ذلك يقول[1]:

صدَقتَ يا خيرَ مأمولٍ ومنتَجَعٍ ظنِّي بأضعافِ ما قد كنتُ أحتسبُ
أعطيْتَ تسعينَ ألفاً غيرَ متبعِها مَنّاً ولستَ بمنَّانٍ لما تهبُ

فلما مات المهدي جزع عليه جزعاً شديداً، ورثاه بأشعار اخترنا منها قوله:

إنْ خُلِّدَتْ بعد الإمامِ مُحَمّدٍ نَفْسِي لَمَا فَرِحَتْ بِطُولِ بَقَائِهَا
كم قائلٍ لَمّا أتاه نعيُّهُ: ليت اللّيالي آذنتْ بفنائها
إنَّ البلادَ غداةَ أصبح ثاوياً كادتْ تعودُ جبالُها كصفائها
ترك المسامعَ فقدُهُ مستَكَّةً وشجا النّفوسَ وحال دونَ عزائها
فاليومَ شاغبتِ النّفوسَ حرارةٌ كالنّارِ موصدةً على أحشائها
واليومَ أظلمتِ البلادُ وربّما كشفتْ بغُرَّتِهِ دُجَى ظلمائها
واليومَ أصبحتِ الأراملُ وُلَّهاً تدعو وما ظلمتْ بطولِ شقائها
كانت تعوذُ من الشّتاء إذا شَتتْ بفِنائهِ وتعيشُ في أذرائها
وتبيتُ آمنةً لدى حجراتِهِ كحَمامِ مكَّةَ قُطَّناً وظبائها
أفنى البكاءُ على الإمامِ محمّدٍ ماءَ العيونِ فأسعدتْ بدمائها

---

[1] انظر ديوانه، من قصيدته التي مطلعها: ما يَلمَعُ البَرقُ إلّا حَنَّ مُغتَرِبُ كَأَنَّهُ مِن دواعي شَوقِهِ وَصِبُ

لَمّا استنار ببطنِ مكّةَ هُلكُهُ حنَّ التّرابُ إليه من بطحائها
فرِحتْ بطونُ الأرض إذ كُسيتْ به نوراً جَلَا ظلماتِها بجلائها
وبكتْ أميرَ المؤمنين ظهورُها إذ غاب زينُ عشيِّها وضحائها
كانت خلافتُهُ خلافةَ رحمةٍ حتّى مضتْ أيّامُهُ لمضائها
ما مرَّ من يومٍ عليه وليلةٍ إلاّ تدفَّقَ كفُّهُ بعطائها
روَّى الظِّماءَ بَوادِياً وغَوادِياً عَفْواً بِأرْشِيَةِ النَّدَى وَدَلاَئِها
عَمَّ الصِّحاحَ بعدلِهِ وبعُرفِهِ وشفى المراضَ بسيفِهِ من دائها
وصلتْ جناحي من فواضلِ سَيْبِهِ سبعونَ ألفاً راشني بحبائها
فلأتبعنَّ له المديحَ مراثياً يبقى على المهديِّ حسنُ ثنائها
أثني لأجزيَهُ أياديَ عُرْفِهِ عندي ولستُ ببالغٍ لجزائها
أقلي الحياةَ إذا رأيتُ قصورَهُ غُبراً خواشعَ بعدَ طولِ بهائها
وجيادَهُ قد عرِّيتْ وقبابَهُ مختلّةً عرصاتُها لخلائها
فقدتْ مشرّفها الجياد فأصبحت تبكيه عند صباحها ومسائها
ففحولهنّ عن الحجور ذواهلٌ وحجورهنَّ تصدُّ عن أفلائها
سقيتْ على الظّمأ القراح لفقدِها من كان يعرضها على أسمائها
ولقد تراها والحليبُ صبوحُها وغبوقُها في قيْظها وشتائها
قلعتْ لتركِ ركوبها غلمانها ولقد ترى ثبتاً على أقرائها

القلع: الذي لا يستقر على سرج.

يا من علا شمس النهار لفقده رهج القتام فحال دون ضيائها
إنّ القبورَ قديمَها وحديثَها لِصداكَ فاضلةٌ على أصدائها
ما حفرةٌ أسنى وأكرمُ ساكناً من حفرةٍ حدروكَ في أرجائها
إلاّ الّتي أمسى النبيُّ محمّدٌ فيها فإنَّ لتلكَ فضلَ سنائها
يا ليتَ نفسي قبلَ نفسِك غالَها ريبُ المنونِ فحال دونَ ثوائها
وبقيت ما بقي النّهار لأمّةٍ ما إن تملّ عليك طول بكائها
فجعتْ بسيرتِكَ الرّعيّةُ بعدما أنسيتَها الماضينَ من خُلفائها
ألبستَها كنفيْ رؤوفٍ حافظٍ حرَمِ الحقوقِ، موكّلٍ بأدائها
يمشي اليتامى في ذراهُ كأنّما يأوي المبيت بها إلى آبائها
لولا ابنُك الكافي الخُطوبَ لأدبرتْ عنّا بقيّة عيشنا برخائها

تعزية الحسن بن وهب

قال أبو العباس: كتب الحسن بن وهب[1] إلى الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر[2] يعزيه عن مصيبة: بسم الله الرحمن الرحيم، أطال الله بقاء الأمير مسروراً غير محزون، ومعطىً غير مسلوب، ووفقه في أحواله كلها لما يستديم به النعمة، ويستحق عنده المثوبة. أفظعني أعز الله الأمير ما رأيت بالأمير جعلني الله فداءه من هذه الرزية التي كادت تكون أشبه بالنِّعم منها بالرزايا، لما وفر الله، إن شاء الله، للأمير أيده الله من ثوابها، وبقى له في نفسه حاطه الله من بعدها. فإن حياة الأمير مد الله في عمره حياة لأهله وذوي تأميله، بعد الذي جعل الله للدين والخلافة من الأنس والعز بسلامته، وللأمة من جيل مكانه وموضعه، ووفر الله للأمير، ولا نقصه وتولاه بحسن المدافعة عنه والحياطة، ولا أراه سوءاً في نفس ولا حميم، بقدرته. وهذه – جُعِلتُ فداء الأمير – أبيات ينظر فيها أيده الله عند نشاطه إن شاء الله:

---

[1] الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين الحارثى، أبو علي: كاتب، من الشعراء، كان معاصراً لأبي تمام، وله معه أخبار، وكان وجيهاً، من بيت مشهور بالرئاسة، استكتبه الخلفاء، ومدحه أبو تمام، وهو أخو سليمان (وزير المعتز والمهتدي)، ووالده عُبَيْد اللَّه بْن سليمان بْن وهب بْن سَعِيد، أَبُو الْقَاسِمِ الكاتب، ولي الوزارة للمعتضد باللَّه.

[2] محمد بن عبد الله بن طاهر الخراساني: طاهري خدم الخلافة العباسية محافظاً ورئيس شرطة بغداد حتى وفاته، في فترة مضطربة بشكل خاص في تاريخ المدينة.

قل للمجيرِ على الدّهور ومقيل ذي الجدّ العثورْ
ولمن يصغِّر كبرهُ مستعظم الخطبِ الكبيرْ
حتّى يرى بعد الجلا لةِ منه في حال الصّغيرْ
إنّ الأميرَ أجلُّ قَدْ راً في ملمّات الأمورْ
من أن تفيض دموعُهُ لفراق إلفٍ أو عشيرْ
لا، بل يكون مسلِّماً لحكومةِ الملكِ القديرْ
ويبثُّهُ منه الرِّضى عنه بإخلاصِ الضّميرْ
والصّبر في البلوى فيعـ ـطى وافياً أجر الصّبورْ
والشّكر في النّعمى يغـ ـنَّم ما يضاعَف للشّكورْ
فالله ينسئ عمره في منتهى رتب الحبورْ
وإذا بكتْ غزرُ العيو ن فلا بكت عين الأميرْ
لا بل تبيت قريرةً أبداً على برد السّرورْ
ماذا بعبدك مذ رآ ك من الكآبة والفتورْ
عبدٌ يراك وليّ نعـ ـمته إلى يوم النّشورْ
ويراك جابر ما وَهَى من عظمه ذاك الكسيرْ
ويجنّ ودّاً، خبره عند العليم به الخبيرْ

قال: وكان الحسن بن وهب يقدم حبيبَ بنَ أوس أبا تمامٍ الطائيَّ تقديماً يتجاوز فيه، ولا يرى له في الشعر نداً قديماً فضلاً عن حديث. فأتاه خبر موته بالموصل فرثاه بشعر سلك فيه مثل طريقه، وترك مذهبه في السهولة والبيان وألفاظ الكتاب فقال:

سَقَتْ بالمَوْصِلِ القَبْرَ الغَرِيبَا سحائبُ ينتحبن له نحيبا
إذا ظلّلنه أطلقن فيه شَعِيب المزنِ تتبعُها شَعِيبا

الشَّعِيب: المزادة التي يحملها البعير.

ولطَّمتِ البروقُ لها خدوداً وشقَّقتِ الرّعودُ لها جيوبا
فإنّ ترابَ ذاك القبرِ يحوي حبيباً كان يُدعى لي حبيبا
لبيباً شاعراً فطِناً أديبا أصيل الرّأي في الجلّى أريبا
إذا شاهدتَهُ روّاكَ ممّا يسرُّك رقّةً منه وطيبا
أبا تمّامٍ الطّائيَّ إنّا لقينا بعدَكَ العجبَ العجيبا
فقدنا منكَ عِلقاً لا نرانا نصيبُ له مدى الدّنيا ضريبا
وكنتَ أخاً لنا يدني إلينا ضميرَ الودِّ والنّسبَ القريبا
وكانت مذحجٌ تطوى علينا جميعاً ثمّ تنشرنا شعوبا
فلمّا بنتَ نكّرت اللّيالي قريب الدّار والأقصى الغريبا
وأبدى الدّهرُ أقبح صفحتيه ووجهاً كالحاً جهماً قطوبا

فأحْرِ بأن يطيب الموتُ فيه وأحْرِ بعيشةٍ ألاّ تطيبا

مراثٍ أخرى لأبي عبد الرحمن العتبي

وقال أبو عبد الرحمن العتبي[1] يرثي بَنِيه:

أما يزجرُ الدَّهرُ عنّا المنونا يُبَقِّي البناتِ ويُفني البَنينا
وأنحتْ عليَّ بلا رحمةٍ فلم تُبق فوق غصوني غصونا
وَكُنْتُ أَبَا سِتَّةٍ كَالبُدُوْ رِ وقد فقأوا أعينَ الحاسدينا
فمرُّوا على حادثاتِ المنونِ كمرِّ الدّراهمِ بالنَّاقدينا
فألقينَ ذاكَ إلى ضارحٍ وألقينَ ذاكَ إلى مُلحِدينا
فما زال ذلكَ دأبَ الزّما نِ حتّى أماتَهُمُ أجمعينا
وحتّى بكى لِيَ حسَّادُهمْ وقد أتعبوا بالدُّموعِ العيونا
وحسبُكَ من حادثٍ بامرئٍ ترى حاسديه له راحمينا
رأيت بَنِيَّ على ظهرِها فصاروا إلى بطنِها ينقلونا
فمن كان يُسليهِ مَرُّ السّنين فحزني تجدِّدُهُ لِي السُّنونا

---

[1] نسبها محمد بن أيدمر في الدر الفريد وبيت القصيد لأَبِي سَعِيْدٍ المخْزُوْمِيّ، قال: كَانَ لأَبِي سَعِيْدٍ المخْزُوْمِيِّ ستَّةُ أَوْلَادٍ كَأَنَّهُمُ الصُّقُوْرُ يَرْكَبُوْنَ الخَيْلَ وَيَصْرِمُوْنَ بِالسَّيْفِ، أَنْجَادُ أَمْجَاد، فَلَمَّا تُوُفّوا في شَهْرٍ وَاحِدٍ مَدَحَهُمْ وَجَلَسَ بيْنَ قُبُوْرِهِم يبْكِي وَيُنْشِدُ هَذِهِ الأَبْيَاتِ.

وقال فيهم[1]:

يا سِتَّةَ أودعتُهُم حُفَرَ البِلَى ... لخدودِهم تحتَ الجَبُوبِ وسادُ
مَنَعوا جفوني أن يصافحَ بعضُها ... بعضاً فهنَّ وإن قَرُبنَ بِعادُ
لَمَّا بقيتُ عمادَ بيتٍ مفرَداً ... قد أسلمتْ أطنابَه الأوتادُ
لم تَبْقَ عَينٌ أسعدَتْ ذا عَبْرَةٍ ... إلاّ بكتْ حتَّى بكى الحسَّادُ
ماذا أرجِّي بعدَ خمسٍ بعدَها ... سِتُّونَ أكمَلَها لِيَ الميلادُ؟
وسطتْ عليَّ مِنَ الزَّمان يدٌ بها ... فُلَّ الجميعُ وغُيِّبَ الأولادُ

وقال يرثي أختَه:

لَقَد خانَني صَبْري بأُمِّ مُحمَّدٍ ... فلم يَبْقَ لي إلا التأسُّفُ مِنْ جَهدي
سِوى أنَّ صدري تحتَهُ مُستكِنَّةٌ ... مِنَ الحزنِ ما تبقي على الرّجلِ الجَلدِ
وإنِّي مُذِ اليومِ الّذي لم أُطِقْ به ... عن ابنةِ أُمِّي مدفعاً لعَلَى وَعْدِ

وقال يرثي محمد بن عباد بن حبيب بن المهلب[2]:

محمّدُ إنْ آنستَ منِّيَ جانبا ... بقربٍ لقد أوحشتَ بالبعدِ جانبا
وقد عظمتْ فيك المصائبُ إنّها ... تصغَّر عندي في سواكَ المصائبا

---

[1] انظر: الفاضل للمبرد.

[2] المهلبي السيد الجواد، حاتم زمانه، أمير البصرة محمد ابن محدِّث البصرة عباد بن عباد بن حبيب ابن الأمير المهلب بن أبي صفرة ، الأزدي المهلبي.

سلوتُ به عَمَّن تَقَدَّمَ قَبلَهُ وآليتُ أُصْفي بعدَه الودَّ صاحبا
ستبكيك أخلاقُ المروءة إنّها مغيّبةٌ ما دمتَ عنهنّ غائبا

وقال يرثي ابنَه سليمانَ، وكان نفيساً من ولدِه:

سليمانُ واللهِ الّذي أنا عبدُهُ لقلبي عليلٌ ما بقيتُ حزينُ
تقاضاك دهرٌ فاقتضاك بدَيْنِهِ وللدّهرِ في نفسي عليَّ ديونُ
فقرّتْ عيونٌ كنتَ شملَ جفونِها وجادتْ بحزنٍ بالدّماءِ عيونُ
فليس على دهرٍ مجيرٌ إذا عدا بكرهٍ، ولا خلقٌ عليه معينُ
دفنتُ بكفّي بعضَ نفسي فأصبحتْ لها دافنٌ من نفسِها ودفينُ
فللهِ ما أعطى وللهِ ما حوى وأحْرِ بأمرٍ كائنٍ سيكونُ
فيا فجعةَ الدُّنيا بمن شِبْتُ بعدَهُ فسيّانِ مضنونٌ به وضنينُ

وقال يرثي صديقاً له يقال له عيسى بن القاسم:

بكَتْ عَينُ مَنْ لم يَبْكِ عِيسى بنَ بأربعةٍ حتَّى تجفَّ نواظرُهْ
فتىً غاب عنه أقربوهُ فلم يكن له مَنْ يحامي دونَهُ ويؤازرُهْ
مررتُ على ربعٍ له بعد موتِهِ فباطنُهُ يشكو الخرابَ وظاهرُهْ
تكاد مغانيهِ تقولُ لفقدِهِ لسائلِها عن أهلِه: مات عامرُهْ
سلامٌ على الإخوانِ والعيشِ بعدَهُ ومن كنتُ أُصفيهِ الهوى وأعاشرُهْ
ومن كان يسلي الهمَّ عنّي حديثُهُ إليَّ إذا ضاقت بأمري مصادرُهْ

فإن أسْلُ عن شيءٍ فما عنه سلوةٌ ومهما أضيِّعُهُ فإنِّي ذاكرُهْ

وقال في ابنٍ له يكنى أبا عمرو مات في آخر ولده قصيدةً يطيلها، اخترت منها هذه الأبيات:

لقد شَمِتَ الأعداءُ بي وتَغيَّرتْ عيونٌ أراها بعد موتِ أبي عمْرِو
تجرّا عليَّ الدّهرُ لَمّا فقدتُهُ ولو كان حيًّا لاجترأتُ على الدَّهْرِ
أسكّانَ بطنِ الأرضِ لو يُقبَلُ الفِدى فُديتُمْ وأعطيْنا بكمْ ساكني الظَّهْرِ
فيا ليتَ من فيها عليها وليت من عليها ثوى فيها مقيماً إلى الحشْرِ
فماتوا كأن لم يعرفِ الموتُ غيرَهمْ فثُكلٌ على ثُكلٍ وقبرٌ إلى قبْرِ

مرثية دعبل بن علي الخزاعي

وقال دعبل بن علي الخزاعي[1] يرثي أبا القاسم نصر بن حمزة:

كانَت خُزاعَةُ مِلءَ الأَرضِ ما اتَّسَعَتْ فَقَصَّ مَرُّ اللَيالي مِنْ حَواشيها
هذا أبو القاسمِ الثَّاوي ببلْقعةٍ تُسْفي الرّياحُ عليه من سَوافيها
هبّتْ وقد علمتْ أن لا هبوبَ به وقد تكون حَسيراً إذ يُجاريها
أضحى قِرىً للمنايا إذ نزلن بهِ وكان في سالفِ الأيّامِ يَقْريها

[1] دِعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ الخزاعي: من مشاهير شعراء العصر العباسي، شاعر هجّاء، أصله من الكوفة. أقام ببغداد. له أخبار، وشعره جيد. وكان صديق البحتري. اشتهر بتشيعه لآل علي بن أبي طالب وهجائه اللاذع للخلفاء العباسيين.

مرثية أشجع بن عمرو السُّلَمي

وقال أشجع بن عمرو السُّلَمي[1] يرثي محمد بن منصور:

أنعى فتى الجودِ إلى الجودِ ... ما مثلُ من أنعى بموجودِ
أنعى فتىً أصبح معروفُهُ ... منتسباً في البيضِ والسُّودِ
أنعى إلى الفتيان أعلاهمُ ... كعباً وأولاهمُ بتمجيدِ
أنعى ابن منصورٍ إلى سيّدٍ ... وأيّدٍ ليس برعديدِ
وأشعثٍ يسعى على صبيةٍ ... مثل فراخ الطّير مجهودِ
وطارقٍ أعيا عليه القرى ... ومسلمٍ في القدّ مصفودِ
أنعى فتىً مصّ الثّرى بعده ... بقيّةَ الماء من العودِ
وانثلم المجدُ به ثُلمةً ... جانبُها ليس بمسدودِ
أنعى فتىً كان ومعروفُهُ ... يملأ ما بين ذُرى البيدِ
فأصبحا بعد تساميهما ... قد جُمعا في بطن ملحودِ
اليوم تُخشى عثراتُ النّدى ... وعدوةُ البُخل على الجودِ

---

[1] أشجع بن عمرو السلمي أبو الوليد: من بني سليم من قيس عيلان. شاعر فحل، كان معاصراً لبشار، ولد باليمامة ونشأ في البصرة، وانتقل إلى الرقة، واستقر ببغداد. مدح البرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيى فقربه من الرشيد، فأعجب الرشيد به، فأثري وحسنت حاله، وعاش إلى ما بعد وفاة الرشيد ورثاه، وأخباره كثيرة.

يا راكبَ العيس الّتي تختطي ... ما بين أعناق القراديدِ
إنّ ببابِ البردان الفتى الضـ ... ـضامن حاجاتِ المجاهيدِ
من قنَّع المسكين لَمّا مضى ... من رغد العيش بتصريدِ
من لم يكن سائله ممسكاً ... منه بأذنابِ المواعيدِ
لا خيرَ في الدّنيا وقد أغلقتْ ... أبوابُها دون الفتى المودي
ليرتج البخل عليها فقد ... مضى فتاها بالمقاليدِ
أورده حوضاً عظيم الثّأى ... في المجد يومٌ غير محمودِ
كلّ فتىً يسعى إلى مدّةٍ ... من أجلٍ قد خطّ معدودِ
سينطقُ الشِّعرُ بأيّامه ... على لسانٍ غير معقودِ
كفاك أنّ المجد قد أصبحتْ ... أعلامُهُ في بطن أخدودِ
جودي بدمعٍ أو دمٍ جودي ... يا عينُ لا عذت بمجلودِ
فكلُّ مفقودٍ إلى جنبِهِ ... وإن تغالى غيرُ مفقودِ
يا وافدي قومهما إنّ من ... طلبتما تحت الجلاميدِ
طلبتما الجودَ وقد ضمَّه ... محمّدٌ في جوف ملحودِ
فاتكما بالموت معروفُهُ ... وليس ما فات بمردودِ
يا عضداً للموت مفتوتةً ... وساعداً ليس بمعضودِ
أوهن زنديه وأكباهما ... قرعُ المنايا في الصّناديدِ

وهدّ ذا الرّكن الذي كان بالـ ـأمسِ عماداً غير مهدودِ

باب مواعظ وتعازٍ وأشعار

قال أبو العباس: قد أملينا من أشعار المحدَثين جملةً يُخاف على مثلها الملل. وإنما كتابنا هذا وإن كان يقصد به معنى واحدٌ فإنما يخرجه شيء من ذلك المعنى إلى آخر منه. فكأنه باب يخالف باباً. وهذا باب مواعظ وتعاز وأشعار داخلة في ذلك، موصولة به.

مرثية إسماعيل بن يسار

وقد كنا أملينا أخباراً عن عروة بن الزبير في قطع رجله، ومصاب ابنه بضرب دابةٍ إياه. وهذا الذي نذكره مما يتصل بجملة أخباره: قال إسماعيل بن يسار[1] يرثي محمد بن عروة[2]:

تلك عِرْسي رامت سَفاهاً فراقي وجفتْني فما تريد عِناقي

---

[1] إسماعيل بن يسار النسائي: شاعر، أصله من سبي فارس، اشتهر بشعوبيته وشدة تعصبه للعجم، يفتخر بهم في شعره على العرب. وانقطع إلى آل الزبير. ولما أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان وفد إليه مع عروة بن الزبير ومدحه. ومدح الخلفاء من ولده بعده. وعاش عمراً طويلا إلى أن أدرك آخر أيام بني أمية ولم يدرك الدولة العباسية.

[2] مُحَمَّدُ بْنُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ الأَسَدِيُّ الْقُرَشِيّ الَّذِي ضَرَبَهُ فرسٌ فَمَاتَ، قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ: كَانَ بَارِعَ الْجَمَالِ، يُضْرَبُ بِحُسْنِهِ الْمَثَلُ. رَوَى عَنْ عَمِّهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَعَنْ أَبِيهِ.

زعمتْ أنّما هلاكي مع المالِ وأنّي محالفي إملاقي
وتناست رزيّةً بدمشقٍ أشخصتْ مهجتي فويقَ التّراقي
يوم نُدعَى إلى ابنِ عروةَ نعشاً فوق أيدي الرّجالِ والأعناقِ
مستحثّاً به سياقٌ إلى القبـ ـرِ وما إن يحثّهمْ من سياقِ
بمقامٍ رَبْخٍ فلما أجَنّوا شخصَهُ وارتَقَوا وليس براقِ

مكان ربخ: إذا كان لا يستقر عليه.

ثمّ ولّيتُ موجَعاً قد شجاني قربُ عهدٍ به وبُعدُ تلاقِ
ولقد كنتُ للحتوفِ عليه مشفقاً لو أعاذه إشفاقي
فإذا الموتُ لا يُرَدُّ بحرصٍ لحريصٍ ولا لرقيةِ راقِ
وغَنِينا كابنيْ نويرةِ[1] يوماً في رخاءٍ ولذّةٍ واتّفاقِ
ثمّ صرنا لفرقةٍ ذاتِ بعدٍ كلُّ حيٍّ مصيرُهُ لفراقِ

وقال أيضاً يرثيه:

صلّى الإلهُ على امرئ فارقتُهُ بالشّامِ في حدِّ الضّريحِ الملحدِ
بوّأتُهُ بيديَّ دارَ مقامةٍ نائي المحلّةِ عن مزارِ العوَّدِ
ولئن تركتُكَ يا محمّدُ ثاوياً لبما تروحُ مع الكرامِ وتغتدي

[1] متمم ومالك ابنا نويرة.

وغبرتُ أعوله وقد أسلمتُهُ لسفى الأماعزِ والمزارِ الأبعدِ
وأرى الوفودَ لدى المنازلِ من منىً شهدوا وإنّكَ غائبٌ لم تَشْهدِ
أعني ابنَ عروةَ إنّه قد هدَّني فقدُ ابنِ عروةَ هدّةً لم تقصدِ
والمرءُ رهنُ منيّةٍ يُدعَى لها لا بدَّ أسرع من رداءِ المرتدي
وإذا ذهبتُ إلى العزاء أريدُهُ غلب العزاءُ وحيل دون تجلُّدي
غلب التّعزّي أنّني لفراقِهِ لبس العدوُّ عليَّ جلدَ

وقال البعيثُ[٢] ومات ابنٌ له فقال يرثيه بشعر حُفظ منه بيت استحساناً[٣]:

فصادف منّي غصّةً لا يسيغها شرابٌ ولم يُذهِبْ مرارتَها العسلْ[٤]

---

[١] الأربد: الأسد.

[٢] أبو زيد خداش بن بشر بن خالد التميمي المعروف بالبعيث المجاشعي (ت ١٣٤ هـ) خطيب وشاعر أموي من أهل البصرة من بني مجاشع بن تميم. دخل في الهجاء بين الشعراء وهاجى جريراً مهاجاة دامت نحو أربعين سنة. ولم يتهاج شاعران في العرب في جاهلية ولا إسلام بمثل ما تهاجيا به.

[٣] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[٤] وبعده: وقد ينعش الله الفتى بعد عثرةٍ ... وقد يجمع الله الشتيت من الشملْ
وأية أم لا تكب من ابنها ... على شجبٍ أو لا يصادفها ثكلْ

صبر عبدالله بن الزبير

وأخبرنا عن مخلد بن حمزة عن عبد الملك بن عمير قال: دخل عبد الله ابن الزبير على أمِّه، أسماء ابنة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما فقال: يا أمَّه، قد خذلني الناس، فلم يبق معي إلا من ليس عنده من المنع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت. فما رأيك؟ قالت: يا بني، أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق، وإليه تدعو، فامض على حقك، ولا تمكن غلمانَ بني أمية من نفسك. فقال: وفقك الله، هذا رأيي، وإني لحسن الظن بربي، فإن هلكتُ فلا يشتدَّ جزعُك عليَّ، فإن ابنك لم يتعمد إتيان دنية، ولا عملاً بفاحشة، ولم يسع بغدر، ولم يَجُرْ في حُكم، ولم يكن شيء آثرَ عنده من رضى ربه. اللهم إني لا أقول هذا تزكيةً لنفسي، أنت أعلم بي، ولكن أقوله لتسلو عني[1].

ويُروى أنه خرج فحمل على أهل الشام وهو يتمثل[2]:

فلستُ بمبتاعِ الحياةِ بسبَّةٍ ولا مرتقٍ من خشيةِ الموتِ سلّما[3]

---

[1] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني. وقد ذكره المبرد قبل ذلك.

[2] السابق.

[3] وهو بيت من قصيدة للحصين بن الحمام المري يقول فيها:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد ... لنفسي حياة مثلَ أن أتقدما

وقال رحمه الله تعالى[1]:

يا أمِّ إنْ متُّ فلا تبكيني ... الدّرعُ والبيضةُ لا تُنجيني

من قدرِ الله إذا يأتيني ... قد علم الأعبدُ أنَّ دوني

ضرباً كإيزاغِ المخاضِ الجونِ ... إيهاً شمالي عاوني يميني

فإن كرهتِ صُحبتي فبيني ... فإنّما يضنُّ بالضَّنينِ

وتحدث عن سفيان بن عيينة قال: رأى سعيدُ بنُ جبير ابنَه يطوف بالبيت فقال: هذا أعزُّ الخلق عليَّ، وما شيءٌ أسرَّ إليَّ من أن يكون في ميزاني[2].

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدِّما

نفلّق هاماٍ من رجال أعزّةٍ ... علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

ولما رأينا الصبر قد حيل دونه ... وإن كان يوما ذا كواكب مظلما

صبرنا وكان الصبر منا سجيّةً ... بأسيافنا يقطعن كفًّا ومِعصما

ولما رأيت الودّ ليس بنافعي ... عمدت إلى الأمر الذي كان أحزما

فلست بمبتاع الحياة بسبّةٍ ... ولا مرتقٍ من خشيةِ الموتِ سلَّما

[1] لم أصل إلى صاحب هذا الرجز.

[2] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

وأخبرنا[1] عن عامر بن حفص قال: جزع القلاخُ بنُ حزن[2] على أخيه حجناء فقال:

أعاذلَ من يُرزأ كحجناءَ لا يزلْ حزيناً، ويزهدْ بعدَهُ في العواقبِ[3]

ثمالُ أناسٍ كان يجمعُ بينهمْ ويدفعُ عنهمْ كلَّ أبلخَ شاغبِ

الأبلخ: المتكبر.

وقال ضمرة بن ضمرة[4]:

ماويَّ لستُ برعديدةٍ أبلخَ جادَ على المعدمِ[5]

---

[1] يعني أبا الحسن المدائني في تعازيه.

[2] القُلَاخُ بْنُ حَزْنٍ المِنْقَرِيُّ، له ديوان مفرد، وهو راجز، وهو القائل:

أنا القلاخ بن جناب بن جلا أبو خناثير أقود جملا

[3] وهذا البيت في شروح الحماسة منسوب إلى أبي الحجناء مولى بني أسد، في ابنه حجناء لما هلك.

[4] ضمرة بن ضمرة بن جابر النهشلي الدارمي التميمي: أحد فرسان العرب وساداتهم المشهورين في العصر الجاهلي قبل الإسلام، وكان شاعراً واسمه شقة بن ضمرة فسمته العرب ضمرة بن ضمرة على اسم أبيه لأنه كان فارساً شديداً مثله، وكان ضمرة يُغير على قبائل العرب وعلى مملكة المناذرة في الحيرة وقد طلبه ملكها المنذر بن المنذر ثم ولده من بعده النعمان بن المنذر ولم يتمكنوا منه، وشهد ضمرة يوم ذات الشقوق وأوقع بالأحاليف غطفان وبني أسد وطيء، وشارك في غزوات أخرى مع قومه على بكر بن وائل والأزد وغيرها من القبائل.

[5] الْبَيْت أحد أَبْيَات أَرْبَعَة لضمرة بن ضَمرَة النَّهْشَلِي أوردهَا أَبُو زيد فِي نوادره.

وقال عن الحسن بن دينار: جزع رجل على ابن له، فشكا ذلك إلى الحسن بن أبي الحسن فقال له الحسن: هل كان ابنك هذا يغيب عنك؟ قال: نعم كانت غيبته عني أكثر من حضوره قال: فأنزلْه غائباً، فإنه لم يغب عنك غيبةً الأجرُ لك فيها أعظمُ من هذه الغيبة[1].

ومن غير هذا الإسناد أنه قال: فأنزله غائباً عنك، فإنه إن لم يقدم عليك قدمتَ عليه. قال: يا أبا سعيد، قد هونتَ من وجْدي على ابني.

وأخبرني عن أبي إسماعيل الهمداني عن مجالد عن الشعبي قال: مات ابن لشريح فلم يشعر أحد بموته، ولم يصرخ عليه أحد، فغدا قوم إلى شريح يسألونه عن ابنه فقالوا: كيف أصبح مريضك يا أبا أمية؟ قال: قد سكن علزُه، ورجاه أهلُه، وما كان منذ اشتكى أسكنَ منه الساعة.

والعلز: شدة القلق.

وقال: أحد بني كليب:

(ماوي يَا ربتما غَارة ... شعواء كاللذعة بالميسم)

(ناهبتها الْغنم على طيع ... أجرد كالقدح من الساسم)

(ماوي لست برعديدة ... أبلخ جاد على المعدم)

(لَا وألت نَفسك خليتها ... للعامريين وَلم تكلم)

[1] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

وإنْ رأيتُ سُهيلاً ظلْتُ مكتئباً كأنَّني راقبٌ للنَّجمِ أو عَلِزُ[1]

وأخبر عن أبي عمرو بن يزيد قال: احتُضِر رجل[2] فوضع رأسه في حجر أخيه، فدمعت عين أخيه فقطرت قطرةٌ من دموعه على خد المريض، فأفاق من غشيته، فنظر إلى أخيه يبكي فقال:

أُخَيَّيْنِ كنّا فرَّقَ الدَّهرُ بينَنا إلى الأمدِ الأقصى ومنْ يأمنُ الدَّهْرا؟

تعزية إبراهيم بن أبي يحيى

وتحدث عن عمرَ بنِ غياث عن محمد بن حرب قال: كتب إبراهيم بن أبي يحيى[3] إلى بعض الخلفاء يعزيه: أما بعد. فإن أَوْلى من عرف حق الله عليه

---

[1] العَلَزُ: قَلقٌ وخفة وهلعٌ يصيب الإنسان. وقد عَلِزَ يَعْلَزُ علَزاً. وبات فلانٌ عَلِزاً، أي وجِعاً قَلقاً لا ينام.

[2] في عيون الأخبار لابن قتيبة: احتضر سيبويه النحويّ فوضع رأسه في حجر أخيه فقطرت قطرة من دموع أخيه على خدّه، فأفاق من غشيته وقال... البيت.

أخيّين كنّا فرّق الدهر بيننا ... إلى الأمد الأقصى ومن يأمن الدهرا؟

[3] إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي: هو المحدِّث أبو اسحق المدني الفقيه ولد في حدود سنة ١٠٠هـ، حدّث عن صالح مولى التوأمة وابن شهاب ومحمد بن المنكدر وموسى بن وردان وصفوان بن سليم ويحيى بن سعيد وخلق كثير. وحدَّث عنه جماعة قليلة منهم محمد بن إدريس الشافعي وإبراهيم بن موسى الفراء والحسن بن عرفة وتوفي سنة ١٨٤هـ.

فيما أُخِذ منه، مَنْ عَظُم حقُّ الله جل وعز عنده فيما أبقى له. واعلم أن الماضي قبلك الباقي لك، وأن الباقي بعدك هو المأجور فيك، وأن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عندهم فيما يعافون منه[1].

وقال عمر بن غياث: عزَّى رجل قوماً فيهم نصراني فقال: مثلي لا يعزيك، ولكن انظر إلى ما زَهِد فيه الجاهل فارغب فيه[2].

قال الأصمعي: حدثني معتمر بن سليمان أن أخاً له مات، قال: فكنت أرغب إلى الله عز وجل أن أراه في نومي، فذكرت ذلك لشعيب بن الحبحاب[3] فقال: إن الحزن ينضو[4] عن ابن آدم كما ينضو صبغ الثوب، ولو بقي على ابن آدم قتله[5].

---

[1] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[2] رواه البيهقي في شعب الإيمان، وفيه أن النصراني هو من عزى المسلم: عَزَّى رَجُلٌ نَصْرَانِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ: "مِثْلِي لَا يُعَزِّي مِثْلَكَ، وَلَكِنِ انْظُرْ مَا زَهَدَ فِيهِ الْجَاهِلُ فَارْغَبْ فِيهِ".

[3] شعيب بن الحبحاب الأزدي: أبو صالح البصري، تابعي، وراوي حديث نبوي من الثقات من أهل البصرة.

[4] ينضو: يُخلع ويُنزع، نَضَا الثَّوْبَ عَنْهُ: خَلَعَهُ وَأَلْقَاهُ عَنْهُ، ونَزَعَهُ.

[5] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

وقال الأصمعي: سمعت بعض المحدِّثين يقول: نُعِي مجزأةُ بنُ ثور السدوسي إلى أخيه شقيق بن ثور[1]، فَكَأَنَّهُ لَمْ يُرَ ذَاكَ فِيهِ، فَقَالَ لَهُ صاحبُ الْبَرِيدُ: هَلْ نَعَاهُ إِلَيْكَ أَحَدٌ قَبْلِي؟ قَالَ: "نَعَمْ، أَخْبَرَنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّا كلَّنا سَنَمُوتُ[2].

وقال الأصمعي: ماتتْ امرأةُ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ[3] فَخَرَجَ عَلَى الْحَيِّ قَدْ تَبَخَّرَ ورَجَّلَ جُمَّتَهُ وَلَبِسَ حُلَّتَهُ فَقِيلَ لَهُ فِي هَذا، فَقَالَ: «أكرهُ أَنْ أَسْتَكِينَ لِلْمُصِيبَةِ"[4].

وقال أبو الحسن المدائني[5] عن سعيد بن عبد العزيز: إن مسلمة بن عبد الملك[6] كان له صديق يقال له شراحيل، فمات، فجزع عليه وخرج فصلى

---

[1] مجزأة بن ثور بن عفير بن زهير بن عمرو بن كعب بن سدوس السدوسي (٢٠ هـ): شجاع فاتح صحابي فتح مدينة تستر. وأخوه شَقِيْقُ بنُ ثَوْرٍ أَبُو الفَضْلِ السَّدُوْسِيُّ: الأَمِيْرُ، سَيِّدُ بَكْرِ بنِ وَائِلٍ فِي الإِسْلاَمِ، وَكَانَ رَأْسَهُم يَوْمَ صِفِّيْنَ مَعَ عَلِيٍّ، وَيَوْمَ الجَمَلِ. يَرْوِي عَنْ: عُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ.

[2] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني، وشعب الإيمان للبيهقي.

[3] مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّيْر (ت ٩٥ هـ): تابعي بصري، وأحد رواة الحديث النبوي.

[4] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[5] انظر: التعازي.

[6] مَسْلَمة بن عبد الملك بن مروان بن الحَكَم بن أبي العاص بن أمية الأُموي القُرشي (٦٦ –١٢١ هـ): أمير أُموي، وقائد عسكري، ووالي، وسياسي ورجل دولة. برز ما بين عامي ٨٦ و١٢١ هـ بخوضه الكثير من المعارك والغزوات والحملات العسكرية على كُلٍّ مِن الإمبراطورية الروميَّة البيزنطيَّة وإمبراطورية الخزر والخوارج والجراجمة. وخلال فترات متفرقة من حياته تولى العديد من المناطق والمدن،

عليه ودخل قبره فلما خرج أتاه المعزُّون، وفيهم عبد الله بن عبد الأعلى، فعزاه، فبكى مسلمة وقال:

وهوَّن وجْدي على شراحيلَ أنَّني إذا شئتُ لاقيتُ امرءاً مات صاحبُهْ[1]

وقال القاسم بن الوليد: حدثني أبي، الوليد بن خلف، أن الحجاجَ بنَ يوسفَ أوفد مالكَ بنَ أسماء بنِ خارجة[2] إلى عبد الملك بن مروان فدخل عليه فسمع صوارخ في داره، فقال: ما هذه الصوارخ يا أمير المؤمنين؟ فقال له عبد الملك: مات أبانُ بنُ عبد الملك في هذه الليلة، فقال له مالكٌ: آجَرَكَ اللهُ يا أمير المؤمنين، فوالله ما على ظهر الأرض أهلُ بيت أعظم مرزِئة واحد على الناس

مثل مكة، وحلب، والعراق، وخراسان، وتولى إمارة أرمينية وأذربيجان والده هو الخليفة عبد الملك بن مروان الذي يُعد من أعظم الخلفاء، وجده هو الخليفة مروان بن الحكم.

[1] صرح المبرد في الكامل أن مسلمة تمثل بهذا البيت، وقد نسبه أبو تمام في الحماسة للشمردل بن شريك أو لنهشل بن حري. والظاهر أن الشطر الثاني تناوبه كثيرون وكانوا فقط يتصرفون في الشطر الأول كما صنع مسلمة إذ أدرج فيه اسم شراحيل صديقه.

[2] أبوه هو أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري (ت ٦٦ هـ): وكان من أشراف العرب وسادتهم، عرف عنه الجود والسخاء وله قصص كثيرة بالكرم، وكانت بنته هند زوجاً للحجاج بن يوسف، وابنه مالك بن أسماء من ولاة الحجاج وعماله.

ولا الله أكفى لهم بالواحد الباقي من أنفسهم منكم أهل البيت. فأعجب عبد الملك كلامَه، فاستعاده، وفضَّله على أصحابه[1].

وكان الحجَّاجُ لا يستعمل مالِكاً لإدمانه الشرابَ واستهتاره، فكتب عبد الملك إلى الحجَّاج: إنك أوفدت إليَّ رجلاً من أهل العراق فولِّه واستعملْه وأكرمْه[2].

صبر الحَجَّاج

قال أبو الحسن المدائني[3] عن عامر بن الأسود وغيره أن الحجاج رأى في منامه كأن عينيه ذهبتا. فلما طلَّق هند ابنة أسماء، وهند ابنة المهلب، ظن أنها تأويل رؤياه. فلما مات ابنه محمد وأتاه موت محمد أخيه قال (هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ).

---

[1] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني، وتاريخ دمشق لابن عساكر.

[2] السابق.

[3] انظر: التعازي.

وأخبر المدائني[1] عن أبي محمد بن عمرو الثقفي قال: لما مات محمدُ بنُ الحجاج جزع عليه فقال: إذا غسلتموه فآذنوني به. فأعلموه به فدخل البيت فنظر إليه فقال[2]:

الآنَ لَمّا كُنتَ أكملَ مَنْ مَشى وَافْتَرَّ نابُكَ عَن شَباةِ القارِحِ
وَتكامَلَتْ فيكَ الْمُروءَةُ كُلُّها وَأَعَنْتَ ذَلِكَ بِالفَعالِ الصَّالِحِ

فقيل له: اتقِّ الله واسترجع، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون وقرأ: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ).

---

[1] في التعازي.

[2] يعني متمثلاً. والبيتان لزياد بن الأعجم من قصيدته التي يرثي فيها المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة وهي من المراثي الحسان وأولها:

يا مَن بِمَغدى الشَّمسِ أَو بِمَراحِها أَو مَن يَكونَ بِقرنِها المتنازِحِ
قُل لِلقَوافِلِ وَالغزيِّ إِذا غَزَوا وَالباكِرينَ وَلِلمُجِدِّ الرَّائِحِ
إِنَّ السَّماحَةَ وَالمروءَةَ ضُمِّنا قَبراً بِمَرو عَلى الطَّريقِ الواضِحِ

وأتاه موتُ محمَّدِ بنِ يوسف[1] وكان بينهما جُمُعةٌ[2]، فقال[3]:

حَسْبِي حَيَاةُ اللهِ مِنْ كُلِّ مَيِّتٍ وَحَسْبِي بَقَاءُ اللهِ مِنْ كُلِّ هَالِكِ

إِذَا مَا لَقِيتُ اللهَ رَبِّي مُسْلِمًا فَإِنَّ نَجَاةَ النَّفْسِ فِيمَا هُنَالِكِ

وجلس الحجَّاجُ للمعزِّين ووضع بين يديه مرآة، وولَّى الناسَ ظهره وقعد في مجلسه، فكان ينظر إلى ما يصنعون، فدخل الفرزدقُ فلما نظر إلى فعل الحجاج تبسَّم، فلما رأى الحجاج ذلك منه قال: أتضحك وقد هلك المحمدانِ؟ فأنشأ يقول[4]:

لَئِنْ جَزِعَ الْحَجَّاجُ مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تَكُونُ لِمَحْزُونٍ أَجَلَّ وَأَوْجَعَا

مِنَ الْمُصْطَفَى وَالْمُصْطَفَى مِنْ خِيَارِهِمْ جَنَاحَيْهِ لَمَّا فَارَقَاهُ فَوَدَّعَا

---

[1] أخوه. محمد بن يوسف الثقفي، أخو الحجاج بن يوسف الثقفي، كان الوالي الأموي على صنعاء. عُرف بالظلم، فقد قيل إنه جمع المجذومين بصنعاء ليحرقهم، فمات قبل ذلك، وقد نقل عن عمر بن عبد العزيز قوله أثناء خلافة الوليد بن عبد الملك: «الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، وأخوه محمد بن يوسف الثقفي باليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز.. امتلأت الأرض والله جوراً» تولى ابنه يوسف ولاية المدينة في وقت لاحق من العهد الأموي وتزوجت ابنته أم الحجاج من يزيد بن عبد الملك، وأنجبت ابنه الوليد الذي تولى الخلافة في وقت لاحق. توفي سنة ٩٠ هـ.

[2] يعني بين موت محمد بن الحجاج وموت أخيه محمد بن يوسف جمعة فقط؟

[3] انظر: التعازي للمدائني.

[4] انظر: التعازي للمدائني.

أَخٌ كَانَ أَغْنَى أَيْمَنَ الأَرْضِ كُلِّهَا وَأَغْنَى ابْنُهُ أَمْرَ الْعِرَاقَيْنِ أَجْمَعَا
جَنَاحَا عُقَابٍ فَارَقَاهُ كِلاهُمَا وَلَوْ قُطِعَا مِنْ غَيْرِهِ لَتَضَعْضَعَا
سَمِيَّا نَبِيِّ اللهِ سَمَّاهُمَا بِهِ أَبٌ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ النَّوَائِبِ أَخْضَعَا

وكتب إليه الوليد يعزيه عن محمد بن يوسف ويحثُّه على الصبر فكتب إليه: كتب إليَّ أمير المؤمنين يعزيني عن محمد بن يوسف ويذكر رضاه عنه، ويأمرني بالصبر، وكيف لا أصبر وقد أبقى الله لي أمير المؤمنين.[1]

وتحدث المدائني[2] عن يونس بن حبيب قال: كان الحجاج إذا سمع نَوْحاً في دار هَدَمَها. فلما مات ابنه وأخوه كان يعجبه أن يسمع النوح، وكان يتمثل بشعر الفرزدق:

هل ابْنُكِ إلا ابْنٌ مِنَ الناسِ فاصبِري فلنْ يُرجِعَ الموتى حنينُ المآتِمِ

قال أبو العباس: حدثني التَّوَّزي قال: سمعت أبا زيد ينشد حنين المآتم.

وكان يتمثل أيضاً بشعر ليزيد بن الحكم الثقفي[3]:

---

[1] التعازي للمدائني.

[2] انظر: التعازي للمدائني.

[3] انظر: التعازي للمدائني. ويزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي البصري: شاعر أموي، من فصحاء الشعراء. من قبيلة ثقيف، جده أبو العاصي صاحب رسول الله وعمه الصحابي عثمان بن أبي العاص. شاعر عالي الطبقة، من أعيان العصر الأموي. من أهل الطائف، سكن البصرة، وولاه الحجاج كورة فارس، ثم عزله قبل أن يذهب إليها. فانصرف إلى سليمان بن عبد الملك

فَإِن تَحتسِبْ تُؤجَرْ وإِنْ تَبكِهِ تَكُنْ كبَاكيَةٍ لَم يُحي مَيْتًا بُكَاؤُهَا
وَمِنْ شَرِّ حَظَّيْ مُسْلِمٍ مِنْ خَلِيْلِهِ بُكَاءٌ وَأَحْزَانٌ قَلِيْلٌ جَداؤُهَا

وتحدث المدائني[1] عن عوانة قال: أرسل الحجَّاج إلى علي بن ثابت بن قيس الأنصاري[2] فقال: أنشدْني مرثيتَك ابنَك، فأنشده:

يا كَذَّبَ اللهُ مَنْ نَعَى حَسَناً لَيْسَ لِتَكْذِيبِ نَعْيِهِ ثَمَنُ
أَجُولُ في الدَّارِ لَا أَرَاكَ وَفِي الدْ دَارِ أُنَاسٌ جِوارُهُمْ غَبَنُ
كُنْتَ خَلِيلِي وَكُنْتَ خَالِصَتِي لِكُلِّ حَيٍّ مِنْ أهلِهِ سَكَنُ
بَدَّلْتُهُمْ مِنْكَ لَيْتَ أَنَّهُمُ أَضْحَوْا وَبَيْنِي وَبَيْنَهُمْ عَدَنُ

فقال الحجَّاج: ارْثِ ابني محمداً، فرثاه. فقال الحجاج: مرثيتُك ابنَك أجْوَد. قال: إن قلبي وَجَد على ابني ما لم يجِدْ على ابنك. قال: كيف كان حبُّك

فأجرى له ما يعدل عمالة فارس. وقد كان أبيَّ النفس، شريفاً، من حكماء الشعراء. وقد أورد له أبو تمام في الحماسة شعراً.

[1] انظر: التعازي للمدائني.

٢ عند المدائني: ثابت بن قيس الأنصاري، بغير اسم علي. وسماه هِشَام بْن الْكَلْبِيّ في نسب معد واليمن الكبير قائلاً: هَذَا لعَلِيّ بن ثَابِت بن زَيْد بن وَدِيعَةَ بن عَمْرو بن قَيْس، الشَّاعِرالأَنْصَارِيّ فِي ابنه. وهناك من ينسب هذه الأبيات لسليمان بن قتة في الحسن رضي الله عنه. انظر: مقاتل الطالبيين للأصفهاني.

له؟ قال: لم أمَّل من النظر إليه، ولم يغب عني إلا اشتقتُ إليه قال: كذاك كنتُ أجد بابني محمد[1].

وقال الفرزدق[2]:

إنّي لباكٍ على ابنيْ يوسفٍ[3] عُمري ومثلُ هلكِهما للدِّينِ يُبْكيني
ما سَدَّ حَيٌّ ولا مَيْتٌ مَسَدَّهما إلاّ الخلائفَ مِنْ بعدِ النَّبيئينِ

وقال أيضاً:

إنَّ الرَّزِيَّةَ لا رَزِيَّةَ مِثْلَهَا فُقْدَانُ مِثْلِ مُحَمَّدٍ وَمُحَمَّدِ
مَلِكَانِ قَدْ خَلَتِ الْمَنَابِرُ مِنْهُمَا أَخَذَ الْمَنُونُ عَلَيْهِمَا بِالْمَرْصَدِ

وأخبر المدائني عن سلمة بن عثمان وغيره أن الحجاج جزع على ابنه محمد، فقيل لرجل من بني عقيل كان الحجاج قتل ابنه: إن الحجاج شديد الجزع على ابنه محمد وقد أتته وفاة أخيه محمد بن يوسف، فتمثل العقيلي[4]:

فذُوقوا كما ذقْنا غداةَ محرِّقٍ مِنَ الغيظِ في أكبادِنا والتَّحوُّبِ

---

[1] انظر: التعازي للمدائني.

[2] انظر: التعازي للمدائني، والكامل للمبرد.

[3] ابنا يوسف: محمد أخو الحجاج ومحمد ابنه.

[4] والبيت لطفيل الغنوي. انظر: الشكوى والعتاب لأبي منصور الثعالبي، والصحاح في اللغة والعلوم للجوهري.

وتحدث المدائني[1] عن إسحاق بن أيوب عن مطير، مولى يزيد[2] قال: كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج يعزيه عن أخيه محمد بن يوسف فكتب إليه الحجاج: ما التقيتُ أنا ومحمدُ بنُ يوسف مذ كذا وكذا عاماً، وما غاب عني غيبة، أنا، لطول اللقاء فيها أرجى من غيبته هذه في دار لا نفترق فيها.

وقال ابن كناسة: مات محمدُ بنُ الحجاج ونُعي محمدُ بنُ يوسف في جمعة فخطب الحجاج الناس فقال: إن محمدَ بنَ الحجاج ومحمدَ بنَ يوسف ماتا في جُمعة فكأن الباقي منا ومنكم قد فني، وكأن الحي منا ومنكم قد بلي، وتدال الأرض منا ومنكم فتأكل من لحومنا كما أكلنا من ثمارها، وتشرب من دمائنا كما شربنا من أنهارها، ولنجدنها كما قال الله تبارك وتعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ)[3].

وقال عوانة بن الحكم: لما مات محمد بن الحجاج وأتاه نعي أخيه بعث إلى مالك بن أسماء[4] وهو في السجن فقال: أنشدني مرثيتَك أخاكَ فأنشده:

---

[1] في تعازيه.

[2] يزيد بن عبدالملك.

[3] انظر: غريب الحديث للخطابي.

[4] مالك بن أسماء بن خَارِجَةَ الفَزَارِيُّ: مِنْ فُحُوْلِ الشُّعَرَاءِ، لَهُ وِفَادَةٌ عَلَى عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوَانَ، وَكَانَ عَامِلاً عَلَى الجَزِيْرَةِ لِلْحَجَّاجِ. وَكَانَ جَمِيْلاً، وَسِيْماً.

أَقْطَعُ اللَّيْلَ زفْرَةً وَنَحِيْبَا ولما قد لقيتُ أُمسِي كئيبا
أذكرُ اليأسَ من بقائك في الدُّن يا وعهداً منِّي ومنكَ قريبا
يوم أدعوك للخطوب ولو يسمع داعيكَ من دعا لأُجيبا

قال: وأنا، والله، لو أسمعتهما النداء لأجابا.

صبر عَلِي بْن الْحُسَيْنِ

وقال إبراهيم بن سعد: سَمِعَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ وَاعِيَةً[1] فِي بَيْتِهِ، وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ، فَنَهَضَ إِلَى مَنْزِلِهِ فسَكَّتَهم ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَجْلِسِهِ، فَقِيلَ لَهُ: أَمِنْ حَدَثٍ كَانَتِ الواعِيَةُ؟ قَالَ: ابنٌ لِي، فَعَزَّوْهُ وَتَعَجَّبُوا مِنْ صَبْرِهِ، فَقَالَ: إِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ نُطِيعُ اللهَ فِيمَا يُحِبُّ وَنَحْمَدُهُ فِيمَا نَكْرَهُ، فإذا نزلَ مكروهٌ حمدْنا واحتسبْنا[2].

صبر عليّ بن أبي طالبٍ

قال أبو القاسم بن قيس العامري: لما دَفَنَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رحمة الله عليه فاطمةَ صلواتُ الله عليها، تمثَّل عند قبرها[3]:

وَإِنَّ افْتِقَادِي وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ دَلِيلٌ عَلَى أَلاَّ يَدُومَ خَلِيلُ

---

[1] الواعية: صوت صراخ القوم على الميت.

[2] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[3] انظر: الكامل للمبرد.

وتمام هذا الشعر:

ذكرتُ أبا أروى فبتُّ كأنَّني ... بردِّ الأمورِ الماضيات وكيلُ[1]

لِكُلِّ اجْتِمَاعٍ مِن خَلِيْلَينِ فُرْقَةٌ ... وَكُلُّ الَّذِي دُونَ الفراقِ قَلِيلُ

وَإِنَّ افْتِقَادِي وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ ... دَلِيلٌ عَلَى أَلاَّ يَدُومَ خَلِيلُ

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه للأشعث بن قيس[2] وعزاه عن ابن له: يا أشعث، إن تجزع على ابنك فقد استحقتْ ذلك منكَ الرَّحِم، وإن تصبر ففي الله الخَلَف. يا أشعث، إنك إن صبرتَ جرى عليك القدَرُ وأنت مأجور، وإن جزعْتَ جرى عليك القدرُ وأنت موزور[3].

---

[1] وردت منسوبة لشقران السلامي، في "بهجة المجالس"، ووردت غير منسوبة في: "البيان والتبيين" والزاهر في معاني كلمات الناس لابن الأنباري.

[2] الأشعث بن قيس أسلم عام الوفود. واسمه معديكرب، ولقب بالأشعث واشتهر به؛ لأنه كان أشعث الرأس دائمًا. كان أحد ملوك كندة حتى الإسلام،. وهو زوج أخت أبي بكر الصديق. وكبير أمراء موقعة صفين، وكان ممن أشار على علي بن أبي طالب بالتحكيم وتولى ولاية أذربيجان في عهد عثمان بن عفان. قاتل في اليرموك والقادسية، وكان ممن أجزل لهم خالد بن الوليد في العطاء مما أثار غضب عمر بن الخطاب؛ لأن ابن الخطاب أرادها لضعاف المسلمين وفقرائهم. وهو والد محمد بن الأشعث وجد عبد الرحمن بن محمد صاحب المواقع المشهورة مع الحجاج بن يوسف.

[3] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

وكان علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه يقول إذا عزى: إن تجزعوا فالرحم أهل ذلك منكم، وإن تصبروا ففي ثواب الله خَلَف من المصيبة. عظَّم الله أجرَكم[1].

وعزى رجل رجلاً عن ابنه فقال: ذهب أبوك وهو أصلُك، وذهب ابنُك وهو فرعُك، فما حال الباقي بعد أصله وفرعه؟[2]

وعزى رجل رجلاً فقال: ما كان لك في الآخرة أجراً خيرٌ لك مما كان في الدنيا سروراً[3].

وقال موسى الهادي[4] لإبراهيم بن سَلم وعزَّاه عن ابنه: أيسرُّك وهو بليَّة وفتنة، ويحزنُك وهو صلاةٌ ورحمة؟[5]

---

[1] انظر: البيان والتبيين للجاحظ.

[2] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[3] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[4] موسى الهادي بن المهدي بن أبي جعفر المنصور (١٤٤ – ١٧٠ هـ): رابع خلفاء بني العباس، تولى حكم الدولة الإسلامية وهو في الخامسة والعشرين من عمرِه، ولم يولى الخلافة من هو أصغر منه.

[5] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

وقال سعيد بن عبد الله: قال الحسن لرجل عزَّاه عن ابنه: إنما يستوجب على الله وعدَه مَنْ صَبَرَ لله بحقه. فلا تجمع – إلى ما أصبت به – الفجيعةَ بالأجر فإنها أعظم المصيبتين عليك وأنكأ المرزئتين لك[1].

وقال أبو الحسن المدائني[2]: لما هلك يزيدُ بنُ الصعق[3] ورثه معيَّة بن يزيد قِدرَه وجَفنتَه فقالت ليلى بنتُ يزيد:

يزيد أبا قيسٍ وهل تسمعنَّهُ ... وعندكَ تعبيرٌ لو انَّكَ تسمعُ
لأصبح ما جمَّعتَ من كلِّ صالحٍ ... معيَّة يعطي النّاسَ منه ويمنعُ
فلا تأمننَّ الدّهرَ شيئاً رأيتَهُ ... ولا أن يسوقَ النّاسَ عبدٌ مُجَدَّعُ

وقال سعيد بن قيس المحاربي[4]:

أبادرُ قسمةَ الشّركاءِ مالي ... إذا حسبوا وهمْ حولي قعودُ
وقالوا: حقُّنا الثّلثانِ منه ... وقد صَدَقوا لعَمْري أو يَزيدُ

---

[1] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[2] لم أجده في تعازيه.

[3] يزيد بن عمرو بن خويلد بن نفيل بن عمرو بن كلاب الكلابي: شاعر جاهلي، لقِّب جده بالصعق لأنه عمل طعاماً لقومه بعكاظ فجاءت ريحٌ بغبار فسبها ولعنها، فأرسل الله عليه صاعقةً فأحرقته. وكان له مشاركة في يوم ذي نجب. له شعر في الأصمعيات.

[4] لم أعثر عليه.

تقول عجوزُهم في ذاك سهمي بلى وبسهمك العين الشديدُ
وكانت قبل تملكه جميعاً تعنِّي باليدينِ كما تريدُ

وقالتِ الْمُحَيَّاةُ بِنْتُ طَلْقٍ الْجُشَمِيَّةُ مِنْ بَنِي تَيْمِ اللَّاتِ بْنِ ثَعْلَبَةَ في الإسلام، وجاء العصبةُ يقتسمون دارها التي كانت لزوجها، فسمعت أصواتهم فقالت:

يَا دَعْوَةً مَا دَعَوْتِي عَامِرًا بِاللَّهِ لَوْ يَسمَعْنِي لَاسْتَجَابْ
تَاللَّهِ لَوْ يَسْمَعُ دَعْوَاهُمُ لَفَلَّهُمْ عَنِّي بِظُفْرٍ وَنَابْ

فرجعوا عنها وغبروا حيناً ثم عادوا، فقالت:

لَقَدْ بُدِّلَتْ دَارُ الْأَحِبَّةِ بعدَهمْ مَوَالِيَ مِنْهُمُ مُلْحَقُونَ وَتابِعُ
فَلْو أَنَّ دَارًا أَعْوَلَتْ فَقْدَ أَهْلِهَا بَكَتْ دَارُنَا وَالْتَجَّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ

فرجعوا فمكثوا ثم عادوا، فقالت:

الدَّارُ تَبْكِي أَهْلَهَا وَبُكَاؤُهَا شَيْءٌ عَجِيبُ

فيقال: إنهم تركوها لها[1].

[1] انظر: الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا.

قال المدائني[1]: تُوُفِّيَ ابْنٌ لِخَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ يُكَنَّى أَبَا الْحَصِينِ، فَقَالَ: رَحِمَ اللَّهُ أَبَا الْحَصِينِ، وَاللَّهِ إِنْ كَانَ مَا عَلِمْتُهُ بَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَصُولًا لِرَحِمِهِ بَعِيدًا مِمَّا يَقْتَرِفُ الشُّبَّانُ[2].

قال أبو العبَّاس: وحُدِّثت بهذا الخبر على غير هذا. إنه توفي ابن له يقال له نعيم فقال: لا أنسى نعيماً أبداً. وفي هذا الخبر: ولقد ذكرتُ عند موته قول الشاعر يعني أبا خراشٍ الهُذَلي:

فَوَاللَّهِ لَا أَنْسَى قَتِيلًا رُزِيتُهُ جَانِبِ قَوْسِي مَا مَشَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ

ثم علم أنه سينساه فقال:

بَلَى إِنَّهَا تَعْفُو الْكُلُومُ وَإِنَّمَا تُوَكَّلُ بِالْأَدْنَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي

أخبار الطاعون

وقال أبو الحسن[3] في أخبار الطاعون: الذي بلغنا من خبر الطاعون أن الناس لا يجزعون فيه على موتاهم كجزعهم في غير الطاعون، وذلك لتأسي الناس

---

[1] لم أجده في تعازيه.

[2] انظر: الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا.

[3] لم أجده في تعازيه.

بعضِهم ببعض، ولِمَا يدخلهم من الخوف، فكل إنسان يخاف على نفسه فيسلو عن الولد والأهل والقرابة.

وقال[1]: وكانت الطواعين المشهورة العِظام في الإسلام بالعراق خمسة: طاعون شيرويه بالمدائن في سنة ست من الهجرة، والطاعون الجارف سنة تسع وسبعين في شوال. هلك في ثلاثة أيام في كل يوم سبعون ألفاً. مات لأنس بن مالك فيه ثلاثة وثمانون ابناً ويقال: وسبعون. ومات لعبد الرحمن بن أبي بكرة أربعون ابناً، وهرب عبيد الله بن عمير، مات له ثلاثون ابناً، وإنما هرب بهم من الطاعون. وقال البراء المازني: مات في الطاعون لصدقة بن عامر المازني سبعة بنين في يوم واحد، فدخل، فوجدهم قد سُجُّوا جميعاً، فقال: اللهم، إني مسلم مسلم.

مرثية المرقّع بن العلاء

وقال محمد أبو عبد الله التميمي: هرب المرقّع بن العلاء، أحد بني ربيعة ابن مالك بن زيد مناة، من الطاعون، وله اثنا عشر ابنا، فماتوا جميعاً، فدفنهم في سفح سَنام فرثاهم فقال[2]:

دفنتُ الدّافعينَ الضَّيْمَ عنِّي بِرَابِيَةٍ مُجَاوِرَةٍ سَنَامَا

---

[1] لم أجده في تعازيه.

[2] انظر: الاعتبار وأعقاب السرور لابن أبي الدنيا.

أَقُولُ إِذَا ذَكَرْتُ الْعَهْدَ مِنْهُمْ بِنَفْسِي تِلْكَ أَصْدَاءً وَهَامَا
فليتَ حِمامَهم إذ فارقونا تلقَّانا وكان لنا حِماما
فَلَمْ أَرَ مِثْلَهُمْ هَلَكُوا جَمِيعًا وَلَمْ أَرَ مِثْلَ هَذَا الْعَامِ عَامَا

قال: أنشدني الرياشي ثلاثة أبيات منها ولم ينشدني الرابع.

وقال علي بن القاسم[1]: حدثني رجل قال: رأيت في المنام أيام الطاعون كأنه أُخرِجَتْ من داري اثنتا عشرة جِنازة وأنا وعيالي اثنا عشر، فمات منا أحد عشر وبقيت وحدي، فقلت في نفسي: أنا تمام العدة، فخرجت من الدار ثم رجعت من غد إليها فإذا لصٌّ قد دخل للسرقة فطعن في الدار فمات، فأخرجنا جِنازته.

قال أبو الحسن[2]: بلغني أن رجلاً نبش في الطاعون قبراً فأخرج الميت من قبره وأخذ ثيابَه فطُعِن[3] من ساعته فمات فوجِد والثيابُ معه.

---

[1] انظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي المحسن بن علي.

[2] لم أجده في تعازيه.

[3] يعني أصابه الطاعون الذي كان أصاب الميت بالعدوى.

وقال سليمان بن قحذم: خرجتُ في الطاعون الجارف[1] إلى مكة، ودارنا مشحونة، فرجعت وقد خَلَت، فقال لي أبي: يا بُني، ما بقي في الدار أحد ممن تركت غيري وغير أمي جدَّتك.

وقال معاذ التمار: بلغني أن دُوراً كثيرة مات أهلُها. فلما قدم الحجاج هدمها مخافة أن يكمن فيها الخوارج، واشترى الناسُ دُوراً كثيرة فدفنوا فيها.

قال: بلغني أن داراً مات أهلُها جميعاً، أغلقوا بابَها وفيها صبيٌّ صغير رضيع لم يعلموا به، فلما خف الطاعون فتحوا الباب بعد أشهر فإذا صبيٌّ يحبو، فتعجبوا منه، فإذا كلبةٌ تطفر إلى الدار فتربض ناحية ويحبو إليها الصبي فيشرب من أطْبائها[2] ثم تطفر الحائط إلى خارج. فلم يزل ذلك دأب الصبي حتى حبا حَبْواً[3].

قال: وأُخبرت أن الدار كانت تصبح وفيها خمسون، وتصبح الغدَ وليس فيها واحد.

---

[1] الطاعون الجارف الذي مات فيه أبو الأسود الدؤلي وحصد الملايين.

[2] أطْباء: جمع طِبْي، وهو حلَمَة الضَّرْع التي فيها اللبَنُ وَالتي يرضَعُ منها الرضيعُ، وقد يُطْلَقُ على الضَّرْع نفسه.

[3] انظر: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي، وفضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب لابن المرزبان المحولي، والحيوان للجاحظ.

قال: وكان الرجل بعد الطاعون يلقى المرأة، فلو شاء أن يغصبها نفسَها فعل قبل أن يمر أحد.

ثم خف الطاعون وخليفةُ مصعبِ بنِ الزبير على البصرة سِنان بن سلمة الهذلي[1] فخطب الناس فقال: اتقوا الله أيها الناس فإن عند الله أياماً مثل شوال[2]. قال: وكان طاعون القينات في شوال سنة سبع وثمانين، مات فيه الجواري.

ثم كان طاعون سنة إحدى وثلاثين ومئة في رجب، فاشتد في شهر رمضان، فكان يُحصَى في سكة المربد في كل يوم عشرةُ آلاف جِنازة، أياماً، وخف في شوال.

وقال طارق: أخبرني رجل قال: تزوجتُ امرأة فدخلت بها ليلةَ الإثنين، وأصبحتُ غادياً من عندِهم وهي عند أبيها وأمها وأختها وخادمهم، فعدت إليهم يوم الجمعة فلم يبق منهم أحد.

---

[1] سماه الجاحظ: سنان بن سلمة بن قيس.

[2] انظر: البيان والتبيين للجاحظ.

وهرب من الطاعون عليُّ بنُ زيد بن جدعان[1] إلى السَّيالة، وكان يجمع كل جمعة ويرجِّع. فكان إذا جمع صاحوا به: فِرَّ من الطاعون، فطُعِن فمات بالسَّيالة.

وهرب عمرو بن عبيد، ورباط بن محمد بن رباط إلى الرباطية فقال إبراهيم بن علي بن عبد الرحمن الفقيمي:

وَلَمَّا اسْتَفَزَّ الْمَوْتُ كُلَّ مُكَذِّبٍ صَبَرْتُ وَلَمْ يَصْبِرْ رِبَاطٌ وَلَا عَمْرُو

ورأى نافعٌ رجلاً قد خرج من البصرة على حمار فَرَقاً من الطاعون، وكان نافع يعرفه فقال: انظروا يفر من الله على حمار.

مرثية ابن شبل بن معبد البجلي

وكان ابن شبل بن معبد البجلي بشيراز فمات أهله بالطاعون فبلغه، فجزع عليهم فقال[2]:

سما لك في شيرازَ همٌّ فلم تنمْ غريباً كما بعضُ الرّجالِ غريبُ

برتني صروفُ الدَّهر من كلِّ جانبٍ كما ينبري دون اللِّحاء عسيبُ

أقول لأصحابي وقد قذفتْ بنا نوى غربةٍ عمَّن نحبُّ شطوبُ

---

[1] علي بن زيد بن جدعان: تابعي بصري، فقيه، وأحد رواة الحديث النبوي.

[2] لم أعثر على هذه القصيدة.

متى العهدُ بالأهل الّذين تركتهمْ لهم من فؤادي بالعراق نصيبُ
وهل ترك الطاعون لي من قرابةٍ إليه إذا كان الإيابُ أؤوبُ؟
وكنَّا نرجِّي أن نصيرَ إليهمُ فغالتْهُمُ من دونِ ذاكَ شعوبُ
مقاديرُ لا يغفلن من كان يومِهِ لهنَّ على كلِّ الأنامِ رقيبُ
سقين بكأس الموت من قد أصبْنَهُ وللحيِّ من أنفاسهنَّ ذنوبُ
فقد أصبحوا لا دارهم منك غربةٌ بعيدٌ ولا همْ في الحياة قريبُ
وهوَّنَ عنّي بعض وجدي أنّني رأيت المنايا تغتدي وتثوبُ
وأنّي رأيتَ النّاس أفنى كِرامَهمْ حوادثُ، كلّ العالمين تصيبُ
وما نحن إلاّ منهمُ غير أنّنا إلى أجلٍ ندعى له فنجيبُ

وقال أبو عبد الرحمن العجلاني عن سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت قال: هلك في طاعون عمواس من آل الوليد بن المغيرة عشرون فتىً، ومن آل صخر مثلُهم. فقال رجلٌ منهم[1]:

مَنْ ينزِلِ الشّامَ ويعرِسْ بِهِ وَالشَّامُ إِنْ لَمْ يُفْنِنَا كَارِبُ

يقول: إن لم يُفننا فهو يقارب ذلك. يقال: كرب الشيء يكرب إذا قرب.

أفنى بني صخرٍ وفرسانَهم عشرينَ لم يُطْرَرْ لهم شاربُ
وَمِنْ بَنِي أَعْمَامِهِمْ مِثْلَهُمْ لِمِثْلِ هَذَا يَعْجَبُ الْعَاجِبُ

[1] سماه ابن كثير في البداية والنهاية: الْمُهَاجِر بْن خَالِدٍ.

طَعْنًا وَطَاعُونًا مَنَايَاهُمُ ذَلِكَ مَا خَطَّ لَنَا الْكَاتِبُ

واستُشهِد بالشام من بني المغيرة سبعة وسبعون رجلاً في وقعة، فقال خالد بن الوليد: بنفسي أنتم، زعم ابن حنتمة[1] (يعني عمر بن الخطاب رحمه الله) أن بني المغيرة لا يُستشهَدون.

وقال المدائني[2]: كان بالكوفة طاعون سنة خمسين، فقال المغيرة بن شعبة لأبي موسى[3]: انطلق بنا. فخرج إلى دابق من الطاعون فقال أبو موسى: إلى الله آبِق لا إلى دابِق، فخرج المغيرة. فلما خرج خف الطاعون فقيل له: لو رجعتَ إلى أهلك! قال: ما يريدون مني؟ فلم يزالوا به حتى أقبل إلى الكوفة، فقال: كأنكم بالطاعون قد ختلني في خصاص بني عوف، فطُعِن فمات. واستخلف على الكوفة جرير بن عبد الله البجلي.

وقال أبو إسماعيل عن مجالد عن الشَّعبي أن صديقاً لشريح[4] خرج هارباً من الطاعون، فأقام بالنجف فكتب إليه شريح: إِنَّكَ وَالْمَكَانَ الَّذِي أَنْتَ بِهِ بِعَيْنِ مَنْ لَا يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ، وَلَا يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ، وَالْمَكَانُ الَّذِي خَلَّفْتَهُ لَمْ

---

[1] حَنْتَمَة بنت هاشم ذي الرمحين بن المغِيرَة بن عَبد الله بن عَمْرو بن مخزوم بن يقظة، وهي أم عُمَر بن الخطاب.

[2] لم أجده في تعازيه.

[3] الأشعري.

[4] شريح القاضي.

يُعَجِّلْ أَمْرَ حِمَامِهِ، وَلَمْ يَظْلِمْهُ أَيَّامَهُ، وَإِنَّكَ وَإِيَّاهُمْ لَعَلَى بِسَاطٍ وَاحِدٍ، وَإِنَّ الْمُنْتَجَعَ مِنْ ذِي قُدْرَةٍ لَقَرِيبٌ[1].

وقال أبو عاصم من ولد عباد بن زياد: كانت الطواعين بالشام كثيرةً، وكانت الخلفاء وأبناء الخلفاء يتبدون[2] ويهربون من الريف فينزلون البرِّية خوفاً من الطاعون. فلما أراد هشام بن عبد الملك أن ينزل الرصافة قيل له: يا أمير المؤمنين، لا تجزع فإن الخلفاء لا يُطعنون، ولم نسمع بخليفة طُعِن ولم نره. قال: أتريدون أن تجرِّبوا فيَّ؟ فتحول فنزل الرصافة وهي برِّية، وبنى فيها قصرين.

قال: وكان عبد العزيز بن الوليد ينزل أسيساً فقدم على أبيه بدمشق غلام للوليد فقال الوليد لابنه عبد العزيز: يا بني، ارجع إلى منزلك. قال: أبيت الليلة ثم أغدو. قال عزمت عليك إلا رجعت. فرجع ولم يدعه يبيت.

قال أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء: إن رجلاً من أهل البصرة أيام الطاعون الجارف لما رآه قد كثر أراد الهرب، فعمد إلى حمار له فجعل عليه متاعه، وغلام له يناوله جهازه، والغلام يرتجز:

لن يُسْبَقَ اللهُ على حمارِ ولا على ذي ميعةٍ مطَّارِ

قد يصبح اللهُ أمام السّاري

---

[1] انظر: حلية الأولياء للأصبهاني.

[2] يعني ينزلون البادية.

فقال له الرجل: صدقتَ. ثم حطَّ رحلَه وأقام، فمات فيمن مات.

قال المدائني: قال الحسن البصري وذُكِر عنده الطاعون: ما أحسن ما أبلى الله فيه: ارتَدَع مُذْنِب، وأنفَقَ مُمْسِك، ولم يغلط بأحد.

وقال أبو الحسن المدائني[1] عن جناب بن موسى عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: لما احتُضر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام فخيَّره بين البقاء في الدنيا وبين المصير إلى رحمة الله أو رفعه إليه وتعجيل ما وعده فقال صلى الله عليه وسلم: بل الرفيق الأعلى[2]. فكان يقول ذلك حتى قَضَى، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته.

وأخبر المدائني[3] عن شعبة عن سعيد بن إبراهيم عن عروةَ عن عائشةَ، رحمها الله، قالت: كنتُ أسمع أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يموت حتى يُخيَّر، فسمعتُه يقول صلى الله عليه وسلم في مرضه: الرفيقَ الأعلى، مع الذين

---

[1] لم أجده في تعازيه.

[2] عبارة (الرفيق الأعلى) رواها البخاري، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

[3] لم أجده في تعازيه.

أنعمتَ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فظننتُ أنه خُيِّر فاختار الآخرة[1].

وقال خلاد بن عبيدة عن علي بن زيد عن الحسن قال: قيل لأبي بكر في مرضه: لو أرسلتَ إلى الطبيب! فقال: قد رآني. قالوا: فما قال لك؟ قال: قال: إني فعالٌ لما أريد[2]. وفي رواية: إني أفعل ما أشاء.

وقال: أبو محمد الناجي عن الحسن: إن أبا بكر، رحمه الله، سمع عائشةَ رضي الله عنها وهو في سكرات الموت، وهي تقول[3]:

لعمرك ما يغني الثّراءُ عن الفتى إذا حشرجتْ يوماً وضاقَ بها الصّدر[4]

فقال: يا بنية: ألا قلت (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ) وقال متمثلاً[5]:

---

[1] رواه النسائي في السنن الكبرى عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَمُوتُ حَتَّى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: {مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} فَظَنَنْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ".

[2] رواه أبو نُعَيم في الحلية، وأحمد بن حنبل في الزهد.

[3] سبق ذكره.

[4] البيت لحاتم الطائي وأوله: أماوي ما يغني الثراءُ عن الفتى إذا حشرجت نفس وضاق بها الصدرُ

[5] عند ابن عساكر في تاريخ دمشق أن القائل متمثلاً بهذين البيتين عائشة.

وكلُّ ذي إبلٍ مُورِثُها وكلُّ ذي سَلْبٍ مسلوبُ
وَكُلُّ ذي غَيبَةٍ يَؤوبُ وَغائِبُ الْمَوتِ لا يَؤوبُ[1]

وآخر ما تكلَّم به: ربِّ (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ).

وصية أخرى لأبي بكر

وقال أبو بلال الأشعري عن محمد بن عاصم الأسلمي عن موسى بن عقبة المزني قال: كتب أبو بكر، رحمة الله عليه، وصيته بيده وهي: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هَذَا عَهْدٌ مِنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ عِنْدَ آخِرِ عَهْدِهِ بِالدُّنْيَا خَارِجًا مِنْهَا، وَأَوَّلِ عَهْدِهِ بِالْآخِرَةِ دَاخِلًا فِيهَا، حَيْثُ يُؤْمِنُ الْكَافِرُ، وَيَتَّقِي الْفَاجِرُ، وَيَصْدُقُ الْكَاذِبُ، إِنِّي اسْتَخْلَفْتُ مِنْ بَعْدِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَإِنْ قَصَدَ وَعَدَلَ فَذَاكَ ظَنِّي بِهِ، وَإِنْ جَارَ وَبَدَّلَ فَالْخَيْرَ أَرَدْتُ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ، {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}[2].

وقال عمر بن غياث عن الهلالي: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا أفرطتْ عليه الحمَّى في وجعه الذي توفي فيه قالت فاطمة: يا بأبي وأمي. ثم تمثلتْ:

وأبيَضَ يُسْتسقَى الغَمامُ بوَجهِه ثِمالُ اليَتامى عِصْمةٌ للأرامِلِ

---

[1] البيتان لعبيد بن الأبرص من معلقته: أَقفَرَ مِن أَهلِهِ مَلْحوبُ فالقُطبيَّات فالذَّنوبُ

[2] انظر: الخطب والمواعظ لأبي عبيد القاسم بن سلام وتاريخ دمشق لابن عساكر.

قال: فأفاق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال: ذلك قولُ عمِّك أبي طالب. ثم قال صلى الله عليه وسلم: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) الآية.

ثبات عمر بن الخطاب

قال أبو الحسن عن عاصم بن عمر عن عبيد الله بن عمرو عن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده أن كعب الأحبار[1] قال لعمر بن الخطاب رحمه الله: يا أمير المؤمنين، أنت ميِّت في ثلاثٍ[2]، أجد ذلك في بعض الكتب. قال: أتجد اسمي ونسبي؟ قال: لا، ولكن أجد صفتَك وسيرتَك وزمانَك، فقال عمر:

تَوَعَّدني كَعْبٌ ثَلَاثًا يَعُدُّهَا ... وَلَا شَكَ أَنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَهُ كَعْبُ

وَمَا بِي خَوْفُ الْمَوْتِ إِنِّي لَمَيِّتٌ ... ولكنَّ خَوْفَ الذَّنْبِ يَتْبَعُهُ الذَّنْبُ[3]

---

[1] كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري، (٧٢ ق هـ – ٣٢ هـ): إخباريّ عالم بسِيَر الأنبياء والرُّسل. كان يهودياً مخضرماً أدرك الجاهلية والإسلام. أسلم في خلافة أبي بكر الصِّديق، وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة وكثيراً من «الإسرائيليات». خرج إلى الشام، فسكن حمص، وتوفي فيها، عن عُمُر مئةً وأربعَ سنين.

[2] يعني بعد ثلاثة أيام.

[3] وعند ابن شبة تاريخ المدينة: فَلَمَّا طُعِنَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَ عَلَيْهِ كَعْبٌ فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا. وانظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا.

وقال هشام بن عاصم عن الشعبي أن عمر بن الخطاب رحمة الله عليه قال عند موته: ليتني أنجو من هذا الأمر كَفافاً لا ليَ ولا عليَّ. يا عبد الله[1]، ضعْ خدِّي على الأرض، ويلٌ لعمر ولأمِّ عمر إن لم يُنجِه الله[2].

وقال الأصمعي: لما طَعَنَ العِلجُ عمرَ ألقى ملحفةً كانت عليه وقال: يا لله للمسلمين![3]

وقال الأصمعي أيضاً: لما طعن العلجُ عمرَ قال: (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا).

وقال سعيد بن مسلم عن أبيه أن عثمان بن عفان رحمه الله يوم دخل عليه فقتل، دعا بالمصحف فنشره، فكان أول حرف نظر إليه: (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)[4]، وتمثل[5]:

أَرَى الْمَوْتَ لَا يُبْقِي عَزِيزًا وَلَمْ يَدَعْ لِعَادٍ مِلَاكًا فِي الْبِلَادِ وَمُرْتَقَى
يُبَيِّتُ أَهْلَ الْحِصْنِ وَالْحِصْنُ مُغْلَقٌ وَيَأْتِي الْجِبَالَ مِنْ شَمَارِيخِهَا الْعُلَى

---

[1] ابنه.

[2] انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، وأنساب الأشراف للبلاذري.

[3] انظر: الكامل للمبرد، والطبقات الكبرى لابن سعد.

[4] انظر: تاريخ المدينة لابن شبة.

[5] انظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا، وتاريخ دمشق لابن عساكر.

صبر الزبير

وقال أبو الحسن عن سعيد بن عبد العزيز السلمي عن أبيه أن الزبير رحمه الله قال حين طعنه ابن جرموز: ما لَه قاتَلَه اللهُ يذكِّر بالله وينساه! وذلك أن الزبير رحمه الله لما رآه همَّ به، فقال له ابن جرموز: أذكِّرك الله، فتركه ثم تغفَّله فطعنه[1]. وتمثَّل الزبير[2]:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ لَوَ انَّ عِلْمِيَ نَافِعِ أَنَّ الْحَيَاةَ مِنَ الْمَمَاتِ قَرِيبُ[3]

---

[1] انظر: الرياض النضرة في مناقب العشرة لمحب الدين الطبري، وتاريخ دمشق لابن عساكر.

[2] وكان مقتل الزبير بن العوام، وهو ابن عمة النبي صفية، بعدما خرج في جيش عائشة لمطالبة عليٍّ بأخذ الثأر من قتلة عثمان، فأشعل المنافقون القتال بين الطرفين، فيما عرف بموقعة الجمل، وقُتِلَ طلحة بن عبيد الله بعد أن أصابه سهم، وانصرف الزبير عن القتال، حيث التقى بعليٍّ فقال له: «يا زبير! أنشدك الله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ﷺ يقول: «إنك تقاتلني وأنت ظالم لي؟». قال: نعم! لم أذكره إلا في موقفي هذا»، فلما تذكّر الزبير ذلك انصرف عن القتال، فلما رجع الزبير متوجهاً إلى المدينة لحقه ابن جرموز بوادي السباع فقتله وهو يصلي، فلما جيء به مقتولاً بكى علي بن أبي طالب وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بشِّر قاتل ابن صفية بالنار». فكَان مَقتلُه بِوَادِي السِّبَاعِ بالْبَصْرَةَ، سَنَةَ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ.

[3] الشطر الأول للأسود بن يعفر قال: ولقد علمت لو انّ علمي نافعي ... أنّ السّبيل سبيل ذي الأعواد. انظر: كنز الدرر وجامع الغرر لابن الدواداري.

صبر طلحة

وقال طلحة بنُ عبيد الله[1] رحمه الله يوم الجَمَل عند موتِه:

صَرَفَ الزُّبَيرُ جوادَهُ أنّى لتدركه وفاتُهْ

ثم قال حين نزل به الموت: تاللهِ ما رأيتُ كاليومِ مصرعَ أسَدٍ أُضِيع، وتمثَّل:

أَرَى الْمَوْتَ أعْدَادَ النّفوسِ ولا أَرَى بعيداً غداً ما أَقْرَبَ اليَوْمَ من غَدِ[2]

صبر عليّ

وقال يعقوب بن داود الثقفي عن الحسين بن بزيغ: إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رحمه الله خرج في الليلة التي ضُرِبَ فيها في السَّحَر وهو يقول[3]:

اشددْ حيازيمَكَ للموتِ فإنَّ الموتَ لاقيكا

---

[1] طَلْحَة بن عُبَيْد اللّه التَّيمي القُرشي (٢٨ ق.هـ – ٣٦ هـ)، أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليختاروا الخليفة من بعده. قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم إنه شهيد يمشي على الأرض فقال: «من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله». في موقعة الجمل حاول طلحة إيقاف القتال، فأخذ يقول وهو على دابته: «أيها الناس أنصتوا»، فلم ينصت له أحد، وأصاب طلحة سهمٌ في ركبته، فقطع من رجله عرق النَّسا، فلم يزل دمه ينزف حتى مات، فكان طلحة من أول قتيل فيها.

[2] والبيت من معلقة طرفة بن العبد: لِخَوْلَةَ أَطْلاَلٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ ... تَلُوحُ كباقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليَدِ

[3] انظر: مقتل علي لابن أبي الدنيا.

ولا تجزعْ مِنَ الموتِ إذا حَلَّ بواديكا

وضربه ابنُ ملجم، فقال: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ).

وقال عليٌّ حين ضُرِب: فزتُ وربِّ الكعبة.

وكان آخر ما تكلم به أن قال: (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ).

صبر معاوية

وقال أبو الحسن عن علي بن مجاهد عن عبد الأعلى بن ميمون بن مهران عن أبيه: إن معاويةَ قال في مرضه الذي مات فيه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كساني قميصاً فرفعته، وقلَّم أظفارَه يوماً فأخذتُ قلامتَها فجعلتُها في قارورة، فإذا متُّ فألبسوني ذلك القميصَ وقطِّعوا تلك القلامةَ واسحقوها وذَرُّوها في عيني وفمي. ثم أغمي عليه، فقالت ابنته أو امرأة من أهله متمثلة[1]:

إِذَا مُتَّ مَاتَ الْجُودُ وَانْقَطَعَ النَّدَى مِنَ النَّاسِ إِلَّا مِنْ قَلِيلٍ مُصَرَّدِ

وَرُدَّتْ أَكُفُّ السَّائِلِينَ وَأَمْسَكُوا مِنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا بِخُلْفٍ مُجَدَّدِ[2]

---

[1] انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، والمحتضرين لابن أبي الدنيا.

[2] والبيتان للأَخْطَل في عبدالملك بن مروان.

ثم أفاق فقال لمن حضره من أهله: اتَّقُوا اللَّهَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقِي مَنِ اتَّقَاهُ، وَلَا تُقَىً لِمَنْ لَا يَتَّقِي اللَّهَ[1].

وقال عوانة: لما حضرتْ معاويةَ الوفاةُ قال: لي يومٌ مِنَ ابنِ الأدبرِ[2] طويلٌ! ثم تمثَّل:

لَقَدْ جَمَعْتُ لَكُمْ مِنْ جَمْعِ ذِي حَسَبٍ وَقَدْ كَفَيْتُكُمُ التِّرْحَالَ وَالنَّصَبَا

ثم قال[3]: إنكم لتقلِّبون حُوَّلاً قُلَّباً[4]، إنْ نَجا مِنْ كبَّة النارِ فهو الرجل[5].

---

[1] انظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا.

[2] وابن الأدبر حجر بن عدي الكندي (ت ٥١ هـ): المعروف بحجر الخير لشدة ورعه، وهو من أصحاب الإمام علي بن أبي طالب الذين شهِدوا الجمل وصفين معه. قتله معاوية وذكره عند احتضاره فقال (لي يومٌ مِنَ ابنِ الأدبرِ طويلٌ) يعني أن الله سيسأله عن ذلك.

[3] قال لمن حوله وهم يقلِّبونه.

[4] يعني إنكم لتقلبون رجلاً كان حولاً قلباً. والْحُوَّلُ: ذُو الْحِيَلِ، وَالْقُلَّبُ: الَّذِي يُقَلِّبُ الْأُمُورَ، قَالَ الشَّاعِرُ:

وَمَا غَرَّهُمْ لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهِمْ ... بِهِ وَهُوَ فِيهِمْ قُلَّبُ الرَّأْيِ حُوَّلُ

[5] انظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا.

وفي غير هذا الإسناد أنه قال – حين احتُضر – لابنةِ قرظة[1]: اندُبيني[2]، فقالت[3]:

ألا ابكيهِ ألا ابكيهِ ألا كلُّ الفتى فيهِ

وقال لابنتيه: قلِّباني، ففَعَلَتا. فقال: إنكما لتقلِّبان حُوَّلاً قُلَّباً إن وُقِيَ كبَّة النار[4].

ثم تمثَّل[5]:

لَا يَبْعَدَنَّ رَبِيعَةُ بْنُ مُكَدَّمٍ وَسَقَى الْغَوَادِيَ قَبْرَهُ بِذَنُوبِ

قالوا عند موتهم

وقال سعيد بن بشر: إن عبد الملك بن مروان ليلةَ قُبِض قلقَ فسمِع صوتَ قصَّار[6] فقال: ما هذا؟ فأُخبِر، فقال حين ثَقُل: ليتني كنت غسالاً أعيش بما

---

[1] فاختة بنت قرظة بن عبد عمرو: زوجة معاوية بن أبي سفيان، غزت معه قبرص في خلافة عثمان بن عفان سنة خمسٍ وعشرين في البحر.

[2] يعني ابكيني.

[3] انظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا.

[4] سبق ذكره وتفسيره.

[5] سبق ذكره وتفسيره.

[6] القَصَّارُ: المبيِّضُ للثِّياب وهو الذي يُهَيِّئُ النسيجَ بعد نَسجه بِبَلِّه ودقِّه بالقَصَرَة.

أكتسب يوماً بيوم. فقيل لأبي حازم[1]: إن عبد الملك قال كذا وكذا. فقال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ عِنْدَ الْمَوْتِ مَا نَحْنُ فِيهِ، وَلا نَتَمَنَّى عند الموت مَا هُمْ فِيهِ.

وقال عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه أن سليمان بن عبد الملك قال عند الموت متمثلاً بقول الحارث بن عباد:

إنَّ بَنِيَّ صِبيةٌ صِغارُ أفلح من كان له كبارُ
إنَّ بَنِيَّ غِلمةٌ صيفيُّون أفلح من كان له رَبعيُّون

فقال له عمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، (أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى). فقالها، ثم قال: أسألك منقلَباً كريماً. ثم قَضَى[2].

وقال مسلم بن خالد عن ابن أبي نجيح: تأوَّه طاووسٌ[3] في مرضه الذي مات فيه، فقيل له: يا أبا عبد الرحمن، شكوتَ ربك فقال: ليتني أخرج من مرضي هذا لا عليَّ ولا لي.

---

[1] أبو حازم سلمة بن دينار المديني المخزومي: إمام قدوة وعالم واعظ، شيخ المدينة النبوية. مات سنة ١٣٣ هـ.

[2] انظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا.

[3] طاووس بن كيسان اليماني (توفي سنة ١٠٦ هـ) فقيه وراوي حديث وتابعي من كبار فقهاء التابعين. كان من خواص أصحاب ابن عباس، وعُرف بتقشفه في العيش، وجرأته في وعظ الخلفاء والولاة.

وقال محمد بن جعفر عن أبيه: دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْفَضْلِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ[1] في مرضه فَبَكَى وقَالَ: "وَاللَّهِ مَا يُبْكِينِي إِلَّا نُسَيَّاتٌ خَلْفَ هَذَا السِّتْرِ، لَوْلَاهُنَّ لَهَانَ عَلَيَّ الْمَوْتُ. إِنِّي لَمُؤْمِنٌ، وَإِنِّي لَتَائِبٌ، وَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ. قلت: رحمك الله فالَّذِي رَجَوْتَهُ لِمَغْفِرَةِ ذَنْبِكَ فَارْجُهُ لِخَيْرِ بَنَاتِكَ. فقال: صدقتَ، جزاكَ اللهُ خيراً[2].

وقال أبو الحسن عن معاوية بن محمد عن عبد الله بن بجير قال: قال عبدُ الله بنُ عمرو بن العاصي لأبيه: يا أَبَه، إِنَّكَ كُنْتَ تَقُولُ: « لَيْتَنِي كُنْتُ أَلْقَى رَجُلًا عَاقِلًا، عَنْدَ نُزُولِ الْمَوْتِ، حَتَّى يَصِفَ لِي مَا يَجِدُ»، وَأَنْتَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَصِفْ لِيَ الْمَوْتَ قَالَ: "يَا بُنَيَّ، وَاللَّهِ لَكَأَنَّ جَنْبَيَّ فِي تَخْتٍ، وَكَأَنِّي أَتَنَفَّسُ مِنْ سَمِّ إِبْرَةٍ، وَكَأَنَّ غُصْنَ شَوْكٍ يُجَرُّ بِهِ مِنْ قَدَمَيَّ إِلَى هَامَتِي[3]. ثم قال متمثلاً قول أمية بنِ أبي الصلت:

لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَا لِي في رؤوسِ الجبالِ أرعَى الوُعولا

---

[1] عبد الله بن الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي المدني: تابعي مدني، وأحد رواة الحديث النبوي. روى له الجماعة.

[2] انظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا.

[3] انظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا، والمتمنين له أيضاً.

والله لَيْتَنِي كُنْتُ حَيْضة عَرَكَتْنِي الْإِمَاءُ. ثم مدَّ يدَه فقال: اللَّهُمَّ إني لستُ ذا قُوَّةٍ فَأَنْتَصِرَ، وَلَا ذا بَرَاءَةٍ فَأَعْتَذِرَ، اللَّهُمَّ إِنِّي مُقِرٌّ، مُذْنِبٌ، مُسْتَغْفِرٌ.

وقال عوانة: قال عمرو بن العاصي عند موته: اللهم، إنك أمرتَنا فلم نأتمر، وزجرتَنا فلم ننزجر، فإنا لا نعتذر، ولكنا نستغفر.

وقال يعقوب بن عوف بن عبد الملك بن نوفل: لما نزل بالمغيرة بن شعبة الموتُ قال: اللهم، هذه يدي بايعتُ بها نبيَّك صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجاهدتُ في سبيلك، فاغفر لي ما يعلمون من ذنوبي وما لا يعلمون.

وقال أبو الحسن عن مسلمة بن محارب: لما ثقل زيادٌ[1] قدم عليه الهيثم بن الأسود النخعي[2] بعهده على الحجاز، فقيل له، فقال: شَرْبَةُ مَاءٍ أُسِيغُهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْهَيْثَمِ.

---

[1] زياد بن أبيه أخو معاوية بن أبي سفيان.

[2] الْهَيْثَمُ بْنُ الأَسْوَدِ الْمَذْحِجِيُّ الْكُوفِيُّ [ت ١١٠ هـ]: أَحَدُ الْمُعَمَّرِينَ الشُّعَرَاءِ، وَلَهُ شَرَفٌ وَبَلاغَةٌ وَفَصَاحَةٌ.أَدْرَكَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسمع عَبْد الله بْن عَمْرو، وغزا القسطنطينية سنة ثمانٍ وتسعين مع مسلمة. وكان ثقة من خيار التابعين.

وقال علي بن مجاهد عن محمد بن إسحاق عن الزهري قال أبو العباس وحدثني ببعض هذا الحديث وزاد عليه شيئاً العباس بن الفرج الرياشي قال: أغمي على أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ في مرضه الذي مات فيه، وهو يقول[1]:

لبَّيكما لبَّيكما هأنذا لديكما
لا بريءَ فأعتذرْ ولا قويَّ فأنتصرْ

ثم أغمي عليه ثم أفاق وهو يقول:

لبيَّكما لبيَّكما هأنذا لديكما
لا مالَ يفديني ولا عشيرةَ تحميني

وأغمي عليه ثم أفاق وهو يقول:

لبيَّكما لبيَّكما هأنذا لديكما
محفوف بالنعم
إنْ تغفر اللهمّ تغفر جمًّا وأيُّ عبدٍ لك لا ألَمَّا؟

ثم قال:

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ يَوْمًا قصره مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولَا
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَا لِي فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ أَرْعَى الْوُعُولَا

[1] انظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا.

اجْعلِ الموتَ نُصْبَ عينيكَ واحذرْ غُولةَ الدَّهرِ إنَّ للدَّهرِ غُولا

قال أبو الحسن عن إسحاق بن أيوب: إن عبد الله بن عبد الملك بن مروان لما نزل به الموت بشِّر بقدوم مال له كثير كان له بمصر، فقال: مَا لِي وَلَهُ، لَيْتَهُ كَانَ بَعْرًا حَائِلًا بِنَجْدٍ[1].

وقال عوانة: قال نافعُ بنُ علقمة[2] حين حُضِر: ليت القرابةَ التي كانت بيني وبين مروانَ كانت بيني وبين رجل من الزَّنج، ولم أدخل في شيء من هذا الأمر.

وقال أبو الحسن عن الحسن بن دينار: كان الحسن البصري يُغمى عليه ثم يُفيق فيقول: ساعة صبر واحتساب وتسليم لأمر الله عز وجل، حتى مات.

قال: وكان محمد بن سيرينَ يقول وهو في الموت: في سبيل الله نفسي أعزُّ الأنفسِ عليَّ، حتى هلك.

وقال يحيى بن زكريا عن أبيه إن الشعبي قال وهو بالموت: اشهدوا أني قد احتسبتُ نفسيَ عند الله تعالى.

---

[1] انظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا.

[2] نافع بن علقمة بن صَفْوان بن محرث الكنانيّ: كان عبدالملك بن مروان أمّره على مكة، وهو خال مروان والد عبد الملك.

وقال قيس بن الربيع: بلغني أن إبراهيم النخعي بكى عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ولم لا أبكي؟ وإنما أنتظر مبشِّراً يبشرني بالجنة أو بالنار. والله لوددتُ أنها تجلجل في صدري إلى يوم البعث[1].

وقال حفص بن ميمون عن يونس وغيره عن الحسن أنه قال: إذا كان يومُ القيامة قيل لمن كان يحدِّث بالرُّخَص: لِمَ حَدَّثتم عباديَ بالرُّخَص قالوا: سمعناك تذكر أن رحمتي وسِعَتْ كلَّ شيء، وأنَّك تغفر الذنوبَ غيرَ الشِّرك، فحدَّثناهم ليشكروك ولا يقنَطُوا من رحمتك. فيقول لهم: قد جعلتُ ثوابَكم على ذلك الجنةَ[2].

وقال أبو الحسن: بلغني أن سليمان التيمي قال لابنه وهو بالموت: يا بُنيَّ، حَدِّثْنِي بِالرُّخَصِ، لَعَلِّي أَلْقَى اللَّهَ وَأَنَا حَسَنُ الظن به[3].

---

[1] انظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا.

[2] لم أجده عند غير المبرد. وإسناد مثل هذا إلى رب العزة لا يجوز إلا بقول النبي صلى الله عليه وسلم.

[3] انظر: شرح السنة للبغوي.

وقال أبو الحسن عن أبي محمد الناجي قال: قال حذيفة[1] وهو بالموت: حبيبٌ جاء على فاقة، لا أفلح مَنْ ندِم. الحمدُ لله الذي سبق بيَ الفتن. أليس بين يديَّ ما أعلم[2].

وقال النضر بن إسحاق: قيل للحَسَن: إن الحجاج قال عند الموت: اللهمَّ، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تغفر لي. اللهمَّ فاغفرْ لي ذنوبي، فإنها صغيرة في في جنبِ عفوِك. فقال الحسن: أقالها؟ قالوا: نعم. قال: عسى[3]!

وقال أبو الحسن عن مسلمة بن محارب قال: قال مسلمة بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز: أوصِ إليَّ ببنيك، أو: ألا توصي إليَّ ببنيك! فقال: أوصي بهم إلى (الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) ونظر إلى ولده فقال: بنفسي فتيةً أفقرتُهم من هذا المال[4]، ثم قال: ونعم المذهوبُ إليه ربِّي. وقرأ قارئٌ من ناحية البيت (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ). فقالها عمرُ ثم قَضَى.

---

[1] حذيفة بن اليمان.

[2] انظر: كنز العمال للمتقي الهندي ٣٦٩٧٣.

[3] انظر: حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا.

[4] يعني تركتهم ولا مال لهم.

قال عوانة: قال الوليدُ بنُ عقبة[1] عند الموت وهو بالبليخ[2] من أرض الجزيرة: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَهْلُ الْكُوفَةِ صَدَقُوا عَلَيَّ فَلَا تلق روحي منك روحاً ولا ريحاناً، وَإِنْ كَانُوا كَذَبُوا عَلَيَّ فلا ترضِهم بأمير، ولا ترضِ أميراً عنهم، وانتقمْ لي منهم وَاجْعَلْهُ كَفَّارَةً لِمَا لَا يَعْلَمُونَ مِنْ ذُنُوبِي[3].

قال أبو الحسن عن علي بن سليمان[4]: دخل عمر بن عبد العزيز على رجل وهو يجود بنفسه، فقال له: استغفر الله، فقيل له: يا أبا حفص، لو لقنته شهادة أن لا إله إلا الله، فقال عمر: إن لا إله إلا الله من ذنبه، وله ذنوب يستغفر الله منها، فإذا استغفر الله فقد وحَّده، وإن المستغفر الخائف بِعُرضِ خير.

وقال أبو الحسن المدائني عن المنهال بن عبد الملك، مولى بني أمية: حَبَسَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ عِيَاضَ بْنَ مُسْلِمٍ – وَكَانَ كَاتِبًا لِلْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ – وَضَرَبَهُ وَأَلْبَسَهُ الْمُسُوحَ. فَلَمْ يَزَلْ مَحْبُوسًا حَتَّى مَاتَ هِشَامٌ. فَلَمَّا ثَقُلَ هِشَامٌ وَصَارَ فِي حَدٍّ لَا يُرْجَى لِمَنْ كَانَ فِي مِثْلِهِ الْحَيَاةُ، فَرَهَقَتْهُ غَشْيَةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ مَاتَ،

---

[1] الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي القرشي (المتوفى ٦١ هـ) صحابي وأخو الخليفة عثمان بن عفان لأمه، ولّاه عثمان الكوفة.

[2] البليخ نهر بالجزيرة الفراتية.

[3] انظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا.

[4] المعروف بالأخفش الأصغر، النحوي المعروف.

فَأَرْسَلَ عِيَاضُ بْنُ مُسْلِمٍ إِلَى الْخُزَّانِ: احْتَفِظُوا بِمَا فِي أَيْدِيكُمْ، فَلَا يَصِلَنَّ أَحَدٌ إِلَى شَيْءٍ. وَأَفَاقَ هِشَامٌ مِنْ غَشْيَتِهِ، فَطَلَبُوا مِنَ الْخُزَّانِ شَيْئًا، فَمَنَعُوهُمْ، فَقَالَ هِشَامٌ: أَرَانَا كُنَّا خُزَّانًا لِلْوَلِيدِ. وَمَاتَ هِشَامٌ مِنْ سَاعَتِهِ. فَخَرَجَ عِيَاضٌ مِنَ الْحَبْسِ، فَخَتَمَ الْأَبْوَابَ وَالْخَزَائِنَ. وَأَمَرَ بِهِشَامٍ فَأُنْزِلَ عَنْ فِرَاشِهِ، وَمَنَعَهُمْ أَنْ يُكَفِّنُوهُ مِنَ الْخَزَائِنِ. فَكَفَّنَهُ غَالِبٌ – مَوْلَى هِشَامٍ – وَلَمْ يَجِدُوا قُمْقُمًا يُسَخَّنُ فِيهِ الْمَاءُ، حَتَّى اسْتَعَارُوهُ فَقَالَ النَّاسُ: إِنَّ فِي هَذَا لَعِبْرَةً لِمَنِ اعْتَبَرَ[1].

قال أبو الحسن عن عبد الله بن قائد عن أشياخ بني تميم قالوا: خرج إياس ابن قتادة[2] فَخَرَجَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنَ الْمَسجِدِ، فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ، قَدْ كُنْتُ أَنْتَظِرُ مَجِيئَكَ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَاحْمِلُونِي إِلَى مَلْحُوبَ، فَادْفِنُونِي بِهَا، ثُمَّ سَقَطَ مَيِّتًا، فَحُمِلَ إِلَى مَلْحُوبَ، فَقَبَرُهُ بِهَا[3].

وقال أبو المنذر عن عمه عامر بن حفص قال: قِيلَ لِلرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ[4] حين ثَقُلَ: أَلَا نَدْعُو لَكَ أصحابَ الطبِّ؟ فقال: قد أردتُ ذلكَ ثم ذكرتُ عَادًا

---

[1] انظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا.

[2] إياس بن قتادة التميمي: ابن أخت الأحنف بن قيس. كان قاضياً لبني تميم.

[3] انظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا.

[4] الربيع بن خثيم الثوري: تابعي كوفي، وأحد رواة الحديث النبوي.

وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا، وعلمتُ أنه كان فيهمُ الداءُ والمداوي. فهلكوا جميعاً[1].

وقال أبو مخنف: مرض معبد بن طوق العنبري[2] فجزع فقيل له: كأنك تخاف أن تموت! فقال: إي والله، ما أمرضُ إلا خفتُ ذاك. قيل له: ولم؟ قال: لأني قد استأنيتُ[3] اختصارَ المدَّة، وانقضاءَ العدَّة، وتمامَ الظمأ[4].

وقال عوانة عن الأسود بن عبيد: قال أبو قيس بن الأسلت[5] عند الموت: اللهم، إنك تعلم أني لم أقطع رحماً، ولم أشرب بإناء غادر، ولم أصب بكنة[6] ولم أبت ليلةً جُنُباً حتى أصبح، فاغفر لي.

---

[1] انظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا.

[2] معبد بن طوق العنبرى: خطيب وشاعر، عاش فى أوائل القرن الثالث، ببادية البصرة. وكان من الشعراء المقلين.

[3] اسْتَأْنَى الشيءَ: انتظر أَوانه، استبطأه.

[4] انظر: المجتنى لابن دريد.

[5] الصحابي أبو قيس بن الأسلت: من شعراء الأوس المشهورين. كان سيد قومه وأسندت إليه الأوس حربها يوم بعاث الذي انتصر فيه الأوس على الخزرج، وهو والد الصحابي عقبة بن أبي قيس الذي استشهد يوم القادسية.

[6] هكذا، ولم أجد تفسيرها.

وقال الحرمازي: هلك لرجل[1] من أهل البادية ابنان، فسئل عن جزعه عليهما فقال: كنت أتوهمهما حتى كأن الأرض تنشق عنهما فأنظر إليهما. قيل له: ثم مه؟ قال: ثم كان جرحاً فبرأ[2].

وقال أبو الحسن: أخبرني بعضهم قال: أتيتُ امرأةً أعزِّيها عن ابنها. قال فجعلتْ تثني عليه فقالت: كان، والله، مالُه لغير بطنه، وأمرُه لغير عِرسه[3]، وكان:

رحيبَ الذِّراعِ بالَّتي لا تَشِينُهُ وإنْ كانتِ الفحشاءُ ضاقَ بها ذَرْعا

قال: فقلت لها: هل لك منه خلف؟ وأنا أعني الولد قالت نعم، بحمد الله كثير طيب، ثواب الله عليه، ونعم العوض من الدنيا والآخرة.

وقال: دخل درواش بن حبيب العجلي على جعفر بن سليمان[4] يعزيه بأخيه محمد بن سليمان، فلما نظر إليه جعفر قال: إن كان عند أحد فرجٌ فعند درواش. فسلَّم ثم قال: أيُّها الأمير، التمسْ ثوابَ الله بحسن العزاء، والشكر

---

[1] سماه المدائني: عباد بن مخاشن.

[2] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[3] انظر: "الأمالي، والبيان والتبيين وعيون الأخبار.

[4] جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، الأَمِيْرُ، سَيِّدُ بَنِي هَاشِمٍ، أبي القَاسِمِ العَبَّاسِيُّ، ابْنُ عَمِّ المَنْصُوْرِ.

لأمر الله، واذكر مصيبتك في نفسك تُنْسك فَقْدَ غيرِك، واذكر قول النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: من أصابته مصيبةٌ فليذكر مصيبتَه بي فإنها من أعظم المصائب[1]. واذكر قول الله عز وجل لنبيه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ)، وقوله تعالى (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ). وخذ بقول عبد الله بن أراكة في أخيه عمرو:

تفكَّر فإن كان البُكا ردَّ هالكاً ... على أحدٍ فاجهدْ بُكاكَ على عمرِو

ولا تبكِ ميْتاً بعد ميْتٍ أجنَّهُ ... عليٌّ وعبّاسٌ وآلُ أبي بكرِ[2]

قال: وهلك أخٌ لبعض الأعراب فأظهر له الشماتةَ بعضُ بني عمِّه، فأنشأ الأعرابي يقول[3]:

وَلَقَدْ أَقُولُ لِذِي الشَّمَاتَةِ إِذْ رَأَى ... جَزَعِي، وَمَنْ يَذُقِ الْفَجِيعَةَ يَجْزَعِ

اشْمَتْ فَقَدْ قَرَعَ الْحَوَادِثُ مَرْوَتِي ... وافْرَحْ بِمَرْوَتِكَ الّتِي لم تُقْرَعِ

---

[1] رواه الدارمي في سننه، والطبراني في الكبير.

[2] سبق ذكره وتصويب اسم الشاعر.

[3] سماه ابن عساكر في تاريخ دمشق: عبد الله بن عبد الأعلى. قال: لما مات أيوب بن سليمان بن عبد الملك رثاه عبد الله بن عبد الأعلى بقصيدة يقول فيها... الأبيات. وفيها:

قد بان أيوب الذي لفراقه ... سر العدو غضاضتي وتخشّعي

أيوب كنت تجود عند سؤالهم ... وتظلّ منخدعا وإن لم تخدَعِ

إنْ تَبْقَ تُفْجَعْ بِالأَحِبَّةِ كُلِّهِمْ أوْ تُرْدِكَ الأحْداثُ إنْ لم تُفْجَعِ

قال[1]: ومات بنون لامرأة تباعاً، فكلمناها، فحدثتنا ساعة ثم ضحكت، فقالت لها امرأة: أتضحكين! أجنونٌ بك أم فَنَد! قالت: لا، وأبيك، ولكن الشر لم يجد لي مزيداً.

قال أبو الحسن المدائني: وأنشد ابن كناسة[2]:

فَلا تَجْزَعِي يَا أُمَّ زَيْدٍ فَإِنَّهُ تُصِيْبُ الْمَنَايَا كُلَّ حَافٍ وَذِي نَعْلِ

وَلَوْلا الأسَى مَا بِتُّ فِي النَّاسِ لَيْلَةً وَلَكِنْ إِذَا مَا شِئْتُ جَاوَبَنِى مِثْلِى

وقال محمد بن كناسة عن خشاف الفقعسي قال: حدَّثتني أمي قالت: دخلتْ علينا عجوز للحي اسمها بادية، ورِحال إخوتي ثمانية في جانب البيت فقالت لي: لمن هذه الرِّحال[3]؟ أنَزَل بكم الليلةَ رَكْبٌ؟ قلت: هذه رِحال إخوتي. فقالت: لقد ولدتْ لك أمُّكِ حُزْناً طويلاً. قالت: وصدقتْ بادية، ذهبتْ نفسي عليهم قطعاً. وأنشدت[4]:

---

[1] يعني أبو الحسن المدائني في التعازي.

[2] في الاعتبار وأعقاب السرور لابن أبي الدنيا: عن إِبْرَاهِيم التَّيْمِيُّ، قَالَ: نَزَلَ بِنَا حَيٌّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَأَصَابَهُمْ دَاءٌ فَمَاتُوا وَبَقِيَتْ مِنْهُمْ جُوَيْرِيَةٌ مَرِيضَةٌ، فَلَمَّا أَفَاقَتْ جَعَلَتْ تَسْأَلُ عَنْ أُمِّهَا وَأَبِيهَا وَأَخِيهَا وَأُخْتِهَا، فَيُقَالُ: مَاتَ، مَاتَتْ، مَاتَ، مَاتَتْ، فَرَفَعَتْ يَدَيْهَا وَقَالَتْ... البيتين.

[3] جمع رَحْل، وهو ما يوضع على ظهر الجمل المعد للسفر.

[4] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

ذَهَبوا بنفسي أنفُساً إذ فارقوا فالعيشُ بعدُ منغَّصٌ مذمومُ

وقال عمر بن غياث: أخبرني الثقة قال: دفن أعرابي ابناً له، فلما أجنَّه وقف على قبره وأنشأ يقول[1]:

لَمَّا مَشَى ورجوتُهُ لغدٍ وطمعتُ أن يَقوى به أزري
ويكون من أعمامِهِ خَلَفاً فيقوم بعد تأطُّرٍ ظهري
رشَقَتْهُ عن قوسٍ منيَّتُهُ فغدا رهينةَ مظلمِ القعرِ
قد كان يضرب مَنْ مَضَى مثلاً وجد الثّكولِ وكنتُ لا أدري
ما ذاك حتّى ذقتُ لوعتَهُ فألذُّ منها لوعةُ الصَّبرِ

وخرج رجل مع خالد بن الوليد بدومة الجندل، فاستُشهِد فجزع عليه أبوه فبكاه حتى كثر عليه بكاؤه، فليم في ذلك وعوتب، فقال: دعوني أبكي عليه ما أسعدتني عيني، فإن دموعها ستنفد وتبلى كما ذهب نافع وبلي. وقال يرثيه[2]:

ما بالُ عيني لا تغمِّضُ ساعةً إلاّ اعترتني عبرةٌ تَغْشاني

---

[1] في تاريخ دمشق لابن عساكر قال: قال الأصمعي: دخلت المقام فإذا أنا بامرأة تبكي ابناً لها وهي تقول... الأبيات.

[2] في التعازي للمدائني: استشهد نافع بن غيلان بن سلمة الثقفي مع خالد بن الوليد بدومة الجندل...

أرعى نجومَ اللَّيلِ عند طلوعِها وهناً وهنَّ من الغيار دوانِ
يا نافعاً مَنْ للفوارسِ أحجمتْ عن شدّةٍ مذكورةٍ وطعانِ؟
فلو استطيعُ جعلتُ منّي نافعاً بين اللهاةِ وبين عقدِ لساني
يا نافعاً مَنْ للفوارس إذ ثووا في يوم بؤسٍ أو ليومِ ليانِ؟

قال أبو الحسن: حدثني كليب بن خلف عن إدريس بن حنظلة قال: أصيب عمرو بن كعب النهدي بتستر مع مجزأة بن ثور[1] فكتموا أباه الخبر ثم علم بعد فلم يجزع وقال: الحمد لله الذي جعل من صلبي من أصيب شهيداً وقال[2]:

فهل تعدو المقادر يا لقومي هلاك المالِ أو فقْدَ الرّجالِ؟
فكلاًّ قد لقيتُ وقلَّبتني صروفُ الدَّهرِ حالاً بعد حالِ
فما أبقينَ منّي غيرَ نضوٍ به أثرُ الرّحالةِ والحِبالِ
عروفٍ كلَّما جلبتْ قروحٌ به نكئت بأعدالٍ ثقالِ

ثم استشهد ابنٌ له آخر يقال له حمل مع سعيد بن العاص بجرجان فبلغه فقال: الحمد لله الذي توفى مني شهيداً. وقال[3]:

---

[1] مجزأة بن ثور السدوسي (٢٠ هـ): صحابي شجاع فاتح. فتح مدينة تستر.

[2] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[3] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

جزى حملاً جازي العباد كرامةً وعمرو بن كعبٍ خير ما كان جازيا
خليليَّ وابنيَّ اللّذينِ تتابعا شهيدينِ كانا عصمتي ورجائيا
ومن يعطه الله الشّهادة يعطِهِ بها شرفاً يوم القيامة عاليا

وقال محمد بن كناسة: زوج زبانُ بنُ منصورٍ[1] الحسَنَ بنَ عليِّ بن أبي طالب خولة ابنة زبان[2]، فمكثت عنده حولاً لا تكتحل ولا تدهن حتى وضعت له ابناً، فاكتحلتْ وتهيأتْ له: فقال لها الحسن: ما حملكِ على ما صنعتِ؟

---

[1] هكذا، والصواب: منظور بن زبان، منظور بن زبان بن سيار بن عمرو بن عقيل بن هلال الفزاري، صحابي، وشاعر. كان من سادات قومه، ويقال: طال حمله فولدته أمه أربع سنين. وفيه زل قوله تعالى {وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ} فقد خلف على امرأة أبيه وتزوجها بعد موته. عاش إلى خلافة عثمان بن عفان، وكانت وفاته نحو سنة ٢٥ هـ.

[2] هكذا، والصواب خولة ابنة منظور بن زبان: إحدى زوجات الحسن بن علي بن أبي طالب وولدت منه ابنها الحسن المثنى بن الحسن بن أبي طالب. وكانت من أجمل النساء وأفصحهن لساناً. وفيها قال شاعر من بعض بني فزارة وكان خطبها فلم ينكحها إياه أبوها:

قفا في دار خولة فاسألاها تقادم عهدها وهجرتماها
بمحلال كأن المسك فيه إذا هبت بأبطحة صباها
كأنكِ مزنة برقت بليل لحران يضيء لها سناها
فلم تمطر عليه وجاوزته وقد أشفى عليها أو رجاها
وما يملا فؤادي فاعلميه سلوُّ النفس عنك ولا غناها
وترعى حيث شاءت من حمانا وتمنعنا فلا نرعى حماها

فقالت: كرهتُ أن تقول النساء: احتفلتْ فلم تصنع شيئاً. فأما إذ جاء هذا فما أبالي ما كان. فقال لها الحسن: وابأبي أنت! فلما مات الحسن اشتد جزعها عليه، فقال زبان[1]:

نُبِّئْتُ خَوْلَةَ أَمْسِ قَدْ جَزِعَتْ ... مِنْ أَنْ تَنُوبَ نَوَائِبُ الدَّهْرِ

لَا تَجْزَعِي يَا خَوْلُ وَاصْطَبِرِي ... إنَّ الكِرامَ بُنُوا على الصَّبْرِ

قال: وحدثني رجلُ من بجيلة عن امرأة من بني العنبر يقال لها مهدية، قال: وكان لها بنون وإخوة فهلكوا حتى بقي لها ابنٌ فمات فقالت[2]:

أمنجابَ الأكارِمِ مَنْ لركبٍ ... أناخُوا جنبةً ودَنَوا أصيلا

أَمِنْجَابَ الْمَكَارِمِ عُدْ إِلَيْنَا ... لأَنْ نَشْفِي بِرُؤْيَتِكَ الْغَلِيلَا

كَأَنَّكَ لَمْ تَقُلْ لِلرَّكْبِ سِيرُوا ... وَلَمْ تَرْحَلْ عُذَافِرَةً ذَمُولَا[3]

---

[1] هكذا، والصواب منظور بن زبان.

[2] انظر: الاعتبار وأعقاب السرور لابن أبي الدنيا.

[3] ترحل: تضع الرحل على ظهر الناقة. والعُذافرة: والعظيمة الشديدة من الإبِلِ. والذمول من النوق: التي تسير سيراً فيه سرعة ولين.

وقال عن علي بن سليمان عن الحسن قال: الْخَيْرُ الَّذِي لا شَرَّ فِيهِ: الشُّكْرُ مَعَ الْعَافِيَةِ، وَالصَّبْرُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ؛ فَكَمْ مِنْ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ غَيْرِ شَاكِرٍ، وَمُبْتَلًى غَيْرِ صَابِرٍ[1].

مرثية توسعة بن أبي عتبان

وقال أبو الحسن[2]: قال جهم بن حسان: بلغني أن توسعة بن أبي عتبان[3] جزع على أخيه عتبة فقال يبكيه:

منع الرّقادَ تحوُّبي[4] ما أهجعُ ... ونبا بجنبي عن فِراشي مضجعُ

أعتيبَ قد كنتَ امرءاً لي جانبٌ ... حتّى رزئتكَ والجدودُ تضعضعُ

فلمن أقول إذا تلمُّ ملمَّةٌ ... أرني برأيك أمْ إلى مَنْ أفزعُ

قد كنتُ أنظرُ في المقامةِ سادراً ... فنظرتُ قصدي واستقام الأخدعُ

وفقدتُ إخواني الّذين بقربهمْ ... أعطي الدّنيّةَ مَنْ أشاءُ وأمنعُ

نِعْم الفتى من آلِ بكرٍ ألبسوا ... أثوابه في اللّحدِ ثمّ تصَدَّعوا

عنه وما طابتْ بذاك نفوسُهمْ ... ولكلِّ جنبٍ لا محالةَ مصرعُ

---

[1] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[2] في تعازيه.

[3] تَوْسِعة بن أبي عِتبان: شاعر من بني حَنتَم من بكر بن وائل.

[4] التحوُّب: صوت المتحسر المتوجع.

وجزعت عليه أختُه عمرة فقالت[1]:

قل للأرامِلِ واليتامى قد ثَوَى فلتبْكِ أعينُها على عتَّابِ
أودى ابنُ كلِّ مُخاطرٍ بتلادِهِ وبنفسِهِ بَقْياً على الأحسابِ
الرّاكبين من الأمورِ صدورَها لا يركبون مَعاقِدَ الأذنابِ

قال أبو الحسن: قال الهلالي: أغمي على سعيد بن المسيب فوجِّه (إلى القبلة) ثم أفاق فقال: ما هذا؟ فقيل له، فقال: أوليس وجهي لله – جل ذكره – حيث كان[2]!

وقال الهلالي: كان عثمان بن عفان، رحمه الله، إذا وقف على قبر بكى، فقيل له: يا أمير المؤمنين، إنك لتبكي عند القبر بكاءً ما تبكيه عند شيء! فقال: نعم، إنه آخر منازلِ الدنيا وأولُ منازل الآخرة، فإن شُدِّد على صاحبه فما بعده أشد، وإن هُوِّن على صاحبه فما بعده أهون. سمعت رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: "ما رأيتُ منظراً قطُّ إلا والقبرُ أفظعُ منه"[3].

---

[1] انظر أيضاً: تعازي المدائني.

[2] انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد.

[3] قال العراقي: أخرجه التِّرْمِذِيّ وَحسنه وَابْن مَاجَه وَالْحَاكِم وَصحح إِسْنَاده.

وقال الهلالي: لما حضرتْ معاويةَ الوفاةُ، قيل له: قل لا إله إلا الله. فضعف عنها، ثم قيل له فضعف، فثُلِّث عليه[1]. فقال: أولست من أهلها؟!

وقال الهلالي: أثني قوم على عوف الأعرابي[2] وهو في الموت، فقال: يا قوم، أمدونا بالدعاء، وأعفونا من الثناء.

باب الجُفاة[3] عند الموت

قال أبو العباس رحمه الله تعالى: ونذكر الجُفاة عند الموت:

أبو طالب

قال علي بن محمد عن علي بن مجاهد عن ابن إسحاق عن الزهري أن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لأبي طالب وهو في الموت: يا عم، قل لا إله إلا الله أشهد لكَ بها عند ربي. قال: يا بن أخي، لولا أن تكون سبةً عليك بعدي لأقررتُ بها عينَك[4].

---

[1] يعني كررت عليه ثلاثاً.

[2] عوف بن أبي جميلة. انظر: البيان والتبيين للجاحظ.

[3] الجفاة: البعيدون عن الحق والصواب. ويقصد بهم المبرد في هذا الفصل الذين نطقوا بالسوء عند موتهم.

[4] رواه مسلم في صحيحه، وابن خزيمة.

أبو جهل

وقال: قال الزهري: مر عبد الله بن مسعود بأبي جهل فقال: الحمد لله الذي أخزاكَ يا عدوَّ الله. قال: يا بنَ أمِّ عَبْد، ما أخزاني الله. لستُ بأول سيد قتله قومُه. إن أشد من ذلك عليَّ ألا يكون ولي مني ما تريد أن تليه، رجل من صميم المطيبين، فوضع ابنُ مسعود رِجله على عنقه فقال: أرويعياً بالأمس بمكةَ. لقد ارتقيتَ مُرتَقَىً صعباً[1].

عبدَ الله بنَ خازم

قال أبو الحسن: سئل وكيع بن الدورقية[2]: كيف قتلتَ عبدَ الله بنَ خازم[3]؟ قال: قعدتُ على صدره، وغلبته بفضل فتاء كان لي عليه وناديت: يا لثارات دويلة، يعني أخاه من أمه. وكان دويلة أخا وكيع من أمه، قتله عبد الله. قال:

---

[1] انظر: غريب الحديث لأبي عبيد.

[2] وكيعُ بنُ الدَّورقيّة، والدَّوْرَقِيّةُ هي أُمُّهُ، واسمُهُ وَكيع بنُ عُمَيرٍ القُرَيعِيُّ التَّمِيمِي، قَائِدٌ، شُجَاعٌ، مُشَارِكٌ فِي الحُرُوْبِ فِي خُرَاسَان، وهو الَّذِي قَتَلَ عَبْدَ الله بنَ خَازِمٍ السُّلَمي فِي قِصَّةٍ مَذْكُوْرَة، وفِي ذلك يَقُوْلُ الفَرَزْدَقُ:

كأنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ تَمِيمًا إِذَا دَعَتْ ... تَمِيمٌ وَلَمْ تَسْمَع بِيَوْمِ ابنِ خَازِمِ

[3] عبد الله بن خازم بن أسماء بن الصلت السلمي: أمير خراسان، شجاع مشهور، وبطل مذكور كبش مضر، وفارسها في عصره.

وكنت طعنتُه في شدقه، فجمع ما كان في فيه من الدم والريق فتنخم به، فملأ وجهي وقال: قبَّحك الله، أتقتل كبشَ مضر بأخ لك لا يساوي كفَّ نوى!

قال: وكان ابن هبيرة يقول: هذه والله البسالةُ، لقُدرتِهِ على كثرة ريقه عند الموت[1].

طريف بن نافع الباهلي

وقال عبد الله بن قائد: كان طريف بن نافع الباهلي[2] عالماً بالنسب، فلما ثقل قال لقومه وهو في الموت: بلُّوا فمي بماء، فعصروا في فيه ماءً بقطنة، ثم قال: أجلسوني فأجلسوه فقال: فلانٌ ليس لأبيه الذي يدعى له. فقيل له: أتقول هذا وأنت على هذه الحال! فقال: خفت أن أموت وأنتم في شك منه، ثم أضجعوه فمات.

---

[1] انظر: غريب الحديث لابن قتيبة وعيون الأخبار له أيضاً.

[2] لم أجد له ترجمة.

بجرة بن فراس القشيري

وقال يعقوب بن عوف عن عبد الله بن أبي بكر أن بجرة بن فراس القشيري[1] قيل له وقد نزل به الموتُ: قل لا إله إلا الله، قال: أشهد أن أبا الزاهرية أو أبا حرب نِعْم الفارس كان يوم النخيل، ثم مات.

---

[1] هكذا بجرة، والصواب: بَيْحَرَة، ابن فراس بن عبد الله بن سلمة الخير بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. قاله ابن هشام. وكان من أمره ما رواه ابن كثير في البداية والنهاية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسَه. فقال له رجل منهم يقال له: بيحرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من يخالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: "الأمر لله يضعه حيث يشاء". فقال له أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك. وله خبر آخر ورد في معرفة الصحابة لأبي نعيم، عن عَنْ أَشْيَاخٍ من بني عامر، قَالُوا: أَتَانَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ بِعُكَاظٍ فَدَعَانَا إِلَى نُصْرَتِهِ وَمَنْعَتِهِ فَأَجَبْنَاهُ، إِذْ جَاءَ بَيْحَرَةُ بْنُ فِرَاسٍ الْقُشَيْرِيُّ، فَغَمَزَ شَاكِلَةَ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَمَصَتْ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَلْقَتْهُ، وَعِنْدَنَا يَوْمَئِذٍ ضُبَاعَةُ بِنْتُ عَامِرِ بْنِ قُرْطٍ، وَكَانَتْ مِنَ النِّسْوَةِ اللَّاتِي أَسْلَمْنَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ، جَاءَتْ زَائِرَةً إِلَى بَنِي عَمِّهَا، فَقَالَتْ: يَا آلَ عَامِرٍ، وَلَا عَامِرَ لِي، أَيُصْنَعُ هَذَا بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ لَا يَمْنَعُهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ؟ فَقَامَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ مِنْ بَنِي عَمِّهَا إِلَى بَيْحَرَةَ، فَأَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ رِجْلًا فَجَلَدَ بِهِ الْأَرْضَ، ثُمَّ جَلَسَ عَلَى صَدْرِهِ، ثُمَّ عَلَّقُوا وَجْهَهُ لَطْمًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهُمَّ بَارِكْ عَلَى هَؤُلَاءِ» فَأَسْلَمُوا فَقُتِلُوا شُهَدَاءَ.

همام بن قبيصة الفزاري

وقال عوانة: قال الحَجَّاج لوازِعِ بنِ ذؤالة الكلبي[1]: كيف قتلتَ همامَ بنَ قبيصة الفزاري[2]؟ قال: مر بي والناس منهزمون، ولو شاء أن يفوتني فعل، فلما رآني قصدني فضربني وضربتُه، وسقط وحاول القيام فلم يقدر عليه، وقال وهو في الموت:

تَعِسْتَ ابْنَ ذاتِ البَظْرِ أَجهِزْ عَلى امرِئٍ يَرى الْمَوتَ خَيراً مِن فِرارٍ وَأَكرَما
وَلا تَتَرُكَنِّي بالحشاشَةِ إِنَّني صَبورٌ إِذا ما النِّكسُ مِثلُكَ أَحجَما

فدنوتُ منه. فقال: أجهزْ عليَّ قبَّحك الله، فقد كنتُ أحبُّ أن يلي هذا مني أربطُ جأشاً منك. فاحتززتُ رأسَه فأتيتُ به مروانَ وأخبرته الخبر، فقال: لا تبعد رجالات قيس!

---

[1] الوازِع بن ذُؤالَة الكلبي: ينتسب إلى قبيلة كلب بن وبرة، قيل: (ربما كان أخاً للأصبع بن ذؤالة بن لقيم بن عجا بن زامل من بني عامر الأكبر من فرسان كلب وسادتها، كان قد قتله مروان بن محمد بحمص).

[2] همّام بن قبيصة بن مسعود بن عمير العامري النميري: سيد قومه في زمن يزيد بن معاوية، وأحد شجعان العصر الأموي. كان من أنصار عثمان بن عفان، وقاتل مع معاوية في صفين وارتجز فيها وهو يحمل لواء هوازن: (كل تلادي وطريف مالي في نصر عثمان ولا أبالي) ثم كان ممن أبى بيعة مروان بن الحكم، وانفرد مع الضحاك بن قيس في جمع كبير فقاتلهم مروان، فقُتل همام بمرج راهط بنواحي دمشق.

زياد بن عمرو العقيلي

قال أبو عبد الرحمن التميمي: جاء رجل من كلب برأس زياد بن عمرو العقيلي[1] إلى مروان، فقال له مروان: من قتل هذا؟ قال: أنا. قال: كذبت! هذا أشرف وأشجع من أن تقتلَه. قال: أنا، والله، قتلتُه، مَرَّ بي يعدو به فرسُه وهو يقول:

قد طاب وِرْدُ الموتِ مروانَ فَرِدْ لا تحسبنَّ العيشَ أدنى للرَّشَدْ

لا خيرَ في طولِ الحياةِ في كبدْ

فطعنتُه فسقط، ثم نزلتُ إليه وهو يجود بنفسه ويقول:

بُعداً وسحقاً لامرئٍ عاش في ذلٍّ وفي كفَّيهِ عَضْبٌ صَقيل

وقال يزيد بن قحيف: لما قتل حلحلةُ بنُ قيس وسعيدُ بن عيينة[2] من قتلا من كلب، رجعوا إلى خيبر فأقاموا. فلما ظفر عبد الملك استعداه الكلبيون وقالوا: دماءنا! فأخذ عبد الملك سعيداً وحلْحلةَ. فأما سعيدٌ فكان يسبِّح

---

[1] زياد بن عمرو بن معاوية العقيلي: كان على ميمنة الضّحّاك بن قيس الفهري يوم مرج راهط.

[2] حلحلة بن قيس بن الأشيم الفزاري القيسي: قُدِم به دمشق أسيراً في أيام عبد الملك بن مروان، هو وسعيد بن أبان بن عيينة بن حصن الفزاري، وهما رئيسا فزارة، فقتلهما عبدالملك.

ويستغفِر، وأما حلْحلةُ فقال: أرحْنا منكَ يا بن الزرقاء[1]، فلو ملكتُها منكَ لما تركتُكَ طرفةَ عين. وقال:

وإنْ أكُ مقتولاً أُقادُ برُمَّتي فمن قبل قتلي ما شفى نفسيَ القتلُ
وقد تركتْ حربي رفيدة كلّها محالفها في دارها الجوعُ والذُّلُّ
ومن عبدِ وُدٍّ قد أبرَّتْ قبائلاً فغادرتهمْ كَلاًّ يطيفُ به كَلُّ

وقال أيضاً:

لعمري لئن شَيْخا فزارةَ أُسْلِما لقد خزيتْ قيسٌ وقد ظفرتْ كلبُ
فلا تأخذوا عقلاً وخصّوا بغارةٍ بني عبدِ ودٍّ بين دومةَ والهضبِ
سلامٌ على حَيَّيْ عديٍّ ومازنٍ جميعاً وخُصَّا بالسّلامِ أبا وهبِ

أبو وهب هو زبان بن منظور بن زبان. فقال لما بلغه قولُه وخصا بالسلام أبا وهب: رحمك الله أبا ثوابة، لقد كفيتنا العار والنار، وأدركتَ الثار، وللقوم فينا فضل، فلم تخصصنا عليهم، وقد ظلمتهم!

فلما دُعِي به ليقتل قيل له: اصبر حلحل، فبرك وقال:

أصبرُ من عودٍ بجنبيه الجلبْ قد أثَّر البطان فيه والحقبْ

وقال:

---

[1] والزرقاء إحدى أمهات مروان بن الحكم وكان يُسَب بها.

أصبر من ذي ضاغطٍ عركك ألقى بواني زوره للمبرك

ومد عنقه فقتله رجل من بني عبد وُدّ.

مسلم بن عقبة المري

وقال عوانة ويزيد بن عياض إن مسلم بن عقبة المري[1] لما قتل أهلَ المدينة وتوجَّه إلى مكةَ فنزل به الموتُ، بثنية هرشا أو بقفا المشلل، فدعا حصين بن نمير السكوني[2] فقال: يا برذعةَ الحِمار، إن أمير المؤمنين عهد إليَّ إن نزل بي الموتُ أن أولِّيَك، وأكره خلافَه عند الموت، ولولا ذلك لكان الوالي حبيش بن دلجة فإنه أولى بذلك منك. احفظ عني ما أقول لك: لا تطيلن المقام

---

[1] مسلم بن عقبة بن رباح المري الذبياني الغطفاني: قائد الجيش الذي أرسله يزيد بن معاوية إلى موقعة الحرة، توفي وهو في طريقة إلى مكة لقمع ثورة عبد الله بن الزبير، وهو قائد من الدهاة القساة في العصر الأموي. أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وشهد صفين مع معاوية وكان فيها على الرجّالة، وقلعت بها عينه، وولاه يزيد بن معاوية قيادة الجيش الذي أرسله للانتقام من أهل المدينة بعد أن أخرجوا عامله منها.

[2] الحُصَيْنُ بْنُ نُمَيْرِ بْنِ نَائِلِ السُّكُونِيُّ الْكِنْدِيُّ: كان قائداً عسكرياً في الدولة الأموية. قاتل في موقعة صفين وكان قائد قسم من جيش مسلم بن عقبة الذي استباح المدينة المنورة ثم قاد بقية الجيش عقب وفاة ابن عقبة المري وفق رغبة يزيد بن معاوية، وحاصر عبد الله بن الزبير وضرب الكعبة بالمنجنيق. وقاتل في ثورة التوابين وقتل حبيب بن مظاهر الأسدي وعلق رأسه على رقبه حصانه. كان له دور كبير في جمع القبائل اليمانية في الشام لنصرة مروان بن الحكم وله أثر بارز في معركة مرج راهط.

بمكة، فإنها أرض جردة محتدمة الحر، ولا تصلح الدواب بها، ولا تمنع أهل الشام من الحملة، ولا تمكِّن قريشاً من أذنك، فإنهم قوم خدع. ليكن أمرُك الوِقاف ثم الثِّقاف ثم الانصراف[1]. ولئن دخلتُ النارَ بعد قتلي أهلَ الحَرَّة إني إذن لشَقِيٌّ.

وقال عثمان بن الضحاك عن ذكوان مولى مروان قال: بعث يزيد بطبيب إلى مسلم فقال مسلم للطبيب: ويحك، إنما كنت أحب أن أبقى حتى أشفي نفسي من قتلة عثمان، وقد أدركت ما أردت. فما شيء أحب إليَّ من الموت على طهارتي قبل أن أُحدِث حدثاً. فإني لا أشك في أن الله عز وجل طهرني من ذنوبي بقتل هؤلاء الأرجاس.

[1] الوِقاف: الوقوف للحرب، والثقاف: الخصام والمجالدة، يريد: لا تكن إلا على الحرب ولا تكن على المهادنة أو تنصرف.

مسلم بن عقبة

وقال ابن جعدبة: قال مسلم بن عقبة[1] وهو بالموت لحصين بن نمير[2]: إنك تقدم على قوم لا عدة ولا سلاح لهم، جبال مشرفة عليهم، فانصبْ عليهم المنجنيقَ في موضعين بين جبلين فإن تعوذوا بالبيت فارمِهِ، فما أقدرك على بنائه. ومات.

وقال حمزة بن إبراهيم بن مضرس: قيل لرجل من بني قريع: قل لا إله إلا الله وقدِّم خيراً فقال:

يا رُبَّ قائلةٍ يوماً وقد لَغِبَتْ كيف الطَّريقُ إلى حمَّامِ مِنْجابِ

ومات مِنْ ساعتِه[3].

---

[1] مسلم بن عقبة بن رباح المري الذبياني الغطفاني: قائد الجيش الذي أرسله يزيد بن معاوية إلى موقعة الحرة، توفي وهو في طريقة إلى مكة لقمع ثورة عبد الله بن الزبير، وهو قائد من الدهاة القساة في العصر الأموي. شهد صفين مع معاوية وكان فيها على الرجّالة، وقلعت بها عينه، وولاه يزيد بن معاوية قيادة الجيش الذي أرسله للانتقام من أهل المدينة بعد أن أخرجوا عامله منها.

[2] الحُصَيْنُ بْنُ نُمَيْرِ بْنِ نَائِلِ السُّكُونِيُّ الْكِنْدِيُّ: كان قائداً عسكريا في الدولة الأموية. قاتل في موقعة صفين وكان قائد قسم من جيش مسلم بن عقبة الذي استباح المدينة المنورة ثم قاد بقية الجيش عقب وفاة ابن عقبة المري وفق رغبة يزيد بن معاوية وحاصر عبد الله بن الزبير وضرب الكعبة بالمنجنيق

[3] انظر: المجالسة وجواهر العلم للدينوري. والبيت له قصة مشهورة.

وقال عبدة العنبري: قيل لعبد الله بن شعبة بن القِلْعِم[1]: لو قدمتَ لنفسك خيراً، فقال لبنيه: يا بَنِيَّ إنَّ قوماً يقولون لكم بعدي: اقضُوا دَيْن أبيكم عنه، فلا تفعلوا، فإن لأبيكم ذُنوباً كلها أعظم من الدَّين. اللهم، إن تغفر تغفر جَمّاً[2]. فبكت امرأته، فقال: لا تعصري عينيك عليَّ، وإذا متُّ فاركبي بغلاً قوياً وطوفي اليمن وانظري أطول بني تميم رقبةً فتزوجيه. فلما هلك تزوجها أبو شيخ بن العرق الفُقَيْمي[3].

---

[1] عبدالله بن شُعْبَة بْن القِلْعِمْ بْن خفاف بْن عَبْد يغوث بْن سنان بْن ربيعة بْن كابية بْن حرقوص، كَانَ أبوه شعبة شريفًا فِي زمن زياد، وكان لسنًا، وبعثه الحجاج إلى عَبْد الملك ومعه مال، فهلك بالشام. فولد شُعْبَةُ: عَبْد اللَّه وعمر وخالدًا.

٢ انظر: أنساب الأشراف للبلاذري.

[3] أَبُو شَيْخٍ ابن العرق الْفُقَيْمِيُّ: كان يضرب به المثل في اللحن في القرآن؛ قال القفطي في إنباه الرواة على أنباه النحاة عن بكر بن حبيب السهمي، من سهم باهلة: لقيني أبو شيخ، فقال: يا أخا باهلة، أما وجدت أحداً يُضرب به المثل غيري!

لبيد

وقال: لما حضرتْ لبيدَ بنَ ربيعة[1] الوفاةُ قال لبني عمِّه: أسمعوني كيف تبكون عليَّ. فقال رجال منهم أشعاراً لم يرضَها، فقال بعضهم[2]:

لتبكِ لبيداً كلُّ قِدْرٍ وجَفنةٍ وتبكِ الصَّبا من فادَ وهو حَميدُ

الفرزدق

ولما حضرتِ الفرزدقَ الوفاةُ قال لأهله ومن اجتمع إليه من قومه:

أَرُونِي مَنْ يَقُومُ لَكُمْ مَقَامِي إِذَا مَا الْأَمْرُ جَلَّ عَنِ الْعِتَابِ

إِلَى مَنْ تَفْزَعُونَ إِذَا حَثَيْتُمْ بِأَيْدِيكُمْ عَلَيَّ مِنَ التُّرَابِ

فقالت مولاتُه له: إلى الله. فقال: وأنتِ تعيشين في مالي؟! امحُوا اسمَ الخبيثة من الوصية[3].

---

[1] لَبِيْدُ بْنُ رَبِيْعَةِ بْنُ مَالِكٍ العَامِرِي (ت ٤١ هـ) صحابي وأحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، عمه ملاعب الأسنة وأبوه ربيعة بن مالك المكنى بـ«ربيعة المقترين» لكرمه. من أهل عالية نجد، مدح بعض ملوك الغساسنة مثل: عمرو بن جبلة وجبلة بن الحارث. أدرك الإسلام، ووفد على النبي مسلماً، لذا يعد من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم. وترك الشعر فلم يقل في الإسلام إلا بيتًا واحدًا. سكن الكوفة وعاش عمراً طويلاً. وهو أحد أصحاب المعلقات.

[2] انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري.

[3] انظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا، وحماسة البحتري، وديوان الفرزدق البيت الأول فقط.

الأحوص

وقال المدائني: لما هلك الأحوصُ بنُ محمد بن عبد الله بن ثابت الأنصاري[1] كان آخرَ ما قال، ورأسُه في حِجر جارية له يقال لها بشرة[2]:

وما لجديدِ الْمَوْتِ يا بشْرَ لذّةٌ وَكُلُّ جَديدٍ تُستَلَذُّ طَرَائِفُهْ
فَلا ضَيرَ، إنَّ اللهَ يَا بشْرَ سَاقني إلى منزلٍ فيه تكون خلائفُهْ
فَلَستُ، وَإنْ عَيشٌ تَوَلَّى، بِجازِعٍ وَلا أنا مِمّا حَمَّلَ الموْت خائِفُه

وقال عوانة: لما حُضِر بأخرة[3] قيل له: قل لا إله إلا الله. قال: قد بلغ الأمر إلى هذا؟[4]

---

[1] عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت الأنصاري: من شعراء العصر الأموي، توفي بدمشق سنة ١٠٥ هـ، لقب بالأحوص لضيق في عينه، شاعر إسلامي أموي هجّاء، كان معاصراً لجرير والفرزدق. وفد على الوليد بن عبد الملك في دمشق الشام فأكرمه ثم بلغه عنه ما ساءه من سيرته فرده إلى المدينة وأمر بجلده فجلد ونفي إلى دهلك وهي جزيرة بين اليمن والحبشة، كان بنو أمية ينفون إليها من يسخطون عليه. وبقي بها إلى ما بعد وفاة عمر بن عبد العزيز فأطلقه يزيد بن عبد الملك، فقدم دمشق وعاش بها بقية حياته.

[2] الأبيات في أمثال العرب للمفضل الضبي.

[3] هكذا.

[4] انظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا.

وقال مغلس بن عبد الله المحاربي: كنت بساباط فسمعت غلاماً يصيح واسيداه، يعني نوفل بن صالح مولى بني جعفر، فأتيته فإذا هو يجود بنفسه. فقلت: أبا صالح، قل لا إله إلا الله، فأبى وقال:

أيا ويحَ نفسْي حسْبُ نفسْي الَّذي بها ... ويا ويْحَ أهْلي ما أُصِيبَ به أهْلي[1]

فقلت: قل لا إله إلا الله. فأبى، وجعل يردِّد هذا البيت حتى قُبض.

وقال يونس بن حبيب: لما حضرت أخاه[2] الأَبَحَّ الكِندي[3] الوفاة قيل له: قل لا إله إلا الله، فلما أكثروا عليه جعل يتقلب على جنبه ويقول:

وقد حِيلَ بين العَيْرِ والنّزوانِ[4]

وقال أبو عمرو المدني وغيره: إن سالم بن دارة وهي أمه، وأبوه مسافع بن عقبة، من بني عبد الله بن غطفان، وقع بينه وبين زُمَيْل بن أم دينار وأبوه أبير، من بني فزارة شر، فضربه، فجرحه أبير، فأدخل المدينة، وحُمل إلى عثمان

---

[1] البيت لجميل بن معمر العذري، من قصيدته التي يقول فيها:

لَقَدْ فَرِحَ الوَاشُونَ أَنْ صَرَمَتْ حَبْلي ... بُثَيْنَةُ أَوْ أَبْدَتْ لَنَا جَانِبَ البُخْلِ

[2] هكذا. ولم أعرف على من يعود الضمير.

[3] معنى الأَبَحّ: السمين.

[4] هذا شطر بيت سبق ذكره لصخر بن عمر أخي الخنساء، وشطره الأول: أهم بأمر الحزم لو أستطيعه. وهو مثل يقال للرجل يحال بينه وبين مراده.

بن عفان، فأمر عثمانُ الطبيب فنظر ما مبلغ جرحه ثم أمره فداواه، فأفاق من وجعه، فدستْ أمُّ البنين بنت عيينة بن حصن، وهي امرأة عثمان، إلى الطبيب دينارين[1]. وقال قوم: بل أعطاه ذلك منظورُ بنُ سيَّار[2] فسَمَّ جرحَه، فانتقض، فقال لأبيه وهو بالموت يحضه على قتل منظور:

أبلغ أبا سالمٍ عَنِّي مغلغلةً ... فلا تكوننَّ أدنى القومِ للعارِ
لا تأخذنْ مئةً عَنِّي مكمَّلةً ... وإن أتاك بها تُحْدَى ابنُ عمَّارِ
لو كان زيدٌ هو المقتولُ لاعتَرَفُوا ... وسطَ الدِّيار غلاماً غيرَ عوَّارِ

ومات مِنْ يومه. فقال أبوه: إن ابني عقَّني في حياته، وكلَّفني تَعَباً بعد موته[3].

---

[1] ظاهر الرواية أنها دست الدينارين للطبيب كي يقتله.. وهذا زعم مرسل لا بينة عليه. ونعوذ بالله من البهتان.

[2] منظور بن زبان بن سيار: صحابي، سبقت ترجمته.

[3] انظر: جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار، وأنساب الأشراف للبلاذري.

امرأة من بني نمير

وقال أبو الحسن: قال أبو العباس: وحدَّثنيه أبو عثمان المازني[1]، وحدَّث به أبو الحسن عن عبد الله بن مسلم قال: قيل لامرأة من بني نُمَير: أوصي[2]، فحدثني أبو عثمان المازني أنها قالت: ما أحبُّ أن أوصي. قيل: إن لك في ذلك لأجراً، قالت: من الذي يقول:

لعمرُكَ ما رماحُ بَني نُمَيرٍ بطائشةِ الصُّدورِ ولا قِصارا

قالوا: زياد الأعجم[3]، قالت: وممن هو؟ قالوا: من بني نمير قالت: فثُلُثي لبني نمير[4].

---

[1] كان المازني من أبرز شيوخ المبرد.

[2] يعني أوصي بجزء من مالك بعد موتك للمساكين. وتكون الوصية في حدود الثلث من صافي تركة الميت بعد تجهيزه وأداء ديونه.

[3] زياد بن سليم المعروف بزياد الأعجم: من شعراء الدولة الأموية، وهو مولى قبيلة عبد القيس، قال ابن قتيبة: كان ينزل إصطخر، وكانت فيه لكنة، فذلك قيل له الأعجم.

[4] جاء في أخبار النحويين البصريين للسيرافي: (قالوا: من عبد القيس. قالت: فثلثي لعبد القيس). وجاء عند ابن العديم في كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب: حضرت امرأة من بني نمير الوفاة فقيل لها: أوصي، فقالت: نعم، خبروني من القائل: (لعمرك ما رماح بني نمير بطائشة الصدور ولا قصار) فقيل لها: زياد الأعجم، فقالت: أشهدكم أن له ثلث مالي، فحُمل له من مالها أربعة آلاف درهم.

وقال أبو الحسن عن كليب بن خلف قال: مرضتْ عجوز من بني نمير فأتوها بعطاء ابنها، وكان غائباً، فقالوا: هذا عطاءُ ابنك، وقد نقصناه درهمين. قالت: ولم؟ قالوا: قتل رجلٌ من بني نمير رجلاً من بني سلول، فحملنا الدية شيئاً تراضوا به، فتناولتْ درهمين آخرين فألقتهما إليهم وقالت: قولوا له يقتل آخر، وادفعوا هذين في الدية، فضحكوا وخرجوا، فما غابوا حتى ماتت.

الحطيئة

وقال عوانة: قيل للحطيئة[1] عند موتِه: لك مالٌ فأوصِ منه للمساكين: قال: بل أوصيهم بإلحاف المسألة، قيل: فأعتقْ غلامَك سيار، قال: هو عبد ما بقي على ظهر الأرض عبسيٌّ، قيل: فأوصِ فإن لك بنات، قال: مالي كله للذكور دون الإناث، قالوا: إن الله جل ذكره لم يقل هكذا، قال: لكني أقوله، وأوصيكم بالأيتام شراً، كلوا أموالهم، وانكِحوا أمهاتهم، واحملوني على حمار، فلعلي لا أموت، فإنه لم يمت عليه كريم قط، وويل للشعر من راوية السوء[2].

---

[1] جرول بن أوس بن مالك العبسي المشهور بـ الحطيئة: شاعر مخضرم أدرك الجاهلية وأسلم في زمن أبي بكر. ولد لدى بني عبس من أَمةٍ اسمها (الضراء) دعِيًّا لا يُعرفُ له نسب فشبّ محروماً مظلوماً، لا يجد مدداً من أهله ولا سنداً من قومه فاضطر إلى قرض الشعر يجلب به القوت، ويدفع به العدوان، وينقم به لنفسه من بيئةٍ ظلمته، ولعل هذا هو السبب في أنه اشتد في هجاء الناس، ولم يكن يسلم أحد من لسانه حتى إنه هجا أمّه وأباه بل إنّه هجا نفسه.

[2] انظر: أنساب الأشراف للبلاذري.

وقيل له وهو يجود بنفسه: قل لا إله إلا الله، فتمثل قول الشماخ:

فظلَّتْ بيمؤودٍ كأنَّ عيونَها إلى الشَّمسِ هل تدنو رُكِيٌّ نواكزُ[1]

وقال أبو الحسن عن أبي خيران الحماني عن عوف الأعرابي عن أبي رجاء العطاردي قال: رأيت رجلاً مصْطَلَم الأُذُن[2] فقلت: أخلقةٌ أم حادث؟ قال: بل حادث. بينا أنا يوم الجمل أجول في القتلى، مررت برجل منهم ينشد:

لَقَدْ أَوْرَدَتْنا حَوْمَةَ الْمَوْتِ أُمُّنَا فما صَدَرَتْ إِلَّا وَنَحْنُ رِوَاءُ
أَطَعْنَا قُرَيْشًا ضَلَّةً مِنْ حُلُومِنَا وَنُصْرَتُنَا أَهْلَ الْحِجَازِ عَنَاءُ
لقد كان عنْ نَصرِ ابْنِ ضبَّةَ أمَّهُ وشيعتَها مَندوحَةٌ وغَناءُ
أَطَعْنا بني تيْمِ بنِ مرَّةَ شِقوةً وهل تيْمُ إلاّ أعْبُدٌ وإماءُ

فقلت: مَنْ أنت؟ قال: ادْنُ مني أخبرْك. فدنوت منه فأزم بأذني فقطعها وقال: إذا أتيتَ أمَّك فأخبرْها أن عمير بن الأهلب فعل ذلك بي، ومات[3].

---

[1] هو الشماخ بن ضرار، والبيت من قصيته التي يقول فيها: كأنّ قتودي فوق جأب مطرّد ... من الحقب لاحته الجداد الغوارز. ويمؤود: واد بعطفان. هل: بمعنى إذ، أي حين تدنو. الركي: الآبار. النواكز: الغوائر، نكزت البئر تنكز نكوزاً: إذا ذهب ماؤها.

[2] صلَم أذنَه :استأصلها، قطعها من أصلها، ويغلب استعماله للأذن والأنف.

[3] انظر: أنساب الأشراف للبلاذري، ومكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا.

وقال أبو الحسن عن عامر بن حفص قال: بلغني أن رجلاً من بني الهجيم[1] قال وهو بالموت:

كيفَ تَرَاني والمنايا تَعْتَرِكْ تنهضُ أحياناً وحيناً تبتركْ

وقال أبو الحسن عن عامر بن الأسود: ثقل وكيع بن أبي سود[2] فأشرف عليه عدي بن أرطاة[3] وهو يومئذ أمير البصرة من دار الإمارة، فقال: كيف أصبحتَ يا أبا المطرف؟ قال: أصبحت وثاباً جرياً، فضحك عدي ورجع. فما جلس حتى سمع الواعية عليه[4].

---

[1] صرح البلاذري في أنساب الأشراف باسمه فقال: فمن بني الهجيم: قُطَيْبة، وكان شاعرًا. وقال ابن دريد في الاشتقاق: ومنهم قُطَيبة. وقطيبة: تصغير قُطْبَة، وهو النَّصل الصغير الذي يُرمَى به.

[2] وكيع بن حسان بن قيس بن أبي سود الغُدَاني اليربوعي التميمي (٣٠ – ١٠١ هـ) أمير خراسان، وفاتك مشهور، وفارس شجاع مقدام لا يقوم له أحدُ عند اللقاء، وأحد قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ويعد من سادة بني تميم، شارك في الفتوحات الإسلامية في سجستان، وخراسان، وينسب إليه فتح مدينة بخارى التي تعد من أكبر مدن بلاد ما وراء النهر، وكذلك شارك في فتح الصغد. وكان من بيت شرف في تميم، وأبوه هو الصحابي حسان بن قيس الغداني.

[3] عدي بن أرطاة الفزاري الدمشقي (ت ١٠٢هـ) تابعي محدِّث من رواة الحديث ويعد من الثقات من أهل دمشق وكان مِن العُقلاء الشُجعان، وقد روى له الْبُخَارِي، ولاه عمر بن عبد العزيز أميراً على البصرة عام ٩٩ هـ واستمر عليها حتى قامت فتنة يزيد بن المهلب في العراق حيثُ قتله معاوية بن يزيد بن المهلب. والده هو الصحابي أرطاة الفزاري وأخوه زيد بن أرطاة الفزاري.

[4] انظر: أنساب الأشراف للبلاذري. والواعية: النائحة على الميت ترفع صوتها.

وقال حمزة بن إبراهيم: قال لَبَطَةُ بنُ الفرزدق: لما ظننا أن أبي قد احتُضِر بكينا حوله، ففتح عينيه ثم قال: أعليَّ تبكون؟ فقلنا: أفعلى ابنِ المراغة[1] نبكي؟ قال: أو ههنا موضعُ ذكرِه؟ ثم أُغمي عليه، فلما أفاق قال:

إذا ما دبَّتِ الأنقاءُ فوقي وصاح صدىً عليَّ مع الظّلامِ

لقد شَمَتَتْ أعاديكمْ وقالت أدانيكم مِنَ ايْنَ لنا المحامي؟

وقال أبو الحسن عن كليب بن خلف قال: قال وكيعُ بنُ أبي سود عند موته لأهله وولده: إني إذا متُّ جاءكم قومٌ قد سوَّدوا جباهَهم، ونشروا لحاهم، وعرضوا نعالهم، يقولون إنَّ على أبيكم دَيْناً فاقضوه، فلا تقضوا عني شيئاً، فإن على أبيكم من الذنوب ما إن غفرها الله فالدَّين من أيسرها[2].

---

[1] ابن المراغة هو لقب للشاعر جرير هجاه به الفرزدق في قصيدته التي قال فيها:

يا اِبنَ المراغَةِ وَالهِجاءُ إِذا اِلتَقَت أَعناقُهُ وَتَماحَكَ الخَصمانِ

ما ضَرَّ تَغلِبَ وائِلٍ أَهجَوتَها أَم بُلتَ حَيثُ تَناطَحَ البَحرانِ

وهذه القصيدة واحدة من النقائض التي دارت بين جرير والفرزدق. قال ابن عباد: المراغة الأتان لا تمنع الفحولة؛ وبذلك هجا الفرزدق جريراً. وقال بعضهم: المراغة أم جرير لقَّبها به الأخطل. يريد: أنها كانت مراغة للرجال.

[2] انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة.

بكير بن معدان

قال أبو الحسن عن عامر بن الأسود قال: قيل لأبي السفاح بكير بن معدان[1]: أوصِ، قال: إنا الكرامُ يوم طخفة[2]. قالوا: إنك في الموت فقل خيراً وتشهَّدْ. قال: غلامي إذا مات فهو حُرّ[3].

قال أبو الحسن: قال دحيم وهو بالموت:

قد وردتْ نفسي وما كادتْ تَرِدْ ... قد كنتُ ذا أزرٍ شديدِ المعتَمَدْ

وكنتُ ذا شَغبٍ على الخَصمِ الألدّْ ... قد جاء قِرنٌ ليس بالقِرنِ يُرَدّْ

ثم هلك[4].

قال أبو الحسن: قيل لرجل وهو مريض: قل لا إله إلا الله. فقال: لم يأْن لذلك بعد[5].

---

[1] السَفّاح بن بُكَير بن معدان اليربوعي: شاعر روى له صاحب المفضليات قصيدة في رثاء يحيى بن شداد بن ثعلبة، من بني يربوع.

[2] يوم طفخة، لبني يربوع من تميم على عساكر النعمان بن المنذر ملك الحيرة. وطخفة ماء في بلاد نجد على طريق البصرة مكة.

[3] انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة. وإن تعجب فاعجب لهذا الذي يحرر عبده إذا مات العبد.

[4] انظر: المحتضرين لابن أبي الدنيا ومكارم الأخلاق له أيضاً، وقد سماه هرداناً. ونسب هذا الشعر ابن قُتيبة وصاحب الأغاني إلى الحُطيئة لما حضرته الوفاةُ.

[5] في عيون الأخبار لابن قتيبة اسمه: أوس بن حارثة.

وقيل لهَرِم بنِ حيَّان[1]: أوصِ. فقال: صدقتني في الحياة نفسي، ما لي مالٌ أوصيكم به، ولكني أوصيكم بخواتيم سورة البقرة[2].

وأخبر أبو الحسن[3] عن شعبة بن عبد الله الأنصاري قال: عزَّى إياسُ بنُ معاوية[4] رجلاً عن ابنه فقال: لا يُنقص اللهُ عدَدَك، ولا يُزِل نعمةً عنك، وعجل الله لك من الخَلَف خيراً مما رُزئتَ به[5].

وعزى آخر رجلاً فقال: إن فيما عوَّضك الله من الأجر خيراً مما فَجَعَك به من الرَّزية[6].

---

[1] هرم بن حيان: تابعي كان عاملاً لعمر بن الخطاب وأحد العابدين.

[2] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني. وفيهما سورة النحل بدل سورة البقرة.

[3] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[4] إياس بن معاوية بن قُرَّةَ المزني: كان قاضياً في البصرة وهو من التابعين، وُلِد سنة ٤٦ للهجرة في منطقة اليمامة في نجد، وانتقل مع أسرته إلى البصرة، وبها نشأ وتعلَّم، حتى بلغ مبلغاً جعل الشيوخَ، يخضعون له، ويأتمُّون به، ويتتلمذون على يديه على الرغم من صغر سنه.

[5] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[6] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

وقيل لأعرابية: ما أحسَنَ عزاءَكَ عن ابنِك! فقالت: إن فقْدانِيه أمَّنني من المصائب بعده[1].

وقال: أخبرني سعيد عن رجل منهم قال: خرجتُ إلى اليمن فنزلتُ على امرأة منهم، فرأيتُ مالاً كبيراً ورقيقاً وولداً وحالاً حسنة، فأقمتُ حتى قضيتُ حاجتي. فأردتُ الرحيل فقلتُ لها: ألك حاجة؟ قالت: نعم، كلما نزلْتَ هذه البلادَ فانزِلْ عليَّ، فغبرتُ أعواماً، ثم أتيتُ اليمن، فأتيتُ منزلَ المرأة فإذا حالتُها قد تغيرتْ، وذهب رقيقُها، ومات ولدها، وباعت منزلها، وإذا هي مسرورةٌ بحالها، ضاحكة. فقلتُ: أتضحكين مع ما قد نزل بك؟ قالت: يا عبد الله، كنتُ في حال النعمة ولي أحزان كثيرة، فعلمتُ أن ذلك من قلة الشكر، فأنا اليوم في هذه الحال أضحكُ شكراً لله على ما أعطاني من الصبر. فقلت لعبد الله بن عمر: ما رأيتَ منها؟ فقال: ما كان صبرُ أيوبَ النبي عليه السلام إلى هذه بشيء[2].

---

[1] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[2] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

وقال سفيان: شكا الربيع بن أبي راشد[1] إلى محارب بن دثار[2] إبطاء خبر أخيه جامع. فقال له محارب: إن لم تكن وطنتَ نفسَك على فراق جامع فأنت عاجز[3].

وقال: محمد بن أبي محمد: بلغني أن الإسكندر مر بمدينة قد ملكها أملاكٌ سبعة، وبادُوا. فقال: هل بقي من نسل الأملاك الذين ملكوا هذه المدينة أحد؟ قالوا: رجل يكون في المقابر. فدعا به فقال: ما دعاك إلى لزوم المقابر؟ قال: أردت أن أعزل عظام الملوك من عظام عبيدهم، فوجدت ذلك سواءً. قال: فهل لك أن تتبعني فأحْيي بك شرف آبائك إن كانت لك همة؟ قال: إن همتي لعظيمة إن كانت بُغيتي عندك. قال: وما بُغيتك؟ قال: حياة لا موت فيها، وشباب لا هرم معه، وغنىً لا يتبعه فقر، وسرور لا يُغيِّره مكروه.

---

[1] الرّبيع بن أبي رَاشد أَخُو جَامع بن أبي رَاشد: من أهل الْكُوفَة يروي عَن سعيد بن جُبَير وَكَانَ من الْعباد قَالَ بن عُيَيْنَة لَو سُئِلت من خير أهل الْكُوفَة قلت صيرفي وحائك: الرّبيع بن أبي رَاشد الصَّيْرَفِي وَمجمع التَّيْمِيّ الحائك.

[2] محارب بن دثار: من بني سدوس بن شيبان بن بكر بن وائل، ويكنى أبا مطرف، ولي قضاء الكوفة وكان راوياً لبعض الأحاديث والآثار.

[3] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

قال: ما أقدر على هذا. قال: فامضِ لشأنك، وخلِّني أطلب بغيتي ممن هي عنده. فقال الإسكندر: هذا أحكمُ مَنْ رأيت[1].

وقال عبد الله بن عباس: ما قيل لقوم قط طوبى لهم إلا خبأ لهم الدهر يومَ شرٍّ، فالصبر خيرٌ مغبةً[2].

وتحدث أبو الحسن المدائني قال: قال بعثرُ بنُ لقيط بن خالد بن نضلة الفقعسي[3] وهلك ابنُه طُعْمة، فورَّثه بُردين فلبسهما وأنشأ يقول:

كَسانيَ ثَوْبَيْ طُعْمةَ المَوْتُ، إنما الت تُراثُ، وإنْ عَزَّ الحَبيبُ، الغَنائِمُ

إذا نفحتْ ريّاهما الرّيحُ نفحةً أبِيتُ كأنِّي غَضَّةُ الطَّرفِ رائمُ

يقول: أبيت أحن كالناقة الرائم حنيناً إلى ابني. والرائم: الناقة يفارقها ولدها فيحشى جلدُ فصيلٍ تبناً أو غير ذلك، ويلطخ بشيء من سلاها، وتحشى غمامة في أنفها، وتجعل درجة في حيائها، فتفتح عينها، وذلك الجلد محشو كأنه خرج منها، ورائحة السلا فيه، وتُنزع الغمامة من أنفها فتجد لذلك

---

[1] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني، والقبور لابن أبي الدنيا.

[2] انظر: التعازي لأبي الحسن المدائني.

[3] بعثر بن لَقِيط بن حبيب بن خَالِد بن نَضْلَة الْأَسدي: جاهلي هُوَ وأخواه الْمُغلس وَنَافِع ابْنا لَقِيط شعراء.

رائحة، فكأنها قد ولدت، فإذا تشممتْ ذلك الولد فقد رأمته، فينزل اللبن، فكأنهم خدعوها عن لبنها.

وقال شعيب بن صفوان: كان لحضرمي بن عامر الأسدي[1] إخوة فهلكوا، فورِثَ أموالهم، فراح ذات يوم في بُردين له، فنظر إليه رجل من قومه يقال له جَزْءُ بنُ فاتك، فقال له: لقد أمسيتَ يا حضرمي جذلان، فأنشأ يقول وجزع[2]:

يقولُ جَزْءٌ وَلَمْ يَقُلْ جَللاَ إنِّي تَزَوَّجْتُ نَاعِماً جَذِلاَ
إنْ كُنْتَ أزْنَنْتَني بِهَا كَذِباً جَزْءُ فَلاَقَيْتَ مِثْلَهَا عَجِلاَ
أفْرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الكِرامَ وَأنْ أُورَثَ ذَوْداً شَصَائِصاً نَبلاَ؟

الذوذ: القليل من الإبل. يقال: إن الذود إلى الذود إبل. والشصائص: المهازيل العجاف. والنَّبَل: يقول أصحاب الغريب إنها الحقيرة، وإنها من الأضداد.

كم كان في إخْوتي إذا اشتملَ الأبـ ـطالُ تحتَ العجاجةِ الأسلاَ
من فارسٍ ماجدٍ أخي ثقةٍ يُعطي جزيلاً ويَقتُلُ البطلاَ

---

[1] حضرميّ بن عامر بن مُجَمِّع الأسدي: من خزيمة، أبو كدّام: صحابي، من الشعراء الفصحاء الفرسان. وحضر حرب الأعاجم في أيام عمر، واستنشده عمر ما قال فيها من الشعر، فأنشده أبياتا حسنة. وهو صاحب الأبيات التي منها: (وكل أخ مفارقه أخوه ... ، لعمر أبيك، إلا الفرقدان)

[2] انظر: الوحشيات = الحماسة الصغرى لأبي تمام.

وقال حرب وذكر المعمَّرين: عاش دُوَيدٌ النهديُّ[1] أربعمائة سنة، فقال لولده وأهله حين نزل به الموت: أوصيكم بالناس شراً، طعناً لزًّا، وضرباً أزًّا، أقصِروا الأعِنة، وأطيلوا الأسِنة، وارعَوُا الكلأ، ثم قال[2]:

اليوم يُبنَى لدُوَيدٍ بَيْتُهُ يا ربَّ نهبٍ حَسَنٍ حَويْتُهُ
ومعصمٍ ذي برةٍ لَوَيْتُهُ لو كان للدَّهر بِلىً أَبليْتُهُ
أو كان قِرني واحداً كَفيْتُهُ

وقال عروة بن سليم: دخلتُ على رجل من الأحامرة بالكوفة، وعنده جماعة من أهله وغيرهم، فقالوا: قل لا إله إلا الله، فأعرض بوجهه، فأعادوها عليه مراراً، فقال: أخبروني عن أبي طالبٍ أقالها؟ قالوا: وما أنت وأبو طالب؟ قال: لا أرغب بنفسي عنه[3].

---

[1] دويد بن زيد بن نهد الحميري: كان من المعمَّرين.

[2] انظر: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني، والمعمرون والوصايا للسجستاني، وحماسة الظرفاء للزوزني، العبدلكاني.

[3] انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة.

وقال سلام بن أبي خبرة: ضربتِ الخوارجُ بكراً الطاحيَّ فقطعوه بالسيوف، فدخل عليه قوم يعودونه وعنده رجال ونساء، فقالوا له: ليس عليك بأس، فقال[1]:

غَناءٌ قليلٌ عن بكيرِ بنِ وائلٍ[2] ترمُّزُ أَستاهِ الإماءِ العوائدِ[3]

باب من تكلم في مرضه بشيء حُكي عنه

قال أبو الحسن: حدثني رجل من بني كنانة من أهل المدينة قال: مرض بلال مؤذِّنُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم فعاده رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكرٍ الصِّديقُ، فقال بلال:

جاءكَ مولاكَ[4] مع الرَّسولِ ذاك هَدَى اللهُ به سبيلي

فلم أَدِنْ دينَ أبي عقيلِ ولا بدينِ الأسودِ الضَّلولِ

وقال أبو الحسن، عن غياث بن إبراهيم، عن هشام بن عروة، عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قال أبو العباس: وحدثني به ابن عائشة وأبو عمر

---

[1] انظر: أنساب الأشراف للبلاذري.

[2] بكير بن وائل: مقاتل، حارب أهل الشام في صفين. وهو من أصحاب عليّ.

[3] والبيت لبكير بن وائلٍ، ومعنى (ترمُّزُ أَستاهِ الإماءِ العوائدِ): تحرك مؤخراتهن واهتزازها. وهو سخرية من عيادة النساء له وسؤالهن عنه.

[4] يقصد بمولاه أبا بكر، لأنه اشتراه فأعتقه فكان مولاه.

الجرمي ورسمه واحد قال: لما قدم المهاجرون المدينة وَعَكوا وابن عائشة والجرمي يقولان: اجتَوَوْها[1]، وكانت أشد أرض الله حمَّى. قالت عائشة: فقال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: اذهبي فانظري كيف أبوك وعمُّك، فدخلتُ على أبي بكر فقلت: يا أبتاه كيف تجدك؟ فقال:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

ثم دخلتُ على بلالٍ فقلت: كيف تجدُك؟ فقال:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بفخٍّ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ

وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ

قالت: فذكرتُ ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اللهمَّ عليك عتبةَ بنَ ربيعة وأبا جهل بن هشام، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء. اللهم حبِّب إلينا المدينةَ كما حببت إلينا مكةَ، وانقل وباءها إلى الجُحْفة[2].

وفي حديث ابن عائشة وأبي عمر: اللهم، العنْ أبا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف. اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَصَحِّحْهَا وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا، وَانْقُلْ ما بها من الوباء إلى مهيعة، وهي الجُحْفة. قال: فجاء أهل الجُحْفة يضِجُّون من الحمَّى.

---

[1] اجتَوَى البلدَ: كره المقام به، وفي حديث عُرَيْنَة: حديث شريف قدِموا المدينةَ فاجتَوَوْها.

[2] رواه البخاري في الأدب المفرد وهو صحيح.

قالت: ودخلت على عامر بن فهيرة فقلت: يا عم، كيف تجدُك؟ فقال:

لقد وجدتُ الموتَ قبلَ ذوقِهِ

قال: وأنشدنا ابن عائشة:

والمرءُ يأتي حتفَه من فوقِهِ

وقال أبو الحسن:

إنّ الجبانَ حتفُهُ من فوقِهِ
كلُّ امرئٍ مقاتلٌ عن طوقِهِ
كالثَّورِ يحمي جلدَهُ بروقِهِ

وقال أبو الحسن: مرض حسان بن بحدل الكلبي ومنظور بن زيد أخو بني عبد وُدٍّ، من كلب، مرضاً شديداً، فعادهما عبد المِلك، فلما خرج من عندهما تمثل[1]:

وما لي في دمشقَ ولا قُراها مبيتٌ إن عرضْتُ ولا مقيلُ
وما لي بعد حسّانٍ صديقٌ وما لي بعد منظورٍ خليلُ

[1] انظر: أنساب الأشراف للبلاذري.

وقال أبو الحسن: لما ولي بشرُ بنُ مروان البصرةَ أتاه الفرزدق ولم يكن أتاه بالكوفة، وكان بشرٌ عليه واجداً. وقدم بشرٌ البصرةَ فمرض فقال الفرزدق حيث قام بين يديه[1]:

لَو أَنَّنِي كُنْتُ ذَا نَفْسَيْنِ إِنْ هَلَكَتْ إِحْدَاهُمَا بَقِيَتْ أُخْرَى لِمَنْ غَبَرَا
إِذنْ لجئتُ على ما كان مِنْ وَجَلٍ وَمَا وَجَدْتُ حِذَارًا يَغْلُبُ القَدَرَا
له يُدٌ يَغْلبُ المعطينَ نائلُها إذا تروَّحَ للمعروفِ أو بَكَرا
تغدو الرّياحُ وتُمْسي وهي فاترةٌ وأنتَ ذو نائلٍ يُمْسي وما فَتَرا

وقال: دخل كُثيِّر عزة على عبد الملِك وهو مريض، فلما رآه قال: ههنا، وأجلسه من ورائه، فقال كثير:

وَنَعُودُ سَيِّدَنَا وَسَيِّدَ غَيْرِنَا لَيْتَ التَّشَكِّي كَانَ بِالْعُوَّادِ
لَوْ كَانَ يَقْبَلُ فِدْيَةً لَفَدَيْتُهُ بِالْمُصْطَفَى[2] مِنْ طَارِفِي وَتِلَادِي

قال أبو العباس: هذا الشعر غلط، إنما هو لجرير في الوليد بن عبد الملك وفيها يقول:

ودعا الخليفةُ فاستجيبَ دعاؤهُ واللهُ يسمعُ دعوةَ الأجنادِ

---

[1] ديوان الفرزدق.

[2] المصطفى: كل أمر مختار ومفضل.

وتحدث أبو الحسن عن حماد الراوية قال: حدثني العريان بن الهيثم[1] قال: بعثني أبي إلى شبث بن ربعي[2] أسأل به وهو مريض، وهو بين ابنتين له كأنهما الشمس يقلِّبانه، فقلت: يقول لك أخوك الهيثم: كيف تجدُك؟ فقال متمثلاً[3]:

تَمَنَّى ابنتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا ... وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ رَبِيعَةَ أَوْ مُضَرْ[4]

ونادِبتينِ تندبانِ بعاقلٍ ... أَخا ثِقَةٍ لا عَينَ مِنهُ وَلا أَثَرْ

فَقوما فَقولا بِالَّذي قَد عَلِمتُما ... وَلا تَخمِشا وَجهاً وَلا تَحلِقا شَعَرْ

وَقولا هُوَ الْمَرءُ الَّذي لا حميمهُ ... أَضاعَ وَلا خانَ الصَديقَ وَلا غَدَرْ

إِلى الحَوْلِ ثُمَّ اسمُ السَّلامِ علَيكُمَا ... وَمَنْ يَبْكِ حَولًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَذَرْ

ثم قال: ما فعل الحجاج؟ فأخبرته. ثم أتيت أبي فأعلمته، فلما رحنا إلى الحجاج قال: ما فعل شبيب؟ قال أبي: أتاه العريان اليوم عائداً. فسألني

---

[1] العريان بن الهيثم بن الأسود النّخعيّ الكوفيّ: وفد على معاوية وعلى يزيد بن معاوية. وكان عثمانياً أي من أنصار عثمان.

[2] في الأصل: شبيب، وهو خطأ. شبث بن ربعي الرياحي التميمي (نحو ٢٠ ق هـ – ٧٠ هـ): مخضرم من الأشراف الفرسان الشعراء، أدرك عصر النبوة، من أشراف بني تميم، فارساً علوياً أي من أنصار عليّ.

[3] انظر: أنساب الأشراف للبلاذري.

[4] والأبيات للبيد بن ربيعة. وقد سبق ذكرها.

فحدثته الحديث. فقال الحجاج: لا تبعد العرب! ثم قال: ويحكم يا أهل العراق، إنكم لأنتم الناس لولا ما شملكم من هذا الرأي الخبيث.

قال أبو العباس محمد بن يزيد: قد أكثرنا في المراثي والمواعظ من بين شعر وكلام نثر ورسالة وغير ذلك مما يتصل به.

والمراثي وأسبابُها باقية مع الناس أبداً، إذ كانت الفجائع لا تنقضي إلا بانقضاء المصائب، ولا يفنى ذلك إلا بفناء الأرض ومن عليها، ولا إله إلا الله الحي الذي لا يموت. ونحن خاتمو ذلك بباب نجمع فيه من كل شيء إن شاء الله، وبه الحول والقوة. ثم نبتدئ شيئاً غيره. فإن الإكثار سرف، كما أن التقصير كالعجز. وفيما أملينا بلاغ وعظة إن شاء الله تعالى.

مرثية عبدُ العزيز بن عبد الرحيم المطلبي

قال عبدُ العزيز بن عبد الرحيم بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب[1] يرثي أباه. وكان أبوه جليلاً من بني هاشم له أدب وعارضة[2] وبلاغة ونجدة وبيان، فولَّاه أميرُ المؤمنين المعتصمُ بالله اليمنَ،

---

[1] الشاعر العباسي عبد العزيز بن عبد الرحيم بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب: كان شاعراً محسناً مطيلاً مدح المتوكل. ومن شعره: طفقتْ تأمَّلُ حسنَ مشبِهها * فشككتُ أيُّهما هو البدرُ.

[2] العارضة: القدرة على الكلام، والفصاحة والبلاغة.

ثم ولَّى بعد أن طال مكثُه بها إيتاخَ[1] ذلك البلد، فولَّى إيتاخُ عليها الشَّارَ[2]، فحمل إليه الشَّارُ عبدَ الرحيم، فطالبه إيتاخُ بالخَراج وحَبَسَه لامتناعه عليه، فمات في السجن بعد مدة[3].

وكان عبدُ العزيز أجلَّ بنيه، وقد ولي الولاياتِ، وكان شاعراً مفلقاً وخطيباً مِصْقَعاً[4]، فقال يرثي أباه قولاً أعرب فيه فأفصَحَ، وأغرب فيه فلم يُفْحِش، ولكنه خرج أحسنَ الخُروج من كلام مبسوط ومعانٍ مفهومة، وهو قولُه[5]:

أَشِدْ أيُّها النّاعي وإن كنتَ لا تدري بكُنْهِ الذي تَنْعى مِن الدِّينِ والقَدْرِ

---

[1] إيتاخ الخزري: كان قائدًا بارزًا في الجيش التركي للخليفة العباسي المعتصم بالله. ويقال إنه كان عبدًا يعمل في مطبخ سلام الأبرش الخادم وقبله تم شراؤه كغلام قبل المعتصم ثم صعد ليصبح واحدًا من كبار القادة في حرس المعتصم «التركي»، ثم شغل منصب صاحب الشرطة في سامراء، وأصبح قائد الحرس الشخصي للخليفة. واختاره حاكمًا لليمن ثم حاكمًا لمصر، وفي ظل الواثق بالله، تم تعيينه في ولايات خراسان والسند والمحافظات الفرعية لنهر دجلة.

[2] لم أعثر على ترجمة له. والشار في الأصل لقب، قال ابن الأثير في الكامل: فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا اللَّقَبَ هُوَ الشَّارُ، لَقَبُ كُلِّ مَنْ يَمْلِكُ بِلَادَ غَرْشِسْتَانَ، كَكِسْرَى لِلْفُرْسِ، وَقَيْصَرَ لِلرُّومِ، وَالنَّجَّاشِيِّ لِلْحَبَشَةِ.

[3] مات في الحبس سنة تسع وعشرين ومائتين. ومن شعره:

كل محب سواي مستور والناس إلا عن قصتي عور

كأن طرفي عين عليَّ لهم فكل طي لديَّ منشور

[4] مِصْقَعٌ: بَلِيغٌ، ذُو فَصَاحَةٍ وَبَيَانٍ.

[5] هذه القصيدة لم أجدها كاملة عند غير المبرد، وقد أورد الجراوي في الحماسة المغربية أبياتًا منها.

ومِنْ ركنِ أركانِ الملوكِ الذي به تلوذُ إذا حَلَّ الجسيمُ من الأمْرِ
هَوَى فهوتْ أركانُ عزٍّ وأعوزتْ ثُغورٌ به كانتْ أوامنَ للذُّعْرِ
ومَنْ يُلبِسُ الأقطارَ أمناً بذكرِهِ ويكشفُ عنها طخية الذُّلِّ والفقْرِ
ومَنْ كان إن أرضٌ من المحل أظلمتْ رماها بأنفى للظّلامِ من الفجْرِ
بوجهٍ كأنَّ البدرَ فوق جبينِهِ وبذلٍ لهى الأموالَ بالنّائلِ الغمْرِ
وجودٍ يبذُّ المجدَ والجودَ قبلَهُ ونورٍ بهاءٍ كان أبهى من البدْرِ
تزيد الليالي والخطوبُ ضياءه إذا غيّر البدرُ المحاقُ من الشّهْرِ
ويبسطُ بالعرفِ العفاةَ تهلُّلاً إذا كان بعضُ المنعِ بالنّظرِ الشّزْرِ
فإنّك تغنى بالصّفاتِ عن اسمِهِ فلم تر إلاّ عارفاً غير ذي نكْرِ
وإنّا لمعتادو رزايا عظيمةٍ نخاف بأدناهنَّ قاصمةَ الظَّهْرِ
يظلُّ لها منّا رجالٌ كأنّما تعالى على أكتافها فلقُ الصّخْرِ
فنصبرُ حتّى تنجلي غمراتُها إذا لم يكن في الصّبرِ عيبٌ على الحُرِّ
تجلُّ مصيباتٌ وتعرو نوائبٌ ولا مثلَ ما أنحتْ علينا يدُ الدّهْرِ
لقد عركتْنا للزّمانِ ملمَّةٌ أذمَّتْ بمحمودِ الجلادةِ والصّبْرِ
وذلك أنّ الصّبرَ أصبح بعدَهُ بمن كان ذا دِينٍ ومعرفةٍ يزْري
فلمّا رأيتُ الصّبرَ يُزري بأهلِهِ وضاق بما قد جلَّ من حدثٍ صدْري
وأنّ البُكا فخرٌ، بكيتُ بعولةٍ عليه لكيلا يعتليني أولو الفخْرِ

وروَّحتُ بعد اليأسِ والصّبرِ زفرةً ... تَرَدَّدُ ما بين الجوانحِ والصّدْرِ
حنيناً كما حنَّ اليراعُ يردُّهُ ... حيازيمُ ضاقتْ للنّشيجِ الذي يفْري
وخلَّيتُ أسرابَ الدّموعِ فأمطرتْ ... بغيرِ معيبٍ بالدّموعِ ولا نزْرِ
وقلَّ له منّا البكاءُ وقد بكتْ ... لنا الطيرُ لو كانت مدامعُها تجْري
بكى الثّقلانِ الجنُّ والإنسُ فقدَهُ ... وغيرُهما من ساكني البرِّ والبحْرِ
وأُقسِمُ لولا خشيةُ الله وحدَهُ ... ركبتُ بنفسي كلَّ مستصعَبٍ وَعْرِ
بمَوْتِكَ يَا عَبْدَ الرَّحِيمِ بْنَ جَعْفَرٍ ... تزايل شَعْبُ الْمُلْك عن أفحش الكسْرِ
وصارتْ بناةُ الدِّين بعدَكَ صدعُها ... يطيرُ شظايا لا تَلاءمُ بالجبْرِ
بموتِكَ مات الجودُ والمجدُ كلُّهُ ... وجُدِّعَ أنفُ العزِّ فينا إلى الحشْرِ
لقد هدَّ ركنَ الدِّينِ موتُكَ هَدَّةً ... أنافت لها الأعناقُ من أُمَمِ الكفْرِ
وأبلسَ إبلاسَ المذلّةِ دينُنا ... وأغضى بك الإسلامُ عيناً على وتْرِ
وأضحتْ قلوبُ المسلمين مريضةً ... توكَّفُ فيه مثلَ راغيةِ البَكْرِ
وقد وجد الأعداءُ في الملك مطعناً ... عواقبُهُ قتلٌ يجلُّ عن النّشْرِ
فلا هنأ الأعداءَ عثرةُ دهرِنا ... فقدْ وأبي قرَّتْ عيونُ ذوي الغمْرِ
رُزئنا أمراً لا نحفلُ الدَّهرَ بعدَهُ ... ولا الموتَ، فلتفْرِ الحوادثُ ما تفْري
فلِلَّهِ عَيْنا مَن رأى من رزيّةٍ ... وعثرةِ دهرٍ أمَّنَتْنا من العثْرِ
فواكبِدا لوْ فِي الوَغَى كَانَ مَوْتُهُ ... بَكَيْنَا عَلَيْهِ بِالرُّدَيْنِيَّةِ السُّمْرِ

وبالبيضِ والمرفوعةِ الزُّرقِ دمعُها دمٌ عاندٌ ينثالُ بالعلَقِ الحُمْرِ
وبالخيلِ يعلَكْنَ الشَّكيمَ كأنّها كواسرُ عُقْبانٍ نواهضُ عن قِدْرِ
يخُضْنَ نجيعاً مائراً بعد جامدٍ فلأياً تبين الكمتُ فيها من الشّقْرِ
وأضحى نهارُ النّاسِ ليلاً وألمعتْ كواكبُنا بالهندوانيَّةِ البُتْرِ
ولم يُغنِ ضوءُ الشَّمسُ في قسطلٍ فتيلاً ونار الحرب ثاقبة الجمْرِ
وأخمدتِ الأصواتُ إلاّ غماغمَ الـ ـكماةِ ووقعَ المشرفيَّةِ بالهبْرِ
وخذْها أيا ابنَ الأكرمينَ وخذْ بها وأخِّرْ وقدِّمْ بالوعيدِ وبالزّجْرِ
فمن مقعصٍ يعطو بفضلِ حشاشةٍ وآخرَ تفريهِ الحوامي وما يدْري
يفرّقنَ أوصالاً كراماً أعزّةً ويفضخن هاماً من جحاجحةٍ زهْرِ
وقمنا إلى الثأر المنيمِ فلم يئل ولو نيطَ بالعيّوقِ أو نيطَ بالنَّسْرِ
فكنّا وإن لم نوفِ من شيخنا دماً نقرُّ عيوناً أو نريغ إلى عذْرِ
ونهدأُ نفساً ما تلاقى جفونها إذا اللّيلُ ألقى ذيلَ أرواقِهِ الخُضْرِ
ولكن وقيناهُ القنا بنحورِنا وفات كذا في غير هيجٍ ولا نفْرِ
فيَابْنَ النّبِيِّ الْمَصْطفَى وَابْنَ عمِّهِ وَيَابْنَ عَليٍّ وَالفَوَاطِمِ وَالحَبْرِ
وَيَابْنَ اخْتِيَارِ اللهِ مِنْ آلِ آدَمٍ أَباً فأَبَاً طُهْراً يُؤدِّي إلَى طُهْرِ
ويا بنَ عليٍّ بعد والحسنِ الذي تلافى عرى الإسلام وابنَ أبي بكْرِ
وَيَابْنَ سُلَيْمَانَ الَّذِي كَانَ موئلاً لِمَنْ ضَاقَتِ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ بَنِي فِهْرِ

وَمَنْ ملأَ الدُّنْيَا بهاءً ونائلاً ... وَرَوَّى حَجِيجاً بالمُلَمَّعةِ القَفْرِ
تعزّ بما قد نالنا من رزيّةٍ ... بموتِك محبوساً على صاحبِ القبْرِ
فإن متَّ في حبسِ الخليفة صابراً ... أَبِيّاً لما يُعطي الذّليلُ على القسْرِ
فكم من عدوٍّ للخليفةِ قد هوى ... بكفَّيكَ أو أعطى المقادةَ بالصّغْرِ
فلا أورقتْ شجراءُ أرضٍ ولا دحا ... من الغيثِ منهلٌّ متى طائرٌ يسْري
فقلْ للمنايا والمتالفِ أعصفا ... فلم يبقَ فينا من يريشُ ولا يَبْري
وقل للأعادي أعلِنوا الآن أو دَعُوا ... سواءٌ علينا المسْتَسِرُّ وذو الجهْرِ

مرثية أحمد بن محمد الخثعمي

وقال أحمد بن محمد الخثعمي[1] يرثي إبراهيم بن سعيد الحميري[2]:

أيُّها النّاعيانِ مَنْ تنعيان؟ ... وعلى مَنْ أراكما تبكيانِ
انعيا الثّاقبَ الزنادَ أبا إسـ ... ـحاقَ ربَّ المعروف والإحسانِ
ارجِعا بي إن لم يكن لكما عقـ ... ـرٌ إلى لحدِ قبرِهِ فاعقراني
فانضَحا من دمي عليه فقد كا ... ن دمي من نَداهُ لو تَعْلمانِ
فكأنّا ولم يطل بك عهدٌ ... ما رأيناكَ عامرَ الأعطانِ

---

[1] شاعر من شعراء الجزيرة المحدثين

[2] وهي أيضاً من القصائد التي انفرد المبرد بروايتها. وعنه روى بعضها القالي والأصفهاني.

بين أدمٍ تدمى، وركبٍ منيخٍ وعساسٍ ملتوتةٍ وجفانِ
صلصلَ الصّوتُ في صفائك بالرو بِ خفيضَ الكلام في الصّفانِ؟
مسمع القدحِ من خطارِ وفودٍ وعديم الأتباع يوم الرّهانِ؟
ليتَ أنّا فداكَ إذ فني الطّـ ـمُّ وفاضتْ مناهلُ الحدثانِ
فغدا ظاعناً يحثّ به النّعـ ـش حثيث السّرى وليس بوانِ
سفرٌ شاسعٌ وحادٍ مجدٌّ وقعودٌ باق على الرّقلانِ
شرب الموتُ منه محضه دو ن حليبها السطور من قحطانِ؟
أيّها الموتُ قد نهضتَ بحملي ـنِ من الذّمِّ فيه والأضغانِ
قم بأعلى البقاعِ من غمدانِ وبسفلى الكثيبِ من عسفانِ
هل ترى غيرَ مجلسٍ صخبِ الأف ـقِ بباكٍ ونادبٍ ثكلانِ
وترى غيرَ ذابلٍ سمهريٍّ ركد الزّجّ في مكان السّنانِ
وترى غيرَ مقرمٍ ناصل النّا ب قليل السّموِّ في الهدرانِ
وعديمٍ يعبُّ في قدح الثّكـ ـل هديم الخباءِ والبنيانِ

مرثية الربيع بن زياد العبسي

ومن المراثي المستحسَنة المقدَّمة، ونحتاج أن نذكر معها خبرَها، وهو أن مالكَ بنَ زهير بن رواحة بن جذيمة العبسي[1] وكان من أشراف بني عبس، وجذيمة منهمُ قُتِل في حرب داحس. وكان جانيها أخوه قيسُ بنُ زهير، فنشبتْ بينهم فيما ذكر أربعين سنة. وتشاءم بهم قومُهم، فوجَّه قيسٌ جاريتَه لتعلم ما عند الربيعِ بنِ زيادٍ العبسيِّ أيغضب لهذا الحديث فيقوى به أو يستهين، فرأت عنده أكثر مما أحب، فرجعتْ إليه فقالت: سمعتُ عويلاً منه دون نسائه وحركةً أكثرَ من حركة جميع الحي، وهو يقول[2]:

مَنَعَ الرُّقَادَ فَمَا أُغَمِّضُ حارِي[3] جَللٌ مِنَ النَّبأ المهمِّ السَّاري

مِنْ مِثلِهِ تُمْسي النِّساءُ حواسِراً فتقومُ معولَةً مع الأسْحارِ

مَنْ كان مسْروراً بمقتلِ مالكٍ فليأتِ نِسْوتَنا بوجْهِ نهارِ

---

[1] مالك بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن الحارث: قُتِل في حرب داحس والغبراء التي دارت رحاها بين عبس و ذبيان. كان اعتنق الحنيفية على يد خالد بن سنان العبسي ثم زهد في الملك والإمارة، وهو ثالث إخوته بعد شأس وقيس ابنا زهير.

[2] يعني الربيع بن زياد العبسي: كان يلقب بالكامل، شريف من أشراف العرب بالجاهلية وله أخبار وقصص وأشعار ذكرها الرواة في كتب التاريخ والأدب.

[3] الحاري: البصر الكليل.

تأويل هذا البيت أنه إذا رأى ما يضع عليه من الجزع، علم أن ثأر مثله لا يُترك.

يَجِدِ النِّسَاءَ حَوَاسِرًا يَنْدُبْنَهُ يَضْربنَ أوجُهَهُنَّ بالأسْحارِ
يَخْمِشنَ حُرَّ وُجُوهِهِنَّ عَلَى فَتًى سَهْلِ الخَلِيقةِ طيِّبِ الأخبارِ
قَدْ كُنَّ يُكْنِنَّ الْوُجُوهَ تَسَتُّرًا فالآنَ حينَ بَدَوْنَ للنُّظارِ
أفبَعْدَ مَقْتلِ مالِكِ بنِ زُهَيْرٍ تَرْجو النِّساءُ عواقبَ الأطْهارِ[1]

قوله: أفبعد مقتل مالكِ بنِ زهير، مُزاحَفٌ[2] ناقصٌ جزءاً. وهذا في هذه العَروض جائز، وهي التي يقال لها المقطوعة في الكامل. ونظيره قولُ حميد بن ثور[3]:

أبلِغْ أميرَ المؤمنينَ فإنّهُ طَبٌّ[4] يلومُ الْمُستَليمَ ويعْذِرُ

---

[1] قال المفضل بن سلمة في كتاب الفاخر في خبر قيس: ودسَّ أمةً يقال لها رعية إلى الربيع تنظر ما يعمل، فدخلت بين الكفاء والنضد لتنظر أمحاربٌ هو أم مسالم. فأتته امرأتُه تعرض له وهي على طُهرٍ فزجرها، وقال لجاريته: اسقني. فلما شرب أنشأ يقول ... الأبيات. وهذا تفسير قوله (ترجو النّساءُ عواقبَ الأطهارِ).

[2] المزاحف: هو من الشعر ما دخله الزحاف، أي النقص والحذف.

[3] من قصيدته التي يمدح فيها الوليد بن عبد الملك بن مروان، ويرثي عبد الملك ومطلعها:

أبصرْتُ ليلةَ مَنزِلي بتَبالةٍ ... والمرءُ تُسْهِرُهُ الهمومُ فيسهَرُ

[4] الطَّبُّ: الرَّفيقُ الحكيمُ.

أنِّي كبِرْتُ وأنَّ كلَّ كبير[1] ممّا يُظنُّ بهِ يَملُّ ويَفتُرُ

رجع الشعر:

ما إنْ أرى في قتلِهِ لذوي القوى إلاّ المطِيَّ تُشَدُّ بالأكوارِ

وَمُجَنَّبَاتٍ مَا يَذُقْنَ عَدُوفًا[2] يجهضْنَ بِالْمُهَرَاتِ وَالْأَمْهَارِ

هذا مثل البيت المزاحف[3]. يقال: ما ذقت عدوفاً ولا عداناً، ولا لماظاً ولا لماقاً. وكل هذا في معنى لم أذق شيئاً.

وفوارساً صَدأ الحديدُ عليهمُ فكأنّما طُلِيَ الوجوهُ بقارِ

ويفوز كلُّ مقلّصٍ من خيلنا سَلِسِ القِيادِ معاقدِ التّكرارِ

حتّى نبير بذي المريقبِ غدوةً بَدْراً ونُعْذِرَ مِنْ بَنِي سيَّارِ

بدر: ابن عمرو الفزاري، وبنو سيار بن زبان الفزاري قتلوا ابن عمهم وحاربوهم غدراً بغير دم ولا افقار.

ولربَّ مسرورٍ بمقتلِ مالكٍ كلاّ وربِّ البيتِ ذي الأسرارِ

حتّى نبيرَ بمالكٍ سرواتهم حملاً وفارسَهم أبا حجَّارِ

---

[1] موضع الزحاف، أو كما يسميه المبرد: الُمزاحَف.

[2] الْعَدُوفُ: الْيَسِيرُ مِنَ الْعَلَفِ.

[3] فيه أيضاً زحاف.

حملٌ: ابن بدر، وكان من فرسانهم وشجعانهم، وهو الذي يقول فيه القائل في هذه القصة بعد أن قتل:

ولكنَّ الفتى حملَ بنَ بدرٍ بَغَى والبَغْيُ مَصْرَعُهُ وَخيم

وأبو حجار: مالك بن حمار الشمخي، وبنو شمخ من فزارة، وفزارة ابن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان. وبنو عبس ابن بغيض بن ريث، فكان عبس وذبيان أخوين. وكانت حربهم أربعين سنة.

حروب العرب

وحرب الأنصار الأوس والخزرج، ابني حارثة بن ثعلبة بن عمرو ابن عامر كانت أكثر من هذا فيما ذكرتِ الرواية وكانت لا تزال تغبر. وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: دربوا لي بالحروب حتى دربوا[1]. وقالت عائشة رضي الله عنها: قدمنا عليهم والجراح تطيف دماً من حرب بعاث[2].

فحرب الأنصار: حرب بعاث، وحرب ابني بغيض: حرب داحس، وحرب بكر وتغلب تسمى: البسوس.

---

[1] لم أعثر عليه في كتب الحديث. ودربوا من الدُّرْبة: عادةٌ وجُرْأَةٌ على الحَرْبِ وكلِّ أَمرٍ. وقد دَرِبَ بالشيءِ يَدْرَبُ، ودَرْدَبَ به إذا اعتادَه وضَرِيَ به.

[2] لم أعثر عليه أيضاً.

مرثية أبي ناظرة السدوسي

وقال أبو ناظرة السدوسي[1]، وكان رجلاً من أهل العلم والمعرفة بكلام العرب وحسن التصرف فيه، يرثي البصرة وأهلَها بكلام عربي فصيح ينبئ أنه كلام موجَع يخرج عن نية صادقة من ألفاظ رجل لا عجزَ يَقْعُد به عن بلوغ الحاجة، ولا إسرافَ في قوله وتمحلاً يتجاوز به القدر[2]:

منازلَنا هل من إيابٍ مؤمَّلٍ إليكِ، إذا ما آبَ كلُّ غريبِ؟
وهل نحن يوماً عائدون ذوي غنىً ومنتجعٍ للمعتفينَ خصيبِ
وآذنةٌ في كلِّ حيٍّ يزينها نقاءُ جيوبٍ منهمُ وغيوبِ
وحِلمٌ وعِلمٌ ليس بالنَّزرِ فيهمُ فلا يطون مسعاه مشوبِ[3]
وقلْ لدعاةِ الشَّمسِ هل من تشهُّدٍ لوقتِ صباحٍ أو لوقتِ غروبِ
نجنّ ولم نظلم إليك صبابةً تفتُّت أكبادٍ لنا وقلوبِ
وقلَّ غناءً عبرةٌ مستهلَّةٌ ترقرقُ من عينٍ عليك سكوبِ
أبى الصَّبرَ تذكارُ الدِّيارِ التي خلتْ مجالسُها مِنْ سُؤددٍ وخطوبِ

---

[1] أبو ناظرة السدوسيّ: من شعراء النصف الثاني من القرن الثالث الهجريّ. له في (الأغاني ٢٣/٤١) خبر مع أبي شراعة الشاعر.

[2] وهي أيضاً من القصائد التي حفظتها لنا رواية المبرد إياها.

[3] في الشطر الثاني سقط واضطراب لم أجد صوابه.

ومغدى ذوي الحاجات في كلِّ شارقٍ إلى كلِّ مغشيِّ الفناءِ مهيبِ
وكلِّ مطاعٍ في العشيرة ماجدٍ مُعينٍ على ريبِ الزَّمانِ وَهُوبِ
منازل فارقن العهود ولم تكن معاناً لناقوسٍ ولا لصليبِ
منازل قومٍ أسرعَ السيفُ منهمُ إلى كلِّ وضّاحِ الجبينِ نجيبِ
وكلِّ فتىً يرنو إلى اللهو والصّبا جرورٍ لأذيالِ الشّبابِ سحوبِ
وكلِّ صميمٍ من ذؤابةِ قومِهِ كريمٍ لغاياتِ الكرامِ طلوبِ
أبوا أن يَرَى اللهُ الهوادةَ منهمُ لأعضه عن دين النّبيّ نكوبِ
فأودوا وقد عاشوا كراماً أعقّةً على فتنٍ مرّتْ بهمْ وحروبِ
تغاديهمُ ضرباً على الهامِ تارةً وذبحاً بأقسى أنفسٍ وقلوبِ
فكمْ مِنْ رحىً دارتْ وكمْ مِنْ مصيبةٍ توالتْ ومن يومٍ هناكَ عصيبِ
على ألفِ ألفٍ من ملوكٍ وسوقةٍ ثَوَوا بين أبوابٍ لهمْ ودروبِ
مفلّقةٌ هاماتُهم وشريدُهمْ شماطيط شتّى أوجهٍ وسروبِ
إلى غير راعٍ يُرتجى النَّصرُ عندَهُ ولا عطنٍ يُؤوَى إليه رحيبِ
عباديد من ناجٍ على جذم بغلةٍ ومن رازحٍ يشكو الكلالَ جنيبِ
ومن راسبٍ طافٍ على الماء شلوه وذي ظمإٍ أودى به وسغوبِ
فيا أرضهم أخلَوْك فابكي عليهم وجودي عليهم يا سماءُ وصوبي
أرى كلَّ قومٍ لا يزال مظنّةً منازلهم من آيبٍ ومؤوبِ

سوانا فإنّا حشو كلِّ مدينةٍ وألقاؤها من نازحٍ وقريبِ
ذوو أوجهٍ فيها كوابٍ وأعينٍ بواكٍ وفقرٍ ظاهرٍ وشحوبِ
فمن رام أن يبتاع منّا حديقةً من النَّخلِ أعطى درهماً بجريبِ
فذو العزِّ منّا مستكينٌ وذو الغنى كأنْ لم يكنْ ذا رتبةٍ وركوبِ
فما حلَّ بالإسلامِ مثلُ مصابِنا وسلطاننا للدّينِ حقّ غصوبِ
وكنّا ولم تُشقَقْ عصانا ولم تبتْ عقاربُنا فينا ذواتَ دبيبِ
نميميّةٌ تسري إلينا كأنّما تطالبنا في مصرنا بذنوبِ
يقصِّرُ عن بغدادَ كلّ فضيلةٍ خصصنا بها إسهاب كلّ خطيبِ
رجالاً ومالاً يعرف النّاس فضله على كلِّ حالٍ رائحٍ وغريبِ
فلا المربدُ المعمورُ بالعزِّ والنُّهى وكلّ فتىً للمكرمات كسوبِ
ولا قصر أوسٍ والمناخ الَّذي به وما حولَه من روضةٍ وكثيبِ
بمرتجعٍ يوماً ولا المسجدُ الَّذي إليه تناهى علمُ كلِّ أديبِ
ولا قائمٌ لله آناءَ ليلِهِ به كلُّ أوّاهٍ إليه منيبِ
ولا عائذٍ ذاك الحزين كعهدِهِ لكلِّ مسنٍّ حولَهُ ومهيبِ
ولا الشطّ إذ فيه لنا الخير كلُّهُ وإذ معتفاه الدّهر غير جديبِ
وبالفيض والنّهرين من كلّ جانبٍ مناظر لذّاتٍ عفتْ وشروبِ
وإذ ما نراه من سفينٍ وراكبٍ على ظهرِ منقادٍ إليه صبوبِ

ودجلة أحمى جانبيها كليهما كتائب زنجٍ كالطَّنينِ دبوبِ
مؤلّلةٌ أسنانُهم وعيونُهم توقّد في كهرورةٍ وقطوبِ

قوله كهرورة إنما هي القطوب والعبوس كما قال زيد الخيل:

ولست بذي كهرورةٍ غير أنّني إذا طلعتْ أولى المغيرةِ أعبِسُ

...

طماطم لا ربٌّ لهم يعرفونه وقد دربوا بالحرب أيَّ دروبِ
وجونٍ نواجٍ منجياتٍ لواحقٍ تروح وتغدو غيرِ ذاتِ عكوبِ

الجون: السود. يعنى: الخيل. والعكوب: الغبار، وبه سمي عكابة.

تساجلُنا فيها المنايا عبيدُنا بكلِّ حسامٍ في العظامِ رسوبِ
أنسلبها غلباً ضوامن للقرى على سنواتٍ تعتري وجدوبِ

يعني النخل، والأغلب: الغليظ العنق.

جداولها في كلِّ يومٍ وليلةٍ ذوات جمومٍ تحتها ونضوبِ
وما النخلُ في اجلاسا عن كواعبٍ يساقطن في ديمومةٍ وشيوبِ
وما في خيام الزَّنجِ مَنْ حرّ أوجهٍ ذواتِ وسومٍ فيهمُ وندوبِ
ولا ذو محاماةٍ ولا ذو حفيظةٍ ولكن رقيبٌ من وراء رقيبِ
على الثّمرِ المفجوعِ أربابُهُ به على خطرٍ من مجتناه عجيبِ
يقولون حشرى قسا من مدافعٍ لدى مشهدٍ منّا ولا بمغيبِ

وقالوا تناسوها فليس بعائدٍ تجاور أحياءٍ بها وشعوبِ
وإنّي لأرجو أن أرى ذاكَ منهمُ وللدّهرِ أيّامٌ .... وخطوبِ
نعت أرضنا الدّنيا إلينا وأدبرتْ بكلِّ نعيمٍ في الحياةِ وطيبِ
وما كانت الدُّنيا سوى البلدِ الّذي خلا اليومَ من داعٍ به ومجيبِ
وما عيشُ هذا النّاس بعد ذهابه بعيشٍ ولا مغناهمُ برغيبِ
إذا الدّمعُ لم يُسعِد كئيباً فإنّني سأبكي وأبكي الدّهرَ كلَّ كئيبِ
على دمنٍ جرّتْ بها الرّيح بعدنا ذيول البلى من شمألٍ وجنوبِ
وما كلُّ بصريٍّ شكا بمفنَّدٍ ولا كلُّ بصريٍّ بكى بمعيبِ
ولو أنَّ بصريّاً بكى كنه شَجْوه بكى بدمٍ حتّى المماتِ صبيبِ
فمن مبلغٌ عنّي بريهاً ورهطَهُ وما أنا في حبّيهم بمريبِ
إذا أنتمُ غادرتموها كأنّها منازلُ عادٍ غير ذات عريبِ
فلا ترفعوا الأبصارَ إلاّ كليلةً إلى النّاسِ أو منهلّةً بغروبِ
فيا بصركم من هالكٍ مات حسرةً عليك ومن صبٍّ إليك طروبِ
يظلّ شعاعاً قلبُهُ ومبيتُهُ على سننٍ من ربعِهِ ونحيبِ
عليكِ سلامُ اللهِ منَّا فإنَّنا نرى العيشَ إلاّ فيك غيرَ حَبيبِ

مرثية عمرو بن الأسلع

وقال عمرو بن الأسلع يرثي أبا جنيد بن عمرو بن الأسلع العبسي ويذكر قتل حذيفة بن بدر إياه:

فلا يكنِ الوداعُ أبا جنيدٍ ... وآخرُ حاجةِ السَّفْرِ الوداعُ
فإن خابت حيال بني سبيعٍ ... ونعم القوم إنْ قومٌ أضاعوا
فلا تيأسْ بذلك وانتظرْني ... وشرُّ حديثِ قائله سماعُ
أتتك كأنَّها عقبانُ دجْنٍ ... تجاوب في حناجرِها اليراعُ

مراثي مهلهل

وقال مهلهل بن ربيعة:

قَتَلوا كُلَيباً ثُمَّ قالوا أَربِعوا ... كَذَبوا وَرَبِّ الحَلِّ وَالإِحرامِ
حتّى تبيدَ قبيلةٌ وقبيلةٌ ... ويعضَّ كلُّ مذكَّرٍ بالهامِ
وتجول رَبَّاتُ الخُدورِ حَواسِراً ... يَمسَحنَ عَرضَ ذَوائِبِ الأَيتامِ
حتّى يعضَّ الشّيخ بعد حميمه ... ممّا يرى جزعاً على الإبهامِ
إنا لنضربُ بالسّيوف رؤوسَهمْ ... ضربَ القدارِ نقيعةَ القدّامِ
ولقد وطئن بيوتَ يشكرَ وطأةً ... أخوالنا، وهم بنو الأعمامِ

وقال أيضاً:

يا لبكرٍ أَنْشِروا لي كُلَيباً يا لبكرٍ أين أين الفرارُ؟
تلك شيبانُ تقولُ لذهلٍ صَرَّحَ الشَّرُّ وبانَ السّرارُ
وبنو يشكر قاموا فقالوا قصّةٌ عوجاءُ فيها استتارُ
وبنو عِجْلٍ تقولُ لقَيْسٍ ولتَيْمِ اللَّاتِ سيروا فساروا

مقتل كليب

وسنملي بعقب ذكر مهلهل هذا خبر وقائعهم ليَفْهَم مجرى هذه المراثي وما يتبعها من أمثالها مَنْ لم يَفْهَمْه، ليعلم أن هذه الأشعار بُنيت على أساسات من حِكَم العرب، تفيد أمثالاً عجيبة ومذاهب غزيرةً وأقوالاً على أمور يُنتفع بها في مثل ما قصدوا له وفي غيره من غير بابه. والحديث ذو شجون. وبالله الحول والقوة.

بكر وتغلب ابنا وائل: شَعبان ضَخمان سادَهما جميعاً كُلَيب بن ربيعة التغلبي، وهو الذي يقال له كُليب وائل، فيُضرب به المثل، حتى ادعت ربيعة في كليب أن العرب كلها تنقاد لشرفها. وفيه يقول النابغةُ الجعديُّ[1] لرجل من أهله بغى وتعدى يخوِّفه عدوان الظلم:

---

[1] النابغة الجعدي الكعبي (٥٥ ق هـ – ٦٥ هـ): شاعر، صحابي، من المعمَّرين. ولد في الأفلاج جنوبي نجد. اشتهر في الجاهلية، وقيل إنه زار اللخميين بالحيرة. وسُمي «النابغة» لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقوم الشعر ثم نبغ فقاله.

لَيبٌ لَعَمْري كَانَ أَكثر نَاصِرًا وأهونَ ذنباً ذَنبًا منك ضرِّجَ بالدَّمِ

رمى ضرعَ نابٍ فاستحرَّ بطعنةٍ كحاشيةِ البُردِ اليماني المسهَّمِ

وكان سبب قتله على عِزةٍ من قومه ولحمته على أنه كان لا يُرفع بحضرته صوت ولا يسمع في ناديه كلمة خَنا. وفي ذلك يقول المهلهل في مرثيته إياه:

ذهب الخيار من المعاشر كلّهم وَاستَبَّ بَعدَكَ يَا كُلَيبُ الْمَجلِسُ

وتنازعوا في أمرِ كلِّ عظيمةٍ لو كنتَ حاضرَ أمرِهِمْ لم يَنْبِسُوا

ومهلهل أخو كليب واسمه عدي، وهما ابنا ربيعة، وكان مهلهل يسفهه كليبٌ ويصفه بالغزل والتحدث إلى النساء، يذمِّره بذلك فيقول: أنت زيرُ نساء[1].

وكان شرف بكر بن وائل في ولد ذي الجدين وهو عبد الله بن همام بن مرة بن ذهل ابن شيبان. وهؤلاء أشراف وأبناء أشراف. وهم بيت بكر بن وائل وشرفها.

مرثية جليلة بنت مرة

وكانت إحدى بنات مرة تحت كليب بن ربيعة، وكان عدي المهلهل آخَى همَّامَ بنَ مرة. وكان عاقَدَه وعاهَدَه ألا يكتمَ أحدُهما صاحبَه خبراً يقع إليه. فجاءت جاريةٌ لهمَّام فسارَّته بشيء، فتغير وجهُه، فقال المهلهل: ما قالت

[1] الزير: صيغة مبالغة، وهو الذي يُكْثِرُ زيارة النساءِ ويُحبُّ مُجَالَسَتَهُنّ ومُحَادثَتَهُنَّ.

لك يا أخي؟ فورَّى، فقال له: العهدَ! فقال: خبَّرتْني أن أخي قتل أخاك. فقال له المهلهل: لا تُرَع، فإن همةَ أخيك لا تبلغُ ذاك.

وسيتصل الخبر مستقصىً بوقائعهم إن شاء الله.

وكانت حربُهم أربعين سنة في مقتل كليب، وهو موصول بما ابتدأناه بما فيه من مراثيهم وغيرها. فقالت ماويةُ بنتُ مرة امرأةُ كُليب، تشتكي ما بها من قتل أخيها زوجها، وهي قصيدة محيطة بالمعنى المقصود، جيدة الكلام بوفرة التشكي[1]:

يَا ابْنَةَ الأَقْوَامِ إنْ شئتِ فَلاَ ... تَعْجَلِي بِاللَّوْمِ حَتَّى تَسْأَلي

فإذا أنتِ تبيَّنتِ التي ... عندَها اللّومُ فلُومي واعذُلي

إنْ تَكُنْ أُخْتُ امْرِئٍ لِيَمتْ عَلَى ... شَفَقٍ مِنْهَا عَلَيْهِ فَافْعَلِي

قتلُ جَسَّاسٍ عَلَى وَجْدِي بِهِ ... قاطعٌ ظَهري ومُفْنٍ أجلي

لو بِعَيني فُدِيَتْ عينٌ سِوى ... أختِها فأنفقأتْ لم أحفِلِ

تحملُ العينُ قُذَى العينِ كما ... تحملُ الأمُّ قَذَى ما تَفْتلي

يا قتيلاً قوَّضَ الدَّهرُ بِهِ ... سَقْفَ بيتيَّ جميعاً مِنْ علِ

هَدَمَ البيتَ الذي استحدثْتُهُ ... وبدا في هدْمِ بَيْتي الأوَّلِ

ورماني قتلُهُ مِنْ كَثَبٍ ... رَمْيةَ الْمُصْمَى به المستأصَلِ

---

[1] انظر: شروح الحماسة.

يا نسائي دونكنّ اليوم قد خَصَّني الدَّهرُ برُزءٍ معضِلِ
خصّني قتل كليبٍ بلظىً من ورائي ولظىً مستقبِلِي
ليس من يبكي ليومينِ كمن إنّما يبكي ليومٍ ينجلي
دَركُ الثّائرِ شافيه وفي دركِي ثأريَ ثكلُ المثكلِ
ليتَه كان دمي فاحتَلَبوا دركاً منه دماً من أكحلي
جلّ عندي فعلُ جسّاسٍ فيا حسرتَا عمّا أنجلتْ أو تنجلي
إنّني قاتلةٌ مقتولةٌ ولعلّ الله أنْ يرتاحَ لي

حرب البسوس

قال أبو العباس: قرأتُ على أبي محمد النحوي المعروف بالتَّوَّزي، عن أبي عبيدةَ معمرِ بنِ المثنى التيمي مولى بني تيم بن مُرَّة من قريش، عن مقاتل الأحول ابن سنان من بني سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة. وهو الذي يقول فيه طَرَفة:

رأيت سعوداً من شعوبٍ كثيرةٍ فلم أر سعداً مثل سعدِ بنِ مالكِ

قال مقاتل: هذا عديٌّ وأخوه كليبٌ وسالمٌ وفاطمةُ بنو ربيعة بن الحارث ابن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب. وكان كليبُ ابن ربيعة ليس على الأرض بكريٌّ ولا تغلبيٌّ أجار رجلاً ولا بعيراً إلا بإذن كليب، ولا كان يحمي حمىً إلا لم يُقرَب. وكان لِمُرة بن ذُهْل بن شيبان عشرة بنين منهم

جسَّاس. وكان أصغرَهم. وكانت أختُهم عند كليب[1]. قال مقاتل: وأم جساس بن مرة: هيلة بنت منقذ بن سليمان بن كعب بن عمرو بن سعد بن زيد مناة بن تميم. ثم خلف عليها بعد مرة بن ذُهْل سعدُ بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة. قال فراس: وهي أمنا وخالة جساس يقال لها البسوس.

قال أبو برزة: البسوسُ أخت هيلة، فجاءت فنزلت على جساس، فكانت جارة لبني مرة ومعها ناقة اسمها السَّراب وكانت خوارةً صَفِياً مِنْ نُعْم بني سعد، ومعها فصيلٌ لها.

قال أبو برزة: وقد كان كليبٌ قال لصاحبتِه أختِ جساس: هل تعلمين على الأرض عرباً يمنع مني ذمَّتَه؟ فسكتتْ، ثم أعاد ذلك عليها فسكتتْ، ثم أعاد ذلك عليها الثالثة فقالت: نعم، أخي جساس وندمانه ابنُ عمِّه عمرُو بن أبي ربيعة بن ذُهْل. وعمرٌو هو المزدلف.

وأما مقاتل فزعم أن امرأة كليب بينا تغسل رأس كليب وتسرِّحه ذات يوم إذ قال لها: من أعزُّ وائلٍ؟ فضَمَزَتْ[2]، فأعاد عليها فضمزتْ. فلما أكثر قالت: أخواي جساسٌ وهمامٌ! فنزع رأسَه من يدها وأخذ القوسَ فرمى فصيلَ ناقة

---

[1] يعني زوجته.

[2] سكتت. ضَمَزَ الحيوانُ يضمَز ضُمُوزًا: أَمسك بِجِرَّتِهِ في فيه فلم يَجترَّ، من الفزع وغيره.

البسوس، خالةِ جسَّاس وجارةِ بني مرة، فأقصَدَه[1]، فأغمضوا على ما فيها وسكتوا. ثم لقي كليبٌ ابنَ البسوس، فقال: ما فعل فصيلُ ناقتكم؟ قال: قتلتَه وأخليتَ لنا لبنَ أمِّه، فأغمضوا على هذه أيضاً. ثم إن كليباً أعاد بعد هذا على امرأتِه فقال: من أعزُّ بني وائل؟ قالت: أخواي، فأضمرَها وأسرَّها كليبٌ وأسكت حتى مرتْ إبلُ جساس فإذا الناقة، فاستنكرها فقال: ما هذه الناقة؟ قالوا: لخالة جساس. قال: أو قد بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير عليَّ بغيرِ إذني؟ ارمِ ضرعَها يا غلام فَشُقَّهْ. قال: فأخذ القوسَ فرمى ضرعَ الناقة، فاختلط لبنُها ودمُها. وراحتِ الرعاءُ على جسَّاسٍ فأخبروه بالأمر فقال: احلِبُوا لها مكيالاً من لبَنِها ولا تَذْكُروا لها من ذلك شيئاً، وأغمِضوا عليها.

قال مقاتل: حتى أصابتهم سماءٌ. فغدا في غبِّها عمرُو بنُ ذُهْل بن شيبان فطعن عمرٌو كُليباً فقَصَم صلبَه.

وأما أبو برزة فزعم أن جسَّاساً أمسك حتى ظعن ابنا وائل، فمرت بكرٌ على نَهِيّ[2] يقال له شُبَيْث، فأبعدهم عنه كليبٌ وقال: لا تذوقوا منه قطرة. ثم مروا

---

[1] أقصده: طعنه فلم يُخْطئه.

[2] النَّهْيُ: الغدير.

على آخرَ يقال له الأحَصُّ[1] فأبعدَهم عنه. ثم مرّوا على بطن الجريب فمنعهم إياه، فمضوا حتى نزلوا الذنائب، واتبعهم كليبٌ وحيُّه حتى نزلوا عليهم، فمر عليه جسَّاسٌ وهو واقف على غدير الذنائب، فقال أبعدْتَ أهلَنا عن المياه حتى كدتَ تقتلَهم من العطش. فقال كليبٌ: ما أبعدناهم إلا عن شيء نحن له شاغلون. فمضى جسَّاسٌ ومعه المزدلفُ عمرُو بنُ أبي ربيعة. ثم ناداه جسَّاس: هذا كفعلِك بناقة خالتي. قال: أَوَقَد ذكرتَها! أما إني لو وجدتُها في غيرِ إبلِ بني مُرَّة بن ذُهْل لاستحللتُ تلكَ الإبل بها! فعطف عليه جساسٌ الفرسَ فطعنَه بالرُّمح، فأنفذ حِضْنَيه[2]. فلما تداءَمَه[3] الموتُ قال: يا جسَّاس، اسقني من الماء. قال: ما عقلتَ استسقاءك من الماء مذ ولدتك أمك قبل ساعتِك هذه.

قال أبو برزة: فعطف عليه المزدلفُ عمرُو بنُ أبي ربيعة فحزَّ رأسَه.

وأما مقاتلٌ فزعم أن عمرَو بنَ الحارث بن ذُهْل هو الذي طعنه فقصم صلبه، ففي ذلك يقول مهلهل:

---

[1] شُبَيث: ماء لبني الأضبط ببطن الجريب في موضع يقال له دارة شبيث، والأحَصُّ: موضع هناك أيضاً.

[2] مثنى حضن، والحضْن من الصدر: ما دون الإبط إلى الأضلاع.

[3] تَدَاءَمَ الشيءُ فلاناً: تراكم عليه وتَزَاحَمَ.

قتيلٌ ما قتيلُ المرءِ عمْروٍ وجسّاسُ بنُ مرّةَ ذو ضريرِ

وقال نابغة بني جعدة لعقال بن خويلد العقيلي لما أجار بني وائل بن معن، وقد قتلوا رجلاً من بني جعدة، فحذَّره عدوانَ الظلم واقتصَّ[1] له أمرَ كليب وحديثَه:

كليبٌ لعمري كان أكثرَ ناصراً وأيسرَ ظُلماً منكَ ضُرِّج بالدَّمِ
رَمَى ضرْعَ نابٍ فاستحرَّ بطعنةٍ كحاشيةِ البردِ اليماني المسهَّمِ
وقال لجسّاسٍ: أغثْني بشَربةٍ تفضَّلْ بها طَولاً عليَّ وأنعِمِ
فقال: تجاوزتَ الأحصَّ وماءَهُ وبطنَ شُبَيثٍ وهو ذو مترسَّمِ

وهي في كلمة.

وقال العباس بن مرداس لكليب بن عهمة الظفري أخي عباس ومالك بن عهمة، وكانوا شركاء في القريَّة فجحدهم كليبٌ حظَّهم منها فحذَّره غبَّ الظلم وما لقي كليب منه:

أكُليبُ مالَكَ كلَّ يومٍ ظالماً والظُلْمُ أنكدُ وَجهُهُ مَلعونُ
فافعلْ بقومِكَ ما أرادَ بوائلٍ يومَ الغديرِ سميُّكَ المطعونُ
وأظنُّ أنَّكَ سوف تَلْقى مثلَها في صَفْحتَيْكَ سنانُها المسنونُ

[1] اقتص: قص خبره وذكره له.

إنّ القريَّةَ قد تبيَّنَ شأنُها لو كان ينفع عندَكَ التَّبيينُ
أجحدتني ثمّ انطلقت تخطُّها وأبو يزيدَ بجوِّها مدفونُ

وقال رجل من بكر بن وائل في الإسلام، وهو يحمل على الأعشى وزعموا أنه شبيل بن عريرة:

ونحن قهرْنا تغلبَ ابنةَ وائلٍ بقتلِ كُليبٍ إذ طَغَى وتَخَيَّلا
أبأناهُ بالنَّابِ التي شقَّ ضرْعَها فأصبحَ موطوءَ الحمى متذلِّلا

وهي كلمة.

قال: ومقتل كليب بالذنائب عن يسار فلجة مُصعِداً إلى مكة، وذلك قول المهلهل:

ولو نبش المقابر عن كليبٍ فيخبر بالذنائب أيُّ زيرِ

قال أبو برزة: فلما قتله جسَّاسٌ أمال بيده الفرس حتى انتهى إلى أهله خارجةً ركبتُه. قالت أخته: يا أمتاه، إن جساساً قد جاء خارجةً ركبته. قالت: والله ما خرجت ركبته إلا لأمر عظيم[1]. قالت: ما وراءك؟ قال: ورائي، والله، أني قد طعنته طعنةً لتشتغلن منها شيوخ وائل رقصاً. قالت: أقتلتَ كليباً؟ قال:

---

[1] ومن ذلك ما جاء في مرثيَّةُ دُرَيدِ بنِ الصِّمَّة أخاه عبدالله: (كَمِيشُ الإِزَارِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ بَعيدٌ مِنَ السوءاتِ طَلاّعُ أَنْجُدِ) وقد مر ذلك في أول الكتاب.

نعم. قالت: والله لوددت أنك وإخوتك كنتم متم قبل هذا. ما بي إلا أن يتناكد بي أبناء وائل.

وزعم مقاتل أن جسَّاساً قال لأخيه نضلةَ بنِ مرَّة ويقال لهما اليوم عضدا الحمار:

وإني قد جنيتُ عليك حرباً تغصُّ الشّيخَ بالماءِ القراحِ

فأجابه أخوه نضلةُ بنُ مرَّة فقال:

فإن تك قد جنيتَ عليَّ حرباً فلا وانٍ ولا رثّ السّلاحِ

وإنما ذكرنا أول هذه الوقائعَ والسبب الذي هيَّجها تطرقاً إلى مراثي مهلهلٍ أخاه وقومَه ليقع ذلك على معرفة عند من لم يكن عرفها.

قال المهلهلُ يرثي اخاه ويذكر أشرافَ من قتل به، وأن ذلك ليس بكفء[1]:

أَلَيْلَتَنا بذِي حُسُمٍ[2] أَنِيرِي إذا أَنْتِ انْقَضَيْتِ فَلَا تَحُورِي

فإن يكُ بالذّنائبِ طال لَيْلي فقد يُبكَى من اللّيلِ القصيرِ

فلو نبش المقابر عن كُليبٍ فيخبر بالذّنائبِ أيُّ زيرِ

---

[1] انظر: شروح الحماسة.

[2] ذُو حُسُمٍ: موضعٌ ببادِيَة نجد.

معنى ذا أن كليباً كان يعيِّر مهلهلاً فيقول: أنت زير نساء. وإنما يقال ذلك لمؤثِرِ اللهوَ بالنساء والحديثِ إليهن على المساعي وطلبِ الذكر، وكان مهلهل أوقع بهم بالذنائب وقعةً منكَرة فيقول: لو رأى كليب ما صنعت لعلم أني غير زير.

بيوم الشّعثمين لقَرَّ عيْناً وكيف لقاء مَنْ تحت القبورِ
وأني قد تركتُ بواراداتٍ بُجيراً في دمٍ مثلِ العبيرِ

خبر بُجير:

وهو ابن الحارث بن عباد بن ضبيعة بن قيس بن ربيعة، وكان الحارث من فرسانهم، فاعتزل هذه الحرب. وجاء بُجير يقاتل مع قومه يوم واردات، وهو مشهور من أيامهم. فأُخذ أسيراً فقتله مهلهل وقال: بؤ بشسع كُليب[1]، فقيل للحارث بن عباد إن ابنَك بُجيراً قُتل. فقال الحارث: إنه لأعظم قتيلٍ بركةً إن أصلحَ اللهُ بين ابنيْ وائل. فقيل له: إن مهلهلاً حين قتله قال: بؤ بِشسْعِ كليب. فقال عند ذلك[2]:

قرِّبا مَرْبِطَ النَّعامةِ[3] مِنِّي لقحَتْ حربُ وائلٍ عن حيالِ

---

[1] الشسع: النعل. وهي مقولة تحقير معناها أنت فداء لنعل كليب.

[2] يعني اغتاظ من هذه المقولة وقرر أن يدخل الحرب بعما كان اجتنبها.

[3] اسم ناقته.

لم أكن مِنْ جُناتها عَلِمَ اللّهُ[1] وإنّي بحرِّها اليومَ صالِ
لا بجيرٌ أغنى فتيلاً ولا رهـ ـطُ كليبٍ تزاجروا عن ضلالِ

ثم دخل في الحرب.

رجْعٌ إلى شعر مهلهل:

هتكتُ به بيوتَ بني عبادٍ وبعضُ الغَشْمِ أشْفَى للصُّدورِ
على أنْ ليس يُشْفى من كليبٍ إذا برزتْ مخبّأةُ الخُدورِ
وهمّامُ بنُ مرّةَ قد تركْنا عليه القشعمينَ من النُّسورِ
ينوءُ بصدْرِهِ والرّمحُ فيه ويخلجه خدبٌّ كالبعيرِ
فلولا الرّيحُ أسمع أهلَ حجرٍ صليل البيض تقرعُ بالذّكورِ
فدىً لبني الشقيقة يوم جاؤوا كأُسْد الغاب لجَّت في الزّئيرِ
كأنّ رماحَهمْ أشطانُ بئرٍ بعيدٍ بين جاليها جرورِ
كأنّا غدوةً وبَني أبينا بجنبِ عنيزةٍ رحيا مديرِ
نكرُّ عليهمُ عَوْداً وبَدْءاً كأنَّ الخيل تنهضُ في غديرِ

وقال أيضاً يرثيه[2]:

---

[1] وصلتُ لفظ الجلالة برغم أن البيت مدوَّر، حتى لا أقطع اللفظ؛ تأدباً مع الله.

[2] انظر: شروح الحماسة.

طفلةٌ ما ابنة المحلّل بيضا ء لعوبٌ لذيذةٌ في العناقِ
ضربتْ نحرَها إليَّ وقالت يا عَدِيٌّ لقد وقَتْكَ الأواقي
ما أرجِّي بالعيشِ بعد ندامَى قد أراهمْ سُقوا بكاسِ حلاقِ
بعد عمروٍ وعامرٍ وحُييٍّ وقتيليْ صدوفَ وابنيْ عناقِ
وامرئ القيس ميّت يوم أودى ثمّ خلَّى عليَّ ذاتَ العراقي
وكُليبٍ عبر الفوارس إذ حـ ـمَّ رماه الكماةُ بالإيفاقِ
إن تحت الأحجارِ حَزماً وجُوداً وخصيماً ألدَّ ذا معلاقِ

من قال معلاق أراد: إذا علق خصمه بلغ منه. ومن قال مغلاق أراد: يغلق الحجة على الخصم.

حيّةٌ في الوِجارِ أربد لا ينـ ـفع منه السّليمَ نفثُ الراقي

وقد أطلنا القول في المراثي والتعازي وما بهما من المواعظ. وأحْرِ[1] بما أطيل أن يُمَلَّ. وقد قال أحد المتقدمين: من أطال الحديث فقد عرَّض نفسه للملل ولسوء الاستماع. وقد كنا ذكرنا أشعاراً من أشعار المتقدمين، فقلنا نمليها على وجهها. ثم رجعتُ إلى أنها مجموعة في الكتاب الكامل[2] على شرح جميع

[1] في المطبوعة: وأخر، وهو خطأ واضح، والمعنى أن التطويل جدير بأن يمل منه القارئ.

[2] وهو كتابه الشهير المعروف باسم "الكامل" وهذا دليل على أن كتاب المراثي متأخر عن الكامل، بل هو آخر كتب المبرد، وقد صرح بذلك في آخر هذه الفقرة من الكتاب.

إعرابها ومعانيها، فإن رجعت معادةً، وهو يؤخذ من ثمَّ. وقد أتى للقاضي[1] رحمه الله أكثرُ من الحول.

وقد قال لبيدٌ:

ومَنْ يَبكِ حولاً كاملاً فقدِ اعتذرْ

ولكنا نشيِّع ما قد مضى من الأخبار بأخبار طريفة من هذا الباب، وأشعار ظريفة مختصرة، ينقطع الكلام عليها إن شاء الله وبه القوة.

حُدِّثت أن رجلاً عزَّى يحيى بنَ خالد[2] عن حُرْمة له فقال: أيها الوزير، تقديم الحُرَم مِنَ النِّعَم، وتمثل:

تعزَّ إذا رزئتَ بخيرِ درعٍ تسربل للمصائبِ درعَ صبرِ
ولم أرَ نعمةً شملتْ كريماً كعورةِ مسلمٍ سُتِرَتْ بقبرِ

وسمع أسماء بن خارجة الفزاري نائحةً بالكوفةِ تقول:

فمَنْ للمنابرِ والخافقاتِ وللجودِ بعدَ زمامِ العرَبْ
ومَنْ للعُناةِ وحملِ الدِّياتِ ومَنْ يُفرجُ الكربَ حينَ الكرَبْ
ومَنْ للطِّعانِ غداةَ الهياجِ ومَنْ يمنعُ البيضَ عندَ الهَرَبْ

---

[1] القاضي إسماعيل صديق المبرد الذي من أجله ألف هذا الكتاب وأورد ذكره في المقدمة.

[2] يحيى بن خالد البرمكي: كان كاتب هارون الرشيد قبل أن يلي الخلافة، ثم أصبح وزيره بعد أن تولاها، وأصبح هو وأولاده الفضل وجعفر من علية القوم في الخلافة الرشيدية.

فقال: مثلَ هذا فليُبْكَ. ثم قال:

يَا خَدُّ[1] إِنَّكَ إِنْ تَوَسَّدَ لَيِّنًا وُسِّدْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ صُمَّ الْجَنْدَلِ

فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ فِي حَيَاتِكَ صَالِحًا فَلَتَنْدَمَنَّ غَدًا إِذَا لَمْ تَفْعَلِ

وقال عبد الله بن العباس: ما اتعظتُ بشيء بعدما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما اتعظتُ بكتاب كتبه عليٌّ عليه السلام إليَّ، وكان كتابه: أما بعد. فإن المرء يسرُّه درْكُ ما لم يكن ليفوته، ويسوؤه فوتُ ما لم يكن ليدركه. فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك. وليكن أسفك على ما فاتك من ذلك. وما نلت من الدنيا فلا تنعم به فرحاً، وما فاتك منها فلا تكثر عليه جزعاً، وليكن همك لما بعد الموت.

وقال بعضهم: سمعت بكاءَ راهبٍ فناديتُ: يا راهب، ما يبكيك؟ فقال: أبكاني أمرٌ عرفته فحدت[2] عن سبيله، وقصَّرت في طلبه، ويومٌ مضى أورثني عَبرته وحسرته، نقص له أجلي، ولم ينقص له أملي.

وروي أن بعض ملوك الفرس كان شديد الغضب، فكتب ثلاث رقاع، ثم وكل رجلاً حازماً من أصحابه فقال: إذا اشتد غضبي فادفعوا إليَّ الأولى، فإذا سكنتُ بعض السكون فادفعوا إليَّ الثانية، ثم ادفعوا إليَّ الثالثة، فكان في

---

[1] في المطبوعة: يأخذّ، وهو خطأ واضح.

[2] في المطبوعة: فجزت، وهو خطأ واضح.

الأولى: إنك لست بالإله، إنما أنت بَشَر يوشِك أن يموت، ويأكل بعضُك بعضاً. وفي الثانية: ارحمْ من في الأرض يرحمْكَ مَنْ في السماء. وفي الثالثة: خذِ الناسَ بأمر الله، فإنه لا يصلحهم إلا ذلك.

وقال أبو عبد الرحمن بن عائشة: لما أُتِيَ بحُجْر بنِ عَدِيٍّ وأصحابه ليُقتل بعَذْراء قال: ما اسم هذه القرية؟ قالوا: عَذْراء. قال: والله إني لأول فارس وعر أهلها يوم افتتحناها. فلما قرِّب ليُقتل صلَّى ركعتين وأظهر جزعاً قيل له: أتجزع؟ فقال: ولم لا أفعل؟ كفنٌ منشور، وسيفٌ مشهور، وقبرٌ محفور، ولست أدري أيؤديني إلى الجنة أم إلى نار[1].

مرثية عبد الله بن خليفة الطائي

فلما قُتل قال عبد الله بن خليفة الطائي[2] يرثيه:

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى وَالشَّبِيبَةَ أَعْصُرَا ... وذكرُ الهوى بَرْحٌ على مَنْ تذكَّرا

أَقُولُ وَلَا وَاللَّهِ أَنْسَى ادِّكَارَهُمْ ... سَجِيسَ اللَّيَالِي أَوْ أَمُوتَ فَأُقْبَرَا

عَلَى أَهْلِ عَذْرَاءَ السَّلَامُ مُضَاعَفًا ... مِنَ اللَّهِ وَلْيَسْقِ الْغَمَامَ الْكَنَهْوَرَا

---

[1] انظر: الكامل للمبرد، والكامل لابن الأثير.

[2] عبد الله بن خليفة البولاني الطائي: له إدراك، وكان مع عليٍّ بصفين، ولما أراد عائذ بن قيس الجرمزي أن يأخذ الراية من عدي بن حاتم قام عبد الله بن خليفة، فقال: أليس كان عديٌّ وافدَكم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورأسكم بالقادسية.

وَلَاقَى بِهَا حُجْرٌ مِنَ اللَّهِ رَحْمَةً فَقَدْ كَانَ أَرْضَى اللَّهَ حُجْرٌ وَأَعْذَرَا
فَيَا حُجْرُ مَنْ لِلْخَيْلِ تُدْمَى نُحُورُهَا وَلِلْمَلِكِ الْمُغْزِي إِذَا مَا تَغَشْمَرَا
فقدْ عِشْتَ محمودَ الحياةِ وإنَّني لأطمعُ أنْ تُعطَى الخلودَ وتُخْبَرَا

مرثية حسان بن ثابت

وقال حسان بن ثابت يرثي جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله ابن رواحة، وكان قد أمَّرهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم على جيش مُؤتة[1]:

تَأَوَّبَنِي لَيْلٌ بِيَثْرِبَ أَعْسَرُ وَهَمَّ إِذَا مَا نَوَّمَ النَّاس مسْهِرُ
لذكرى حَبِيبٍ هَيَّجَتْ لكَ عَبْرَةً سَفُوحًا وَأَسْبَابُ الْبُكَاءِ التَّذَكُّرُ
بَلَى، إِنَّ فِقْدَانَ الْحَبِيبِ بَلِيَّةٌ وَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ يُبْتَلَى ثُمَّ يَصْبِرُ
رَأَيْتُ خِيَارَ الْمُؤمِنِينَ تَوَارَدُوا شَعوبَ وقد خُلِّفْتُ فيمن يؤخَّرُ
فَلَا يُبْعِدَنَّ اللَّهُ قَتْلَى تَتَابَعُوا بِمُؤْتَةَ مِنْهُمْ ذُو الْجَنَاحَيْنِ جَعْفَرُ
وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ حِينَ تَتَابَعُوا مِيعًا وَأَسْبَابُ الْمَنِيَّةِ تَخْطِرُ
غَدَاةَ مَضَى بِالْمُؤْمِنِينَ يَقُودُهُمْ إِلَى الْمَوْتِ مَيْمُونُ النَّقِيبَةِ أَزْهَرُ[2]

---

[1] انظر: السيرة النبوية لابن هشام، وديوان حسان.

[2] يعني جعفر بن أبي طالب.

أَغَرُّ كَضَوْءِ الْبَدْرِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ أَبِيٌّ إِذَا سِيمَ الظُّلَامَةَ يَجْسِرُ
فَطَاعَنَ حَتَّى مَاتَ غَيْرَ مُوَسَّدٍ بِمُعْتَرَكٍ فيه القَنا تَتَكَسَّرُ
فَصَارَ مَعَ الْمُسْتَشْهَدِينَ ثَوَابَهُ جِنَانٌ وَمُلْتَفُّ الْحَدَائِقِ أَخْضَرُ
وَكُنَّا نَرَى فِي جَعْفَرٍ مِنْ مُحَمَّدٍ وقاراً وَأَمْرًا حَازِمًا حِينَ يَأْمُرُ
وَمَا زَالَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ دَعَائِمُ عِزٍّ لَا يَزُلْنَ وَمَفْخَرُ
وهُمْ جَبَلُ الْإِسْلَامِ وَالنَّاسُ حَوْلَهُمْ رِضَامٌ إِلَى طَوْدٍ يروقُ ويقهرُ
بَهَاليلُ مِنْهُمْ جَعْفَرٌ وَابْنُ أُمِّهِ عَلِيٌّ وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ الْمُتَخَيَّرُ
وَحَمْزَةُ وَالْعَبَّاسُ مِنْهُمْ، وَمِنْهُمُ عَقِيلٌ، وَمَاءُ الْعُودِ مِنْ حَيْثُ يُعْصَرُ
بِهِمْ تُفْرَجُ[1] اللَّأْوَاءُ فِي كُلِّ مَعرِكٍ عَمَاسٍ إِذَا مَا ضَاقَ بِالنَّاسِ مَصْدَرُ[2]
هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ أَنْزَلَ حُكْمَهُ عَلَيْهِمْ، وَفِيهِمْ ذَا الْكِتَابُ الْمُطَهَّرُ

[1] في المطبوعة: تفرح.

[2] اللأواء: الشدَّة. والعماس: المظلم. يُرِيد ظلامه من كَثْرَة النَّقْع المثار وَقت الْحَرْب.

مرثية محمد بن مُناذِر الصبيري

ومما يستحسنه الناس من المراثي ويخف على ألسنتهم قصيدة محمد بن مُناذِر الصبيري[1]، مولى بني صبير بن يربوع، في عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي[2] حتى قد خلطوا في الرواية، وزاد بعضهم على بعض. ونحن نختار اختياراً منها تقع فيه الموعظة الحسنة من قول المخلوقين، والكلام المرضي من ذلك، وهي التي أولها[3]:

كُلُّ حَيٍّ لَاقِي الحِمَامِ فَمُودِي[4] ما لَحَيٍّ مُؤَمِّلٍ من خُلودِ
لاتَهَابُ الَمنُونُ شَيْئاً وَلا تُبْـ ـقِي عَلَى وَالِد وَلَا مَوْلُودِ
يَقْدَحُ الدَّهْرُ فِي شَمَارِيخِ رَضْوَى وَيَحُطُّ الصُّخُورَ مِنْ هَبُّودِ[5]

---

[1] محمد بن مُناذر الصبيري اليربوعي (ت ١٩٨هـ): شاعر من العصر العباسي الأوَّل، تُنسَب إليه أشعار وأخبار كثيرة، وإلى جانب نظم الشعر كان خطيباً بارعاً، وله ميول إلى النحو واللغة.

[2] قال المبرد في الكامل: عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي مات لعشرين سنة من غير ما علة، وكان من أجمل الفتيان وآدبهم وأظرفهم.

[3] انظر: الكامل للمبر، وشروح الحماسة.

[4] أودى الشَّخْصُ: هلَك.

[5] قال ياقوت: عبود جبل بالشام؛ والظاهر أن الشاعر كان قال أولاً: (ويحط الصخور من هبود)، فلما قيل له إن هبوداً ليس سوى بئر، غيَّره إلى عبود، زاعماً أنه جبل بالشام.

يزعمون أنه غلط[1] في هذا، وأن هبُّود حفيرة، وليس كما قالوا، إنما الحفيرة هبوب. والذي قال هو: هبُّود. وذكروا أنها أكمة.

وَلَقَدْ تَتْرُكُ الْحَوَادِثُ وَالأَيـ ـيامُ وَهْيًا فِي الصَّخْرَةِ الصَّيْخُودِ

ليس يبقى على الحوادث حيٌّ غير وجه المهيمن المعبود

ومما استحسنت منها ولم أرذل غيره، قوله:

أَيْنَ رَبُّ الْحِصْنِ الْحَصِينِ بِسُورَا ءَ[2] ورَبُّ القَصْرِ الْمُنِيفِ الْمَشِيدِ

شادَ أركانَهُ وبَوَّبَهُ با بَيْ حديدٍ وحَفَّهُ بجُنُودِ

كَانَ يُجْبَى إِلَيْهِ مَا بَيْنَ صَنْعَا ءَ فَمِصْرَ إِلَى قُرَى يَبْرُودِ

وَتَرَى حَوْلَهُ زَرَافَاتِ خَيْلٍ جَافِلاتٍ تَعْدُو بِمِثْلِ الأُسُودِ

فَرَمَى شَخْصَهُ فَأَقْصَدَهُ الدَّهْـ ـرُ بِسَهْمٍ مِنَ الْمَنَايَا شَدِيدِ

ثُمَّ لَمْ يُنْجِهِ مِنَ الْمَوْتِ حِصْنٌ دُونَهُ خَنْدَقٌ وَبَابا حَدِيدِ

وَمُلُوكٌ مِنْ قَبْلِهِ عَمَرُوا الأَرْ ضِ أُعِينُوا بِالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ

فَلَوَ انَّ الأَيَّامَ أَخْلَدْنَ حَيّاً لِعَلاءٍ أَخْلَدْنَ عَبْدَ الْمَجِيدِ

مَا دَرَى نَعْشُهُ وَلَا حَامِلُوهُ مَا عَلَى النَّعْشِ مِنْ عَفَافٍ وَجُودِ

وَيْحَ أَيْدٍ حَثَتْ عَلَيْهِ وَأَيْدٍ دَفَنَتْهُ، مَا غَيَّبَتْ فِي الصَّعِيدِ

---

[1] في المطبوعة: غلظ، وهو خطأ واضح.

[2] سُوراء: موضع.

غَيَّبَتْ في الصَّعيدِ حَزْماً وعَزْماً ولَزازَ[1] الخَصْمِ الأَلَدِّ العَنودِ
إنَّ عبدَ المجيدِ يومَ تَوَلَّى هَدَّ رُكناً ما كان بالمهدودِ
هَدَّ ركُني عبدُ المجيدِ وقد كنـ ـتُ بركنٍ منه أبوءُ شَديدِ
حِينَ تَمَّتْ آدَابُهُ وَتَرَدَّى بِرِدَاءٍ مِنَ الشَّبَاب جَدِيدِ
وَسَمَتْ نَحْوَهُ العُيُونُ وَمَا كَا نَ عَلَيْهِ لِزَائِدٍ مِنْ مَزِيدِ
وَكَأَنِّي أَدْعُوهُ وَهُوَ قَرِيبٌ حِينَ أَدْعُوهُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدِ
ولئن كنتُ لم أمتْ من جَوى الحز نِ عليه، لأبلغنْ مجهودي
لأقيمنَّ مأتماً كنجومِ الـ ـليلِ زُهْراً يلطِمنَ حرَّ الخدودِ
موجَعاتٍ يبكينَ للكبدِ الحرَّ ى عليه وللفؤادِ العَميدِ
ولعينٍ مطروفةٍ أبداً قا لَ لها الدَّهرُ: لا تنامي وَجودي
كلَّما عزَّكِ البكاءُ فأنفدْ تِ لعبدِ المجيدِ سَجلاً فعودي
لفتىً يحسُنُ البكاءُ عليهِ وفتىً كان لامتداحِ القصيدِ

فكل هذه الأبيات غُرة، ولقد بلغني بلاغاً إخاله صحيحاً أن عبد المجيد كان للمدح حياتَه موضِعاً، وللمراثي بعد موتِه مستوجِباً، عفَافاً وجَمالاً وأَدَباً وشباباً.

---

[1] فلانٌ لِزازُ خصومةٍ: ملازمٌ لها قادرٌ عليها.

وقال القائل[1]:

وإنَّ أحْسَنَ بَيْتٍ أنْتَ قائِلُهُ بَيْتٌ يُقالُ، إذا إنْشَدتَهُ، صَدَقا

وأحسن من ذلك وإن جل قدر المؤمن بكاء الرجل على نفسه وإن كان حياً، لما يتوقعه. كما قال إسماعيل بن القاسم[2]:

كَمْ سَتَرى في الناسِ مِن هالِكٍ وَهالِكٍ حَتّى تُرى هالِكا[3]

فهذا مأخوذ مما يُروى أن الصدِّيق رحمه الله كان يُكثر إنشاده وهو[4]:

تنفكُّ تسمعُ ما حَييـ ـتَ بِهالِكٍ حتَّى تكونَهْ

---

[1] هو طرفة بن العبد، في ديوانه، وقبله: ولا أُغِيرُ على الاشعارِ أسْرِقُها ... عنها غَنِيتُ، وشرُّ الناسِ مَن سرَقا

[2] أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم: ولد في عين التمر سنة ١٣٠هـ ثم انتقل إلى الكوفة، كان بائعاً للجرار، مال إلى العلم والأدب ونظم الشعر حتى نبغ فيه، ثم انتقل إلى بغداد، واتصل بالخلفاء، فمدح الخليفة المهدي والهادي وهارون الرشيد. وأبو العتاهية كنية غلبت عليه لما عرف به في شبابه من مجون، ثم كف عن ذلك ومال إلى التنسك والزهد، وانصرف عن ملذات الدنيا والحياة، وشُغل بخواطر الموت، ودعا الناس إلى التزوّد من دار الفناء إلى دار البقاء.

[3] من قصيدته التي مطلعها: خَفِّض هَداكَ اللَهُ مِن بالِكا وَافرَح بِما قَدَّمتَ مِن مالِكا

[4] البيتان منسوبان لخليفة بن براز، وهو جاهلي. والمعنى: ما تزال تسمع: مات فلان، حتى تكون الهالك، والخطاب لغير معيّن. وقال الدينوري في المجالسة وجواهر العلم: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُبَرِّدُ؛ قَالَ: هَذَانِ بَيْتَانِ قَدِيمَانِ لا يُعْرَفُ قَائِلُهُمَا، وَيُرْوَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَرَحِمَهُ كَانَ يُنْشِدُهُمَا وبعض الناس يقول: هما له.

والمرءُ قد يرجو الرَّجا ءَ مغيَّباً والموتُ دونَهْ

ومع قوله[1] هذا:

أصبَحَتِ الدُّنْيَا لنا عِبْرَةً وَالحَمْدُ للَّهِ عَلَى ذَلِكَا
اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى ذَمِّهَا ومَا تَرَى منهمْ لها تارِكا

ومثله قوله[2]:

نُنافِسُ في الدُّنيا ونَحنُ نَعيبُهَا وَقَد حَذَّرتْناهَا لَعَمْرِي خُطوبُها
وَمَا نَحْسِبُ السَّاعَاتِ تَقْطَعُ مُدَّةً عَلَى أَنَّهَا فِيْنَا سَرِيْعًا دَبِيْبُهَا
كَأَنِّي بِرَهْطِي يَحْمِلُوْنَ جِنَازَتِي إِلَى حُفْرَةٍ يُحْثَى عَلَيَّ كَثِيْبُهَا
وباكيةٍ حَرَّى تَنوحُ وإنَّني لَفِي غِفْلَةٍ عَنْ صَوْتِهَا مَا أُجِيْبُهَا
وَإِنِّي لَمِمَّنْ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَالبِلَى وَيُعْجِبُنِي رُوحُ الحَيَاةِ وَطِيْبُهَا
فَحَتَّى مَتَى حَتَّى مَتَى وَإِلَى مَتَى يَدُومُ طُلُوعُ الشَّمْسِ لِي وَغُرُوبُهَا
فَيَا هَادِمَ اللَّذَّاتِ مَا مِنْكَ مَهْرَبٌ تُحَاذِرُ نَفسِي مِنْك مَا سَيُصِيْبهَا
رَأَيْتُ الْمَنَايَا قُسِّمَتْ بَيْنَ أَنْفُسٍ وَنَفْسِي سَيَأْتِي بَعْدَهُنَّ نَصيْبُهَا

---

[1] يعني أبا العتاهية.

[2] أيضاً أبو العتاهية.

مرثية منصور النمري

وقال منصور النمري[1] يرثي يزيد بن مزيد[2]:

مَتى يَبرُدُ الحُزنُ الَّذي في فُؤاديا ... أبا خالدٍ مِنْ بعدِ ألَّا تَلاقِيا
أَبا خالِدٍ ما كانَ أَدهى مُصيبَةً ... أَصابَتْ مَعدّاً يَومَ أَصبَحتَ ثاوِيا
أَبا خالِدٍ لا بَل عَمَمتَ بِنَكبَةٍ ... فَتَبكي مَعدٌّ وَالقَبيلُ اليَمانِيا
وَناعٍ غَدا يَنعَى يَزيدَ بنَ مَزيَدٍ ... فَقُلتُ لَهُ أَصبَحتَ لِلجودِ ناعِيا
أَعَينَيَّ جُودا بِالدُموعِ وَأَسعِدا ... بِعَبْرَةِ مَحزونٍ بَكَى لِبُكائيا

---

[1] منصور بن الزبرقان بن سلمة بن شريك النمري: من بني النمر بن قاسط، شاعر من أهل الجزيرة الفراتية كان تلميذ كلثوم بن عمرو العتابي وقرظه العتابي عند الفضل بن يحيى فاستقدمه الفضل من الجزيرة واستصحبه. ثم وصله بالخليفة هارون الرشيد فمدحه وتقدم عنده وفاز بعطاياه ومت إليه بقرابته من أم العباس بن عبد المطلب وهي نمرية واسمها نُتيلة. وجرت بعد ذلك وحشة بينه وبين العتابي حتى تهاجيا وسعى كل منهما على هلاك صاحبه وكان النمري يظهر للرشيد أنه عباسي منافر للشيعة العلوية. وله شعر في ذلك فروى العتابي للرشيد أبياتاً من نظم النمري فيها تحريض عليه وتشيُّع للعلوية فغضب الرشيد وأرسل من يجيئه برأسه في بلدته رأس العين في الجزيرة. فوصل الرسول في اليوم الذي مات فيه النمري وقد دفن. فقال الرشيد هممت أن أنبشه ثم أحرقه.

[2] يزيد بن مزيد بن زائدة (ت١٨٥هـ): قائد عسكري ينتمي للدولة العباسية حكم أحفاده شروان وأذربيجان وكانوا يعرفون بالشروانشاه، وهو ابن أخي معن بن زائدة. ينتمي يزيد إلى قبيلة شيبان التي تسيطر على منطقة ديار بكر في شمال الجزيرة. ولاه هارون الرشيد اليمن ثم أذربيجان وأرمينية، وهو من قتل رأس الخوارج الوليد بن طريف.

سَمِعتُ بُكاءَ النائِحاتِ بِسُحرَةٍ فَهَيَّجنَ أَحزاناً غَلَبنَ عَزائيا
أَلا عَذَرَ اللَهُ العُيونَ البَواكيا وَقَد عايَنَتْ يَوماً مِنَ الدَّهرِ شاجِيا
لَعَمْري لَئِن سُرَّ الأَعادي وَأَظهَروا شَماتاً لَقَد مَرُّوا بِرَبْعِكَ خالِيا
وَخَلَّفْتَ لَيْثَيْ غابَتَينِ كِلاهُما سَيَلْقى الأَعادي مِن يَدَيهِ الدواهِيا
فَشِبهُكَ أَخلاقاً وَعِزَّةَ أَنفُسٍ إِذا النَفسُ جاشَت لَو بَلَغنَ التَراقِيا

قال النفس في موضع النفوس.

سَقَيتَ السواري وَالغَوادي وَقَد أَرى خَيالَكَ يَسري ثُمَّ يُصبِحُ غادِيا
نُعزِّي بِكَ الإِسلامَ إِنَّكَ دونَهُ إِذا نَكَلَ الحامونَ كُنتَ مُحامِيا
مُشَمِّرُ أَذيالٍ تَحوطُ حَريمَهُ وَتَحمي لَهُ أَطرافَهُ وَالقَواصِيا
وَكُنتَ شِهاباً لِلخَليفَةِ ثاقِباً وَكَوكَبَةً تَرمي العِدا وَالْمُناوِيا
وَكُنتَ سِناناً نافِذاً في يَمينِهِ وَسَيفاً لَهُ عَضباً يَقُدُّ الهَوادِيا
وَكُنتَ إِذا نادى لأَمرِ عَظيمَةٍ وَلَم يَكُ مَن يَكفي أَصابَكَ كافِيا
دوينا جانباً والسواسا[1] وَشَمَّرتَ أَذيالاً وَلَبَّيتَ داعِيا
وَقُمتَ بِأَمرِ الثَغرِ بَعدَ فَسادِهِ وَأَوشَكتَ مِنهُ رَقْع ما كانَ واهِيا
فَقَد ماتَ مَعروفٌ وَماتَت تِجارَةٌ وَماتَ غَناءٌ يَومَ وَدَّعْتَ ماضِيا
نُعَزِّي أَميرَ الْمُؤمِنينَ وَرَهطَهُ بِسَيفٍ لَهُ ما كانَ في الحَربِ نابِيا

[1] هكذا، وبه اضطراب وسقط لم أعرفه.

لَقَد كانَ في أَعدائِهِم ذا شَكيمَةٍ لَهُم ناهِكاً عدّاً وَقَد كانَ ناشِيا
وَمَلآنَ مِن وُدِّ الخَليفَةِ صَدرُهُ يُؤَدّي إِلَيهِ النُصْحَ مُذْ كانَ ناشِيا
مَضَى ماجِدَ الأَيّامِ رافِعَ هِمَّةٍ إِلى الخُلُقِ الأَعلى مِنَ الذَمِّ ناجِيا
فَإِن عُدَّ في الدُّنيا فَذِكرُ مَكارِمٍ وَإِن عُدَّ في دِينٍ فَلَمْ يَكُ تالِيا
عَلى مِثلِ ما لاقى يَزيدُ بنُ مَزيَدٍ عَلَيهِ الْمَنايا فالْقَ إِنْ كُنتَ لاقِيا
فَتىً كانَتِ الأَبطالُ تَعرِفُ أَنَّهُ إِذا قارَعَتهُ لَيسَ بالضَيمِ راضِيا
فَإِن تَكُ أَفنَتهُ اللَيالي فَأَوشَكَتْ فَإِنَّ لَهُ ذِكراً سَيُفني اللَيالِيا
حَلَفتُ لَقَد أَبْقَى يَزيدٌ لِرَهطِهِ مَعالَي لا تَنفَكُّ تَبْني مَعالِيا

مرثية رجل من غطفان في رسول الله

كنا أردْنا أن نملي أشعاراً من أشعار المحدَثين في ضروب من المراثي فأشفقنا من أن يُستخف بهذا الكتاب، والمراثي لا تنقضي ما كان الناس؛ فأحببْنا أن نختمَه ونأخذ في غيره، وأن يكون ما نختمُه به شريفاً بهياً، فاخترْنا له قصيدة أنشدَناها الرياشيُّ لرجل من غطفان من بني عبد الله، كانت له صحبة، قُتل يوم جلولاء يقال له سالم، يرثي رسول صلى الله عليه وسلم[1]:

أَفَاطِمُ بَكِّي وَلَا تَسْأَمِي لصُبْحِكِ مَا طَلَعَ الْكَوْكَبُ

[1] وردت هذه الأبيات منسوبة أيضاً لصفية بنت عبدالمطلب كما في الطبقات الكبرى لابن سعد.

فقد هُدَّتِ الأرضُ لَمَّا ثَوَى ... وَأَيُّ الْبَرِيَّةِ لَا يُنْكَبُ
فَمَا لِيَ بَعْدَكَ حَتَّى الْمَمَا ... تِ إِلَّا جَوًى داخِلٌ مُنْصِبُ
جوىً حلَّ بين الحَشا والشّغا ... فِ فخيَّمَ فيه فما يَذْهبُ
فيا عينُ ويحَكِ لا تسأمي ... وما بالُ دمعِكِ لا يُسكَبُ
وقد بانَ منكِ الّذي تعلمي ... نَ وضاقتْ بكِ الأرضُ
ومَنْ ذا – لكِ الويلُ – بعد الرّسو ... لِ يبكّى من النّاسِ أو يُندَبُ
فإن تبكِهِ تبكِ خيرَ الأنا ... مِ كثيرَ الفواضلِ لا يُجدَبُ
وإنْ تبكِهِ تبكِ سهلَ الجنا ... بِ محضَ الضرائبِ لا يؤشَبِ
وإنْ تبكِهِ تبكِ نورَ البلا ... دِ ضخمَ الدّسيعةِ لا يحسَبِ
وإنْ تبكِهِ تبكِ خيرَ الأنا ... مِ سريعاً سوابلُهُ مخصَبِ
وإنْ تبكِهِ تبكِ واري الزّنا ... دِ صدوقَ المقالةِ لا يُكذَبِ
وتبكي الرَّسُولَ وَحُقَّتْ لَهُ ... شُهُودُ الْمَدِينَةِ وَالْغُيَّبُ
وتبكي له الصُّمُّ، صمُّ الجبا ... لِ وشرقُ المدينةِ والمغربُ
وتبكيهِ شعثاءُ مَضْرُورَةٌ ... إِذَا حُجِبَ النَّاسُ لَا تُحْجَبُ
ويبكيهِ شيخٌ أبو وِلْدَةٍ ... تطيفُ بِعَقْوَتِهِ أَشْهَبُ
ويبكيهِ أهلُ النُّهى والحِجى ... مِنَ النّاسِ والطّارقُ الأخيَبُ
ويبكيهِ ضيفٌ جفاهُ الصّدي ... قُ وذو النَّسبِ الدّاخلُ الأقربُ

ويبكيهِ شُعثٌ خماصُ البطو نِ أضرَّ بهم زَمَنٌ أنكَبُ

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً.

هذا آخر الكتاب. وقيل: ما قيل فيه صلى الله عليه قليلٌ وإن كان كثيراً في اللفظ، ويسيرٌ وإن كان جليلاً في النفس، وعليه رحمة الله وبركاته.

الاستشفاع برسول الله في حياته

وهذا حديث نذكرُه ليتبعه ذكره عليه السلام، ويعوذ به عائذ، ويأتمُّ به مؤتم: حدَّثني الرياشيُّ العباسُ بنُ الفرج قال: أخبرنا أَحْمَدُ بْنُ شَبِيبِ بْنِ سَعِيدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ رَوْحِ بْنِ الْقَاسِمِ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَدِنِي، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، عَنْ عَمِّهِ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ: أَنَّ رَجُلاً كَانَ يَخْتَلِفُ إِلَى عثمانَ بنِ عفانَ في حاجة، فَكَانَ عُثْمَانُ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَلَا يَنْظُرُ فِي حَاجَتِهِ، فَلَقِيَ عُثْمَانَ بْنَ حَنِيفٍ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ بْنُ حَنِيفٍ: ائْتِ الْمِيضَأَةَ فَتَوَضَّأْ، ثُمَّ ائْتِ الْمَسْجِدَ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّي مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّي تقضي حَاجَتِي، تَذْكُرُ حَاجَتَكَ ثم رحْ حَتَّى أَرُوحَ.

فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ فَصَنَعَ ذلك ثُمَّ أَتَى بَابَ عُثْمَانَ بنِ عفانَ، فجاء البوابُ، فأخذَ بيدِهِ فأدخلَهُ على عثمانَ، فَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى الطِّنْفِسَةِ، وقَالَ له: حَاجَتَكَ؟

فَذَكَرَ له حَاجَتَهُ فَقَضَاهَا، ثم قَالَ ما ذَكَرْتُ حَاجَتَكَ حَتَّى كَانَت السَّاعَةَ، وقال: مَا كَانَتْ لَكَ مِن حَاجَةٍ فَأْتِنَا.

ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ فَلَقِي عُثْمَانَ بْنَ حُنَيْفٍ، فقال له: جزاكَ اللهُ خيرًا، ما كان ينظرُ في حاجتي، ولا يلتفتُ إليَّ حتى كلَّمْتَه فيَّ، فقال عثمانُ بنُ حُنَيف: ما كلَّمتُه ولكني سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَاءَه ضَرِيرٌ فَشَكَى إِلَيْهِ ذَهَابَ بَصَرِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوَتَصْبِر؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِي قَائِدٌ وَقَدْ شَقَّ عَلَيَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ائْتِ الْمِيضَأَةَ فَتَوَضَّأْ، ثُمَّ صَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثم قلِ اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ، وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّي مُحَمَّدٍ، نَبِيَّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّك، فَيجْلِي لي بَصَرِي، اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ وَشَفِّعْنِي فِي نَفْسِي، فقَالَ عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ: فَوَاللَّهِ مَا تَفَرَّقْنَا وَطَالَ بِنَا الْحَدِيثُ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْنَا الرَّجُلُ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ ضرر قَطُّ[1].

تم كتابُ التعازي والمراثي بأسْره، والحمدُ لله ربِّ العالمين وصلَّى اللهُ على سيِّدنا محمدٍ وآلِه وسلَّم. وكان الفراغُ منه في العشرِ الأوسط من جمادى الآخرة من سنة ثلاث وستين وخمسمائة.

---

[1] صَحَّحَهُ شُعَيْب الأَرْنَؤُوط في المسْنَدِ، ورَوَاهُ الإِمَامُ الطَّبَرَانِيُّ في الصَّغِيرِ وَاللَّفْظُ لَه، وابن خزيمة، والحاكم في المستدرك.

المراجع

وهي منثورة في الهوامش من هذا الكتاب

وقد اعتمدتُ في عملي هذا على نسخة المكتبة الشاملة – عن طبعة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع بتحقيق إبراهيم محمد حسن الجمل

[ترقيم الكتاب موافق للمطبوع]

للمراسلة والتواصل:

محمد علي حسين

mali_111@hotmail.com

الكويت تليفون 98866903

مصر تليفون 01099694140

تعريف

- محمد علي حسين (أبو زهرة)
- لغوي وباحث في التراث الإسلامي
- موجِّه للغة العربية بدولة الكويت – مواليد نبروه – مصر ١٩٦٢م
- مهتم بنشر التراث في سلسلة صدر منها اثنا عشر عملاً، جمعاً ودراسة واختصاراً وتحقيقاً، هي: (محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني – الداء والدواء لابن القيم – أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي – النساء لابن قتيبة – بهجة المجالس لابن عبد البر – تهذيب تاريخ ابن خياط – مختصر زاد المعاد – قصة الإيمان منذ آدم حتى محمد – العواصم من القواصم لابن العربي – حقوق آل البيت في مفهوم ابن تيمية – الشواهد الشعرية في معجم البلدان لياقوت الحموي – مختصر فضائل القرآن لأبي عبيد) إضافة إلى كتابين آخرين خارج السلسلة هما: علماء معاصرون نصروا الإسلام، وكتاب "غرباء". وكلها كتب منشورة على مواقع نشر الكتب الإلكترونية مثل موقع: نور، وموقع فولة بوك (في صفحة: محمد علي أبو زهرة).